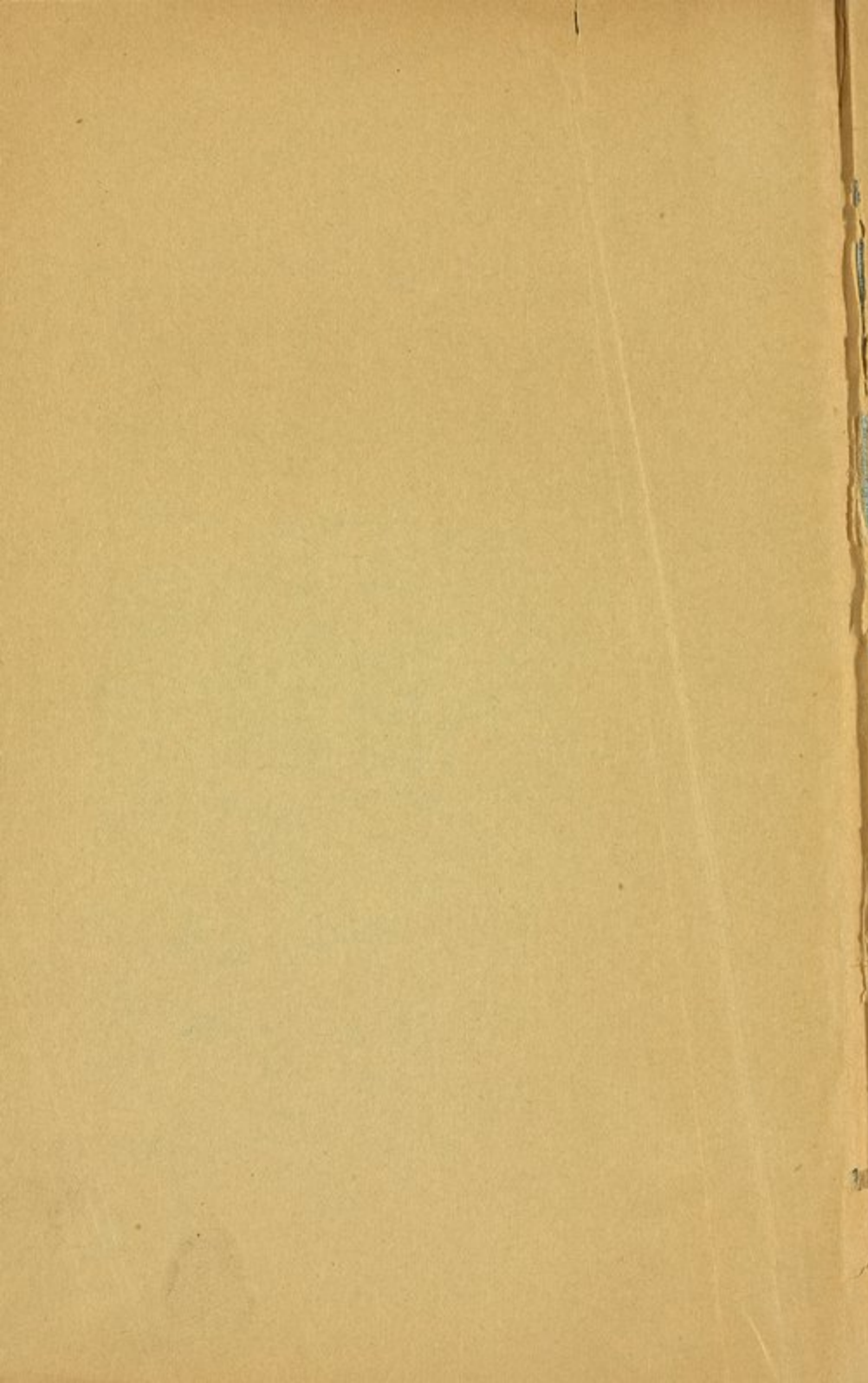
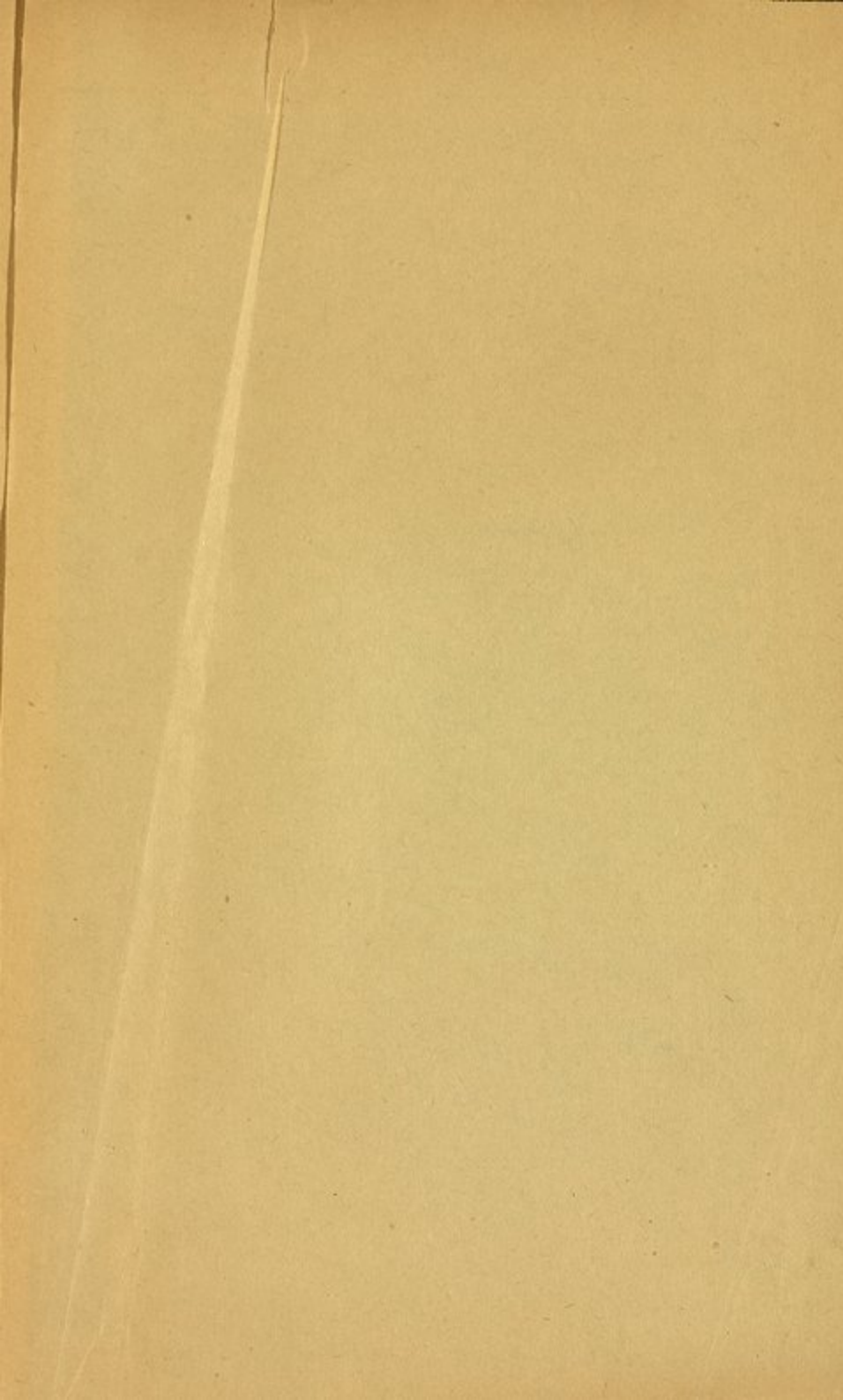


THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY





مَجَالِي الْعُرْدِ

لِكِتَابِ الْقُرْبَانِ الشَّامِ

وهو يشتمل على كل مآراق من المقالات المفيدة الشائقة . واطلب النفيسة
الرائقة . التي يستفيد منها الطالب ويستعين بها كل كاتب . مدينية
بديع اشهر كتاب العصر . الذين لهم علينا الفضل ويحق لنا بهم الفخر

﴿ جمعه ﴾

يُوسُفُ صَفِيحَا

وهو يباع في مكتبته المسماة

مَكْتَبَةُ الْمَلِكِ الشَّرِيفِ

« الكاتبة شرقي ساحة البرج على طريق النهر »

في بيروت

طبع ثانية بالمطبعة العثمانية في بعدا (لبنان) سنة ١٩٠٦

P J

7677

.59

مقدمة

لما كان روح العصر يحدو شبابه الابداء الى تصفح نقات بلغاء
الكتاب والمترسلين لانها سفر يحدث عن حاجيات العلم ويبحث عن
اسباب العمران وكانت مكتبتنا « المدارس » قد آلت على نفسها ان تحف
بيوت العلم بما يتقف عقول بنينا وفي بجاجاتهم المدرسية مما اوقفنا النفس
له حسرنا عن عضد الهمة بعد ان استأذنا كثيراً من كتابنا الافاضل
وجمعنا من بنات افكارهم ونقات اقلامهم ما ديجنا به صفحات كتابنا
الذي دعونه :

✽ مجالي الفرر لكتاب القرن التاسع عشر ✽

بيد اننا لم نستطع الى تبويه سيلاً نظراً لتلون المواضيع وتنوعها واختلاف
العبارات وطبقات الانشاء فيها . وذلك لا يقض من قدر الكتاب ولا
يكون مدرجةً للانقباد عليه . اذ المقصود نظم شذرات النثر في سلك سطور
الطروس اغتناماً للفوائد المتنوعة على اختلاف طبقاتها . - ولعدم مقدرتنا
على الحكم بترتيب طبقات البلاغة والانشاء تركنا الامر على علاته مع
الاشارة الى كاتب المقالة مصرحاً باسمه

اما الانقلاب فمحفوفة

وقد عقدنا النية على توسيع نطاقه الى اجزاء متعددة ولا سيما

إذا حاز القبول لدى ارباب الفضل من رؤساء المدارس ونخبة آل
 العلم الكرام

ولا يخفى ان عضد مثل هذا يدفع الى الاقدام والسعي وراء تعزيز
 العلم ومعاودة مما يحمل الطلبة على النقاط فرائده وادخار منافعه في خزائن
 عقولهم اشارة الى القول المشهور « لكل عصر رجال » ولدينا من مجموعات
 الاقدمين كثير . اهمه الكتاب المزدان بمجموع افكارهم نظماً ونثراً المشهور
 بين الادباء ألا وهو « مجاني الادب » الذي اغنانا جامعه الفاضل عن ان
 نظرق هذا الباب من التاليف اذ جمع فاعوى من المطالب الادبية على
 اختلافها مما لا يحيط به وصف فصرفنا همنا الى جمع آثار فضلاء القرن
 التاسع عشر الحافل بانواع العلوم والاخرعات والفنون على اختلافها
 فتكون الفائدة متنوعة اذ يستفيد المطالع ابحاثاً عصرية تاريخية ادبية
 فنية الخ الخ

فالرجو من ادبائنا اصحاب النهضة العلمية ان يوازونا بافاداتهم بهذا
 الصدد وما يرتأونه في مجموعتنا من الافكار لتكون في الطبعة الآتية وافية
 بالعرض . ومن لم نذكر من قلمه شيئاً في هذا الجزء فلا يفوتنا تدييج صفحاته
 بمقالاته الشائقة في الاجزاء التالية . والله ولي التوفيق

يوسف صفيح

صناعة الكتابة

« لاديب بك اسحق »

الدرس الاول

حد الكتابة واقسامها

الكتابة صناعة موضوعها التعبير عن الخاطر برسوم معلومة . وفي اللغة الجمع وهي مصدر قولهم كتب يكتب كتابة وكتاباً ومنه قيل لجماعة الخليل كتيبة . ووجه المناسبة بين المعنيين ان الكاتب يكتب اي يجمع الحروف والالفاظ لتأدية ما يميزه بباله من المعاني وما يشعر به من الاتفعالات

وقد جعلها المتقدمون اقساماً شتى بقدر مواضعها والخطط الدائرة عليها في ايامهم فقالوا كتابة الحسبة وكتابة المال وكتابة الانشاء وهلمّ جرّاً وجعلوا تحت كل من هذه الاقسام فروعاً كثيرة يتيه الذهن في حدودها على انهم توسعوا في معنى الانشاء حتى اطلقه الكثير على مجمل تلك الاقسام فقالوا صناعة الانشاء وهم يريدون الكتابة على الاطلاق

والانشاء في اللغة مصدر قولهم انشأ الشيء ينشئه اذا ابتداءً واخترعه فلعل السبب في اطلاق لفظه على الكتابة ان اختراع المعاني هو الشرط الاول في اتقان هذه الصناعة كما سيحيى في بابها . وهو اي الانشاء عند كتاب لغتنا الشريفة نوعان مختلفان وهما النثر والسمع ولكل منهما اصول معلومة وقواعد محدودة وصفات مميزات تذكر في مواضعها تفصيلاً

الدرس الثاني

النثر والسمع

النثر هو الكلام المطلق المرسل عفو القرينة بلا كلفة ولا صنعة الا ما يكون من وضع الكلام في مواضعه واشار ما يألفه السمع والطبع منه فهو من هذا الوجه مقدم على سائر انواع الكلام بل هو الاصل في الانشاء وما سواه فرع منه فانه طبيعي اصيل وما دونه صناعي حادث والاصل في الطبيعة لا محالة . يدل على

ذلك ان هذا الكلام المتقفي الذي يسمونه سجعاً لا يكاد يوجد في غير اللسان العربي فلو كان طبيعياً لوجب ان يكون في جميع اللغات او في المعدودة منها اصولاً لا اقل

اما السجع فهو الكلام المتقفي على حد الارجوزة من الشعر الا انه غير موزون ولقد سمي بذلك استعارة من قولهم سجع الحمام اذا هدر وسجعت الناقة اذا مدت حنينها على جهة واحدة . وهو وان حسن في بعض الاماكن كصدور الخطب ومقاطع الكلام بما فيه من تناسب الالفاظ ومماثل الفواصل التي يحسن وقعها في الاسماع الا انه في الجملة دون المرسل البليغ بهجة وصفاء وموافقة لمقضى الحال لتقيد الكاتب فيه بلفظ لا بد منه او من اخيه فلا ينبغي استعماله في بيان الحقائق العلمية ولا في ايضاح الاصول الادبية ولا في غير ذلك من مواضع النقد والسرد الا اذا جاء عفواً غير مقصود بالذات

الدرس الثالث

لابن خلدون فيما نحن بصدده كلامٌ جدير بالنظر والتأمل والاعتبار وهو قوله . السجع هو الكلام الذي يوثق به قطعاً ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة والمرسل هو الذي يطلق الكلام فيه اطلاقاً ولا يقطع اجزاء بل يرسل ارسالاً من غير تقيد بقافية ولا غيرها وقد استعمل المتأخرون اساليب الشعر وموازينه في المنشور من كثرة الاسجاع والتزام النقفية وتقديم النسب بين يدي الاغراض وصار هذا المنشور اذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا الا في الوزن . واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في الخطابات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنشور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الاساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً اهل المشرق وصارت الخطابات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الاسلوب الذي اشرنا اليه وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقضى الحال من احوال المخاطب والمخاطب . وهذا الفن المنشور المتقفي ادخل المتأخرون فيه اساليب الشعر فوجب ان تنزه الخطابات السلطانية عنه اذا ساليب الشعر تنافها اللوزعية وخلط الجذب بالهزل والاطناب في الاوصاف وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة الى ذلك في الخطاب والتزام

التقنية أيضاً من اللوذة والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك
 بالترغيب والترهيب ينافي ذلك وبيان والمحمود في المخاطبات السلطانية المرسل وهو
 اطلاق الكلام وارساله من غير تسبيح الا في الاقل النادر وحيث ترسله الملكة
 ارسالا من غير تكلف له اما اجراؤها على هذا النحو الذي هو من اساليب الشعر
 فمذموم وما حمل عليه اهل العصر الا استيلاء العجمة على سنتهم وقصورهم لذلك عن
 اعطاء الكلام حقه من مطابقته لمتضى الحال فعمجوا عن الكلام المرسل واولعوا بهذا
 السجع يلقون به ما تفهم من تطبيق الكلام على المقصود ويجبرونه بذلك القدر من
 التزيين بالاسجاع والالاقاب حتى انهم يخلون بالاعراب والتصريف في الكلمات اذا
 دخلت لهم في تجنيس او مطابقة لا يجتمعان مع صحتها . اه

الدرس الرابع

هذه نموذجات من الكلام المرسل والسجع نوردها تذكراً وبيانا . فن اطائب
 ذلك قول ابن خلدون . « ان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها اسرع اليها
 الفناء والسبب في ذلك والله اعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل اذا ملك امرها
 عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الامل ويضعف التناسل .
 والاعتماد انما هو عن جدّة الامل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية فاذا
 ذهب الامل بالتكاسل وذهب ما يدعوا اليه من الاحوال وكانت العصبية ذاهبة
 بالقلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسيهم ومساعيمهم وعمجوا عن
 المدافعة عن انفسهم بما خضع الغلب من شوكتهم فاصبحوا مغلبين لكل متغلب ظهمة
 لكل آكل » . اه

وجل كلام ابن خلدون ولا سيما في مقدمة تاريخه على هذا النحو من السلامة
 ومناعة التركيب . ومن تبلغ الكلام المرسل قول علي ابن الرماني في وصف البلاغة
 « البلاغة ما حط التكلف عنه وبني على التبيين وكانت الفائدة اذلب عليه من القافية
 وجمع سهولة المخرج مع قرب المتناول وعضوبة اللفظ مع رشاقة المعنى »
 ومن مستكمل البلاغة قول الفرزدق لحسين بن علي رضي الله عنها وقد سأله
 عن الناس في العراق عند المسير اليه فقال : القلوب معك والسيوف عليك والنصر
 في السماء

ومن جيد السجع مقامات الامام الحريري ورسائل بديع الزمان العمذاني وقطع

كثيرة للقاضي الفاضل وحيلة غير يسيرة لكتاب مصر من بعدهم الى اقراض
الدولة الفاطمية

ولم يدخل هذا السجع كلام القدماء في الجاهلية وصدر الاسلام الا ما كان
منه عفو التريجة فواصل غير مقفاة او ما يعزى الى الكهان والمشعوذين مما يراد به
الايهام والابهام فلما استولت العجمة على اللسان وضعفت قوة الاختراع في الازهان
سرى داءه في المكاتبة الى هذا العهد فعدل الكتاب عن الكلام الفحل واللفظ
الساذج والاسلوب الطبيعي الى هذه الاسجاع الملققة البالية يتناولونها خلفاً عن سلف
ويطيلون بها الكلام بلا طائل سترًا لقصورهم في ابتداء المعاني وايضاح وقائع الحال
من طريق البلاغة والايجاز حتى صارت من العادات وحصلت بين الملكات فدخلت
في المراسلات الاخوانية والمكاتبات عن الملوك والامراء في عظام الامور وسقط
من ورائها الكلام المرسل الى غاية السفالة والركاكة فصار ما يكتب منه رطانة يفهمها
بعض الجهلاء وتمض عن الراسخين في العلم

قال ابن الاصبغ لا تجعل كلامك كله مبنياً على السجع فتظهر عليه الكلفة ويتبين
فيه اثر المشقة وتتكلف لاجل السجع ارتكاب المعنى الساقط واللفظ النازل وربما
استدعيت كلمة للقطع رغبة في السجع فجاءت نافرة من اخوانها قلقة في مكانها بل اصرف
كل النظر الى تجويد الالفاظ وصحة المعاني واجهد في تقويم المباني فان جاء الكلام
مجموعاً عفواً من غير قصد وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان وان عز ذلك
فاتركه وان اختلفت اسجاعه وتباينت في التفقيد مقاطعه فقد كان المتقدمون لا يحتفلون
بسجع جملة ولا ينقصونه الا ما اتت به الفصاحة في اثناء الكلام واتفق من غير قصد
ولا اكتساب وانما كانت كلماتهم متوازنة والفاظهم متساوية ومعانيهم لاصقة وعباراتهم
رائقة وفصولهم متقابلة وجل كلامهم متماثلة . اه

الدرس الخامس

صفات الكاتب وما يحتاج اليه

قد اشترط بعض المتقدمين في الكاتب شروطاً كثيرة منها ما يلزم في كل
انسان على الاطلاق وفي كل ذي خدمة عمومية بالجملة ومنها يخص بالكاتب ولكن
على ذلك العهد فالضرب الاول خارج عن موضوعنا لدخوله في علم الاخلاق والثاني
من مطالب التاريخ اما شرطنا على الكاتب فهو من جهة الادب الاجتهاد والثبات

والاستقامة ورعاية الحقوق وحفظ الواجبات وموَدَى قول الحكيم^١ الفرنسي الموجه
الى كل اناسي

ذاتك احفظ وتفقّه واعتدل واحي للناس ليحي الناس لك

ومن جهة الكتابة بالذات ان يعلم اصول اللغة ليصم لسانه عن الخطاء ما امكنت
العصمة لانسان ويحفظ قطعة كافية من العلوم والاداب خصوصاً ما يتعلق تَوْأاً بمخطة
الكتابة ليكون على بينة من الامر فيما يقول اما الكتابة العالية البالغة حد العالمية
فلا تقف عند حد ولا يحصرها شرط فانها في العلم الذي يعرف اوله ولا يعرف اخره.
وليست في شيء مما نحن بصدده وانما شأننا بيان صناعة الكتابة وما يشترط فيها
من حيث ادخال المعاني في الافهام من اقرب واصح وجوه الكلام وهذا اوان الشروع
في ذلك بعون الله

الدرس السادس

الكتابة كما تقدم في التعريف صناعة يراد بها التعبير عن الخواطر والمحسوسات
بوضع صحيح واسلوب صريح فهي ذات ثلاثة اركان : الخاطر المراد ابضاحه وهو
الانشاء والوضع الذي يبدو به ذلك الابضاح وهو البيان والكيفية التي يحصل بها
ذلك هي الاسلوب

فالانشاء او الاختراع هو الخاطر الذي يجده الكاتب ويقف فكره عليه
فيجمله موضوع كتابته فهو من هذا الوجه قوة من الفكر بايجاد الخاطر والموضوع
والنصاحة هي الحكاية او التأثير او الاقناع ولا بد في كل مكتوب من احدى هذه
الثلاث وتد يجتمعن به والحكاية تحصل ببيان الواقعات والتاثير بالصور المؤثرة
والاقناع بالبراهين

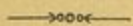
والوضع هو تنسيق اقسام الموضوع فانه لا يكفي ان يكون هناك خاطر بل لا
بد من ملاحظة النظام في كيفية ابضاحه فانه لا جلاء بلا تنسيق ويفقد الغرض
وعوضاً من الافادة والاعجاب والتاثير والاقناع بتعب القارئ عبثاً وقيل الكتابة
لا بد من وضع رسم ولورؤوس اقلام فانه اذا لم يوضع الرسم يرتبك الذكي ولا يعرف
كيف يبتدىء وكذلك يدخل في تفاصيل مملّة ويضيع المسألة المهمة المقصودة بالذات
ويصير مظلماً كلما اجتهد في الايضاح ومن اين له ان قارئه يصبرون الى ان يعود
ليهتدي سبيله وفي الكتابة القصيرة لا يستغنى البتة عن هذا الرسم ولكن العادة تجعله

مصدرًا في الذهن على الفور بحيث ان الكاتب يسلك سبيله المعلوم بلا دليل وكيف
كان في التنسيق ثلاثة امور ضرورية وحدة الموضوع وتلاحم الاجزاء
واستقلالها التدريجي

والاسلوب هو العبارة التي توضح بها الفكر ولذلك يقال لكل انسان اسلوب وهي
تتعلق بانتقاء اللفظ وكيفية سرده . قال فولتير : الاشياء التي نقال تؤثر اقل من
كيفية ادائها فان جميع الناس يتقاربون في الافكار التي هي بدرك كل انسان والفرق
في كيفية التعبير فانها تجعل الاشياء معتادة غريبة وتقوي الضعيفة وتجسم البسيط
وبلا حسن الاسلوب لا يمكن ان يوجد كتاب جيد في اي موضوع

ويقول غيره : حسن الكتابة فيه حسن الفكر وحسن الشعور وحسن التعبير
فيقتضي الذكاء والذوق . والاسلوب يتضمن استعمال القوى العقلية جميعاً ولا يبقى
من الكتب الا ما كتب جيداً فان الاختراعات والاكتشافات لا يتخلد بها الكتاب
ما لم يكن حسن العبارة مكتوباً بدوق ونبالة

والاسلوب وهو النفس هو الدال بالعقل على صفة الكاتب حتى قيل انه مظهر
الكاتب لتعلقه بقوى العقل والنفس وحيث ان لكل انسان صفات تميزه عن غيره
فلذلك اختلفت الاساليب والاتقاس



الانشاء

« للشيخ خليل اليازجي »

الانشاء ملكة راسخة في النفس يعين عليها سلامة الذوق وطول المزاولة .
والناس فيها طبقات متفاوتة مرجعها في الاكثر الى بدهاء الخاطر وذكاء البصيرة
وغزارة المادة . وله احكام اذا راعاها الجيد نبع فيه واذا راعاها الضعيف استأنس
بها فاعانتة على الجري فيه . وقبل البحث في تلك الاحكام يحسن ان نهد لها بما يجعل
به مفصلاتها او تشرح متونها فنقول

لا يخفى ان كل مجموع انما يتألف من مفردات . وان بين كل مفرد وآخر
في ذلك المجموع نسبة ما . وتلك النسبة لا بد ان تكون اما موافقة او مخالفة . وعلى
هاتين النسبتين ترتب حالة المجموع من حيث حسنه وقبحه وتلاؤمه وتنافره ونحو ذلك

من حالاته . واطهر ما يمثل به على ذلك الالوان فانه قد يكون بين يدك رقعتان
 مألوفتان بالوان واحدة فتستحسن احدها على الاخرى وليس ثم من سبب الا التلاؤم
 بين الوان الاولى . والتنافر بين الوان الثانية . ولقد ترى رقعة اخرى فنقول لو
 وضع مكان هذا اللون منها اللون الفلاني لكاف اليق او لزال عيها . وقس على
 ذلك الاصوات الموسيقية والطعوم وسائر المركبات على الاطلاق . اذن فاية
 الاحكام في كل مركب انما هي الملازمة بين مفرداته وانما ذلك من قبيل وضع
 الشيء في محله

ثم ان لكل مفرد في المركب فضلاً عماله من الاعتبار النسبي اعتباراً آخر
 ذاتياً من حيث حسنه وقيمه ينظر فيه اليه مجرداً . فتمت استوفى المفرد حسنه الذاتي
 ثم قرن بما يتلازم وايه فهناك غاية الكمال في المركب وتام الاحكام
 اذا عرفت هذا وعرفت ان العبارة انما هي مجموع مفردات الكلمات عرفت ان
 حسن العبارة وطلاوتها مترتبان على التلاؤم بين كلماتها بعد استيفاء تلك الكلمات
 حقها من الفصاحة على ما هو مقرر في علم البيان . وتبين لك وجه حسن الانشاء
 من اين يتاتي وهان عليك ان تعرف سبب ضعفه وقوته وصحته وفساده . ولكن يبقى
 عليك ان تعرف موضع الحسن والقيح منه وتعين محل الصحة والفساد فيه وما يتلازم
 وما يتنافر من الكلمات . وهي غاية بعيدة المنال صعبة المسلك موكولة الى الذوق .
 واحسن وسيلة لاقتباس هذه المعرفة دراسة اسفار الكتبة المجيدين ومطالعة انقاس
 البلغاء والافتداء بهم والتخدي لهم على ما سياتي ذكره

فاذا وضع الكاتب نفسه من الكتابة موضع المصور من التصوير علم ان اول
 ما ينبغي له ان يراعيه في كلامه انما هو حسن اختيار المفردات على ما رسمه علماء
 البيان بان تكون سلسة على السمع سهلة على اللسان مستوفية احكامها اللغوية والنحوية
 والبيانية وغيرها . وان لا ينحو نحو الكلم المجهورة الغريبة الا اذا اضطر الى ذلك
 للافتقار اليها ويترتب عليه حينئذ ان يضعها موضعاً لا يشكل جهلها فيه بالمعنى ولا يقف
 دونه . وذلك يتم بان تشفع بمرادف لها او تنصب قرينة في العبارة تدل عليها
 وتكون كالمفسرة لها . وهو استعمال يتخير به بعض الكتبة بقصد به ادراج كلمة ضمن
 الكلام المستعمل للاحتياج اليها او لحسن وقعها فيشفعها بما ذكرنا من الدلائل على
 معناها فلا يحتاج قارئها الى التفطيش عنها لتفسيرها فيستفيدا في اثناء العبارة غنيمة

باردة ويكون في المقالة المدرجة تلك الكلمات فيها فائدة اخرى لغوية غير المقصود
من المقالة وردت عفواً في عرض الكلام . وهي طريقة حسنة في الكتابة ووسيلة
قوية لنقل مفردات اللغة المنقر اليها من بطون الصحف الى رؤوس الافلام واطراف
الاسنة توسيعاً لنطاق اللغة المستعملة عند الكتاب وتحسيناً للكلام وتزييناً له بما في
تلك الالفاظ من الطلاوة التي اقلها طلاوة الجديد وترفعاً عن الرطانة بالكلم
الاجمعية لمعانٍ ومسميات حديثة او قديمة يظن ان اللغة قد دخلت عن الفاظ لها
وهي مشحونة بها

كالبجر يقذف بالزمال وانما أبقى الآليء ضمنه للغائص

ومتى اعد الكاتب لديه من المفردات ما يعده الباني من الحجارة المنقاة للبناء
مما استوفى هذه الشروط اخذ في الجمع بين تلك المفردات والملازمة لها بحيث لا
يقع بينها ما يقع بين حروف في الكلمة من التنافر او غيره مما مرّ لان منزلة الكلمات
من العبارة منزلة الحروف من الكلمة فلا بد ان يراعى هنا ما يراعى هناك

ومتى انتهى الى العبارات عمد لها لتدبرها تدبر المفردات بأن ميز بين ضعيفها
وقويها ومبتدئها وغريبها فلم يتغير الوجه المرجوحة من التراكيب ولا الضعيفة من
الاساليب . وتجنب اعادة الكلمة المفردة بعينها في العبارة التجاورة الا لكلمة كال تأكيد
وتكرار صورة واحدة من التعبير في اثناء الكلام على ما مرّ . فلا بد له حينئذ
من حفظ كثير من مترادفات التعبيرات ومتشابهات الصور مع تغاير اللفظ والتراكيب
نظير حفظه من المفردات ولكي يستخدمها فضلاً عن ذلك فيما تقتضيه بعض مقاماته
عند الاطناب والامهات وتعزيز الكلام وتقويته

ومن الاحكام اللفظية ان يعتمد الكاتب السهولة في التعبير ولا يميل فيه الى
جبهة الاغراب والتعقيد اعتقاداً انه انما يترفع بنفسه عن اتباع الوجوه المألوفة والاساليب
المتعارفة ارادة ان يتدع طرقاً من الكلام يحدتها لنفسه لان السهولة مع الاجادة
خير من الاغراب وبينه وبين الاحسان مراحل . وفضل طريقة لتسهيل العبارات
واسلوب الكلام ان يتصور الكاتب نفسه يتحدث بما يريد ان يكتبه ويتبع نسق
حديثه الطبيعي واسلوبه لا يجهد عنه الا عند ما تدعو الى ذلك اداب اللغة الفصحى
فقط . فيأتي الكلام حينئذ طبيعياً مالوفاً لا تجبه الاسماع ولا تنفر منه الطباع .
وهذا الامر شديد الاهمية كثير الوقوع فانا كثيراً ما نقرأ لبعض الكتبة قصة او

حديثاً تكون قد سمعنا منه يتحدث به فنتنى لو كتبه كما نطق به ولو كان باللغة العامة طمعاً في حسن اسلوبه وطلاوته وفراراً من التعقيد والتشويش حتى يحول ذلك بعض الاحيان دون فهم المعنى

ولا بد للكاتب قبل بري قلمه والالانة دواته من ان يترشح للكتابة زمناً طويلاً يصرفه في مطالعة كتب المنشئين البلغاء كالجاحظ وابن المقفع والبديع والخوارزمي وابن خلدون وغيرهم ويكثر من هذه المطالعات وامثالها حتى تنطبع فيه ملكتهم ويقوى على تحديهم ومحاكلتهم فيتمدد حفظ اساليبهم في ضروب التعبير ارادة ان يستخدم نسق عباراتهم فيما لديه من الكلام لا ان يستخدمها هي بعينها كما يتوهم البعض . ولا يحسب ان في ذلك وضعاً منه او خطأ لقمه فان الكاتب مهما ارتفعت منزلته من البلاغة واتسع صدره في مجال الكلام ليحجز عن اختلاق التراكيب الجديدة واستنباط الاساليب المبتكرة آتياً بغير ما اتى به الاولون من ارباب الافلام الذين تناهوا البلاغة وضروها والبراعة وطرقها فلم يغادروا ثم من متردماً . ولا يعد اتباعهم في هذا والالتزام بهم سرقة والا كان أكثر الكتابة لوصفاً خطافين . لان الكلام كاللباس للعاني والصور مهما كثرت لا تزال قليلة بازاء المعاني . ولا بد للكاتب ايضاً من حفظ الكثير من الشعر ولا سيما ما يجري منه تجري المثل وما يحتاج اليه في مواطن الكلام فان لذلك منافع جمة للكاتب من تزيين كلامه وثقوته حتى لقد بقي الكلام ناقصاً ضعيفاً مهما اجتهدت في اتمامه وثقوته حتى تشفعه بيت من الشعر يجعل به مفصلاً ويفصل بجملة او يضرب مثلاً عليه او شاهداً له ونحو ذلك . ومن الكتاب من كان اذا بلغ من الكلام الى حيث يحتاج فيه الى ايراد شيء من الشعر على سبيل الاستشهاد او غيره مما مر ولم يجد في محفوظه ما يناسب المقام ينظم له من عنده ما يتمثل به مخرجاً اياه اخراج كلام مقول . ولذلك فائدة اخرى وهي ما يسمى عندهم بحل المنظوم وهو ان يعتمد الكاتب الى البيت من الشعر فيمله الى نثر ويدنجه في كلامه تفنناً في الكلام وتزييناً له وهي طريقة كثير من كبراء فحول الكتاب كابن زيدون والبديع وغيرها

وبقي امرٌ ينظر فيه الى الكلام على العموم وهو ان يكون طباق قولهم لكل مقام مقال فمن المعلوم ان الكلام طبقات بعضها فوق بعض فينبغي ان يخاطب كل طبقة بالطبقة التي تليق به وان يختار لكل معنى من الكلام طبقة كذلك . ففتى خوطب

العلماء من اهل العربية والمتأقون من ار باب الترسل ونحول الائنآة وحب ان يختار في خطابهم الكلام الجزل والاساليب البليغة واللفظ المنتم بالاستعارات والكنائيات وسائر فنون الهاز . وكذلك اذا كان الكلام في معنى شريف يقصد فيه المبالغة والتزيين كالمذح والتأبين ووصف العظمة والابهة والنصر وغير ذلك مما يذهب فيه مذهب الشعر . ومن هذا القبيل الخطب التي تصدر بها بعض التصانيف الانيقة وانشاء المقامات واشباهها . ومتى خوطب عامة الناس والاميون منهم خاصة وحب ان تختار الالفاظ المأنوسة والاساليب السهلة والتراكيب المشهورة وذلك كما في المواعظ والخطب العمومية والاخبار السياسية واشباهها ولا بد في مثل هذا من اجتناب الاليجاز والتعميد والتزام الحقيقة دون الهاز والاستعارة الا في ما اشتهر امره وصار بديهي الفهم واذا لم يمكن الالفهام الا باللفظ المبثذل فهو خير في مثل هذه الحال من الفصيح والا فالفصيح اولى

ومما يلحق بذلك ان يطابق المكاتب بين المعاني والالفاظ من حيث الالطاب والاليجاز والحقيقة والهاز ويتغير الالفاظ الرقيقة والجزلة فيعطي لكل معنى ما يصلح له من ذلك على ما نص عليه عملاء البيان وجرت عليه فحول الكلام الى غير ذلك مما لا تحيط به قاندة ولا يقع تحت قانون لشعب مسالكه وتفاوت وجوهه ومرجهه اخيراً الى الذوق السليم وهو الحاكم في اكثر القضايا والله اعلم

الخطابة

وهو الخطاب الذي القاه عزتوا برهم بك الاسود مساء الثلاثاء في ٢٤ نيسان

سنة ١٨٩٤ في منتدى مدرسة البنات الاميركية في بيروت

اجابة لطلب عمدة المدرسة

قال بعد المقدمة :

الخطابة في اللغة مصدر خطب وعند المنطيقين والحكماء هي القياس المؤلف من المنظومات التي يحكمها حكماً راجحاً اتباعاً لغالب الظن مع تجويز بطلانه . او من المقبولات وهي الاراء التي يوقع التصديق الجازم صدورهما عن لا شبهة في صدقه مع كونها قابلة الانكار بنفسها ويسمى قياساً خطاياً والغرض منه ترغيب الناس فيما

ينفعهم . وقد جعل احد المتقدمين رأس الخطابة الطبع وعمودها الدراية وحليها
الاعراب وبهاءها تحبير اللفظ

اما اركانها فاهمها الافكار والاساليب وهي كما لا يخفى كالكتابة وصحف الاخبار
اذ تفيد السامعين علم ما جهله بعضهم وتزيل شك ما علمه البعض الاخر بما يقوم بها
من الادلة الساطعة . وترشدنا البديهة الى ان المرء مما اتسع نطاق معارفه وتسامت
مداركه وتعلت قواه العقلية لا يستطيع ان يحيط بكل الامور علماً بل يظلم مفتقراً
الى من يرشده الى بعض الحقائق . ولم تقتصر فوائدها على ما مر بسطه بل انها تفيد
ايضاً ما هي السياسة والعلوم والفنون والتجارة والزراعة والصناعة وتبسط تاريخ المتقدمين
وسير مشاهير الرجال وما اتوا من الاعمال الجليلة ولكنها تمتاز عنهما بكونها تتناول
حاستي النظر والسمع وهما تقتصران على الحاسة الاولى منها ولهذا تكون اشد تقيراً
للمعاني في الافهام لدخولها فيها من باين واسرع تنبيهاً للخواطر لان السامع مهما كان
خاملاً لا بد ان يقع صوت الخطيب منه موقع التأثير ويفعل اللسان ما لا يفعل
السنان . وهي على اختلاف اساليب الخطباء وتفاوت درجات معارفهم وافكارهم تعود
الى غاية واحدة كالغزف بالات الطرب التي لا يخرج عن مقصد واحد على اختلاف
نغماتها وتفاوت درجاتها

اما غايتها فهي اطلاق عنان المتروطين وكبح شكية الجامحين وتقويم ما تأوّد
من الصفات وخضد ما تقذ من الاشواك . ولهذا قد امتدت بواسق مجدها وارفع
شأنها واحلمها ذوو الفضل منهم محلاً مذكوراً فاتخذوها في المعابد مشكاة للهداية
ومصباحاً للفضيلة وفي المدارس سراجاً يبين الالباب ومروّضاً للاخلاق وفي الهيئات
الاجتماعية مهازاً لنوي الاظافر الخادشة ومحركاً للجد وراء ما يرفع شأن الوطنية
ويعلي كلمة الانسانية الى غير ذلك من الغايات السامية . ولو لم تكن أكثر تأثيراً في
الاذهان واثبت للخواطر من اقرب الطرق بما يتصل اليه الخطيب من حسن التعبير
والاسلوب الصحيح لاكتفوا عنها بما وعته صدور الاوراق وكفوا الخطباء مؤنة
المشاق العظيمة . لانه مما كان الخطيب جسوراً ومدججاً بأسلحة الخطابة العلمية
والعقلية والنقلية لا بد ان تحف به صعوبات خارج دفعها عن حد امكانه . فما من
خطيب سوى النزر اليسير يقوى على دفع الاضطراب الذي يستولي عليه عند نهوضه
للخطابة حيث يكون بمثابة لدى الالوف المؤلفة من الناس السائد بينهم الهدوء

والسكينة عرضةً تهتدها من الخواف خشية التقصير والسقوط وجود القرينة وهدفاً
لاسهم انتقادات سامعية الذين يتعذر عليه أن يرضيهم جميعاً لما هنالك من تباين
الأفكار والغايات

وهنا يليق بنا أن نلقي على مسامعكم أيها الذوات الكرام الاسئلة الآتية وهي
ما هو الباعث ياترى على هذه الصعوبات
ولماذا لا يكون مركز الخطيب امام المئة مثلاً مركزه امام الواحد ومقامه لدى
لثيف الاصدقاء مقامه لدى سواهم

ولماذا يروعه اجتماعه بلفيف لا يروعه الاجتماع بكل واحد منهم على حدة
ولماذا يتعلم بعض الخطباء بالخطابة وهم ممن يجرون ذيل الفصاحة على سخبان وائل
ولماذا يستطيع البعض ان يستنيزوا بالاحاديث الطويلة العريضة وهم جالسون
ويفقدون هذه المزية اذا اتصبوا على اقدامهم

ولماذا يؤثر بعض الخطباء الانثناء في اثناء الخطابة على الوقوف عمودياً
فكأنهم يحسبون ما من احد يعلم سبباً لهذه الصفات غير ذوبها لاخبارهم

انفسهم
قيل ان احد الخطباء خاتته الذاكرة بعد انتصابه في منبر الخطابة تجلس قليلاً
ثم نهض قائلاً اقسم بالسماء ان امرء عذاب اريد الحاقه بالاعدائي هو وقوفه حيث
انا واقف الان

وحكي ان طبيباً بعد ان خطب في المعرقات وفوائدها وبين انواعها بحسب
تعريف الكتب الطبية قال وقد فات المؤلفين الافاضل ان يجعلوا من جملتها بل اهمها
الوقوف بمثل هذا الموقف الرهيب (وهذا العلاج لا تستفيد منه الصيدليات شيئاً)
وكلاهما قد قال حقاً ونطق صدقاً لصعوبة مسالك الخطابة على ما ذكر

اما الشروط التي لا يتم عقد انتظام الخطابة الا بالتزامها ببعضها فتعلق بسامعيها
وبالعرض الاخر بالخطيب نفسه

فالشروط المتعلقة بالسامعين هي ان لا ينظروا الى من يقول بل الى ما يقال وان
يعبروا الخطيب جانب الاصغاء كي لا تنشوش افكاره . وتبقى جداولها صافية وان
لا يبخسوا الخطيب حقوقه اذا حل قوله محل الحقيقة والتبول

والشروط المتعلقة بالخطيب هي ان يكون قوي التصور والذاكرة رابط الجأش

فصيح اللمجة واضح الصوت ملائمه (لانه اهم سلاح له) قادراً ان يكفيه بحسب كل عاطفة وفكر لتدل درجاته على كل غاية يضطر الى الدلالة عليها متمسكاً بكل مقام مقالاً لا ينطق عن هوى ولا يلتوي مع الغاية بعيداً عن القول الهراء صادعاً بما يامر به الحق ضامناً المعاني بفقرات مستحكمة العرى ومفرغة بقالب من الحكمة يجعلها حرية بالقبول سارداً المواد بترتيب قوم كاشفاً حجاب الفهم برائق لفظه وشائق ابتكاراته مثبتاً المعاني المقصودة بما تهيب له الحقيقة من الادلة الواضحة بالناظر ينزل تلك المعاني منها منزلة الرف الطيب من نضير الازهار منادياً بديمومة الاتحاد الذي ينشأ عنه العمران شأن الوطني الحر ناطقاً بالشكر ولكن استحقاقه بما تجتمع عليه الاراء من السجيا الحسنة والمناقب الجليلة التي يرتاح للثناء عليها كل حازم حاذق لان السمع ينبو من وضع اشياء في غير محله متجنباً الاسهاب المل والتسجيع الذي يقع على المسامع احياناً ضيقاً ثقيلاً غير متخذ منبر الخطابة مقاماً يتصدر فيه ليعلم ان صدره مستودع العلوم والفنون وانه واقف موقف بديع الزمان (لان مادح نفسه بقريك السلام) وان لا يجعل الخطابة اسمى من الازهان ولا يلتزم الكلمات اللغوية التي تضطر اكثر سامعيها ان يتأبطوا بمعجمات اللغة لحل رموزها . لانه ليس القصد بالخطابة ارسال اصوات تلج ابواب الاذان ولوج تصدية الاكف بل القصد بسط معاني تحرك الاكف لتصدية استحضاراً وبالجملة لا يعد الخطيب خطيباً الا اذا تناولت اليه اعتناق سامعيه وشخصت فيه ابصارهم واستطاع الاستيلاء على افكارهم والحكم على عواطفهم قال احد الحكماء اذا اردت الخطابة فاياك والتوعر فانه يقودك الى التعقيد الذي يشين المعاني ويستهلك الالفاظ وان اردت اذاعة معنى كريم فالتمس له لفظاً كريماً وان امكنتك ان تبلغ من بيان لسانك العامة معنى الخاصة بالالفاظ المتوسطة فانت البليغ ولا تجعل كلامك كله مبنياً على السجع فتظهر عليه الكلفة وتلتزم لارتكاب المعنى الساقط والكلمات القلقة في مكانها فقد كان الاقدمون لا يقصدون الا ما اتت به الفصاحة في اثناء الكلام واتفق من غير قصد

علوم العرب

« للشيخ ناصيف اليازجي »

لا يخفى ان العرب كانوا قوماً اميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة الا قليل منهم . ولم تكن عندهم علوم الا قليلاً في النجوم والطب عملاً بالاستقراء والتجربة . غير انهم كانوا في اعلى طبقة من نباهة الفكر وفصاحة اللسان وسرعة الخاطر حتى كانوا ينظمون الشعر ارتجالاً فياتون فيه بما لا يقدر عليه غيرهم بعد التروية والاستعداد . وهو امر عظيم لا يعرف مقداره الا من كلف نفسه الهجوم عليه . ولم يكن لهؤلاء القوم اعمال يشتغلون بها فكانوا يصرفون هممتهم الى تهذيب لغتهم والتفنن فيها حتى ذهبوا في ذلك كل مذهب . وساعدهم على التصرف فيها ما عندهم من الحذافة فكانوا يجعلون لكل حكم من احكامها وجهاً سديداً يحكم العقل بصحته . فكانت باعتبار الفاظها منقولة وباعتبار احكامها معقولة . وما زالوا كذلك حتى ظهر الاسلام ودخلت فيه شعوب من الاعاجم فاختلطت اللغات وخيف الفساد على العربية فجعل لها روابط وضوابط تحفظها على اصلها عند ما يقف عليهن . فمن ذلك ما تعرف به مباني الفاظها بحسب الوضع وهو علم متن اللغة ولعل واضعه احمد بن المستنير الملقب بقطرب . ومنه ما تعرف به احكام ابنية الالفاظ المتداولة في المعاني المختلفة وهو علم الصرف وواضعه معاذ المرء فيما قيل . ومنه ما يعرف به تركيب الالفاظ الدال على اصل المعنى المراد وهو علم النحو وقيل واضعه علي بن ابي طالب وقيل ابو الاسود الدؤلي . ونسبه بعضهم الى حماد بن سئمة . وهو اجل علوم هذه اللغة لاشتماله على الاعراب الذي هو دليل القاري ومصباح الساري وعليه مدار المعاني واختلاف المباني كما في نحو لا تاكل السمك وتشرب اللبن . فان رفع تشرب يدل على النهي عن الاول واباحة الثاني ونصبه يدل على النهي عن الجمع بينهما دون انفراد كل منهما على حدته وجزمه يدل على النهي عنهما جميعاً . والواو على الرفع للاستثناف وعلى النصب للصرف وعلى الجزم للعطف . فقد تلاعب الاعراب بالمعاني والالفاظ جميعاً كما تلاعب في قولهم ما احسن زيداً . فان النصب يدل على التعجب من حسن زيد والرفع على نفي الاحسان عنه واخفض على الاستفهام عن احسن ما فيه . فتكون ما على الاول تعجبية واحسن فعلاً جامداً وعلى الثاني نافية واحسن فعلاً متصرفاً وعلى الثالث استفهامية واحسن

اسم تفضيل ولو اردنا الاتساع في ذلك لاوردنا كثيراً من الصور المختلفة ولعل هذا لا يوجد في غير هذه اللغة . ومن علوم العربية ما تعرف به مطابقة الفاظها للمعاني المقصودة بها في التركيب وهو علم المعاني وما يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة وهو علم البيان . وواضعها الشيخ عبد القاهر الجرجاني . ومنها ما تعرف به وجوه تحسين الكلام وهو علم البديع . وواضعه عبدالله بن المعتز . ومنها ما تعرف به احكام موازين الشعر وهو علم العروض . وما تعرف به احكام الاجزاء الملزمة في اواخر الابيات وهو علم القوافي . وواضعها الخليل بن احمد . ويتصل بذلك فنون شتى كعلم الاشتقاق واصول النحو وقرض الشعر وانشاء النثر والفصاحة والمخاضرة والخط ومقاطع الحروف والاحكام المتعلقة بها مما يطول بيانه حتى يكون من لم يدرك منها غير المتعارف بين العامة ممن اصاب سقطاً قد ضربته الريح الى خارج البستان وفاته ما في داخله من الثمار الصالحة الكثيرة المختلفة الانواع . ثم اتسعوا في العلوم الشائعة نتداولوا علم المنطق وكان اسبقهم اليه الشيخ الرئيس الحسن بن عبدالله بن سينا البخاري وهو الذي استوفى حق الصناعة الطبية غير انه كان قد سبقه الى شيء من ذلك الشيخ محمد بن زكريا الرازي . وكثيراً ما تشتمل مؤلفاتهم على فنون من هذه الصناعة كالبيطرة وهي طب الخيل والزرذقة وهي طب الطيور . وقد يتعرضون لشيء من البزردة وهي صناعة الغرس واولقاته والفلاحة وهي صناعة الاغراس ومغارسها وكان كثير من الاطباء المحققين يضمنون الى علم الطب علم الطبيعيات لعلاقة بينهما في الاحكام المزاجية وغيرها وعلم النجوم لاثاير الاجرام العالوية في الابدان وعلم الموسيقى لمعاذته في احكام النبض . ولم في ذلك مؤلفات لا تحصى . ومما افرغوا كنهانته الجهد فيه علم الفقه وهو ثلاثة اطراف . اولها العبادات وهي ما حق الله على الناس والثاني البيوع وهي ما حق للناس على الناس في المعاملات . والثالث الفرائض وهي ما حق للاحياء من الاموات . ومن علومهم ايضاً علم الحساب وهو لازم للفقيه المحقق لاستخراج السهام المجهولة وقسمة السهام المعلومة ويتصل به علم الهندسة والمساحة . ومن علومهم علم الالفيات وعلم الاداب وعلم الانساب والتواريخ . وبين ذلك فنون قد تعلموا بها كالكهانة والفراسة وضرب الرمل وزجر الطير وقيافة الاثر ونحو ذلك . وكان الملوك ومن يليهم في الايام القديمة يعرفون كثيراً من العلوم ويمكنون منها حتى كان منهم من يخطي العلماء في بعض المسائل . ولذلك كانوا يعثنون بشأن العلم

والعلماء ويعرفون حقهم . وكانوا يقيمون مدارس في علوم شتى حيثما وجدوا لها موضعاً .
 ويعمرون المشايخ والطلبة بالعطايا والاحسان . فكان الناس يدخلون فيها افواجاً
 وينعكفون على تحصيل ما يستطيعون من العلوم حتى اذا استتم الرجل علمه خرج الى منصب
 او وظيفة عند السلطان متمتعاً ببسطة الجاه والمال ومستغنياً عن جميع المهمات والاعمال .
 فيتفرغ للتوسع في العلوم وانشاء المصنفات فيها وبذلك يكون مثلاً لغيره في طلب العلم
 والتجرد له . وما زال ذلك حتى سقطت رغبة الملوك في العلم فانقطعت اسباب
 الطلب وتعطل السعي في تحصيله ودرثت مصنفاته وافنى الدهر اهله حتى فقد كثير من هذه
 العلوم فلم يعرف لها عين ولا اثر وجرت بقيتها على آثاره لولا ان يتداركها الله بهذه
 الدولة المجيدة السعيدة التي احيت ما مات من آداب الاولين والحمد لله رب العالمين
 انتهى

خطبة

في آداب العرب
 « للعلم بطرس البستاني »

ايها السادة

الموضوع آداب العرب وان شئتم فقولوا علوم العرب او فنون العرب او معارف
 العرب . ولكن قبل الشروع في الكلام على هذا الموضوع الذي ينبغي ان يكون
 لذيذاً ومفيداً لكل من له رغبة في الوقوف مدققاً على حقائق الامور يلزمنا ان نذكر
 بعض قضايا نظير مقدمات له وذلك على وجه الاختصار فنقول
 اولاً ان العلوم من شأنها النمو بالتدريج كالحيوان والنبات . ومع ان هذا
 النمو قد يكون جزئياً في عقل واحد لا بد من اجتماع عقول كثيرة للحصول على
 المطلوب على احسن منوال بحيث تكون نتائج بحث وجهاد العقل الواحد في امر ما
 ميسورة الحصول لعقل آخر او اكثر . وهذا الاجتماع لا يتيسر الحصول عليه من
 دون اجتماع القبائل والشعوب وامتزاجهم معاً بحيث لا يفوت قوموا فوائد قوم آخرين
 وكذلك من شأن العلوم ان لا تورث خلافاً للاملاك والنقود بل انما تستلزم اجتهاداً
 شخصياً . وهي كالضيوف لا تثبت الا عند من قام بحق ضيافتها

ثانياً ان العقل البشري انما يحصل بالعلوم بواسطة الحواس على سبيل التعلم والاستقراء ومن شأنه ان لا يسع اموراً متضادة في وقت واحد . ومن ثم كان لا يمكن اجتماع العلم والرذيلة معاً . وبما ان العقل لا يبدؤ في تحصيل شيء الا لغاية ولا يشمل مشقة الا اذا كانت لذة ما يطلبه اقوى منها فلما تطلب العلوم لذاتها . والعقل قد يكون في حالة السبات او الانتباه من هذا القبيل . ولا يخفى ان المناخ والعادات الخصوصية لها تأثير شديد في العقل من هذا القبيل وانه يوجد تفاوت في العقول من جهة الاستعداد للعلوم بين قوم وقوم كما يوجد بين الافراد . وما اشد تأثير الميل والحكم السابق في العقل من جهة تحصيل العلوم ومعرفة الحقائق

ثالثاً لا بد للعقل من وسائط اسافية خارجة عنه لاكتساب العلوم . فمن اعظم هذه الوسائط الانتقال والسياحة من مكان الى مكان ومطالعة الكتب ووجود الآلات التي لا يمكن الحواس التوصل الى المطلوب بدونها والاسباب المحركة التي تنبه العقل وترغبه في ذلك والمثال والحماسة المنفوسة طبعاً في الانسان . ولا يخفى ان حربة الفكر هي من اكبر المطلوبات لادراك الحقائق وتحصيل العلوم لان الفكر المستعبد لا يمكن ان يكون فيه استعداد كما يجب للعلوم . وبما ان الخطب تحسب وقد وجدت في البلدان المتقدمة من اكبر الوسائط واحسنها لنشر المعارف بين العموم قد تحرك البعض من الذوات المعتبرين من سكان هذه البلدة من افرنج وانباء عرب الى الانتظام في عمدة تعرف بعمدة الخطابات لاجل تمكين الطلبة الراغبين من الحصول على هذه الوسطة . وباستدعاء وطلب هذه العمدة قد وقفت الآن امام سيادتكم لاجل صرف حصه من الوقت في البحث عن الموضوع المتقدم ذكره وهو اداب العرب فاقول

اننا كثيراً ما نسمع ابناء العرب يتباهون متفاخرين بكون اجدادهم الاقدمين هم الذين انعموا على العالم بالعلوم والفنون مع ان الاكثرين منهم لم يتيسر لهم الوقوف على الحقيقة . ونحن شديداً الاعتقاد بصحة قول بعض الافاضل

لا نفل اصلي وفصلي ابدأ انما اصل الفتى ما قد حصل

وبان وصول اجدادنا الى اعلى طبقة من العلوم لا يجعلنا علماء ولا بوجب لنا حق الافتخار اذا لم نكن نحن انفسنا كذلك . فقد رأينا ان نذكر بعض قضايا تاريخية من هذا القبيل يتبين منها مقدار جهاد المتقدمين ودرجة فضلهم في هذا الامر ويستعين بها المتأخرون من ابناء هذا الزمان على الوقوف على الحقيقة وعسى ان تكون وسيلة لثبوتهم

وترغيبهم في اقتفاء آثار اسلافهم . وقد قسمنا خطابنا هذا الى ثلاثة اقسام :

القسم الاول في حالة العلوم بين العرب قبل ظهور الاسلام

ان العرب قبل ظهور الاسلام اي في ايام الجاهلية كانوا قومًا اميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة الا القليل منهم . والعلوم التي كانوا يتفاخرون بها فهي علم لسانهم واحكام لغتهم ونظم الاشعار وتاليف الخطب وكان لهم مع هذا معرفة باوقات مطالع النجوم ومغارها وعلم بانواء الكواكب وامطارها على حسب ما ادركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك في اسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقايق . ومع ان الله لم يمنهم شيئًا من علم الفلسفة ولا هياً طباعهم للعناية به كانوا في اعلى طبقة من نباهة الفكر وفصاحة اللسان وسرعة الخاطر حتى انهم كانوا ياتون ارتجالاً بما لا يقدر عليه غيرهم بعد التروية والاستعداد . والذي ساعدهم على ذلك شدة محبتهم للغزو والغارات والمفاخرة في الكلام نظماً ونثراً مع حسن البلاد التي قطنوها . وقد كانوا اذ ذلك اهل مدروهم وسكان المدن والقرى وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والتخيل والماشية والضرب في الارض للتجارة واهل وىر وهم سكان الصحارى وكانوا يعيشون من البان الابل ولحومها منتجين لمنابت الكلاً مرتادين لمواقع القطر فيقيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعي ثم يتوجهون من هنالك في طلب العشب وابتغاء المياه فلا يزالون في حل وترحال كما قال بعضهم عن ناقته

نقول اذا ذرأت لها وضيئي اهذا دينه ابدًا وديني
أكل الدهر حلُّ وارتحالُ اما يبقى عليّ ولا يقيني

وكان ذلك دأبهم زمان الصيف والربيع فاذا جاء الشتاء واقشعرت الارض انكشوا الى ارياف العراق واطراف الشام فشتوا هناك مقاسين جهد الزمان ومصطبرين على بؤس العيش

قيل وكان العرب في تلك الايام يجتمعون في كل سنة في سوقى مكة وعكاظ يقيمون هناك شهرًا وقيل عشرين يوماً يتبايعون ويتناشدون الاشعار ويتفاخرون فيها . وكانوا اذا انتهوا من ذلك يكتبون اشعار الفئدة الظافرة باحرف ذهبية على نسج من الحرير المصري ويعلقون ذلك على الحجر الاسود في الكعبة . ومن ثم سميت تلك الاشعار بالمذهبات والمعلقات . ومما وصل الينا من اشعارهم المعلقات

السبع المشهورة وهي اشهرها . ولم يزل ذلك دأب العرب حتى ظهر الاسلام في اوائل القرن السابع للمسيح فآمن قوم منهم وحدثت بين من آمن ومن لم يؤمن حروب ومنازعات كثيرة لا محل لذكرها هنا . والتاريخ لا يساعدنا كثيراً على الوقوف جلياً على حقيقة حالهم من هذا القبيل لتقدم عهدهم وعدم اعتنائهم في هذا الفن اللطيف

القسم الثاني في حالة العلوم بين العرب بعد ظهور الاسلام

قال القاضي صاعد بن احمد الاندلسي ان العرب في صدر الاسلام لم تعتن بشيء من العلوم الا بلغتها ومعرفة احكام شريعتها حاشا صناعة الطب فانها كانت موجودة عند افراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرّاً اليها . ولا يخفى ان اشتغال العرب في تلك الايام بالحروب وفتح الاقاليم والبلدان وشدة ميلهم الى الغزو والغارات وفرط عنايتهم في توسيع دائرة حكمهم المهتم عن الالتفات الى امر الآداب والعلوم . تيل انه لما فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية سنة ٦٤٠ للمسيح في خلافة عمر بن الخطاب وذلك بعد محاصرتها مدة مستطيلة تقدم اليه يحيى الاسكندري اليعقوبي المعروف بالنحوي وقال له يوماً بعد ملازمته اياه وثقربه اليه انك قد احطت بمحوصل الاسكندرية وختمت على كل الاصناف الموجودة بها . فما لك به انتفاع لا اعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فحنج اولى به . فقال له عمرو وما الذي تحتاج اليه قال كتب الحكمة التي في الخزائن الملكية فقال له عمرو لا يمكنني ان امنّ بها الا بعد استئذان امير المؤمنين عمر ابن الخطاب وكتب عمرو الى عمر وعرفه قول يحيى فورد عليه كتاب عمر يقول فيه :

واما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله غنى عنه وان كان ما فيها يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه فنقدم باعدامها . فلما وصله كتاب امير المؤمنين شرع في تنزيقها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدها فاستوفدت بها مدة طويلة . قيل وكان عدد كتبها اربعمائة الف كتاب . قال احد المؤرخين عند روايته هذه القصة فاسمع ما جرى واعجب . واذا صح ان هذه الخزانة المسماة بنحف خاتة سراييون كانت تشتمل على كتب علوم الهند ومصر واليونان كان احراقها بخسارة عظيمة لا يمكن تعويضها . ولا بد من ان العرب عندما استفاقوا من غفلة الجهل والغباوة بعد تلك الحادثة بقليل يكونون قد شاركوها بقية العالم في حاسات

الحزن والاسف على فقد هذه الخزانة المعتبرة التي بذل البطيμισية والقياصرة اموالاً
 جسيمة في جمعها . وذلك برهان على صحة ما ذكرناه من كلام القاضي المذكور من
 ان العرب في صدر الاسلام لم تعتن بشيء من العلوم وانهم لم يكونوا يعتبرون شيئاً
 من الكتب الا القرآن . ولكن تفورهم من الامور العلمية كان يتناقص بالتدريج بقدر
 امتداد ديانتهم وملكمهم . ولا ريب ان امتلاكهم للبلدان السعيدة التي كانت مقراً
 للذوق والرونق القديم ولدت فيهم روح لطف وتمدن فكان تقدمهم في هذا الامر
 سريعاً وعجيباً كما كان في ميادين الحرب . ولما كان الجهل والتبرير مستوليين بسطوة
 شديدة على كل قسم من البلدان الافرنجية وذلك بسبب الحروب النائرة والمنازعات
 المتكثرة بين ملوكها ورعاياها بحيث لم يبق للعلوم والاداب سوق ولا محام وجدت
 العلوم والفنون في مدارس العرب ملجاء تستظل فيه مرتاعة من غدر تلك الازمان
 وغباوة تلك الاجيال الظلمة . ومع ان آداب اليونان انتفضى لها اتعاب متوالية مدة
 ثمانماية سنة حتى وصلت الى ما وصلت اليه في ايام باركليس نرى ان رغبة العرب
 ونشاطهم في اكتساب العلوم ونجاحها كانا شديدين بهذا المقدار حتى انه لم يمض
 الا مائة سنة او اكثر قليلاً بين اعتمق توحشهم وبربريتهم وبين امتداد العلوم
 وانتشارها في ممالكهم المنسعة . فان عمر بن الخطاب امر باحراق مكتبة الاسكندرية
 سنة ٦٤١ للمسيح سنة ٧٥٠ ارتقى العباسيون المحامون عن العلوم الى تحت السلطنة .
 وذلك من اغرب واعجب الحوادث التاريخية حتى ان اوربا نفسها صارت مديونة
 لخالف ديانتها وحربيتها بائناً مثالتهما في العلوم والفنون

فهذه كانت حالة العرب في الدولة الاموية وفي ايام هولاء الخلفاء كانت حكمة
 اليونان قد احدثت شيئاً من التأثير في عقول العرب ولكن جيل العلوم العربية الذهبي
 لم يبتدىء في الشرق الا بعد قسمة المملكة الاسلامية وقيام بغداد . وذلك عندما
 تبوأ الخلفاء بنو العباس تحت السلطنة العربية سنة ٧٥٠ كما تقدم فحينئذ ثابت
 العمم من غفلتها وهبت الفطن من ميبتها فكان اول من اعتنى منهم بالعلوم الخليفة
 الثاني ابو جعفر المنصور باني مدينة بغداد والمشهور بالفتوحات العظيمة وكان مع
 براعته في الفقه كافاً في علم الفلسفة وتلى الخصوص في علم النجوم . قيل وكان المنصور
 في اول امره ادركه ضعف في معدته وسوء استمراء وقلة شهوة وكان كما عالجها الاطباء
 ازداد مرضه فقيل له عن جورجيموس بن بختيشوع النيسابوري انه افضل الاطباء

فاستخضره الى بغداد فاخذ الطبيب المذكور يتلطف به ويعالجه حتى برى من مرضه وفرح به فرحاً شديداً وكان قد احضر معه تليذه عيسى بن شهلاتا واقام عند المنصور حتى مرض ولما اشتد مرضه طلب الانصراف الى بلده فقال له امير المؤمنين اني منذ رأيتك وجدت راحة من الامراض فقال انا اخلف بين يدي امير المؤمنين عيسى تليذي فهو ماهر فامر له بعشرة آلاف دينار واذن له بالانصراف وامر باحضار عيسى بن شهلاتا فلما مثل بين يديه ساله عن اشياء فوجده ماهراً فالتجده طبيبياً . فصارت العرب بهذا الاتفاق مديونة لجنثيشوع الطبيب اليوناني المذكور في دخول صناعة الطب الشريفة بينهم

وكان لهرون الرشيد شهرة عظيمة في الرغبة والهمة والنشاط في احياء العلوم والاداب ونشرها في مملكته المتسعة . وكان هو نفسه ماهراً في الشعر والموسيقى ومغرمًا بهذين الفنين المستظرفين . وقد كتب في ايامه تصانيف كثيرة في علوم المملكة الاسلامية وقد جمع في بلاطه جمعاً غفيراً من اكابر وفحول العلماء فكان اقرب الناس منه واحبهم اليه العلماء . فكان يحسن مشواهم ويمجزل عطاءهم ويرفع منزلتهم . فاضحت العرب مديونين كثيراً له في امر تقدمهم السريع في الآداب لانه سن شريعة انه حيثما بني جامع في مملكته ببني بجانبه مدرسة للاداب . وكان كما سافر الى مكان او قصد الحج يستصحب معه مائة من علماء زمانه . وكان يعتبر العلم ابنا وجد والعلماء مهما كان مذهبيهم . فلم يكن يزدرى بمعرفة من يخالفه في امر المذهب فان رئيس مدارس واول مدير للعلوم في المدارس العالية في مملكته كان رجلاً نصرانياً نسطورياً دمشقياً اسمه يوحنا بن ماسويه وقد اقتدى بمثاله هذا الذي يدل على جودة عقله وكرم اخلاقه خلفاؤه . وهكذا لم يمض الا قليل حتى امتدت الآداب التي كانت تعلم في العاصمة منتشرة الى اقصاء الخلافة

ولكن اوغسطوس الآداب العربية هو الخليفة عبدالله المأمون بن هرون الرشيد . فانه لما افضت الخلافة اليه تم ما بدا به جده المنصور فاقبل على طلب العلم في مواضعه وكان منذ نعومة اظفاره مولعاً بالمطالعة والدرس وقد اتخذ في حيوة والده صحابة له من مشاهير علماء اليونان والعجم والكلدان ولما تبوأ تحت السلطنة لم تله مهماتها وعظمتها عن الاعتناء بالعلوم والقيام بحق اربابها . فكانت الشعراء والفلاسفة والمهندسون تتوارد اليه الى بغداد من كل بلاد وملة . وقد امر سفراءه

ونوابه في ارمينية وسوريا ومصر ان يجمعوا ما يمكن وجوده فيها من الكتب الاكثر اعتباراً ويعثوا بها اليه . فكانت ذخاير آداب الاقاليم التي تغلب عليها تجمع بكل اعتناء وتوضع امام عرشه كاعظم جزية وانحر الثجف والهدايا عنده . فكانت ترى ميثاق من الجمال داخله بغداد حاملة كتباً من اداب اليونانيين والبرانيين والعجم . وقد داخل ملوك الروم وسالم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه منها ما حضرهم فاستجاد لها مهرة الترجمة وكلفهم احكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما امكن ثم حرّض الناس على قراتها ورغبتهم في تعليمها وهكذا كان بلاطه ببغداد مؤلفاً من المعلمين والشرّاح والمترجمين فكانت بغداد مدرسة علمية كما كانت عاصمة مملكة . وكان يحلو بالحكام وياس بنماظرتهم ويلتذّبذكراتهم علماً منه بان اهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده وقد صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة وزهقوا في ما يرغب فيه اهل الصين والترك ومن نزع منزعتهم من التنافس في دقة الصنائع العملية والتباهي باخلاق النفس الغضبية والتفاخر بالقوى الشهوانية اذ علموا ان البهايم تشاركهم فيها وتفضلهم في كثير منها . ولهذا السبب كان اهل العلم مصاييح الدجى وسادة البشر توحش الدنيا لقدمهم . قيل ان المأمون اذ كان يعلم بوجود خزائن متسعة من التصانيف العلمية في مكتبة القسطنطينية فلما عقد الصلح مع ميخائيل الثالث ملك الروم جعل احد شروط الصلح والمعاهدة ان الملك ميخائيل يبعث اليه مجموعاً من التصانيف المعتبرة النادرة الوجود الموجودة في المكتبة المذكورة وما صدق ان وصل ذلك اليه حتى امر احدق علماء بلاطه بترجمته الى لغته العربية المشرفة . قيل وبعد تميم ترجمة تلك الكتب المعتبرة بغيره مفرطة على شرف لغته امر باحراق النسخ الاصلية . وفي ايام المأمون أنشئت مدارس كثيرة كلية في بغداد والبصرة واماكن اخرى وجمعت مكاتب شتى في مواضع مختلفة . قيل ان المأمون عرض مبلغاً وافراً على ملك الروم ووعده بالصلح الدائم والمصادقة اذا بعث اليه بليو الفيلسوف اليوناني الشهير

وهو من الخلفاء الذين حاموا عن العلم والعلماء وصرفوا المهمة في اكتساب الاداب واثقائها الواثق . وكان ماهراً في فني الشعر والموسيقى وكان له ميل زائد الى التنجيم قيل انه لما اشتد مرضه احضر النجميين فنظروا في مولده فقدروا له انه يعيش خمسين سنة مستأنفة من ذلك اليوم الا انه لم يعيش بعد قولهم الا عشرة ايام . واخر خليفة

التي اخرونور على ابناء بلاده هو المستنصر فانه زين بغداد بمدرسة عظيمة سماها
 بالمستنصرية قبل ولم يكن في الممالك الاسلامية نظير تلك المدرسة في صورتها
 وآلاتها واتساعها وزخرفها وكثرة فقهاءها ووقفاتها وقدرتها فيها جمعاً غفيراً من المدرسين
 والفقهاء وبنى لهم داخل المدرسة حماماً خاصاً ورتب للفقهاء طيباً خاصاً يفتقدون كل
 يوم واقام لهم من المشاهرات والخبز والطعام ما يكفيهم ويفضل عنهم

هذا وان كثيراً من الوزراء والنواب حذوا حذو ملوكهم في تقوية العلوم
 وامتدادها في الاماكن البعيدة عن العاصمة . فان مصر مثلاً بقيت اجيالاً كثيرة
 مزينة بالعلم والعلماء حتى كنت ترى فيها مدارس للعلوم في كل مدينة وبلدة وقرية
 قيل ان احمد بن طولون نايب مصر كان يوزع كل شهر على مشايخ بلاده الف دينار
 وكان يرسل الى بغداد لاجل التوزيع على علمائها وفقرائها نحو ٢٢٠٠٠٠٠ دينار .
 وكانت فواید التعليم في هذه المدينة تمتد في اوقات مختلفة الى ستة الاف تلميذ من
 كل رتبة من ابن الشريف الى ابن الصناعي . وحسن مدارسها يظهر من كثرة عدد
 الشعراء والمؤرخين والاطباء والمنجمين الذين خرجوا منها . فقد كانت تنشأ مدارس
 صغيرة وكبيرة ومكاتب في كل بلدة . والبصرة والكوفة كادتا تساويان العاصمة نفسها
 في الشرة نظراً الى عدد المعلمين المشهورين الذين خرجوا منها وكثرة التصانيف
 المعتبرة التي ألفها علماءها . وكذلك دمشق وحلب وبلخ واصفهان وسمرقند كان بها
 كثير من المدارس والمكاتب المعتبرة وقد خرج منها جمع غفير من فحول العلماء
 المدققين الذين لا يسعنا الوقت لذكرهم . ولا ينبغي ان تغفل عن ذكر القيروان وفاس
 ومراكش من اعمال المغرب التي كانت مزينة بمدارس سامية ومكاتب معتبرة لاجل
 تعليم المغاربة الذين كانوا قديماً ولم يزالوا الى الان في اعلى طبقة من الخلق والنباهة
 وبواسطة مدارس المغاربة ومكاتبهم المشهورة قد حفظ للغة الافرنجية في القرون
 المتأخرة ذخائر ثمينة وكنوز فاخرة من العلوم والفنون

غير ان البلاد التي تلالأت فيها الاداب العربية باكثر لمعان واشراق وبقيت
 فيها مدة طويلة بعد ان درست في البلدان المشرقية هي بلاد اسبانيا . فان كردوفا
 وسيفلي وغرناطة كانت تقاخر احداها الاخرى في عظمة مدارسها ومكاتبها . وقد
 كان في مدينة كردوفا وحدها نحو مائة وسبعين رجلاً من فحول العلماء من اهاليها .
 وكان فيها مكتبة عظيمة تحتوي على نحو اربعمائة الف كتاب . وكان في حوزة المتوكل

الذي تسلّم زمام الحكومة في الجيل الثاني عشر مكتبة معتبرة تحتوي على كتب نفيسة كان منها مائة وعشرون مؤلفاً في الالهيّات والتاريخ والفلسفة ولم تزل نسخ منها محفوظة الى الان في مكاتب اوربا المتبيرة . وكان في مملكة الاندلس وحدها سبعون مكتبة وسبع عشرة مدرسة كلية .

فما تقدم بيانه يتضح لنا شدة حرص العرب في تلك الايام على اكتساب العلوم والاداب واجتهادهم في نموها وانتشارها . واذا حققنا النظر في ما وصل الينا من فضلات علومهم وآثار جهادهم نرى انهم وان كانوا قد اخذوا علوماً وفنوناً كثيرة من اليونان والعجم والكلدان بواسطة الترجمة والاقباس لا يمكن ان نسلم بانهم انما كانوا منقلدين لا مخترعين كما يزعم بعضهم . لاننا نرى ان نفس العلوم التي سبقت الاشارة الى انهم ترجموها من لغات اجنبية قد اخترعوا فيها وزادوا عليها اموراً كثيرة جداً . فان فن الطب مثلاً الذي وجد قبل انتباه العرب الى العلوم باجيال كثيرة وينسب اختراعه الى ابقراط اليوناني وتوسيعه الى جالينوس كان لم يزل ناقصاً حتى كمله ابن سينا بعد ان كان الرازي قد جمع ابوابه المتفرقة في كتاب سماه بالحاوي . وصناعة الكيمياء فانها كانت قبل العرب فناً قد سرت اليه الاوهام الفاسدة وداخلته الشعبذيات الكاسدة فاخذته العرب واخترعت فيه اموراً كثيرة حقيقية وارخلته في علم الطب مع انه كان قبل ايامهم من ابواب السحر يستخدم لاجل تحويل المعادن الى ذهب بواسطة حجر الفلاسفة الذي كان الاقدمون يظنون انه ذو خاصية لسحر الارواح الخبيثة وشفاء الامراض واطالة الحيوّة الى ما شاء الله وهكذا القول في اكثر العلوم الاخر التي اخذتها العرب عن الاجانب . واما العلوم التي لا يشك في كونها من اختراعات العرب فهي كثيرة يحتاج الى وقت مستطيل لتعداد مفرداتها وتفاصيلها . فاننا اذا معنا النظر في العلوم المتعلقة باللغة العربية التي كانت قبل الاسلام لغة عديمة الضوابط والقوانين ومتفرقة نلى السنة قوم لم يكن لهم اللغات الى العلوم والفنون ولا حظ في صناعة الحروف والتاليف نرى ان العرب قد صرفوا الهمة في ايجادها . فوضعوا لهذه اللغة العجمية ضوابط وقوانين لاجل صيانتها من الفساد ورتبوا لها كتب لغة مشهورة قد جمعوها عن السنة العرب لاجل حفظها وجعلوا لها فنوناً كثيرة مستظرفة كالمعاني والبيان والبديع والعروض وهلمّ جراً لاجل تهذيبها وتحسينها . وكذلك الاشعار التي وجد عند العرب منها اكثر مما وجد عند باقي شعوب العالم جميعاً لم تكن الا من نتائج اجتهادهم

وجوده قريحتهم . ومن الغريب انه مع وجود اشعار هوميروس وورجيلوس وغيرها من شعراء اليونان واللاتينيين المشهورين لا يوجد في اشعار العرب شيء مقتبس منها . وقد الفوا كتباً شتى في علم التنك والتاريخ ورسم الارض والفلسفة والالهيات والطبيعيات والحساب والجبر والمساحة والخطب والزراعة والنباتات والموسيقى والفقه وبين ذلك فنون قد تعلموا بها كالكهانة والعرافة وضرب الرمل وزجر الطير وقيافة الاثر والسحر والطوالع ونحو ذلك وقد كثرت في جميع ذلك تصانيفهم وبحواراتهم كما يتضح لمن وقف على فهرست التأليف العربية التي بقيت مع مرور الايام ونقلت الازمان محفوظة لتكون دستوراً ومخساً للتأخرين . قيل انه يوجد في مكتبة باريز الملكية أكثر من مائتي مؤلف في صناعة النحو وحده . ومن كان فرد زمانه في فنه ابو بكر الصديق في النسب وابن ابي طالب في القضاء وابن كعب في القراءة وابن ثابت في الفرائض وابن عياش في التفسير ووهب في القصص وابن سيرين في التعبير وابو حنيفة في الفقه ومقاتل في التاويل والخليل في العروض والمنتبي في الشعر والاشعري في الكلام والحري في المقامات والرازي في الطب وابن حنبل في السنة وابو مشعر في النجوم وابن نباتة في الخطب والقاضي الناضل في الانشاء والاصمعي في النوادر وابن سينا في الفلسفة وابن جابر في الكيمياء وابو الفدا في التاريخ والفارابي في الطبيعيات والادريسي في الجغرافيا والغزالي في الالهيات وغيرهم في غيرها . هذا ولا ينبغي ان ننسى اخوتنا الاعجام الذين تعلموا لغتنا العربية وزينوها بتصانيفهم المدققة ومع ان الافرنج قد اخذوا تلالاً لا بل جبلاً من الكتب العربية تماماً لم يبق له عين ولا اثر عند العرب نرى ان تصانيف التي ابقتها لنا صروف الايام هي وحدها كافية لان تبرهن لمن وقف عليها الامور الاتية وهي

اولاً جودة العقل العربي وحسن استمداده لتحصيل العلوم ولا سيما ثلاثة انواع منها وهي العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية والعلوم اللغوية حتى انه لا يوجد في العالم قوم يقدرون ان يفوقوا العرب حتى لا نقول ان يدركوا طبقاتهم فيها ثانياً ثبات العرب وتجلدهم في مقاساة المشقات والمصاعب المقترنة طبعاً بتحصيل العلوم وذلك لدى وجود الاسباب المحركة اليها . ويزيد ذلك وضوحاً اذا اعتبرنا قلة الوسائط وضعفها في تلك الايام . فان البخار والسيال الكهربائي كانا حينئذ غير خاضعين للانسان وكانت المطبعة التي تحسب من اكبر قوات العالم والنظارة المكبرة

التي قبلت كثيراً من مبادئ الاولين من اساساتها لم تزل مستورة تحت ظل الغوامض
 وكانوا مع فقد صناعة الطبع يلتزمون ان يوجدوا كل ما اوجده من هذا القبيل
 بواسطة راس قناة صغير الجرم ضعيف العزم . وكذلك قوة الاثني التي هي اكبر قوة
 في الدنيا كانت في تلك الاعصار محصورة في ليج بحار الجهل العميق والغباوة الشديدة
 وكثيراً ما كانت هذه القوة تستخدم لاجل الضرب على راس العلم في نومة اخفاره .
 وعدم تحزب هذه القوة للعلم والعلماء كان من اكبر الاسباب لفقد العرب العلوم بهذا
 المقدار من السرعة

ثالثاً فضل العرب على العالم في هذا الامر وذلك من اوجه عديدة . منها انه
 فيما كانت العلوم والاداب في خطر الفقد والتلاشي بسبب الحروب والمنازعات والفتن
 الاهلية في العالم الغربي وجدت لنفسها في مدارس العرب ملجأ تأوي اليه فحافظ العرب
 على الحلقة المتوسطة من سلسلة العلوم التي تربط العلوم القديمة بالعلوم الجديدة ولولا
 وجود هذه الحلقة لكانت ترى خلاء متسعاً بين العلوم القديمة والحديثة لم يكن سبيل
 الى ملئه . ومنها انه فيما كانت اوربا غايصة في ليج الجهل والغباوة في اجيالها المظلمة فتح العرب
 مدارسهم لقبول شبان الافرنج عندما استفاقوا من غفلتهم ووصلت العلوم تحت ظل وحماية
 العلم الاسلامي الى حدود بلادهم . وهناك ناولتهم الاسلام اليد اليسرى اضعاف
 ما كانوا قد تناولوه منهم منذ نحو خمسمائة سنة باليد اليمنى . وهكذا شربت شبان
 فرنسا وايطاليا وجرمانيا وانكلترا في مدارس اسبانيا من ينابيع آداب العرب المتدفقة .
 وفي سالرزو ومنتلر وثفت تلاميذ النصرى المتواردة الى هناك من جميع اقسام اوربا
 لاجل تعلم الطب على تصانيف ابقراط وجالينوس حتى ان اليهود واليونان لم ياتقوا
 من تعلم صناعة الشفاء من العرب . ومن ذلك ان العرب هم الذين بواسطة قدوتهم
 وحسن صناعتهم نبهوا الافرنج في اجيالهم المظلمة من سباتهم الثقيل الى طلب العلوم
 والصناعات وذلك يسلم به الافرنج انفسهم ولا ينكرونه

رابعاً فضل اللغة العربية وطوعيتها في قبول العلوم من دون احتياج الى استخدام
 لغات اجنبية الا في ما ندر . وبما ان اللغة هي من اقوى الوسايط لوجود الاداب
 وانتشارها بين اهلها لا باس اذا توسعنا قليلاً في الكلام على اللغة العربية وما يتعلق
 بها على وجه الاستطراد فنقول

لا سبيل الى الشك بان اللغة العربية هي من اقدم لغات العالم واكملها واشرفها

ولولا الخوف من ان تطلب مني البينة لكنت ادعي لها بانها هي اللغة التي انزلت
على قلب اينما دم في الفردوس الارضي . و اقل ما ارغب ان ادعي لها به هو انها مع
اختيها اللغة السريانية واللغة العبرانية اغصان متفرعة او فصالات باقية من تلك اللغة
الآدمية المنزلة . والباين من تاريخ هذه اللغة ان الله قد حفظها بنوع عجيب لغايات لا تدرك
من ثقلات الايام وصوروف الدهر . ومع ان اصحاب هذه اللغة وصلوا الى احط درجة
من الجهل والبربرية بقيت اللغة محفوظة عندهم بواسطة التقليد والنقل مصونة من
من الفساد والتشعب الى لغات شتى بخلاف لغات اوربا . وبعد ان خضعت لسلطان
القلم الاسلامي صار بذل العناية وصرف الهمة باختراع وسائل قوية لحفظها سالمة
صحيحة . واتساع قاموسها وغناها في الالفاظ والمعاني يجعلانها في الرتبة الاولى بين
اللغات حية كانت او ميتة . وكثرة عدد المتكلمين بهذه اللغة وكون الاراضي
والاقاليم والبلدان التي هي منتشرة فيها من اوسع واحسن ما يوجد لاي لغة كانت
يجعلان مستقبلها اهم واعظم من باقي اللغات في العالم . واعتبار اهلها لها واحترامهم لقدميتها
وفضلها صيرها غير قابلة للتغيير كعادات اهلها . ومع ما نراه من شدة ميل ابناء
العرب ولا سيما في هذه الايام الى اللغات الاجنبية وعدم التفاتهم الى لغتهم الشريفة
لا نخشى عليها من حوادث الدهر لان ذلك وقتي ناتج عن اسباب توجب زهداً
في اللغة العربية ورغبة في اللغات الافرنجية . وهذه الاسباب سلبية كانت ام ايجابية
لا بد من زوالها وبذلك يزول ما تسبب عنها . وما دام القرآن من الجهة الواحدة
والكتب العربية في فنون مختلفة من الجهة الاخرى مظلمة على هذه اللغة يغلب الظن
بانها تثبت غير منحصرة في دائرتها الحالية وهي الهند وجزيرة العرب وشمال افريقية
بل ستمتد شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً بين اقوام آخرين ممن يقرون لها بالفضل وان كانوا
لا يستطيعون التكلم بها ومع اننا نرى العمم والتتر والافرنج من الجهة الواحدة آخذين
في توسيع دائرة لغاتهم وادخالها بين العرب والمتفرجين من الجهة الاخرى آخذين في
افساد واماتة لغة امهم بواسطة ابدالهم كلماتها المانوسة بكلمات اجنبية نافرة لا تليق للغة
العربية كما ان ملبوس اهلها لا يلبق للعرب لا بد من قيام اناس من ابناء العرب
الغيورين على لغتهم يسقون مقداراً كافياً من الافيون للكومسيون والسيكورته وسكوزي
وافندم وما ضاهاها فيغني عليها بحيث لا يبقى امل في صحوها ويضعون قنينة من روح
النشادر امام انف العمالة والضمانة ولا تواخذني وباسيدي وهلم جرا من الكلمات

العربية التي تدل على المعاني المدلول عليها بالالفاظ المذكورة فتستفيق من سبائها .
 وبهذه الوسيلة يزول الفساد الطاري على اللغة العربية والذوق العربي من هذا القبيل .
 على انه كما ان الناس محتاج الى الناس كذلك اللفات محتاج الى غيرها ولكن يجب
 الاقتصار على ما لا وجود له في اصل تلك اللغة مما يزيد قوة وحسناً لا تنافراً وثقلاً
 هذا ولا ينبغي ان تغفل عن تلك الكلمات النافرة الميثة الموجودة في قواميس اللغة العربية
 مما لا فائدة منه للعرب الا التثقيب على الذهن العربي والقلم الشرقي . فهذه الكلمات
 يجب الحاقها بالكلمات الاجنبية المار ذكرها او استخدامها لمعان او مواد جديدة لم
 يصل اليها العقل العربي ولا الصناعة العربية او ابدالها بكلمات من اللغة الدارجة مما
 جعل له الاستعمال قوة لا يمكن تحصيلها بغيره

ومما لا يشك به ان منبع الكلمات المترادفة الكثيرة الوجود في اللغة العربية المكتتبه
 هو اختلاف القبائل التي تكلمت بهذه اللغة . ولا يصدق ان بني قريش اصحاب اللغة
 الفصحى كان عندهم خمسمية اسم للأسد . والظاهر ان الذين جمعوا متفرقات هذه اللغة
 عن السنة العرب فلاجل شدة اهتمامهم وحرصهم على حفظها كاملة دون من ان ينقد منها
 شيء جمعوا كل ما وجدوه من موادها بين العرب الذين كان لكل قبيلة منهم لغة خاصة
 واصطلاحات جارية عندها دون غيرها . والبعض يحسبون ان كثرة المترادفات في
 العربية غنى لها والحال ان ذلك لا يجب ان يحسب غنى لانه لا يفيد زيادة في المعاني
 التي هي المقصود الاصيلي من اللغات . واللغة التي يوجد فيها الفاظ كثيرة لمعنى واحد
 مع انه يوجد معان كثيرة لا يوجد لها فيها الفاظ للتعبير بها عنها هي في الحقيقة فقيرة
 لا غنية واهلها فقراء لا اغنياء . وينتج مقصودنا في ما تقدم مما يأتي

قيل مرّ ذات يوم ابو علقمة ببعض طرق البصرة وهاجت به دابته مرة فوقع الى
 الارض فوثب عليه قوم يعصرون ابهامه ويؤذنون في اذنه فافلت منهم وقال ما بالكم
 تكأ كأتتم عليّ تكأ كوكم على ذي جنة افرنقوا عني (اي ما بالكم اجتمعتم عليّ اجتماعكم
 على مجنون اعتزلوا عني) فقال بعضهم دعوه فان جنيته تشكلم بالهندية

قيل ان اعرايياً اصطاد ذات يوم سنوراً ولم يعلم ما هو فلقبه رجل فقال ما هذا
 السنور ثم لقيه آخر فقال ما هذا القط ثم لقيه آخر فقال ما هذا الهرث ثم لقيه آخر فقال
 ما هذا الضيون ثم لقيه آخر فقال ما هذا الخيدع ثم لقيه آخر فقال ما هذا الخيطل
 ثم لقيه آخر فقال ما هذا الدم ولو لقيه آخر في هذه الايام لقال ما هذا البسين .

فقال الاعرابي في نفسه احمله الى السوق وايعه فسيجعل الله لي فيه مالا كثيرا . فلما
 اتى السوق قيل له بكم هذا قال بما يقي دينار فقيل له انما يساوي نصف درهم فاحتجى
 الاعرابي غضبا ورمى به الى الارض وقال تبا له ما اكثر اسماؤه واقل ثمنه
 وبما ان العرب كانوا يكرمون الابل ويعظمونها لانهم كانوا يكتسون بوبرها ويتخذون
 بلحومها ولبنها وكانت هي تقوم بكامل خدمتهم الارتحالية بمنزلة عربات برية او مراكب
 بحرية ترى لغتهم مشحونة من الالفاظ المتعلقة بهذا الحيوان الهائل الجسم العظيم القدر
 فلا يوجد عضو للنافقة الا وله اسم خاص ولا توجد لها حالة او معنى الا وقد اوجدوا
 لها كلمة تدل عليها حتى صرنا اذا راجعنا قاموس العربية نجد فيه الوفا من الكلمات التي
 تنبعث منها رائحة النوق والجمال ويمكننا ان نقول على سبيل المبالغة انه يوجد في اللغة
 العربية عبارات للنافقة تكاد تساوي وبرها عددا . فما هي الفائدة للحضر من هذه
 العبارات مع استغنائهم بالعربات عن خدمة الابل وبقرقة دواليب المراكب النارية
 عن عجيجهها وبرائحة الفحم الحجري عن رائحتها . فهنا محل واسع للاصلاح ونقل ما
 يمكن نقله من تلك العبارات البدوية الى موضوعات حضرية يضطر الى وسائط
 التعبير عنها كل من القاه الدهر في وسط جماعة متمدة

هذا وان حالة العلوم المتعلقة باللغة العربية كالصرف والنحو مثلا ليست باقل
 احتياجا من اللغة نفسها الى الاصلاح من هذا القبيل . فانها في حالتها الحاضرة لا
 توافق الذين يقصدون العلوم طلبا لنوال ما يترتب عليها من امر المعيشة . وذلك لان
 كامل حياتهم بالكذ يكفي لتحصيلها على حقها وهذا من جملة الاسباب التي تجعل
 اهلهما يهملونها بالكلية او يتخذون لغة او لغات اجنبية ضرراير لها . وهل يليق بالانسان
 الذي انما جعلت له اللغة واسطة وبابا للعلوم ان يجعلها غاية ويصرف حياته كلها واقفا
 امام ذلك الباب يتفرج على نقشه وزخرفته الخارجي مع ايقانه بانه يوجد وراءه تحف
 قديمة وحديثة تسلب القلب وتحلب الالباب . وصاحب العقل السليم لا يسعه الجهل
 بان منهج الاقدمين في وضع قواعد هذه اللغة ونظامها وادخالهم بين تلك القواعد ابوابا
 من كل العلوم والفنون وتعليقاتهم المستطيلة التي يحسبها البعض منزلة مع انها ليست
 الا مناسبات حصلت بعد الوقوع تلهي ابناء هذا الزمان عن الالتفات الى الامور الحقيقية
 وتشغل وقتهم عن الوصول الى الفنون المفيدة . ولا شك ان ذلك هو من جملة الاسباب
 التي اوجبت فقد العلوم من بين العرب . ومما لا ريب فيه بانه يجب وضع قاموس اللغة

العربية والعلوم المختصة بها بالذات في قالب يجعل تحصيلها في ظرف سنة ميسوراً لاهلها الذين نباهتهم في اكتساب اللغات الغربية في المدة المذكورة يشهد بانه لا يجب ان يصرفوا اكثر منها في تعلم اصول لغة قد رضعوها مع اللبن . ولكن اذا وجد قوم من اصحاب الغنى والخطر يلذ لهم الفحص عن الامور القديمة والتفتيش على المواد السالفة ويقصدون ذلك بالذات فلنترك لهم الحرية التامة في هذا الامر ونكفلهم بالمحافظة على اللغة القديمة ولنذع نكأ كوة الاعرابي واشاجيع الحريري وفيروزاباديات الفيروزابادي موضوعات لتاملاتهم الدائمة ودرهمهم الابدي . والظاهر ان هذا الاصلاح محفوظ للاجيال المستقبلية

وهو مستغن عن البيان ان اللغة من شأنها ان تنمو بنمو معارف اهلها وفنونهم وصناعاتهم ومتاجرهم واختراعاتهم ومن ثم كان وضع حد للالفاظ والمعاني في لغة قوم مما لا تجوز محاولته ولا يمكن اجراؤه . لانه اذا وضع حد معلوم لالفاظ لغة ما كما هو الحال في اللغة العربية التي منذ اجيال كثيرة قد دخل فيها ما دخل ولم يبق باب لدخول غيره يلتزم اصحاب تلك اللغة عن امتداد المعارف والصناعات عندهم لاجل التمكن من استخدام الفاظ التعبير عما هو في انفسهم ولقضاء مصالحهم ان يلتجئوا الى لغة اجنبية او يخترعوا كلمات جديدة حوشية . وهكذا تولدت عند العرب لغة دارجة بينهم تختلف كثيراً عن لغة الكتب . وهذه اللغة الدارجة تراها تبهتد دائماً اللغة الاصلية . واذا طال الحال عليها هكذا تميمت كثيراً من الفاظها فوق ما امانته فيلتزم العرب في اخر الامر ان يفعلوا باللغة العربية كما فعل اليونان والارمن بلغاتهم الاصلية ويعطوا اللغة الدارجة محل اللغة الاصلية . فتصير اللغة الاصلية لغة العلماء واصحاب التفتيش فقط كاللغة اللاتينية عند الافرنج . ولا يمكن ان يتصور حصول خسارة للعرب اعظم من هذه . ولكن ازدياد عدد المدارس والمكاتب والمطابع في هذه الايام واملنا بالزيادة على زيادتها في ما ياتي بجعلان لنا شيئاً من الطمأنينة من هذا القبيل لقد تقدم القول ان ابا علي الحسين بن عبد الله الشيخ الرئيس المشهور باين سينا كان فرد زمانه في الفلسفة ومما حكاها الشيخ المذكور عن نفسه يظهر لطلبة العلم لزوم الاجتهاد في تحصيله . قال: ان ابي كان من اهل بلخ وانتقل منها الى بخارا في ايام نوح بن منصور واشتغل بالصرف في قرية حزمطين وتزوج امي من قرية يقال لها افشنة وولدت منها بها وولد اخي . ثم انتقلنا الى بخارا واحضرت معلم القرآن والادب

وكلت العشر من العمر وقد آتيت على القرآن وعلى كثير من الادب حتى كان يقضى مني العجب . واخذ والدي بوجهي الى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى اتعلم منه . ثم جاء الى بخارا ابو عبدالله الناطلي وكان يدعي الفلسفة وانزله ابي دارنا رجاء تعلمي منه فقرأت ظواهر المنطق عليه واما دقايقه فلم يكن عنده منها خبر ثم اخذت اقرا الكتب على نفسي واطالع الشروح وكذلك كتاب اقليدس فقرأت من اوله خمسة اشكال او ستة عليه ثم توليت حل الكتاب باسره . ثم انتقلت الى المجسطي وفارقي الناطلي . ثم رغبت في علم الطب وصرت اقرا الكتب المصنفة فيه وتعمدت المارضى فانفتح علي ابواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف وانا في هذا الوقت مناhez ست عشرة سنة ولم ازل كذلك حتى احكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي . ثم عدت الى العلم الاهلي وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة فما كنت افهم ما فيه والتبس علي غرض واضعه حتى اعدت قراءته اربعين مرة وصار لي محفوظاً وانا مع ذلك لا افهمه وايست من نفسي وقلت هذا كتاب لا سبيل الى فهمه . وفي ذات يوم حضرت وقت العصر في سوق الوراقين وييد دلال مجلد ينادي عليه فعرضه علي فرددته رداً متبرم معتقداً ان لا فائدة في هذا العلم فقال لي اشتر مني هذا فانه رخيص ابيعهك بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج الى ثمنه فاشترته فاذا هو كتاب لابي نصر الفارابي في اغراض كتاب ما بعد الطبيعة فرجعت الى بيتي واسرعت قراءته فانفتح علي في الوقت اغراض ذلك الكتاب بسبب انه قد صار لي على ظهر القلب وفرحت بذلك فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها . وكنت اذ ذاك للعلم احفظ ولكنه اليوم معي انضج . الى هنا ملخص ما حكاه الرئيس ابن سينا عن نفسه .

ولنرجع الى ما كنا بصدده من تاريخ اداب العرب فنقول

وما زالت العرب كذلك حتى سقطت رغبة الملوك والاكابر في العلم فانقطعت اسباب الطلب وتعطل السعي في تحصيله ودرست مصنفاته حتى فقد كثير منها فلم يبق لها عين ولا اثر وكسدت بضاعة العلم وافنى الدهر اهله واستولى الجهل بسطوة عظيمة على الناس حتى صاروا يظنون ان تحصيل العلوم امر فاسد وسعي باطل . فلما رأَت العلوم كساد بصاعتها وعدم رواج سوقها بين العرب اكبتت بشياب الحداد وسارت كاسفة البال قاصدة بلاد اوروبا عن طريق المغرب واسبانيا لتلجج هناك تحت الالوية الغربية . واذ كان الافرنج قد زاروا البلدان المشرقية واختلطوا بالعرب

مدة مستطيلة وهناك استفادوا ذوقاً جديداً ورغبة جديدة في المعارف والعلوم واطلموا على فوائد التمدن فتحوا لها ابوابهم وقلوبهم مترحين بذلك الصديق القديم الذي كان قد فارقتهم منذ اجيال كثيرة لعدم قيامهم بحقه . ففعل كرلوس الكبير ملك فرنسا بالعلوم العربية كما فعل المامون بالعلوم اليونانية . فامر بترجمة اطياب تصانيف العرب الى اللغة اللاتينية محافظاً على نسختها الاصلية خلاف لما روي عن المامون . وهكذا العلوم التي انتقلت من الغرب الى الشرق من جهة القطبة الشمالية رجعت بارباحها الوافرة من الشرق الى الغرب من جهة القطبة الجنوبية واخذت تنتشر في البلدان الغربية حتى وصلت الى اقصى اطرافها . وهكذا اخذ نورها يتناقص في الشرق ويزيد في الغرب منذ الجيل الثاني عشر حتى وصل الى ما وصل اليه الان عند العرب والافرنج . ولا يخفى ان الافرنج فضلاً عظيمياً على العرب في امر المحافظة على كثير من التصانيف العربية الاصلية ولولا ذلك لكانت فقدت بالكليّة

فاين كان العرب واين هم الان قد مضى جيل ادايهم الذهبي وخيم عليهم جيلها المظلم . وكان ابتداء جيلها المظلم اواخر الجيل الرابع عشر وما زال نثو ويزيد حتى عم البلاد والعباد . ابن الشعراء ابن الاطباء ابن الخطباء ابن المدارس ابن المكاتب ابن الفلاسفة ابن المهندسون ابن المؤرخون ابن الفلكيون ابن كتبه هذه الفنون ابن العلماء المحققون والادباء المدققون . نعم انه قد بقي في كل ملة ومذهب علوم بالكند تكفي لبقاء نوعها والمدافعة عنها عند الاقتضاء ولكن ماذا ذلك بالنظر الى محيط العلوم الحقيقية . ابن مجد بغداد ابن فخر حلب ابن زينة الاسكندرية ورونق الاندلس وبهاء دمشق . ابن المامون ابن المستنصر ابن المتنبى ابن ابو الفدا ولكن اما تذكر هذه العلوم الالفة القديمة وترجع فتزور ديارنا وتخفف شقاء العرب وتصلح بلادهم واحوالهم . اننا اذا نظرنا الى الجيل التاسع عشر يفتج لنا باب للامل . فلتبشر بنو سام لان اولاد عمهم بني يافث قد ابتداءوا يرجعون لهم ما اخذوه منهم مطبوعاً وعلى ظهوره اكتشافاتهم المتأخرة نظير فائدة لارباء عن مدة اربعمائة سنة وان يكن في اكثر الاوقات منفصلاً ومعاقاً بما يظهره البعض من اولاد عمنا المذكورين من العتو والاستكبار على جنسنا الشرقي والاستهانة به . نحن سنناهم العلوم من يدنا اليسرى عن طريق واحد واما هم فآخذون في ارجاعها لنا بيدهم اليمنى عن طرق شتى . ويجب ان نضع المرسلين الامركان والرهبان والراهبات اللاتينية وعلى الخصوص اليسوعية منهم

والعازارية في الرتبة الاولى من هذا القبيل لان حسن قدوتهم وفضل مساعيهم في هذا الامر بواسطة مدارسهم ومطابعهم ظاهران لا ينكرها الا من كان منكرًا الجليل او من اصحاب الغرض والتعصب . وقد فعل المخذل الذكر محمد علي باشا في هذا الجليل بكتب الافرنج ما فعله كرولس الكبير بكتب العرب فامر بترجمة اطابها الى اللغة العربية وسلمها مع كثير من الكتب العربية القديمة للمطبعة المعتبرة الموجودة في بولاق من الاقليم المصري فخرج منها كتب شتى في اللغة والطب والطبيعات والتاريخ وهلم جرا فزين لغته العربية بكامل الفنون والصناعات من العربية والافرنجية وعسى ان يحذو بحاله وحفدته حذوه في هذا الامر . وهكذا ترى العلوم والفنون الافرنجية المبنية على مبادئ حقيقية قادمة اليها من كل فج عميق . وما مكث فيه الافرنج السنين العديدة والمدد المديدة يمكن العرب ان يكتسبوه في اقرب زمان مع غاية الاتقان والاحكام . فالعلوم اذاً قد اتمت دورتها بوصولها الى العرب عن طريق الاسكندرية واسلامبول والهند وبيروت . وكما ان الافرنج لم يستخفوا بأداب العرب في ايام جهلهم لاجل مجرد كونها منسوبة الى العرب كذلك لا يلقى بالعرب ان يستخفوا بعلوم الافرنج لاجل مجرد كونها افرنجية . بل يلقى بنا ان ترحب بالعلوم من دون نظر الى من يعطينا اياها سواء كانت آتية من الصين او الهند او العجم او اوربا . وادعاء البعض بان العرب يوجد عندهم كل شيء يحتاج اليه من العلوم والفنون لا يوجد برهان اقوى منه على عمق جهلهم . وكما ان العرب لا ينافون ان يكتسبوا الصناعات من الافرنج وياخذون عنهم العادات من الحسنة والمستهجنة لا ينبغي ان يستنكفوا من ان يكتسبوا منهم العلوم التي هي واحدة عند الجميع

ان الافرنج يشهدون للعرب بالذكاء وسرعة الفهم ويمدحون تدماءهم ويعترفون لهم بالعلوم والمعارف ولكن شتان بين علومنا التي كنا نعرفها وبين علومهم الان كما هو مشاهدًا حساً . مثلاً علم الحساب فان ما تمكث في حسابه ساعتين وثلاثاً هم يحسبونه في دقيقة واحدة بحساب اخترعوه يسعي بالانساب اي اوقاف الاعداد . ونحن لا نعرف الا سبعة كواكب سيطرة واليوم عندهم تنيف على الاربعين ولا نعرف الا اربعة عناصر واليوم عندهم نحو خمسة وستين والهواء الذي نحسبه بسيطاً عندهم مركب من بسيطين ويفرقونها بالمشاهدة بالآلات اخترعوها لذلك وكذلك الماء عندهم مركب من عنصرين وقد كشفوا كثيراً من المعادن التي لم تعرف سابقاً وما كشفوه

في هذا القرن من نتائج الكيمياء والعلم الطبيعي والهندسة وجر الاثقال والمناظر لم يعهد سابقاً ولا اطلع احد من قدماء اليونان وغيرهم على اقله وذلك كسفينته البخار وطريق الحديد ونواعير المعامل والزبد الفحمي لوقد المصانع والموصل البرقي الذي يوصل الخبر في دقيقة واحدة الى مكان بعيد بينهم وبينه صحارى وبحور وغير ذلك من المنافع التي لا تحصى والاكتشافات العجيبة التي بواسطتها انقلبت عناصر الاقدمين وانتقضت مبادئ علومهم الطبيعية . وذلك لان العلوم كانت قديماً في سن الطفولية واما الان فقد ادركت . وستفعل الاجيال الالية بكثير من فنون هذه الايام ما فعله ابناؤه الزمان بفنون المتقدمين وذلك لانهم سيستفيدون منها ويتبدئون من النقطة التي وصل اليها اسلافهم بعد جهاد طويل كما يكون غالباً في كل شيء ابتدائي ولا يخفى ان آداب الاقدمين كان بها شوائب كثيرة وطريقة الانشاء عندهم كانت غير تامة وقد اعتمدوا على التعقيد في كل تصانيفهم وداخلت الخرافات اكثر فنونهم وبنوا اشياء كثيرة على مبادئ فلسفة اليونان التي جعلت اصحابها في عالم الوهم وكانوا يدعون بانهم يعرفون كل شيء بعلمه ولهذا كثرت منفسطاتهم وتزايدت اغلاطهم واوهامهم واذا قابلنا علومهم وادابهم وطبهم وطبيعياتهم وهلمَّ جراً بما يوجد عند ابناؤه هذا الزمان يظهر لنا الفرق ظهور الشمس في رابعة النهار والذين لم يتيسر لهم الوقوف على علوم الافرنج وتصانيفهم يقررون لهم بانهم الهة الصنائع زاعمين ان عقولهم في ايديهم ولكن من وقف على الحقيقة لا يسعه الانكار بان الافرنج هم الهة العلوم ايضاً وبان عقولهم في رؤسهم كعقولنا

القسم الثالث في اداب العرب في هذه الايام

لو كلفت الوقوف امام سيادتكم لاجل الكلام عن هذا الموضوع نحو ثلاثين سنة قبل الان لكنت انجمل نظير ابن وطن من فتح هذا البحث الذي كشف مكنوناته يوجب عاراً وخزياً على ابناؤه بلادي عند الاجانب لانني حينئذ كنت التزم ان اجول في اسواق هذه المدينة (حتى لا اتول في كامل البلاد التي كانت في الازمان السالفة مرضعة للاداب وسريراً للتمدن) وافتش باجتهاد على من يقدر ان يقرأ مكتوباً او كما يقال يفك الاسم . واما الان فانه يوجد امور كثيرة تقوي آمالنا في المستقبل ومع اننا مديونون في اكثر هذه الامور للغرباء يمكننا ان نرفع رؤوسنا بما وجد منها

عندنا مع قطع النظر عن مصدرها لا على سبيل عدم الشكر وانكار الجميل بل لاجل
 التقوية والتشجيع . وبما ان هذه الامور هي طارئة وفادرة الوجود لا يجب ان نفعل
 عن تبيين الحق والاحوال الحقيقية لان الحكم على الاغلب والافراد لا تعتبر . وفي
 الكلام عن هذا البحث يلزمنا اجتناب التطويل والتفصيل والاكتفاء بالاختصار
 والاجمال بقدر الامكان اعتماداً على ما تقدم وعلى معلومات سيادتكم

انه يمكننا النظر الى البحث الذي امامنا من اوجه عديدة تقتصر على اربعة منها
 وهي حالة العرب بالنظر الى الاداب وحالة الاداب نفسها عند العرب وحالة الوسائط
 لاكتساب الاداب وامالنا في المستقبل فنقول

اولاً ان العرب في ايماننا هذه فتوعون جداً في امر الاداب . فانهم يكتفون
 باقلها ويحسبون انفسهم انهم قد وصلوا الى اعلى طبقات العلم مع انهم لم يقرعوا بابها
 ومن تعلم منهم كتاب الزبور والقرآن يقال انه قد ختم علمه واذ تعلم شيئاً من اصول
 الصرف والنحو يقال فيه انه قد صار علامة زمانه واذ نطق بالشعر فلا يبقى عندهم
 لقب يصفونه به . وما ذلك الا لان ظهور النور قليل في العاقل كافٍ لان
 يغشى على عيني الجاهل ولا يلمح الى الان لم يقنوا على شاطئ اوقياوس العلوم ويروا
 عظمتها واتساعها . ومع اننا نعتقد بان عرب هذه الايام هم من نسل العرب
 القدماء لا نرى فيهم ما رأينا في اولئك المجاهدين من الثبات والجهاد في ميدان
 العلوم . ولا نقدر ان نعلم بان النسل قد فسد وذلك لان جودة عقول العرب وحسن
 استعدادها في هذه الايام لتحصيل العلوم يبرهنان النقيض ولكن ذلك ناتج من احوال
 كثيرة واسباب متنوعة نود لو سمحت بالاقوات لبيانها لكي تخفف عن هم من
 لحنا ودمنا اللوم الواقع عليهم من الاجانب الذين لا نشك بانهم كانوا وصلوا الى حالة
 اردأ من حالتنا لو القاهم الدهر في ظروف كظروفنا . ولكن مهما كانت الاسباب
 فلا سبيل الى انكار كساد بضاعة العلم عند العرب وعدم رواج سوقها بين جماهيرهم
 وعلى الخصوص اكبرهم

ثانياً ان الاداب عند العرب في هذه الايام هي في حالة انحطاط كلي . اما
 العلوم اللغوية فاننا قلنا نجد احداً من ابناء العرب يمكن ان يشار اليه بالبنان بانه يعرف
 لغته وتواعدها حق المعرفة . فانهم في الاكثر يكتبون من علم اللغة بحفظ بعض
 كلمات غريبة ميتة يدرجونها في كتاباتهم واشعارهم بقصد اظهار معرفتهم والتبويه

على الجمهور وما تلك الا حصى صغيرة يتلاعب بها الجليل في ايام طفوليته . ومن قال
 منهم سلسلة الزري وهزا ومنهي وفيه (اي ثلثه والذي وهذا ومنه وفيه) وما اشبه
 من افساد اللغة فهو ناح . واما المعاني والبيان وما يتعلق بهما فتروك حل مسائلها
 وفهم مؤلفاتها النفيسة التي لم تفقد من العجز الى همة ونشاط اجيال مستقبلة ما علم
 لمنطق فيكفيه اعتباراً وحفظاً عند اكثرهم قولهم فيه من تمنطق فقد تزندق . واما
 العلوم التعليمية كالحساب والهندسة ومعلقاتها فهذه يكتبون منها بالجمع والطرح
 ومن زاد عليهما الضرب والقسمة وحفظ بعض مسائل باجوبتها مما اوجده لهم الادمون
 يذيع اسمه في الافاق انه من شمول العلماء . ويستغنون بالمقومين عن المساحين
 وبالبنائين عن المهندسين . واما علم الفلك فلا يوجد له من محام ولا حافظ وكأنه علم
 لا فائدة به للعرب لانهم يعلمون ان الشمس تغطس في البحر وان الكواكب فوق
 رؤوسهم من دون افتقار الى اجتهاد ولا درس ولا عناء . واما علم الطب فهو صناعة
 قد فححت ابوابها غفواً لمن اراد ان يدعيها لنفسه وان كان لا يعرف القراءة بشرط
 ان يكون في حوزته ريشة ماضية لتقطيع اوصال العباد . وهي الصناعة الوحيدة التي
 يمكن الانسان ان يتعاطاها من دون ان يتعلمها من استاذ . والحق بالطب علم
 الكيمياء تانه قد تفقر عند العرب الى حالته التي كانت له قبل ان مدوا اليه ايديهم
 كما سبق القول . واما صناعة الانشاء فهذه منحصرة في نقل بعض كتابات قد
 ورثاها من المرحومين . واما الخطب فهذا ميدان الديني منها المتابر وميدان الديني
 القهاوي ولا يدخل في هذا الميدان الا من كان خشن الصوت حسن الذاكرة يحفظ
 بعض حكايات من قصص السندباد البحري وبني هلال وما اشبه ذلك من الحكايات
 الموجودة في كتاب الف ليلة وليلة وغيره ويحكيها على من حضر في القهاوي تكلمة
 للكيف على حقه ولكي تكون دليلاً على اصل متروك . واما علم النبات فهذا متروك
 لرعاة المواشي والفلاحين . واما علم الزراعة الذي وصل الى اعلى طبقاته عند اجدادنا
 فهو الان متروك لرحمة النقل والتقليد . واما علم التاريخ فهذا مفقود ليس من يعتني
 به . واما علم الجغرافيا فيكتفي الواحد منهم بمعرفة اسم بلده وطريق بيته ويحشى
 ان يصيبه دوار اذا تعلم ان الشمس ثابتة والارض تدور واما الشعر الذي من شأنه
 ان يتقدم جنازة الآداب او يبشر بولادتها فبابه مفتوح غفواً لمن اراد الدخول
 وكل من حافظ على القوافي واللبس معاني الاقدمين اخلاق ثياب فهو شاعر ولكن

اذا ابداعه انه اتى بكلمات غير منهومة واطهر مهارة وبراعة في التضمن والاقباس حتى لا اقول في السرقة من الاقدمين فهو خنذيد . وهكذا القول في باقي العلوم . وما دام العرب يكتفون بالتقليد والنقل ولا يريدون ان يتعبوا انفسهم بالتحص والتحقيق لا يؤمل تقدمهم في العلوم والفنون . لا تعج ايها الدم العربي ولا تفتظ من الحق عندما تسمع واحداً مشتركاً فيك بين لك حقيقة حالك لا على سبيل التقرير والطعن بل لاجل ايقافك على الحقيقة عسى ان يكون ذلك واسطة لانتباهك وتقويتك في طلب العلم والتجدد في ميدانه . وسوف تسمع مني كلاماً لطيفاً يستر شيئاً مما تقدم كما ان حالك الحاضرة تبطل حقتك في الافتخار بما سبق ذكره من فضل اجدادك

ثالثاً ان الوسائط لاكتساب الاداب كثيرة تقتصر منها على ما ياتي ومما سيرد بيانه توضح حالة هذه الوسائط بين العرب

فمن الوسائط التي قصدنا ذكرها المطابع ولا يخفى ان عدد المطابع وقوتها قد زاد كثيراً في هذا الجيل الا ان كثيراً منها طائفي مشتمل في طبع كتب دينية . والبعض منها الى الان لم يعط الجمهور برهان وجوده . فانه في نفس هذه البلدة توجد خمس او ست مطابع يخرج منها كتب واوراق متنوعة ولا ريب ان هذه المطابع لو اشتغلت حق الشغل واعتنت في طبع ما من شأنه ان يفيد الجمهور بوجه العموم اداًباً وتمدناً لكانت في مدة قصيرة تغني ابناء العرب بالكتب والمكاتب . ولا ينبغي ان نغفل عن القوة العظيمة الموجودة فوق رؤوسنا التي استخدم لها المرسلون الامركان البخار ولا شك في انها قادرة على نشر المعارف والتمدن في هذه البلاد في برهة قصيرة . وقد خرج منها كتب نفيسة في العلوم الرياضية والتاريخية فضلاً عن الكتب الكثيرة المتعلقة بالمذهب ولو اطلق لها العنان وجرت بكامل قوتها في ميدان الآداب والعلوم لاغنت هذه البلاد في التصانيف المفيدة . ولا عن المطبعة السورية التي خصصت بمديقة الاخبار . ومما لا يشوبه ريب ان الجرائد من اكبر الوسائط لتمدن الجمهور وزيادة عدد القراء اذا استعملت على حقها والامل ان هذه الفتاة التي هي اول مطبعة عربية خصصت بالجرائد تقوى وان اتعاب مالكم ومدبرها العزيز خليل افندي الخوري تكلل بالنجاح فيجد ذكره عند ابناء الوطن كفاتح لهذا الحصن الحصين الذي اغفل المتقدمون عن فوائده . وكافي به واقفاً على شاطي البحر الكبير الفاصل بين العالم القديم والعالم الجديد يستشرف تارة على الجديد ويلاحظ اخرى على القديم

ولدى انتشار ديوانه الموسوم بالعصر الجديد الذي افرغ فيه الشعر القديم في قالب جديد يتضح المعنى المقصود . وتوجد مطابع اخرى كثيرة عربية في قزحيا والشويعر وحلب والقدس وبلاد المغرب ولكن المطبعة التي تستحق الذكر وقد اغنت الجنس العربي بالكتب المتفنتة هي مطبعة بولاق . ونستدل على حسن نظام هذه المطبعة وعظم فائدتها من الكتب الكثيرة التي خرجت منها من اصلية و مترجمة . وقد ابتداء مترجموا ونظروا هذه المطبعة يتجنبون بقدر الامكان استعمال الفاظ اجنبية في ما يترجمونه من اللغات الافرنجية مع انهم في ابتداء الامر عندما كانت المطبعة في سن الطفولية كانوا يكثرون من الالفاظ العربية مع وجود الفاظ في العربية تقابلها . ولا يخفى ان المطابع العربية في اوربا وامركا اكثر منها في هذه البلاد وانه لولا عناية هذه المطابع لما بقي عين ولا اثر لكثير من تصانيف الغرب النفيسة وهكذا نرى كثيراً من كتبنا العربية راجعاً اليها بعد غربته الطويلة مطبوعاً بحرف جميلة وباليقينا تقدر ان تقول بالضبط التام والصحة الواجبة

ومنها المكاتب . ومع انه يوجد مكاتب كثيرة خصوصية في هذه البلاد ترى بخجل مقتنيها او متوليها من الجهة الواحدة وعدم امانة مستعيري الكتب من الجهة الاخرى يقفلان عليها ابواباً حديدية ويتركها لرحمة العث وماوى للغبار . ولكن ما الفائدة من تكثير الكتب اذا لم يكن من يقرأها وهذا يقتادنا الى ذكر واسطة اخرى من وسائل اكتساب الاداب وهي المدارس

لا يخفى ان عدد المدارس قد زاد كثيراً في هذا الجيل . فانه يوجد في هذه المدينة مدارس كثيرة لكل ملة ومذهب منها لتعليم اللغات ومنها لتعليم القراءة البسيطة وهل هي في حالة مناسبة لنوال الغاية المقصودة منها . فان من نظر الى نظامها ومعلميها واكثر كتبها واماكنها لا يشكل عليه الجواب واستيفاف الاهالي بالمدارس البسيطة وتسليم اولادهم لمعلمين غير مقتدرين على تعليمهم كما يجب هو مما يوجب فساداً في اداب الجيل ومعارفه منذ طفولته . وتوجد مدارس بسيطة في اكثر المدن والقرى وكثير منها بسعي الاجانب لان اكثر اهالي بلادنا الى الان متغافلون عن اعتبار قيمة العلم فلا يشاءون ان يفتحوا له باباً في دفاتر مصاريفهم وهم تكون قليلة عند الوالدين والاولاد قيمة العلم الذي يكتسب مجاناً من دون ان يكلف الوالدين شيئاً . واما المدارس العالية فهي قليلة تقتصر في الغالب على علوم تتعلق بالمذهب حتى انه لا

يمكننا ان نقول بالصحة انه توجد مدرسة كلية ينظر فيها الى العلوم باعتبار ذاتها .
 ومن المدارس العالية الوطنية النصرانية مدرسة عين ورقة المشهورة التي يسوغ لنا
 ان نقول بحق انها ام المدارس الوطنية في هذه البلاد وقد انشئت في اواخر الجليل
 الماضي . ومن اطلع على شدة غباوة الازمان التي انشئت فيها وانتقار الاهالي قاطبة
 في تلك الايام الى العلوم يتبين له فضل المطران يوسف اسطفان منشئها ويزيد
 اعتبار فضله عند ما يقف على المقاومات التي حصلت له عندما رفع الراهبات من دير
 عين ورقة ووزعهن على الاديرة ووضع مكنهن فتياً يتعلمون بنية الافادة والتعليم
 ولا ينبغي ان ننسى فضل مساعي سيادة المطران يوسف رزق رئيس المدرسة المذكورة
 حالاً فانه قد زارها قوةً بواسطة زيادته اوقافاً على اوقافها وورثتها بواسطة الابنية
 الجديدة والاصلاحات العديدة التي احدثتها همته ونشاطه فيها وقد امتد فضله الى
 الواقف امام سيادتكم اذ قد صرفت عشر سنين في المدرسة المذكورة اتعلم واعلم محفوقاً
 بزيد غيرته الخصوصية عليّ وشمولاً بانظاره وعنايته . وقد اقتدى بالمطران يوسف
 اسطفان غيره فاخذت عايلة بيت صفير دير الرومية وعايلة بيت آصاف دير مار عبدا
 هرريا من الراهبات اللواتي من شأن طريقتهن ان يقتصرن على ما به افادة انفسهن
 ووضعتا مكنهن اولاداً يتعلمون هناك ما من شأنه ان يقوي اركان الطائفة المارونية
 ويهذب شعبها . وهذه الطائفة فضل الاسبقية في هذا الامر . ولها غير المدارس
 الطائفية العمومية المذكورة مدارس اخرى عالية ابرشية توجد في اكثر الابشيات
 لتعليم اولادها . وكذلك الروم الكاثوليكيون قد اقاموا في هذا الجليل مدرستين
 عاليتين الواحدة في دير المخلص وهي مختصة بالرهبان الخلصية والاخرى في عين تراز
 لاجل تعليم العوام انشأتها غيرة البطرك مكسيموس المشهور . وهذه الاخيرة لم تبق
 الا سنين قليلة . واملنا ان هذه الطائفة التي هي مع قلة عددها بالنظر الى باقي الطوائف
 طائفة معتبرة في غناها ووجاهتها وتمدينها تنتبه الى هذا الامر بقدر ما تقتضيه حالتها .
 واما الروم الارثوذكسون فقد اتنبهوا في هذه السنين الاخيرة وهم الان باذلون المهمة
 في تكثير المدارس وتوسيع دائرتها خلافاً لما نعهد من سلفائهم . ومن يستحق الذكر
 منهم نظراً الى عالي همته وشدة غيرته في هذا الامر المرحوم نعمة الله طراد الذي
 بقي سنين كثيرة وكياً على مدارس هذه الطائفة وتسلم الطائفة المذكورة ادارة مدارسها
 في هذه الايام لعمدة من معتبري ابناء الطائفة في الفنى والوجاهة والمعرفة كانخواجا حبيب

جرجس بسترس وارفاته الوكلاء يفتح لنا باباً للامل بان هذه الطائفة التي تعد اعضائها في هذه البلاد يساوي عدد باقي الطوائف النصرانية جميعاً ستكون في مقدمة جيش طلبة العلم ومدخلي التمدن بين اهالي بلادنا. ولا ينبغي ان ننقل عن مدرسة السريان الكاثوليكين في دير الشرفة ومدارس الارمن ومدرسة الرهبان العازارية في عين طوره ومدرسة الامركان في عيبه ومدرسة الرهبان اليسوعية في غزير فان فوائدهن لا تنكر. ولكن في جميع المدارس المذكورة محل متسع للاصلاح ولا بد ان الاصلاح سيدخل رويداً رويداً مع تقدم الجيل

واما الاسلام فن مدارسهم الشهيرة المدرسة التي انشأها مامون الجيل التاسع عشر محمد علي باشا في بولاق من الاقليم المصري ونرجوا انها تبقى محفوظه بعبابا الخديوي سعيد باشاوالي مصر حالاً ومشمولة بانظاره. وقد خرج منها تلاميذ معتبرون وجهابذة مدققون اشتهر فضلهم بواسطة التأليف والترجمات العديدة الدالة على جهادهم ودقة عقولهم وزيادة تحقيقاتهم. ولهم مدارس اخرى لا يسعنا الوقت لذكرها غير ان الاكثرين منهم الآن يفتقدون بآبن سينا في طريقة اكتساب الاداب كما علمت من روايته السابق ذكرها عن نفسه. وعسى ان يتحول كثير من المزارات والخلوات الى مدارس لان احوال هذا الجيل تعلن ان القلم قد تقدم على السيف خلافاً لقول المتنبي حتى رجعت واقلامي توائل لي
المجد للسيف لبس المجد للقلم
فاكتب بنا ابدأ بعد الكتاب به فانما نحن للاسياف كالنجم

وبذلك حصل التقدم لاصحاب المعارف والعلوم على اصحاب الشجاعة والسيوف لان دولاب العالم يدور على رأس القلم وما احسن ما قاله الامام علي في هذا المعنى
ما الفضل الا لاهل العلم انهم على الهدى ان استهدى ادلا
فقم بعلم ولا تبغي به بدلاً فالناس موتى واهل العلم احياء

فيا ابناء الوطن يا ذرية اولئك الافاضل وحفدة معاشر السريان واليونان الممتطين سناب الجيل التاسع عشر جيل المعرفة والنور جيل الاختراعات والاكتشافات جيل الاداب والمعارف جيل الصنائع والفنون هبوا استفيقوا انتبهوا استيقظوا شمروا عن ساعد العزم ها الاداب واتفه من كل جهة على ابوابكم تفرع طالبة الدخول الى جبالكم الشامخة البهية واوديتكم وسهولكم وحاريكم التي زينتها الطبيعة بجلاها الفاخرة فاندبوا عنكم تعصباتكم وتحزباتكم واغراضكم النفسانية وقدموا لها يداً واحدة لمصالحتها وافتحوا

الابواب لهذا الصديق القديم الاتي اليكم بمد غربة مستطيلة وترحبوا به واقبلوه بكل فرح وحبور فيملا بلادكم راحة ورفاهية ويكسوها رونقاً ودفراً

ولا ريب ان التقدم المتصل الذي حصل في هذه البلاد في السنين القليلة المتأخرة مما يقوي عزائم كل من له رغبة وغيرة على انهاض الجنس العربي من حالته السافطة وان اتعاب الذين صرفوا السنين الكثيرة في ادخال الاداب والتمدن بين العرب من ابناء الوطن والاجانب ستكمل بالنجاح . وسامي هممة حضرة الذات الشاهانية حضرة سلطاننا الاعظم السلطان عبد المجيد خان ذي النية الخيرية نحو راحة ورفاهية وامنية ونجاح وتقدم كامل اصناف تبعته وارادته الصالحة نحو اعطاء الحرية وانشاء المدارس وتوسيع دائرتها في مملكه المحروسة مما يجب ان يحرك عواطف كامل رعاياه الى محبته والى رفع الدعاء الى الله سبحانه وتعالى ان يطيل بقاءه ويوطد اركان دولته . ولا يخفى ان ذلك مع امتداد التجربين العرب واختلاطهم بشعوب متمدنة وازدياد عدد المطابع والمدارس وانتظام حالة المجالس والمحافل وتقدم رجال الدولة في المعارف وفتح باب ميدان الانشاء والخطب والمحاورات الادبية والدينية والسياسية واطلاق زمام العقل وعنان الارادة والانتباه الى تعليم النساء وعلى الخصوص في هذه المدينة التي كانت في الازمان السالفة مرضعة للفقه ويؤمل انها ستكون في ما ياتي مرضعة للاداب كل ذلك يقوي عزائمنا واملنا بان العلوم ستمتد بين ابناء الرب وتملا ديارهم وترجع الى رونقها القديم وبان هلال الآداب الذي ولد في اوسط الجبل التاسع عشر سيصير بدرأ . انتهى

قدم ملخص هذه الخطبة ارتجالاً بحضور عمدة الخطب واما نخفل حافل من افرنج وانباء عرب في بيروت وذلك في اليوم الخامس عشر من شهر شباط سنة ١٨٥٩

العربية والعرب

« للعلم عبدالله البستاني »

لا بد للره من احد ادلة يستظهر بها على ابراز سرائر وهي الاشارة والكتابة والكلمة ومحور كلامنا مقصور على الكلمة وهي ما يعلن للمخاطب مراد المتكلم تلازم النوع الانساني من لدن دروجه الى ان احتضاره وبها يستميز عن سائر الحيوان .

وليس من لازم الامر ان تستمر كما نشأت بدأة بل قد تهذب وتسطلح كما استوسعت دائرة الهيئة الاجتماعية لانها الذريعة الكبرى التي يستخدمها الانسان في تصوره وتصديقه وهي عنوان عقله وقلبه تدل على ما يسره ان علماً وان جهالة . وهذه الكلمة انما هي اللغة التي بها تتوثق الالفة وتنتشب في بعضها وهي مفردة في البدئية يتعسر على مبدوع ان يبدعها لانها شريكة الفكر هبطت على ايها الاول فانطلق بها لسانه وتناقلها اخلافه . الا انها لم تثبت واحدة بل تنوعت وتشعبت لا لفساد عرض لها لان القوم اذا ما اطالوا الثبار على المعاني التي تدل عليها الالفاظ الوضعية فلا حذر على اللغة ان ييادها فساداً او تضمحل لكننا ذلك من فساد طرا على افكار متكلميها فغيروا المعاني وصحفوا الالفاظ وحرفوها والبواعث على ذلك شتى منها تشعث الشعوب وتباينهم واختلاف القرائن واسباب المعاش والملاذ وغير ذلك فبعد ان انتهت على البسيطة شأيب الطوفان واقتسم اولاد نوح بينهم الارض اجزاء فطن سام سوريا فنكلم بنوه لنته لكنها تشعبت بتشعب متكلميها وقصومهم عن بعضهم وتفرعت فكانت فروعها العربية والسريانية والعبرانية والفينيقية والكلدانية . وذهب الاكثرون الى ان العربية اصل هذه الفروع وتيل ان اول من نطق بها يعرب بن قحطان وهو الذي ذكره حسان بن ثابت الانصاري بقوله

تعلمت من منطق الشيخ يعرب ايها فصرتم^م معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً ما لكم غير عجمة كلام^م وكنتم كالبهايم في القفر

واختلفت الناس على تسمية العرب فقتل ابنهم شقوا اسمهم من يعرب نسبة اليه وقيل من عربية جزيرتهم وميمت بذلك لكثرة الام التي مرحت عليها قديماً او لما فيها من البوادي والصحارى الشاسعة ويستدل على ذلك من ان معناها الكثرة والفيضان مشتقة من عرب النهر اي فاض وكثر ماؤه واول من قطنها قريش وذكرها شاعرهم ساكنة الراء ضرورة بقوله

وعربة ارض لا يحل حرامها من الناس الا اللوذعي الخلالح
ومها كان من الامر فان هذه اللغة التي عليها مدار كلامنا كانت بداءة بدء
لهجة اقوام حصونهم صهوات خيولهم ومهاذم الارض وسقوفهم السماء لا يعثري السنتهم
لكنة او لثغة بل كان الواحد منهم فتيق اللسان كمانياً وبنات افكاره غير مؤودة
كلهم يفقهون لغة اللغة وسدادها وتعصبيهم السنتهم اذا تعمدوا ان يتكلموا خطأ

ومع ذلك فكانوا اميين الا النادر منهم يدركون كل ذلك بالسليقة . فلبثت اللغة في عهدهم روضة جنية الازهار يفخر العربي القحاح بقلائد قريضا . ولقد طالما تماهر الشعراء بذلك فاقاموا بين نخلة والطائف سوقا دعوها عكاظ كانت القبائل لتداعي اليها من كل قطر ومصر ويتبايعون ثمة الشعر علما بان ذلك يكسبهم حسن الاحدوثة وطيب الذكر . فكانت اللغة وقتئذٍ تحتال في مجبوحة العزيرع المنافسون اليها سرايات وياتونها بما يزيدهار وقتا وكالا واستمروا يكبون على الافتنان فيها يجمعون لكل حكم من احكامها وجهما سديدا يضافهم على ذلك الزكن والحصافة . فكانت باعتبار الالفاظ منقولة وباعتبار الاحكام معقولة ولبثت على هذه الحال الى ان تزبل الاسلام عن الحجاز وخالطوا الاعاجم ففسدت اللغة وكاد السمع يزبل تلك الملكة الراضحة في السنة متكلميها . فتولد اللحن والامالة في غير محلها فشق ذلك على ذوي النهي والخذق وخشوا من ان تنقلب هدفا للتهجين والتنقص فاستنبطوا لها روابط وضوابط لتكفل برعاية اصلها وذلك باستقراء كلام العرب والاشعار المروية عن قدماء القوم وجاهليتهم وجعلوها صناعة اصطلاحوا على تسميتها بعلم النحو . ومع هذا فلم يقص ذلك الجلجلة عن بعض الاسنة لان العرب لفطرتهم على الفصاحة كان النطق بالاعراب سجية فيهم من غير تطبيع كما قال الشاعر

فلست بنحوي يلوك لسانه ولكن سليقي اقول فاعرب

واول من انتبه لهذا الفن في صدر الاسلام ابو الاسود الدئلي واصدق الروايات في سبب انتباهه لوضعه انه دخل يوما داره فقالت له احدى بناته يا ابت ما احسن الساء فقال يابنية نجومها فقالت افي لم ارد اي شيء منها احسن بل اني اتعجب من حسنها فقال فقولي اذا ما احسن الساء ووضع حينئذٍ النحو . فلا يذهب عنكم ايها السادة ان النحو من اجل علوم اللغة لان عليه مدار المعاني واختلاف المباني فيتلاعب باللفظ والمعني كما في ما احسن الساء فلو اقتربنا مثل ذلك سايرين غور اللغة لاوردنا صوراً كثيرة مختلفة كقولهم هذا بسر اطيب منه رطب وغير ذلك فلعمري ان ذلك ليس له نديدة في لغة غير العربية ومن قاس الامور بمعيار البصيرة رأى ان النحو ذو جداء عمم لكل من رام الخوض في عباب المعارف ولو كانت في لغات الاعاجم . فلكم نزي كثيرين من الذين يبيعون هذه اللغة بالغبن والخطيطة يرمون الكلام على اواهنه اذا تجددوا ترجمة قطعة الى العربية او كتابة مقالة فيها . وقد ارتنا

الايام عديداً من الناس يقضون الانامل ندماً لانهم تركوا الفتور يعلق باذيالهم
 وقت الصغر ففاتهم فيض هذه المزنة الصيبة . فلا ريب ان من خاض في بحر هذه
 اللغة وعثر على ما في لجه من الفرائد رأى عجباً عجاباً واقتراقرار الارض بعدالقطار
 ولا سيما من صرف شطراً من الزمان في البحث عن دقائق البيان فانه علم جليل القدر
 جم الفائدة فان الكاتب العاري منه قاصر عن مدارج الكمال يحميد ولا يدري علة
 الاجادة فلو سئل عن علة معنى استحسنه او تركيب استجاده لم يقدر على الاتيان
 بدليل . بينه كما قال بعضهم

يا ابا جعفر اتحكم في الشعر - وما فيك آلة الحكام -
 ان نقد الدينار الا على الصر - في - مع فكيف نقد الكلام
 قدراً ينالك لست تفرق في الاشعار - بين الارواح والاجسام

ولذلك قيل ليس لمنقوص البيان بهاء ولوحك ييافوخه عنان السماء فيه لا يؤقي
 القائل من سؤفهم السامع ولا يؤقي السامع من سؤييان فهم القائل لان خير الكلام
 ما لم يفتر بعده الى كلام وقيل ان عثار القول اتكا من عثار الوعث . فليس لنا ايها
 السادة من الوقت سعة تمكننا من ايراد نوادر او قضايا جمه تشهد له بحسن الجودة ورفعة
 الشان بل تقتصر على سبب وضعه فنقول ان تسمية علم البلاغة بالمعاني والبيان حادثه من
 المتأخرين وكان الاقدمون يدعون علم نقد النظم والنثر وفيه الف العسكري كتاباً
 سماه الصناعتين اي صناعة النظم والنثر والى قدامه كتاباً سماه نقد الشعر .
 واول من دونه ابو عبيدة البصري وبعثه على ذلك سؤال اقترح جوابه
 عليه احد الكتبة وهو طلعبها كانه رؤوس الشياطين قائلاً انما يقع الوعد
 والايعاد بما يعرف مثله وهذا لم يعرف فقال ابو عبيدة انما كلم الله العرب على قدر
 كلامهم اما سمعت قول امرء القيس . ايقتلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة رزق
 كانياب اغوال . ولم يروا القول ولكن لما كان امره يهولم اوعدوا به وازمع منذ ذلك
 الحين ان يضع كتاباً لمثل هذا وعند نجاذه دعاه مجاز القرآن وهو عمدة في هذا
 الفن . فمن تقصى في لآلى منظومها ومنشورها عثر على كلام يتجدد تجدر النمير
 على الكبد الحرى وعلم انها انشأت في الايام الخوالي افاضل لم السنة تكل عنها الشفار
 الصقيلة . ولا لبسة انها كانت في عهد الخلفاء عديمة الكفيئة يتهافت عليها جهراء
 العصر يستورون ازنادهم فياتون بالدره البيئمة . فقد لاذت بها الفلسفة القرن السابع

في عهد الخليفة هرون الرشيد العباسي وفي عهد ابنه المأمون الذي كان اشد رغبة
 من ابيه في ذلك فلقد كان يستدرج اليه العلماء فيكرمهم ثمواهم ويحزل عطاءهم رجاء ان
 تنهلوا اكاسيب العلوم من السنة اقلامهم فسعى في ترجمة كتب اريسطو واقليدس
 وهيبوفراط وبنو في بغداد مرصداً يرصد منه الظواهر الفلكية وقال احد المؤرخين
 ان علماء العرب كانوا يبلغون في عهد الملك المنصور ستة آلاف ونيقاً ولقد كانت
 مكتبة اسبانيا تحوي ستائة الف كتاب وبعد ان تخطى العرب الاحياء في
 القرن الثاني عشر واخذوا فتوحاتهم في الامصار التاسعة واقاموا في انحاء متباينة
 سبعين مكتبة يعز وجود مثلها في ايامنا . واحرقت في طرابلس مكتبة كانت تحوي
 مائة الف كتاب وكان فيها من النساخ مائة ينسخون كتباً يتنافس فيها . وقد اسندعي
 احد الخلفاء حكيماً عربياً فنبط القدم عن النزوع اليه لافتقاره الى اربعائة من
 الابل تنقل مكتبته . ولقد طالما قال اهل اسبانيا ان العرب تبوءوا ارضنا واتخذوها
 غنيمه لكنهم عاشونا من ذلك نضاراً (عنوا بذلك علماء) ولعمري ان كثرة المكاتب
 العربية كانت في ذلك العصر روضة خصيبة ترعرع اغصانها بنضارة وازدهاء .
 وقد كانت تعز بابنائها الذين كانوا يعرفون عزتها ويعتقدون صهوة الجهد لتكون
 وارفة الظلال فالولا لك هم الرجال كل الرجال يعضون على جذم الكد بنواجذ الجد
 وتعقد على اعمالهم الخناصر . فليت شعري علام لا تنسن بهم تسناً تهش اليه لفتنا
 الخطيرة فقد نرى في ايامنا هذه بعضاً من ابنائها اعقة ينكثون عنها غير حافلين بما
 كانت ترضعهم من لبن الادراك وهم يدرجون . فانها وائم الله يشق عليها ان ترام
 لا يستوكون ديمة فضلها بل يرون لهم مندوحة عنها ويعتزون بانهم لم يتجدوا درسها
 ولم يستظفروا من الفاظها طرفاً يسيراً . ورب منتقد يجهر بان يقول اتنا طالما رأينا
 لثيفاً من المتادبين اكبوا على درسها واستمروا يفرغون سواد ليل اليراع في بياض نهار
 المهارق ومع هذا فلم يملكو من حطام الدنيا نصيباً وافرأ بل ترام تلهوا بها عن ان يحيط
 علمهم ببعض لغات الاعاجم التي تسعدهم على ان يحرزوا من الثراء شيئاً كثيراً وان
 لغة تؤدي الى الانضاء قبل حفظها ليس لنا اربة ان نقتلها خبراً او نتعامل في نقصي
 او ابد قريضا . اما نحن فاذا اتاح لنا النقاد مجالاً اجنبا مجنبيين الوقيمة قائلين لم
 يخطر في بالنا ان نغري يوماً احد الطلبة بان يحجم عن كل علم ويعتلق باهداب العربية
 وحدها لكننا نقول ان من شاء ان يكون خواصاً في لغة المعارف ينديه الى استنضاض

دره وقوفه على كنه لغته ولا سيما لغةً نبتاها في اللسن والبلاغة والا فلا يدرك قدير
 بغيته ولا تستكين لعقله المعوصات ولو كان احوذياً كبيراً . فبناء عليه اصبح من لازب
 الامر ان يتعلم العربي لغته ولو تجشم في المدرسة تلدداً طويلاً فلدن ذلك يتسع
 عليه نطاق الفهم وينفسح له مجال الاقتباس والا فيكون كمن يود لو يرتقي الى شرفة
 شاهقة دفعة واحدة غير متممداً سلماً يتدرج عليه الى ممتناه . ولست ايها السادة
 ازوق في امتداحها كلاماً او ازلف في اطنابها فانها غنية عن شهادة امثالي فثلي
 في محاولتي تقرظها مثل من يري الناس محاسن البدر فيستظهر بان يوقد نبراساً .
 ولست ذا نخلة في ادراك اسرارها لاخطب فيكم بما يجعل العيفان لهيف القلب لدرسها
 بل اتمثل باعرابي قال اني اراني كالمسن اشخذ ولا اقطع . ولذلك انطفل على ذوي
 الحصافة والحدق بابرار طرفه صغيرة تشف عن بعض طرائق درسها علماً بان بعض
 عصابات من التلامذة يباينون المدارس احياناً وقد عرضوا من الصرف والنحو كتباً
 كثيرة وسلاهب اقلهم تكبوا في حلبة الانشاء فعلى الدارس ان لا يقصر فكره
 في معرفة الصرف والنحو فقط وقت تلبثه في المدرسة بل لا بد له من ذرائع يتذرع
 بها الى الحصول على ملكة الكتابة التي قد تزلف في ما غير كثيرين من ذويها الى
 ذرى المجد يسحر بباينهم وتخلص غيرهم من حبال التبريح بحسن التنصل ورقيق
 الاستعتاب . فيكفي الطالب ان يتفهم من الصرف والنحو والبيان القواعد الراهنة
 كلها غير عانى . بمنازعات بصريّة وكوفيّة وعليه فيلزمه ان يعمد الى اجل كتب ثرية
 ويستظهر افصح مقالاتها فان ذلك مما يفتق الذهن في الاممية ويشخذ غرب القرائح
 ويترث في خزانة الفكر الى ان ينصب وقت الحاجة على لسان البراعة . وان يحفظ
 كثيراً من اشعار العرب مستكشفاً عن عوبص الفاظها وكادحاً في حل ازرار معانيها
 وعاكفاً على ما تخير منها العلماء لما في ذلك من صحة الاستشهاد وانتزاع الامثال
 والاضطلاع من النوادر والشوارد وصقل مرآة البصيرة فمن اطال العكوف على ذلك
 فلا يلبث ان تعنوله البلاغة فتمسي ثغور الطروس متبسمة من بكاء اقلامه واصداف
 الاذان رائقة من جواهر كلامه . وان واظب على ذلك كثيراً فلا يستحيل ان يصير
 لجهة العصر غره ولعين الدهر قره . فاليكم يا اولي الالباب درة براءة بتيمة تبلغ بها
 صبح النجاح في العصر الخوالي وافخر بها قوم ادبتهم نفوسهم ورفعتهم همهم وذهبت
 ذكرى اعمالهم في الخافقين ومع ذلك كله فلا يفضلونكم ولا يؤثروهم عليكم القرن التاسع

عشر الذي قد اصبح غض المتحم بكل حي الفؤاد وضاعت على صلت جبينه درر
المدارس والجرائد

اقرن التاسع عشر

« لفرنسيس فتح الله مرآش الحلبي »

من هذا الفتى المقبل من عالم الانوار . اللابس سربال المجد والاعتدار . المثمنطق
بنطاق السطوة والانتصار . من هذا الفتى المتلالي بالبهاء والجمال . الرافل بذبول
الوقار والكمال . المختال في السعادة والكرامة والاقبال . من هذا الفتى المتزين بالعلم
والادب . المتجمل بالتمدن والتهذيب والذهب . والمتحلى بجلي الوطر والادب . من
هذا الفتى البالغ في مرقاة الاجتهاد الى اقصى درجات السمو والارتفاع . الواصل
الى اشم قمم الفلاح والانتفاع . هذا هو القرن التاسع عشر الذي اطلع على غرته
كل شموس القرون الغابرة . ولبس كل كرامة الاعصار الغابرة . وتمنطق بكل قوة
الازمان الدابرة . هذا هو القرن التاسع عشر الذي تلاً بانوار محاسن
اخليقة وجمال اسرارها . ورفل بمهابة الطبيعة وكال اطوارها . واختال في كل المقدره
والظفر . وتناهى بالغنى والثروة والتقدر . هذا هو القرن التاسع عشر الذي تزين
بعلم الموجودات ومعرفة الكائنات . وادراك الواجبات . وتجميل بتنظيم النواميس
والشرائع . وضم شمل الهيئه والمواقع . ورفع صولجان العقل القاطع . هذا هو القرن
التاسع عشر الذي بلغ اعلى مراتب الكمال وارتفع درجات المعالي والفخار . وجلس
على رؤوس الادهار . فماذا جعل هذا القرن سلطان القرون . والبسه تاج المجد المصون
وما الذي اطلعه في هذا الوجه الوسيم . واكسبه ذلك النور العظيم . وكيف قد بلغ
هذا المحل البازخ . وتبواً ذياك المقام الشامخ . هو العلم الذي مهد له المسالك .
واوصله الى ذلك فهلما بنا يا بني الوطن الى اكتساب العلم والاجتهاد في فلاحه
ونجاحه وتشييد مدارسه وتوطيد مكاتبه ولا تلتفت الى اعدائه واخصامه الذين اما
لجيهلم او لبعض اغراض لهم يسعون في تدمير العلم وكل مبانيه لانه ولئن كانت
انوار العلم والادب في هذا القرن الجديد قد درات غياهب جهالة القرون العميقة

وحمايتها وانه ولئن كانت رياح التهذيب والتمدن في هذا الجيل الخاضر قد قشعت
 غيوم خشونة الاجيال الماضية وتوحشها فمع ذلك لم يزل الان يوجد قوم من مردة
 الفلاح وباغضي الصلاح يسعون في سد سيل الاداب عن البشر وحجب كل نور
 عن ابصارهم فما كانوا ليطلعوا انسانهم العتيق ذي الطباع الخشنة والسجايا الوحشية حتى
 ان العامة يتخالم ببقية من جماعة القرون الوسطى فبولاء القوم لما رأوا ان انتشار العلم
 وفلاح الاداب ياول الى الضغط على شهواتهم وكشف بهت جهلهم اخذوا يحاربون
 العلم والعلماء ويقذفون على كل ساع بتعليم الجهلاء وتفتيح بصائرهم وقد بلغ منهم بغض
 العلم اعلى شأور حتى ما عاد يمكنهم النظر الى عالم او طالب علم بحيث اذا وقع نظرم
 على هكذا انسان اخذتهم رجفة الاضطراب وبرقت وجوههم صفرة الموت وغشاوة
 الغضب واخذت فرائصهم ترتقص وترتعد ولو امكنهم لوثبوا عليه وثوب المفترس
 وعاملوه حسب جهلهم وغباوتهم وما ذاك الا لان العلم خصم اغراضهم وعدو احتشارهم
 فلا بدع انهم يرومون هدم كل مدرسة بفاس الجهل وبخل كل هداية بنجمل الضلالة
 ولكن السماء والارض تزولان وحرف من ارادتهم لا يتم لان يمينهم وبيوت سعاد
 قم الجبال ولجج الاهوال فليخنقوا على العلم حتى الخنافس على النحل وليغضبوا على
 العلماء غضب الخيل على الخيم وليضربوا في حديد بارد حتى نرى متى يصيب سهمهم
 الثفرة . وهيمات فالعلم للانسان كالثمر للاغصان والهدى للبصائر كالنور للابصار
 فاننا اذا نظرنا الى الانسان من حيث فطرته الطبيعية فلا نراه الا حيواناً محضاً كسائر
 الحيوان على انه يفتدي وينمو ويعيش ويتحرك نظير كل نوع من الجنس الحيواني
 وهكذا بالنظر الى وظائفه واعماله الطبيعية . ثم اذا نظرنا الى الانسان من حيث مزيمته
 الادبية نراه يختلف عن سائر الحيوان اختلافاً لا مزيد عليه واذا اخذنا نبحث
 على سبب هذا الاختلاف العظيم فاننا نجد ناشئاً عن تلك القوة العجيبة المزين هو
 بها اعني العقل النطقي اما هذا العقل فلا يوجد في الانسان مخلوقاً في نفس فطرته بل
 يوجد فيه على طريقة الاكتساب المتدرج مع تدرجه في العمر . وجل ما يوجد في
 الانسان طبعاً اي في نفس فطرته انما هو مزية القبول لهذا العقل وهذه المزية توجد
 في نفسه الناطقة فينتج مما يحصل ان العقل لا يحصل في الانسان الا بالاكتساب .
 اما هذا الاكتساب فانه يتم مما يدركه الانسان بحواسه ويتلقنه من اشباهه ويطلع
 عليه من اثار اسلافه واعماله فاذا تكون سعة العقل بمقدار سعة الاكتساب وهذا

ما يقال له العلم وهكذا بمقدار زيادة العلم يزيد الفرق بين الحيوان والانسان وبمقدار نقصانه ينقص ذلك الفرق

اما الانسان بدون الاكتساب والعلم فهو حيوان بهيمي ووحش ضار وربما كان افظع حالة من كل البهائم والوحوش الضارية ولنا على ذلك دليل مما يقصه علينا سواح الامصار المنقطعة ومكتشفو قارتي اميركا وهولندا الجديدة عن احوال البشر المتوحشين الذين ياهلون تلك الجهات فهم والوحوش يسكنون غواب عراة ويتضايفون لحوم بعضهم ويتكلمون بلغات تشبه رثم الوحوش ولم كما للوحوش مع انهم بشر نظيرنا ولا امتياز ما بين طبيعتهم وطبيعتنا ولكن انقطاعهم عن عالم مخالطتنا في شسع بعيدة كان سببا لعدم تخليق الانسانية فيهم اذ ان المزية الاكتسابية منهم كانت فاقدة كل مهذب ولذلك يوجدون على اصل الفطرة . فكما ان الاكتساب النقلى ينقل الانسان من الحالة الوحشية الى الحالة الانسية هكذا العلم ينقله من حالة الغفلة الى حالة النباهة ومن قيود الجهل الى حرية العقل على ان كلاً من البشر يعود بالعلم حراً فلا يتسلط عليه عدو مقتصب . ونبيهاً فلا يخدعه الغشاشون . وحازماً فلا يميل مع كل ريح . وشجاعاً فلا يخشى تهديد الطماعين وتوعد المتخدين وقويماً فلا يبالي بصدمات الاعداء وزعازعهم . وفقهاً فيميز الحق من البطل والصواب من الخطا والعدل من الظلم ويعطي كل ذي حق حقه ويعلم اين مرتبة كل من اشباهه البشر ومدارها هذا وان العلم من شأنه ان يهذب الانسان ويحسن تربيته ويصلح فساد فطرته ويجمل ويزين اعماله ويكبر مقداره ويعظم افكاره ويجعله انساناً لا بهيمة وبشراً لا وحشاً ويفتح بصره وبصيرته ليرى الحقائق ويميز الطرائق

فعلى كل السمي وراء العلم والجد والجهد به دون اكرثا باعدائه الذين لرعاية اغراضهم يوسوسون في دور الناس على مقت التعليم لان من هولاء الاعداء من يرى ان العلم يضر بتسلطه وتسوده ومنهم من يرى انه يضر بجرافاته التي يرغب زرعها في حقل الانسانية ليحصد ما يروي شهواته ويشبع مطامعه ومنهم من يرى ان العلم يضر باكاذيبه واضاليه التي يتاجر بها في سوق الجهل لربح الثروة والرفاهية ومنهم من يرى ان العلم يضر بمراياته ومداجاته بحيث اذا اميط هذا القناع عن وجهه لدى البشر تظهر حينئذ شوائب نفاقه التي كان ينصتها شركاً لقنص سداحة القلوب وسلامة الضمائر فيعود بصفقة المغبون مصفوعاً بالخجل والوجل ومنهم من يرى ان العلم

إذا عم بضر باختصاصه به فيعمله الحسد الجهنمي على كرهه وابعاد الناس عنه . فلا ريب إذا ان مثل هؤلاء يفضون العلم لكي يمكنهم الجهل من تقييد الناس بقيود اغراضهم وخفض الاعناق تحت نير شهواتهم لانهم يرغبون ان البشر تكون كالثيران لحراثة حقول او طارهم واطعامهم وربما حمل البعض هذا اللؤم والرياء على الضرب والظعن في ابائهم وامهاتهم بدون مراعاة حقوق التربية والاصل . فيكون مثلهم كمثل العفو الذي وهو يرضع لبن امه ينطح ضرعها ويشخبه فحذار ياطلبة العلم حذار وبدار يا بني الاوطان بدار

ولسد السمع عن كل مهذار ولنقطع رباطاتهم ونلتق عنا نيرهم واعلموا ان العلم وحده لا يفيد الطالب شيئاً اذا لم يكن مقروناً بالعمل . لانه يكون عقيماً كالشجر العديم الثمر . ولما كان الغير مشعر غير مفيد كان العلم بلا عمل غير مفيد وهكذا فيكون صاحبه على هذه القضية المعدلة عقيماً وغير مفيد للناس . ولا ريب ان العمل هو زينة العلم كما ان الثمر هو زينة الفصن وجماله اذ به تحصل الفائدة ويتم المراد . اما العمل فهو يقسم الى ثلاثة اقسام الاول عمل الانسان نظراً الى ذاته والثاني عمل الانسان نظراً الى بقية الناس والثالث عمل الانسان نظراً الى الخالق

فعمل الانسان نظراً الى ذاته انما يتم بمراعاة خيره الذاتي وما يؤول الى صالح وجوده بين الكثيرين ولا بد ان يكون لهذه المراعاة ناموس تجري عليه وهذا الناموس هو الصواب والفضيلة . فالصواب يدعوه الى محبة ذاته وهذه المحبة تدعوه الى الجد في سبيل هميشته لحفظ حياته والى السعي وراء الاتعاب والصعوبات لنوال الراحة والترفة والى الجهاد في سبيل العزائم والعظائم للحصول على الاعتبار والصيت فيما اتوبه عن الكسل حذراً من العوز وذل السؤال . وتحميده عن الخمول والفتور فراراً من ازدراء الجماعة به وعن الضعف والجبانة دفعا لعدوه هملاً وسقطاً وذليلاً وتناه عن الانهاك والافراط خشية من هجوم العاهات والافات عليه والفتنة تامر به باصلاح سلوكه بين الاخرين وبالمسير في طرق الحق والاستقامة وبجبه القريب وتناه عن الفساد والنسب والمكر والختل والكذب والنفاق والمراياة والمداجاة والاعتبال والندر والنهب والسلب والعدوان والعنفوان والصلف والغرسة والتجبر والشطط وذلك ليكون محبوباً من الناس ومقبولاً . لا مبغوضاً منهم ومرفوضاً وكل ذلك يكون نتيجة محبة الانسان نفسه على ناموس الصواب والفضيلة . ومن لا يعمل هكذا يكون باغضاً ذاته لان من عمل

صالحاً فلنفسه

اما عمل الانسان نظراً لبقية الناس فهو يتم ببراعاته خير الكثيرين وصالح هيتهم
 وذلك يجري على هذا المبدأ العام افعل مع الناس ما تريد ان يفعلوا معك . فاذا يجب
 صنع المعروف بين الناس اذ على ذلك يقوم هذا القسم الثاني وهذا المعروف الذي
 يرغبه الانسان لنفسه طبيعياً انما هو الاحسان الى المحتاج والاخذ بيد المظلوم والبائس
 ومواساة المنكود وعون المنكود ومداراة العميد والمريض وجبر الكسير والمهيبض
 والشفقة على الملهوف والمتلوف وتعليم الجاهل وثقيف الغافل وارشاد الشديد وغوث
 الطريد واشهار التصانيف والصحف التي من شأنها ان توالف بين قلوب البشر وتلقي
 الوفاق عند الشقاق والصلح عن القتال والحب عند البغض والخير عند الشر . اما
 عمل الانسان نظراً الى الخالق انما يتوقف على الايمان بعزته تعالى وهذا الايمان لا
 يصح ما لم يكن مقروناً بالاعمال المطلوبة منه عز وجل على انه بدون الايمان تكون
 الاعمال مائتة كما ان الايمان بدون اعمال يكون مائتاً ومن شأن العلم والعمل استظهار
 الحق والصدق بين البشر والانتصار لها لايجاد العدل والسلامة قال النبي والملك داود
 الحق والعدل تلاقيا والصدق والسلامة تلاثما

فلا يصلح العلم والعمل ما لم يكونا مرتبطين بالحق والصدق لايقاع العدل والسلامة
 فاذا خامرهما الزور والنفاق اعدا فاسدين وكان ربهما جائراً وضائراً فالخلق خليق بان
 يكون الدعامة الاولى التي يقوم عليها بنيان كل شيء على انه بدون هذه الدعامة الاولى
 يكون كل بنيان سخيفاً ومقللاً . ولا بد من هبوطه ومن عادة الحق الا يخفي ولا
 يستحي ولا يماري ولا يلوي وجهه ولا يهلع ولا يهجع . فلا يمكن لجميع غيوم الزور
 والبهتان ان تبرقع محياه مهما تكاثفت وتراكت اذ لا بدوان يتخللها نوره ويمزقها ويقشعها
 ليبدو جبينه ضاحياً صحيحاً فيقتبسه المستهدون . ولا يمكن لجميع التمليق والمداهنات
 والملاسنات ان تحمر وجهه او تتلاعب به . ولا تستطيع جميع ثروة العالم ان
 تجوله عن الصواب . ولا تقدر جميع المزيجات ان ترده وتقم تره . ولا تطيق جميع
 مضارب السيوف ومطاعن الرماح ومواقد النار وسلاسل الجبوس والسياط والقيود
 ان تذبجه او تعزیه او تحرقه او تعلمه او تجلده او تقيده . ويستحيل على جميع مسكرات
 الاغراض او مخدرات الشهوات ان تغمض اجفانه الساهرة . وهكذا فالحق حق هو
 ويستحيل زواله . ومتى وجد هذا الحق وجد العدل . لان الحق والعدل يلتقيان

ومتى زال الحق زال العدل لان الحق والعدل لا يفترقان . فاذا عدل الانسان رضى
الحق عنه واثابه الفلاح وحسن الرجعي . اما اذا ظلم وتمدى اقر بفساد سيرته
وسريرته وكان للحق جحوداً ومن الله مردوداً ومن ضميره مرضوفاً ومن الناس
مرفوضاً اما الصدق فهو ابن الحق وهو كايه يستنكف ان يختفي ويستحي ويترفع
ان يماري ويحابي ويانف الملح ويسام الهجوم ولا يمكن للمقاومات والقوامع ان تقاومه
او تقصمه وكل قوات الكذب والنفاق توجد امامه كالهباء الذي تذر به الريح على
وجه الارض . وهكذا فحق حصل الصدق حصلت السلامة . ومتى زاغ الصدق
زاعت السلامة . لان الصدق والسلامة يتلازمان ولا يتنافران

فاذا لم يضع الانسان في بناء علمه وعمله قاعدتي الحق والصدق كان كل بنيانه
وهنا واكل صدمة تهوى به الى الخضير وهكذا يكون جانياً على نفسه لا يتلف صيته
ومقامه . وجانياً على الناس لانه ينشهم وينري بهم . وجانياً على الله لانه يكون
من اولئك الذين يخادعون الله وهو خادعهم ولا يجحدون الا انفسهم
فبالصدق اذا تحصل صيانة المعيشة وراحة الضمير وهدو الصيت . كما انه
بالكذب نلقى تلك ويتبايل هذا ويضطرب ذلك ولنا دليل على ذلك من الذين
يرتكبون النفاق والكذب مراعاة لزمانهم واغراضهم بحيث يظهر للناس كذبهم بكل
حرف من كلامهم وبكل خطوة من اقدامهم وبكل حركة من وجوههم مهما تظاهروا
بالصدق وجروا ذيل العجب والخيلاء . فتكون والحالة هذه معرفة الناس باحوالمهم
اشد عقاب واعظم قصاص لجرائم سجاياهم وقد قلت -

كذبت فاحترت في الدليل ومد صدقت كان الدليل في النطق
ومرر شئنا الخطا نجوت ولا بدع فان النجاة في الصدق
وقال الحريري في مقاماته

عليك بالصدق ولو انه احرقك الصدق بنار الوعيد
وابغ رضى الله فاغبي الورى من يسخط المولى ويرضى العبيد

فهبوا من رقادكم يا جميع ابناء الوطن وادخلوا في مراسع العلم ومسارح المعارف والاداب
لتكونوا اولاد هذا العصر الجديد وابناء بيدهته واخلموا عنكم اسمال الجهل والغفلة
والبسوا سربال الهدى والنباهة لتوجدوا اخصاء ومختارين في عرس هذا الفتى الميمون
اي القرن التاسع عشر الذي يزف على عروس الفلاح والنجاح

الكون العاقل

« لفرنسيس مراث »

ما كنت ابها الكون العاقل لتجد في الوجود نعيماً وعلى الارض عيشاً سليماً . فقد
استحدثت بمزايك حوادث الضناء . واستوجدت بسجاياك كوارث العناء فكن طريداً
بسياط اعمالك وشريداً بزياط افمالك . انى استقبلت واستدبرت وكيفما تأملت
وتدبرت . حتى مَ يسرك الغنم وهو اب الغم وعلى ما يسوك الغم وهو ابن الغنم فما
اقتراكَ الا عبارة قرب وجومك . وما اسفرارك الا اشارة غرب نجومك . عقلت
فكان عقلك حجيماً جهلك . وجهلت فكان جهلك نعيم عقلك . وقد استشارتك جوانج
الطمع حتى تروت على الممكن والممتع . ومذا استطلعت طلع كل حال وعلمت ان
الدوام محال رجعت كالممود المتجود مصروماً بصراع هذا الوجود . فما اخلد باعمى
منك حساً وما الفراش بارمى منك نفساً . تدم مكأذ الدهر وانت ابنه وتشين افعاله
وفي راسك ذهنه فلا تدمن الافلك ولا تشينن الا عقلك . خلقت على الارض
سلطان الجميع يسجد لك كل رفيع ووضيع . قترفت على الخليقة وتبهنت ونوعت
ظلمكها وجنست فافسدت وسحرت وعقرت ونحرت واستخدمت وسخرت وتدمت واخرت
وامتريت وحزرت وحصدت وهزرت . واتمتنت الوحش من الغاب واصطدت الحوت
من العباب . ورهقت النسر من السحاب . حتى نسفت الجبال فكانت مهاداً وانشات
المهاد فكانت اطواداً . وانضبت وانبتت وسددت وترعت فما راقك كل ذلك وحصص
الكبر في بالك وقلت انى اعيش والوحوش سوياً واكون مثلهن وحشياً فما كنت
لاسكن الاوكار الصنائر وما خلقت لاعشو الى المغائر . حيث ترعدني القواصف
المنقضة وتفرقني السحب المنفضة . وتصرعني الزواجع المباحة وتصفعني الرياح الراحة
وتصليبي الرضاء نارها وتكسيبي الحصباء شرارها . فلي ببيت المضارب لا من كل
مضارب . فاكون في عشيرتي اميراً وعلى قومي كبيراً . وهكذا فقد نصبت خيامك
ورفعت مقامك . ولما قطعت الزعازع تلك الاوتاد والاسباب واودت الانواء بهاتيك
القياب . قلت ما هذا البيت الواهي والمقام الداهي . فلابنين مدينة ذات اسوار شماء
ولارفنن برجاً ينطخ رواقه السماء . فاتمعت السرادق المحننة واتمتع المعامل المحصنة .
وارتدي الصوف والخز واتوسد الريش والجز . واكل مريباً واشرب هنياً حتى ادراً صمة

الحيوان واسم سمة الانسان . فكون ابن بجدة العادة واخا كل سطوة وسيادة .
 فلما ابنتت ايها الكون العاقل ورفعت وتمتعت وتمتعت وارتيديت ونوسدت واكنت
 وشربت وتهذبت وتادبت . وصلت صولاً وظلت طولاً . سالت جوامد نفسك
 على شفات اعمالك وجمدت سوائل انفسك على زفات اميالك . فاطماً جواخلك
 جفاف الفجر وخامرت جوارحك شوائب الفجر . حتي غدوت مرتحاً للملاعب الخطوب
 ومسرحةً لدبابب الكروب . ومسقطاً للامراض الوافدة ومهبطاً للاعراض الفاسدة
 فانرضت راسك وانقبضت نفسك . وقلت بئس التمدن والانضمام ونعم الشتات
 والانقصام . فالى م ايها الكون العاقل تروغ في خيمك السقيم وتزيغ عن السراط
 المستقيم وان فاطرك لرب عظيم . بينا تستطيب سؤلك تستعيبه وتجه وريثا تشكو
 حرثك تشكوه وتجه . قل ناشدتك الله ماذا يجديك ويسديك واية حالة ترضيك
 ولا ترديك . فان تكن في املاق ثقل حقاً ان لو اثريت لقتذفت العناء بالغنى وخبلت
 بالاماني مخالب المنى . وقطفت ثمر اللذات من يوانع المال . واستطلعت من شمس
 الدينار انوار الامال . ولكنك هصرت غصون السعد وعشت كل رغد فانج من
 لفحة الضراء وانعم في ظل السراء حيث لا وصب ولا نصب ولا تسهد ولا وجع
 ولا حزن . ولا تنهد بل طرب وارب وسرور وفرح ومرح وحبور حتى اذا
 ما بلنت غناك واصبت منك اخذت تنازعك عوامل الاطلاع وتصارحك شواغل المتاع
 وتخاصمك اخصام المقام وتهب عليك كوامن الاسقام . فيلازمك بلبال البال وتخاصرك
 اخطار الوبال . ولما رضى ثقل التضار رضوى طاقتك وخسف ظليل الغرور شهاب
 حذاقتك . ولم تذكر ايام وعث فقرك وآلام حرث فقرك . قلت ما اكثر هموم همي
 واشد غموم نعمي . فقد صرت اسير مقامي وعبد ارقامي وآليف خدم وحليف حشم .
 وقد ارتبطت بقيود العادة وقعت تحت حدود السادة . والتزمت برفد المسترفدين .
 ونجذ المستجندين . وترويح الكاسدين ومداراة الحاسدين . وقطع لسان النمام وردع
 مين الهمام . وحذر الغالب وخوف السالب اه لو كنت سيداً كبيراً وعلى قومي
 اميراً لكنت اصلحت شأن الامم واهبطت الفساد هاوية العدم ولم ادع للشر من قدم
 ولكنك رفعت منانبي على مناكب القدر واثبت كوري على الشمس والتمهر واريت
 كل عين خير الاثر فاكون خلو البال من مكائد الكبير والصغير ومرتاح الفكر
 من وخز شوكة الضمير . فما لبثت ايها الكون العاقل ان سطوت على القوم باموالك

ومحرت المعوزين بأقوالك . ولم تزل تزرع في القلوب مواعيد القضاء حتى حصدت
 اصوات الرضاء فانتدبك القوم اميراً واصبحت كما تمتيت كبيراً . فشرعت تفسد في
 الارض شر الافساد وتجور على رقاب العباد . وتغترض غرائض الظلم وتعلق راحة
 السلم . حتى جعل الناس عليك يا تمرن وللروس يحركون . نجبن جيشك وتنقص
 عيشك . فقلت ما اتعس عيش الامير وانحس حظ الكبير . ويحي فمن لي بان
 استميل كل القلوب واستعطف الدهر المقلوب . فكيف وقد خلق البشر في خلف
 الطباع يدخلون في وفق الشرائع . فلا استطيع تغيير فطرتهم وتبديل بشرتهم .
 حتى بيض سواد جلد الحبشي ويزول بقيق النمر الوحشي . ولكن الجهل اذا فشا
 فعلت بهم ما اشاء . واذا مرت البغضاء بينهم اسرت درينهم ودينهم . وان عضت
 افاعي الضلال اعقابهم ملكت رقابهم وعقابهم وقلبت اسماءهم والقابهم . فقاتل الله
 العلم واتمدن انهما اصل العنت والتغون . وهذا عدو السيادة وذاك خصم العبادة
 فمنها التمرد والعصيان وعنهما الشغب والعدوان . فويلاه من ضعفي في قوتي وعجزتي
 في سطوتي . وكيف لم يصدق حدسي وحلمي اذا رأيت الناس خلقوا لحكمي . فلا
 ارتاح من هذا المرض والقرض ما لم اقبض كرة الارض . فاقبل شرع البشر وانفذ
 امري في القدر حتى ارى الانام تحت رجلي والايام تنعوني لدي . فاكون في حياتي
 مفراحا وعلى عرشي مرتاحا . فطفقت ايها الكون العاقل تشن الغارات الشعواء وتسن
 الحرب والهيحاء . وتطلق هدوء الاكوان وتسقي الارض دم الانسان . حتى ظفرت
 بوطرك وغلبت بظفرك . وقبضت الصولجان وحكمت الانس والجان ولم تلبث ان
 ثاقلت على الثقلين ودعيت بذوي القرنين . وهكذا فريثا كانت نسور الظفر تتحقق
 عليك وشهد المجد يقدم لديك . واذا النعش يصحح امامك والعرش ينخج مقامك .
 واسد الموت يزار حولك ليلتقم طولك وصولك والقصر ينفر عنك والقبر يدنو
 منك ودنياك تمر كالسحاب ونمائك تباد كالضباب . فاضجعت على فراش الزوال وعلمت
 ان الخلود محال . وقلت ليتني لم اخلق ولم اذق هذا الحكم المطلق . فاهذي الدنيا
 الغرور وهذا السرور المشوب بالسرور . فالكل يطبخه تيار الزمان تحت رحي
 الدوران . اين الغنا والحطام اين السنا والمقام . اين المجد والسعادة اين الولاية
 والسيادة . اين العرش والصولجان . اين الاكليل والتيجان . اين النهي والامر اين
 الفوز والقهر فهل كل ذلك قد عبر ومضى وغبر وانمحت العين والاثر . فما جهل المرء في

الوجود . وما اشقاه في الخموس والسعود . كل يزول ويفر ولا شيء يدوم ويقر .
 وما جهد الفتى الا نسيم الامل تستلذه النفس في حر الملل . وما الحطام الا ظلال
 الغرور البهيم ان امتد فالنعيم واذا تقلص فالجحيم . فاعلموا ايها الملوك وتادبوا وافهموا
 يا قضاة الارض وتهذبوا . وانت ايها الكون العاقل كن صبوراً في محلك وشكوراً
 في ندادك وافنع بما كسبت بذاك . ولا تنذمر على الله اذا وطاك ولا نتعال عليه
 اذا علاك . وكن ماضياً بين يديه وراضياً بما انت عليه . ولازم النفع واهجر الضر
 وحد عن الشر واصنع الخبز . واعلم انك زائل ايان ترحل او تحل وما حياتك الدنيا
 الا دخان يتعالى قليلاً ثم يضحل

الحقوق والواجبات

« لاديب بك اسحق »

تمهيد

اقدمت على البحث في هذا المطلب والساذج القطري مقدم
 اعلم من تسمي العجز ومن ذهني الضعف ولا اجبل صعوبة البحث واختلاف
 الطرق وتنوع المذاهب فيه الا اني اجد من النفس ارتياحاً اليه ومن الفكر انبعاثاً
 عليه واخال ولعلني من المصيبين ان على كل من الناس واجباً من النظر والبحث في
 كل ما يتعلق بذاتية الانسان والهيئة الاجتماعية بما يأمل منه حصول النفع لها جميعاً
 وان عوجوب هذا الامر مستلزم لحق القيام به فانما فيما احاول اخطأت فيه او كنت
 مصيباً ذو واجب ينهض بما رجب عليه وذو حق ياخذ بما حق له
 ولا التمس لنفسي عذراً فيما عساه ان يؤخذ علي من ضعف حجة او فساد بيان
 او ضيق معرفة او التواء معنى افي اعرض لاخواني في الانسانية ما علمت وما علمت
 وليس الذي علمت وعلمت كثيراً فان اصابوا بين السقط الذي يلفظ شيئاً يحفظ
 فلا اسف على الجهد والا فالت اول مخفي في الناس ان اولم اول ناس

البحث الاول

في تلازم الحقوق والواجبات

البقاء من ايزام الوجود . فالانسان من حيث انه موجود مكلف بحفظ ذاته

ترشده البدهة الى معرفة النواميس الطبيعية الضامنة لذلك الحفظ
والحيوان الناطق داجن مؤالف بالطبع فالانسان من وجه انه مدني مكلف
بمفظ نوعه تهديه القوة العاقلة الى الاحكام الادبية الكافلة لذلك الحفظ
فلذلك هو الواجب الذاتي وهذا هو الواجب النوعي وهما طبيعيان لازم وجودهما
في الناس لزوم العلة الميقية للعلة الموجدة

فاذا تبين ذلك علم انه لا بد للانسان من الحرية الطبيعية في القيام بذينك
الواجبين فثبت له بذلك حق واضح وهو حق اجراء ما وجب عليه
فالحق والواجب من حيث الطبيعة متلازمان لا يقوم ولا يكون احدهما بدون الاخر
فمن استلب ذلك الحق نريد الحرية الطبيعية فقد منع الانسان من قضاء الواجبات
واهان النوع البشري وخالف ارادة الخالق الحافظ سبحانه وتعالى اذ كيف يستطيع
المرء حفظ ذاته اذا منع مما لا بد منه للبقاء وكيف يحفظ نوعه اذا قطع عما لا ندحة
عه في الاستبقاء

وهذا الحكم وان كان ظاهره مقصوراً على الواجب والحق الطبيعيين في حفظ
الوجود الانساني ذاتاً ونوعاً الا انه يتناول لا ريب الواجبات والحقوق في الحالة
المدنية فان احتياج الانسان الى هاته الحالة في حفظ الذات والنوع قد اوجب عليه
صيانتها بقانون ادبي على مثال الناموس الطبيعي فكانت احكام ذلك القانون كما قال
منتسكيو حكيم الفرنسيين بياناً للصلوات الضرورية الناتجة من طبائع الاشياء فلزم
من ذلك ان يكون على المرء في مدنيته واجب يقضيه بحق يعينه على القضاء
فانضح من هذا الذي بسطناه ان الواجب غاية واسطتها الحق فن اوجب الاول
لزمه اعطاء الثاني . ان الله تبارك وتعالى لم يبخ الانسان حقاً من حيث انه فرض عليه
واجباً فالحق ملازم بالواجب والواجب مستلزم للحق

المبحث الثاني

في اقسام الواجب والحق

تبين مما سلف ان الحق والواجب متلازمان لا يكون احدهما بدون الآخر
في حال من الاحوال فكل ما نعينه من واجب يتناول حقاً وكل ما نيننه من
حق يحتمل واجباً

ومعلوم ان كل موجود عاقل كلف بذاته حريص على حفظها فان اول ما يظهر
 من عواطف النفس الشاعرة بالوجود انما هو حب الذات ومن احب شيئاً حرص عليه
 وان حفظ النوع من احكام الطبيعة . فطر الانسان على الرغبة فيه كما هدت
 البداهة سائر الحيوان اليه . فهذا الحكم الطبيعي منتج بالضرورة للحالة الزوجية التي
 ينقاد الانسان اليها بالفطرة الحيوانية ثم يراها من حيث انه عاقل فرضاً واجب القضاء
 فنبث في قلبه ميلاً جديداً يتجدد بحب الذات فينشأ عنه في النفس لذة لا تنال ولا
 تدرك في العزلة نريد الحب الجامع بين الجنسين الواصل بين الزوجين الذي تنوعت
 مظاهره في عالم الوجود والم على اختلاف تجلياته بكل موجود فهو في الزوج عشق
 وفي الوالد حنو وفي الولد بر وفي الاخ وداد وهو هو في كل حال يفعل في النفس
 الطاهرة ويؤثر في انقلب السليم الى حد ان يلتبس امره على الانسان فلا يدري اكان
 قائماً بواجب من الطبيعة ومتولياً من ذلك الواجب حقاً ام كان مائلاً مع الشهوة
 ساكناً الى اللذة آخذاً بما يجلب له الرضى والسعادة

فهذا الحفظ النوعي وذلك الحفظ الذاتي يتعلقان بالانسان من حيث هو اي من
 النوع البشري . فهما منشأ الحق والواجب الطبيعيين وهذا هو القسم الاول من
 الحقوق والواجبات

وظاهر ان للانسان في الحالة الاجتماعية شأنًا جديداً ينتقل فيه من الزواج الى
 الاسرة وهي العائلة ومن الاسرة الى الامة ومن الامة الى الانسانية فانه له من هذا
 الوجود حقوق معينة وعليه منها واجبات معلومة . فما يختص بالعائلة من هذه الحقوق
 والواجبات من وجه المعاملة الشخصية والحدود الملكية . وما يمس الامة من حيث
 اقامة الامور وصيانة الاستقلال ووجود المساواة . وما يتعلق منها بالانسانية من
 حيث تقرب الصلات وتأمين الوفود وتيسير التجارات وتمكين السلم وحفظ المصالح
 العمومية . كل ذلك يعرف بالواجبات والحقوق السياسية

وما كان من هذه الحقوق والواجبات متعلقاً بالمعاملة بين الافراد من وجه كف
 الظلم ومنع الاعتداء وحفظ الحق وصيانة الضعيف من القوي ووقاية الفقير من
 الغني ورد المال المسلوب ومعاقبة الظالم وارضاء المظلوم واجراء سائر انواع المعاملة على
 محور الاستقامة والعدل . وكل هذا يسمى بالحقوق والواجبات المدنية
 ولهذه الاقسام الكلية فروع كثيرة نذكرها في عرض ما يجيء تفصيلاً او تحصيلاً

المبحث الثالث

في الحقوق والواجبات الطبيعية

وهي احكام الشرائع الطبيعية النافذة في النوع الانساني مستقلة ومنفصلة عن كل شريعة دينية وكل سياسة مدنية

وقد وجد لهذه الاحكام في كل زمان ومكان اعداء الداء من اهل القوة الحسية والقوة المعنوية ممن يتسلطون بايديهم على الابدان ومن يستولون بالستهم على الازهان . اولئك لم يعترفوا بغير الاحكام التي هم اربابها وهؤلاء لم ياخذوا بغير القوانين التي هم اصحابها . وما بين الفريقين معظم النوع الانساني حاشية يتبعون او عبيد يطيعون حتى استنارت الافهام ونشطت من ربق الاوهام فصار او كاد يصير لكل من الناس حد لا يتعداه وخط لا يتخطاه

ومن المعلوم ان الخالق الحكيم القادر العليم منزه عما يخالف الحكمة ويفاير القدرة ويناقض العلم الحق فالاحكام الطبيعية الناشئة عن عنايته الازلية ان هي الاكلمة الحق المعرفة من ازل الباقية الى ما لا يزال الكفلة لحفظ الوجود بوقاية كل موجود ولذلك عرفت في كل زمان ومكان وما اختلف فيها اثتان . فقد بدت لارسطو كما ظهرت لبسكال وراها افلاطون كما شهدها نيوتن وتبينت لشمسرون كما علمها فولني وانجملت لسائر المتبصرين فائقة على القدرة الانسانية غير متغيرة في حال من الاحوال حية في قلب كل انسان منقوشة على الواح الصدور واحدة في كل الازمنة والامكنة والاشخاص بقدرة الذي اوجد الازمنة والامكنة والاشخاص

فهذه الاحكام الطبيعية المقدسة تصل الانسان بذاته صلة قوية ينشأ عنها واجب الحفظ الذاتي فتصدر عنه العاطفة المسماة بحب الذات وتصل بين جنسيه فينشأ عن هاته الصلة واجب حفظ الجنس فتصدر منه العاطفة التي اذا كان موضوعها الزوجين سميت حباً وان كان موضوعها المولود سميت حنوًّا او حباً والدياً وان كان موضوعها الوالدين سميت برًّا او حباً ودياً . وتصل بينه وبين ابناه نوعه فينشأ عن هذه الصلة واجب حفظ النوع فيحصل منه العاطفة المسماة بحب الانسانية

فما اعظم حكم خالقه وما اعمّ العناية الرحمانية ان الله سبحانه وتعالى ما فرض علينا الواجب الا من حيث تميل النفس وتنعطف الارادة ويسكن الطبع فقد كانت شرائعه الطبيعية عواطف قوس وشهوات قلوب قبل ان تكون احكام فكر وعقل فهي الحب

الجاذب الواصل الحافظ الذي ذكره الشاعر الثاني في (وليحب بعضكم بعضاً فهذه هي الشريعة وهذه هي النبوت) ولا ريب انه جدد التواميس القديمة جملة بهذه الكلمات وايضاً فقد وصلت الاحكام الطبيعية بين الانسان والاشياء فكان المرء حرّاً في استعمال ما يحتاج اليه في واجبات الحفظ فهو في حالة الطبيعة مالك للعالم بأسره الا ان هذا الحق غير مخصوص بواحد من النوع وانما الناس فيه سواء لكل منهم ما للآخر بلا فرق ولا استثناء . فالعالم من حيث انه للكلى لا يكون لواحد منهم بالذات وانما يتمتعون به على حد سوى . ولكن لما كان موضوع هذا التمتع الحفظ كان من حق الانسان استعمال كل شيء فيه ولم يكن من حقه الافراط في شيء هذه اصول الاحكام الطبيعية متضمنة لما يختص بها من الحقوق الواجبات اوردهاها مجملة كما رأيت وسنصلها في المباحث الآتية كما سترى

المبحث الرابع

في الحقوق والواجبات الذاتية

فصل

تبين في المبحث السابق ان حفظ الذات راس الحقوق والواجبات الطبيعية فثبت بذلك ان الانتحار اى قتل المرء لنفسه مخالف للحكم الاول من القانون الطبيعي الا ان هذه القضية وان كانت مسلمة لانطباق نتيجتها الصريحة على المقدمة الصحيحة فلم تسلم من اعتراض الفلاسفة المغالطين فقد راينا منهم جماعة يجيزون الانتحار ويبرئون مرتكبيه بادلة مما يلائم ضعف الفطرة البشرية فتألف الاذهان ما يقولون وان كان مخالفاً للحق . فلولا ان تكون هذه المباحث مقصورة على المبادئ الاولى والاصول الكلية من الحقوق والواجبات لاوردنا الكثير من ادلتهم مشفوعة بما يظهر ضعفها من اقوال الناقدين . على اننا نذكر من ذلك ما لا يخرج بنا عن حد الاجمال والاختصار مستوعبين فيه اهم ما استدل به على جواز الانتحار يقول نصرانه هذه الجريمة ان الحق الطبيعي قائم بالتاس الخير ودفع الشر فيما لا يضر باحد من الناس فاذا صار الانسان الى الحال التي تكون فيها الحياة شراً عليه ولا تكون خيراً لسواه حق له الانتحار بل كانت واجباً عليه وتقول ان في هذا الدليل فرض محال لامتناع تجريد الانسان من خيرية الوجود

في حال من الاحوال على ان هذا المستحيل بتقدير امكانه لا يجيز الانتحار للواقع
فما يحسبه شراً مطلقاً بما كان فيه من ضعف النفس وما طراً عليه من اليأس فان
الشقاء حادث عارض على المرء بما كسبت يده لا جناح ولا تبعه فيه على وجوده
الطبيعي فليس من الحق ان يؤخذ ذلك الوجود بما لم يصدر عنه وان تكون الطبيعة
مسئولة عما ليست منه في شيء

فان قيل كيف لا يجوز الانتحار للمرأة على خطر العار والرجل على خوف الالهانة
والوطني على اليأس من سلامة الوطن وكيف يخطأ من مات جليلاً كراهة ان يعيش
ذليلاً او ليس ان كاتون الروماني العظيم الشان قد انتحر فراراً من الذل وحرصاً
على الشرف الذاتي فهل منع ذلك من ان يعد من عطاء الرجال

قلنا ليس الشرف الطبيعي الا كرامة الذات فهو من هذا الوجه فرع من الحفظ
الذاتي لا يسه شيء من العوارض المعنوية ولا يحق التصرف فيه لتغير الارادة
الطبيعية فاذا نصبت للمرء حبال من الحوادث او طرأت عليه عادات من الظلم او
المت به عوارض من الفساد المدني فانخر بسبب من هذه الاسباب فاما ان يكون
ذلك منه عن خوف من المصاب والضعف عن احتمال الألم فهو جبان يخرج من ساحة
الحرب قبل انحسام القتال . واما ان يكون عن قوة الفساد الحادث فيه فهو ضحية
لشرف المدني والراي العمومي فما نحسب كاتون وان كان رفيع الشان علي المكان الا
الا مجرمًا مذكوراً ومخطئاً مشهوراً ولا نراه وان عد شديد الوطنية عظيم الهمة الا
مجباً للسطوة حريصاً على السلطة لم يمت كراهة للحياة بعد حرية رومة وانما مات اسفاً
على زوال السطة عن مجلس الشيوخ

وجملة القول ان استبقاء الذات من الواجبات الطبيعية ترشد اليه البداهة وتبعث
عليه العواطف النفيسة مما يخالفه الانسان الا اذا طراً عليه من الفساد ما ينسيه كل
حق ويشغله عن كل واجب

وكما ان وقاية الذات من الهلاك واجبة على كل موجود من الانسان كذلك يجب
عليه صيانة تلك الذات عن كل ما يجلب لها الألم او الضعف او النقص او الشوه كائناً ما
كان وفي اي سبيل كان مما يخرج عن جد افتداء الكل بالجزء كما سنبينه في الفصل الآتي

فصل

بقرر فيما سلف وجوب حفظ الذات وحرمة قتل النفس ومن المعلوم ان ذلك

الوجوب قاضٍ بصيانة الذات عن كل ما يجلب اليها الضعف والحطة والفساد وان هاته الحرمة ملازمة بوقاية النفس من كل ما يعود عليها بالضرر والهلاك فان حفظ الوجود يتناول لا شك معنى استبقائه صحيحاً كاملاً سليماً كما وجد وحرمة القتل تشمل لا ريب حرمان الافراط والتفريط في حاجات الوجود من وجه انهما مثلقتان للوجود

فكل ما يؤلم البدن او يضعفه او ينقص منه شيئاً لازماً فهو مخالف لحكم الطبيعة مباين لحكمة الخالق لان الهيكل الجسافي الناهض بالواجبات الطبيعية اما ان يكون (على راي اهل المادة) قائماً بذاته حياً بتركيبه غنياً عن كل مدد روحاني فضعافه او ايلامه او اذلاله مقاير لمبدأ الحفظ الواجب طبعاً واما ان يكون (على راي الروحانيين) بمنزلة الآلة لقوة روحانية تحار فيها الافكار ولا تدر كها الابصار فافساده على هذا الوجه مضر بالنفس مناقض لخالتها الكالية مباين لمبدأ الحفظ المفروض شرعاً وهذا الهيكل الحيوي على الوجهين سواء كان قائماً بذاته او بما فيه لا يكون انساناً ما لم يتم بالواجبات الطبيعية الانسانية ولا يستطيع ذلك ما لم تحصل له الحرية فكل ما يذهب بالحرية الطبيعية تقييداً او اضعافاً او محواً كلياً فهو اختلاس او جهل بماهية الوجود لان العبودية اما ان تكون اجبارية فهي من جانب المستعبد سرقة واتلاف لاندس حقوق الوجود واما ان تكون اختيارية فهي من جانب العبد جهل وعمى قلب يخرج بهما عن ان يكون انساناً

فمن عرض نفسه لعاديات الطبيعة من الحر والبرد والجوع بما يوسوس فيه الجهل مختاراً في ذلك غير مضطر له ولا ملتمس منه نفعاً قريباً معلوماً . ومن عدا على البدن بما يؤلمه من ضرب وجلد وتمزيق واهمال بما يزين له الوهم راضياً في ذلك غير مكروه عليه ولا مستفيد منه له شيئاً . ومن شوه الجسم او اسقط منه عضواً لازماً سعيداً كائناً ما كان ذلك العضو بما يموه له الطمع او الخيال الفاسد عامداً في ذلك غير مجبر ولا مفتدٍ سائر البدن بذلك الجزء كمن يقطع اليد المتفغررة وقاية لبقية الجسم . ومن اتزأ على حريته الذاتية بالهو او الانقاص او الاضعاف بما يبعث عليه الكسل او الغباوة او دناءة النفس راغباً في ذلك غير مقصور عليه . كل هؤلاء مخالفون لاحكام الطبيعة مناقضون للحكمة الالهية الازلية التي هي عين الجمال ومظهر الكمال ومصدر الوجود وعلة البقاء . فسبحانك اللهم ما خلقت فيما شيئاً عبثاً ولكن نحن بانفسنا عابثون

ولا رضيت لنا شوهاً ولا عذاباً ولا امساكاً عما لا يضر ولا قيداً ولا ذلاً ولا عنتاً
ولكن أكثرنا لا يعلمون

— . עוד علی بدء . — اما الافراط الذي هو استعمال الشيء من وجه الزيادة
فيه والتمريط الذي هو استعماله من جانب الاتقاص منه فها تابعان لحرمة قتل النفس
بما يجلبان عليهما من اسباب التلف فكل ما يضر بالوجود الانساني من الاطلاق والامساك
والبسط والقبض والاباحة والمنع والافعام والافراغ مماثل لقتل الذات حرمة ونكراً
فمن ترك الوسط العدل فيما يحتاج اليه البقاء والنماء واخذ منه بجانب الزيادة والنقص
فلا فرق بينه وبين المتعمر الا ان هذا يهلك النفس دفعة وذاك يقتلها تدريجاً

البحث الخامس

في الحقوق والواجبات النوعية

فصل

تبين في البحث الثالث من هذه المطالب وجوب حفظ النوع الانساني من وجه
ملازمته لبقاء الذات . فهذا الواجب ملزم بالالتزام الجنسيين على صورة يحصل منها
البيت او العائلة . وله في ذلك مظهران اثنان مظهر الزواج وفيه الواجبات والحقوق
الزوجية ومظهر النجاس وله حائضان الحالة الوالدية والحالة الولدية وفي كل منهما
حقوق وواجبات

فالعائلة والمراد بها في هذا المقام جماعة الزوجين وما يلدان هي الاساس الاول
والركن الفرد في بقاء النوع ونماء الانسان وهناء الحياة وكمال الوجود بل هي في العالم
البشري بمنزلة مركز نور تنبعث منه اشعة الحياة فتغير القلوب وتسرع النفوس وتحيي
الابدان وترشد المرء الى المقام الرفيع الممد له في عالم الحيوان

فهي من هذا الوجه جرثومة الكمالات الطبيعية وارومة المحاسن المدنية ومعدن
الفضائل الالهية لا تحصل بدونها في النفس عزة ولا تنشأ غيرة ولا توجد رحمة
ولا يكون اجتهاد ولا يكمل شيء من السجايا الانسانية والمزايا الاجتماعية . بل لا
يكاد الانسان يلمس من خبايا الارض وكنوز الطبيعة وثمرات العمل ما يفضل عن
حاجته الذاتية الا ان يكون ذا عيال من ضعيفات محبات صابرات وصبية صغار
عاجزين آملين جميعاً فيه متوكلين عليه يخاف عليهم ان يمسه ضم ويسره ان يرام

راضين عنه معجبين به داعين له بالبركات.

نعم ان حب الانسانية على وجه الاطلاق او المجد الخليلي على حكم التصور قد يكون هو الباعث الاول لبعض الانفس الزكية والعقول السمية على اقتحام المصاعب واحتمال المتاعب في القيام بما يترتب عليه الاثر النافع العميم . الا ان ذلك فضلاً عن كونه حادثاً طارئاً على الجمعية الانسانية غير اصيل في الخلق الطبيعي فهو مقصور على دون القليل من الناس . اما السواد الاعظم فلا يعانوف مناعب المعاش ولا يصبرون على شقاء الحياة الا يباعث ادنى الى الحس واقرب من الطبيعة واطهر لعين الفطرة الساذجة . وبعبارة اوضح لا بد للانسان في الحالة المعاشية من عيال يشعر بحبهم له وحاجاتهم اليه واعتمادهم عليه من دون سائر الناس فيخرج باجتهاده في تحصيل المنفعة ودرء المضرة عن حد ما يحتاج اليه مع ذلك الاجتهاد منحصراً على نوع ما في الحاجة الذاتية من وجه ان الولد قطعة من ذات الوالد بل هو عين تلك الذات تتمصت رونق الشباب واعيدت خلقاً جديداً فهي تقوى به ما دام لها البقاء وتحيا فيه بعد اذ يدركها الفناء

فاتضح مما تقدم ان الزواج واجب طبيعي لازم في بقاء النوع ملازم لحفظ الوجود ولعل هذا هو الاصل في جميع الاحكام القديمة المانعة من التبتل وطول العزبة من وجه ان الذين هم على من تينك الحالتين يكونون في مثل العزلة عن سائر النوع قتمو فيهم العواطف الانوية التي لا تخرج من حد قولنا « انا » فينشأ فيهم عن ذلك خلق الاثرة الموجب للوحشية المعروف بحب الذات

فاذا تقرر ذلك لزمنا بيان حد الزواج وماهية ما يجب فيه وما يحق للزوجين وايضاح ما يترتب عليه من الحالة الوالدية والولدية وما يلزم في هاتين الحالتين من الواجبات والحقوق

فصل

ظهر مما سلف ان حفظ النوع ملازم بالتثام الجنسين على الصورة المسماة زواجاً فذلك الالتئام لا يكون الا بالارادة ولا يتم الا بالاتحاد فاذا حصل كلاماً تعين فيه على الزوجين ان يسعيا فيما يعود بالفائدة عليهما جميعاً فان اتجاهاها بالارادة يشبه ان يكون ميثاقاً على الاشتراك في اللذة والالم والصفو والكدر والسراء والضراء

غير ان حفظ النوع وان كان من الواجبات الطبيعية فلا يلزم الا حيثما لا يضر
بالذوات شيئاً ولذلك وضعت للزواج حدود مبينة واوقات معينة في بعض القوانين
وكان في الحالم الصغير والعاجز الكبير مكروهاً على الاطلاق

ولما كان حفظ النوع هو الغاية الطبيعية في الثام الجنس لزم ان يكون هو المقصود
بالذات فيه فاذا جرد القران عنه عمداً كان بمقتضى التاموس الطبيعي جرماً ولذلك
جاءت الشرائع الدينية بالنهي عن الزنا وانامت على مرتكبيه حداً من عقاب هذه
الحياة علاوة على ما توعدهم من عقاب الآخرة . اما القوانين المدنية فقد اتت بمثل
ذلك على حين كانت قريية العهد من الطبيعة فلما ان تقدم الناس فيما نسميه الفة
وقدناً رفع ذلك الحد من قوانينهم فتاب الادب عنه في ذوي النفوس الزكية
والاخلاق الكريمة والعلم الصادق

فانضح من هذا الذي قدمناه ان الزواج ميثاق اشتراك واتحاد يبرم بين الجنسين
قضاءً لواجب حفظ النوع فهو من هذا الوجه وعلى هذه الصورة واجب لازم بالذات
كما يؤخذ من مآل الحديث الشريف « زوجوم فان لا تفعلوا تكن فتنة في الارض
وفساد عريض »

فاذا تقرر ان الزواج ميثاق يبرم بالارادة لزم من ذلك ان تعد مخالفة شرطه
من قبيل الخيانة . فهذه الخيانة تكون في جانب المرأة افطع منها في جانب الرجل
من حيث انها ^(١) تقضي عليه بان يعول الولد ^(٢) في حالة كونه ليس منهم في شيء
فهي لذلك من موجبات نقض الميثاق في كل شريعة . مأثورة الا ان ذلك النقض
يكون في بعض الشرائع طلاقاً وفي البعض فصلاً وابعاداً ليس غير

فالطلاق حكم يعيد لكل من الزوجين حرته الذاتية بحيث يحق له موثقة من
شاء بمثل الميثاق الاول والفصل قضاءً يفرق بين الزوجين حساً مع بقاء الصلة المعنوية
بحيث يكون الزواج محظوراً عليهما جميعاً

وليس من شأننا بيان حدود الطلاق وشروط الفصل على ما وضعت في الشرائع
والقوانين المرعية لذلك يخرج بنا عما التزمناه من الايجاز في هاته المباحث ولكننا ننظر

(١) اي المرأة

(٢) غير الشرعيين

الى ميثاق الزواج من وجه الحقوق والواجبات الطبيعية مجرداً عن كل عقيدة دينية
تجيزاً في موضوع البحث وحدود المطلب

فالزواج من هذه الحيثية عقد معلوم الشرط والعقد المشروط فيه لا يلزم الا ما دام
شرطه محفوظاً فان ضيعه احد المتعاقدين او ابطله او اهمله عمداً كان الاخر في
حل من العقد وهو الطلاق على اختلاف انواعه تجيزه بعض القوانين المدنية بعد
ظهور موجبه ووضوح وجه الضرورة فيه وتامين الولد من سوء عقابه . وتجمله بعض
الشرائع المطهرة صادراً من جانب الرجل لعيب معين ومصحة ظاهرة بعد وفاء النقد
على انه ابغض الحلال الى الله . وتقف به بعض سائر الشرائع والقوانين عند حد
الفصل على ما ذكرناه اعتقاد انه مما عقد الله على لسان رجال الله ولن يحل لانسان
حل ما عقد الله او مخافة ان يتقوض به ركن البيت ويفسد الولد بافتراق الوالدين
ولكل ادلة من النقل والعقل فيما يختلفون عليه

فصل

بالزواج يحصل النتاج فتنشأ عنه السلطة والواجبات الالدية وهي وسيلة استمرار
النوع . فالنتاج مؤدى الطبيعة البشرية واستبقاء المولود متعين على الولادة فهو واجب
تفرضه طبيعة الاشياء فلا مفر للوالد منه ولا عذر له في القعود عنه

ولقد وضع الحد في بعض القوانين على الذين يبذون ولدهم ولا شك ان اهمال
شان الولد بعد الولادة يكون من ذلك القبيل فان دعوة الموجود في عالم القوة الى
الوجود في عالم الفعل لمي الميثاق على حفظه بتيسير ما يحتاج اليه وانماء قواه البدنية
والعقلية الى ان يشتد ساعده فيصير كفواً لذاته فن اهمل ذلك بلا موجب من
الطبيعة ومن اقدم على تلك الدعوة مع تحقق العجز عن المترتب عليها فقد ارتكب
ذنبا يشبه في بعض احواله القتل

فاذا تبين استبقاء الولد من احكام الضرورة الطبيعية ثبت انه لا يوجب السلطة
في جانب الولد الا بمقدار وجود تلك الضرورة ولذلك فالواجبات الالدية تنتهي
من الوجه الطبيعي ببلوغ الولد سن القوة والرشد فلا يبقى بينهما من بعد ذلك الا
رابط الهيئة الاجتماعية والالفة البيتية كما سنينه في مكانه
ومما تقدم يعلم ان استبقاء الولد بانماء قواه البدنية والعقلية من الاحكام اللازمة في

حفظه فالوالد كائنًا من يكون وفي آية حالة يكون مأمورًا من قبل طبيعة الوجود
بمحافظة مولوده وتوجيه العناية اليه وسد حاجته الطبيعية بالغذاء والوفاء وانماء قوته العقلية
بما يلزم من العلم والجاهة الى قبول ذلك منه ان اباه ولذلك وضع الحد على مسقط
الجنين عمدًا وفرض العقاب على قاتل مولوده وحكم بالقصاص على النابذ وتقررت في
الكثير من هيئات الاجتماع الزامية التعليم

على ان هاته الواجبات وان كانت كثيرة الفروع ثقيلة الحمل عظيمة التبعة فلا
ينبغي ان تعدل بغير اهل الثروة عن الزواج والنتاج فانه لم يفرض على كل والد ان
يجعل مولوده من ذوي المقامات السامية وارباب الثروة الوافرة واهل العلم الواسع
وانما يلزمه القيام بالضروري من حاجاته الحيوية واصلاح شأنه واعداد حسن المال
له بما تصل اليه يد الامكان قال منتسكيو حكيم الفرنسيس . على الوالد ان يطعم الولد
ويحميه ويحسن تربيته وليس عليه ان يجعله ذا ميراث ١٠هـ

ولرب ما هن فقير وفاعل لا يملك شروى تقير يث في قلب ولده روح الشهامة
والاستقامة ويعني به ما استطاع انماء واصلاحًا فيكون في ذلك افضل واحسن سعيًا
من غني يهتم بالميراث ولا يهتم بالوارث

وقد مر بنا ان الواجبات الوالدية لا تقف عند حد الغذاء وسد الحاجة البدنية
ولكنها شاملة لتهديب الفكر وانماء العقل - وبعبارة اوضح - ان للانسان من حيث
انه حيوان وجودًا بدنيًا ومن حيث انه ناطق وجودًا عقليًا فن دناه الى حيز الوجود
بالفعل فقد وجب عليه حفظه في الحالتين وبناءً على ذلك فالتعليم فرض واجب على
الوالدين بلا استثناء الى حد ما يستطيعون . ومن المعلوم ان الحالة المدنية تد سمت
نطاق الضروري من العلم بما نشأ عنها من تفرع الحاجات وتنوع الحالات حتى عز على
كثير من الناس ان يبلغوا بولدهم حد اللازم من المعرفة والضروري من العلم فصار
من الواجب على هيئة الاجتماع ان تعينهم على ذلك بانشاء المدارس المجانية فقامت الدول
المتقدمة بها الواجب فلم يبق فيها للوالدين من عذر في النفاق عن تهذيب اولادهم فان
فعلوا عنادًا او عمى قلب تعين على الهيئة الحاكمة المختارة ارشادهم الى الواجبات الطبيعية
بالدعوة والحث والاعزاء والالزام يجب عليها ذاك من وجه ان المولود ليس ملكًا
لوالده يتصرف فيه كيف شاء وانما هو لله علة الوجود ثم لنفسه ثم لهيئة الاجتماع وهذا
هو الاصل في قوانين التعليم الالزامي

ومن الناس من لا يجد للسلطة الوالدية حداً فيحسب الوالد حراً فيما يجب عليه
 لمولود يفعل من ذلك ما يشاء ويهمل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل . ومنهم من يقول
 ان الولد ثمرة الولادة فمن ملك الشجرة فقد ملك الثمر يريد تقرير استعباد المرأة
 واستبداد الوالد . ومنهم من يعد سلطة الولد قبلاً من استبقائه للمولود فهو لاء جميعاً
 يرومون تاخير هيئة الاجتماع وارجاعها الى ما وراء قرون الظلمات الى العصر الذي
 كان فيه الولد ملك الوالد يبيعه ويتصرف في وجوده استعباداً وقتلاً كيف شاء .
 الى عصر الخشونة والجهل . الى زمن الاستبداد والظلم . الى عهد الحيف والفساد
 فقل يا اهل الظلمات حذار فقد جاء ملك الانوار

الجماعة العثمانية

« لسليم بك نقلاً »

(في ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٩)

جوزيت يا صروف الزمن خيراً عن الشرق ولئن بلغ سيلك فيه الربي وفاض
 منه الوطاب لانك امطت لثام الجهل والغرور عن البصر والبصيرة فشاهد الصور
 وادرك مادتها . اعدت له ذكرى ماضيه ايام كانت يجور ذيل العجب والتهيه ويتعثر
 بالسط السندسية ويرفل بمطارف الاجلال ويزدان بجلى الفضل ويعتضد بجماعة
 الكلمة ويشنف السمع بنغمت الاتفاق . ثم نقلت به الى ايام اخذ يجور فيها ذيل الفقر
 ويتعثر بشوك القتاد ويرفل بعباءة التحقير ويزدان بجلى الجهل ويعتضد بتفريق الكلمة
 ويشنف السمع بنغمت الاختلاف فتبين بالمقابلة ما هنالك وبضدها تبين الاشياء
 ايها الشرق قد عبثت بك الغير والبر حتى لم تبق ولم تذر واخني عليك دهرك
 واناخ بكلكم وهو له من طبعه وعادته عذر لانه لا يدوم مسلماً كما لا يدوم محارباً
 وسبحان من يصرف الافعال في خلقه كيف يشاء فوهنت عزائمك تحت وقرائقاله
 واستسلمت الى الصبر مكرهاً حتى ملته او ملك ثم قلبت له ظهر المجن واستبشرت
 بصادق القول « دوام حال محال »

ذلك هو القول الصادق بالحق والدافع الى التنصل من تهيب الصروف والباعث على
 تلقي وقعات السيوف بدرق الحكمة والعزيمة ودفع طائرات الكوارث بساعد الهمة

والثبات فالمره لا يكون رشيداً الا اذا حنكته التجارب والفارس لا يستقيم على
صهوات الصافنات الجياد الا اذا استقام له موقع الطعن في ساحة الجلال
ايها الشرقي الذي روعتك طائرات الابام وطارقات الليالي قد شاهدت والعهد
غير بعيد ان ذاك الزمن الذي نافرك وناصرك قد اتت سابعاته على غاية شوطها ثم
رجع بها خبيثاً وهو يناديك ليسالمك ويصافيك وقد رفع لواء النصر في ساعده مرسوماً
عليه شكل (الهلال) فانست وقتت هذه بشاره الخير ومبدأ الهدى ثم تهمل وجهك
بشراً وانت تدعو بفضل المولى الحميد

تلك هي دولتك العثمانية الباذخة الشان . وذلك هو جلالة مولانا ومولاها
السلطان عبدالحميد خان . فقد عاهدها الله به فاعزك واعزها وبشر المشرق بارجاع
جليل شانها اليه فاقبل ما وصل اليك بيمين الشكر
ولا يغرب عنك ان لكل اجتماع جامعة يقوم بها ويستند في ثباته على رعايتها
وتلك قاعدة شاملة جامعة بتبدي من عائلات المنازل مع قلة عديدها الى ضوابط
المالك مع سعة حدودها وهذه الجامعة هي الحافظة لذلك الاجتماع والداعية الى حرمة
وحفظ مقامه وبها قامت الممالك على اختلافها وبسببها تهيأ النظام ورسمت الضوابط
والروابط بين الحكومات

واذا رجعنا الى تاريخ الماضي وجدنا ان هذه الجامعة كانت تختلف بحسب
اختلاف احوال القرون وابنائها بان كانت القربى او الجوار او البطن او القنذ فالعشيرة
فالقبيلة ثم انتقلت مع الايام الى الديانة فاللسان فالجنسية فالوطن وهذا هو الشان
المرعي الان في غالبية الدول العظمى فان الجامعة فيها انما هي الوطنية فاوستريا مثلاً
تشتمل على عناصر عديدة بين هنغارية وسلافية والمانية وغيرها ولكل لفته فضلاً عن
اختلاف المذاهب ولكن الجامعة الوطنية فيها انما هي النمسية وقس على ذلك المانيا
والروسية وانكثرتا وغيرها . وكل منها تجري احكامها على وتيرة واحدة وتخضع لقانون
واحد ولو لم ترع هذه الجامعة في كل من الدول المذكورة لتفرق شملها وثل عرشها
ونسخ ظلها وذلك هو مبدأ نجاح الغرب واستفحال كلمته ونفوذ امره فانه يجمع ما تفرق
في ممالكه من العناصر والمذاهب الى جامعة الوطنية

وعلى هذا المبدأ القويم وبهاته الجامعة ايضاً قوام دولتنا العثمانية ايدها الله فان في
ممالكها المحروسة عناصر عديدة بين تركية وعربية وارمنية ويونانية وغيرها وكذلك

مذاهب مختلفة ولكنها تجتمع كلها جامعة واحدة وطنية هي العثمانية وهي دون استثناء
تخضع لجلالة سلطانها وتصعد بأمره وتنصاع الى احكامه وهذه الجامعة كانت وتكون
الحصن الحصين للرعية دون اطماع الدول وما وراء العتب فيها الا انخرسان والضياع
واذا تبين هذا وهو الحق الصراح كان ابن مصر وابن الحجاز والعراق والشام
وارمينيا والاناطول وطرابلس الغرب وكريد والبلغار اخوة لام هي دولتهم العلية
واب وهو جلالة السلطان بل كان العربي والتركي واليوناني والارمني والشركسي واحداً
في الوطنية ولقبه عثماني بل كان المسلم والاسرائيلي والمسيحي والدرزي وغيرهم واحداً
في الوطنية ولقبه عثماني

ذلك هو المبدأ الشريف الذي يجب على كل عثماني ان يراعي حرمة وتلك
هي القاعدة الراسخة التي تقضي على كل عثماني بحفظها والالتزام باحكامها فان الشرق
لم يتنزل عن منزلته الرفيعة في سابق الايام الا لما نسي هذه القاعدة ونسخ آية
الوئام والوفاق وفرق في الوطنية بين عنصر وآخر وجنسية واخرى . ثم لم يعد
اصلاح الحال الا لما ادرك الخطا الفاضح وفرق التفريق وجمع الشتات بجامعة الوطنية
وبناء على ما اوردهنا فاي عثماني سواء كان مصرياً او سورياً او اناضولياً او
غير ذلك من الممالك المحروسة يجرأ على التفريق بين صفوف الرعية الخاضعة لجلالة
مولانا السلطان او يجاهر بالتصل والتمهيز الوطني بين هذه البقعة او تلك الجهة مثلاً
وكتابها عثمانيتان . بل اي سوفه او امير او وزير او مشير من تبعة الدولة العلية
كيف كان مسقط راسه ومنبت غرسه ووجهة دينه يهمهم على تحة وجهل على انكار هذه
الحقيقة او العتب باحكامها . اجل لا يقدم على ذلك الا من خان دينه خيانة تربو
مساوي اخراه فيها على مساوية اولاده وباع وطنه بيع السماح في سوق النذلة والمون
وتجرد عن كل خلق سليم وطبع مستقيم وكان من ذلك الجسم العثماني بمنزلة العضو
الفاقد لا علاج له الا القطع

ايها العثماني قد وضع لك ان حفظ قوامك موكل الى حفظك حقوق تابعيتك
وما وراء الاخلال بها عن طيش وحمق الا ايفار الصدور وتوليد النتنه وبالتالي
التفريق والانتقام وبس المصير واني لك ان ترى غير ذلك بل اي قانون يبيح
لك ايها المصري او السوري او اناضولي ان تنزل اخاك في التابعة منزلة الاجنبي
عنك كلابطالي والسربي وغيرها

بل اي مبدا سياسي او اداري اصلي او فرعي وضعي او حملي يجيز لك ذلك
 اليس سلطانك سلطانه . اليس لواءك لواءه . اليس قانونك قانونه . اليس شعارك
 شعاره . اليس جنديك جنده . اليس دولتك دولته . اليس معاملتك معاملته .
 اليس تابعيتك تابعيته

قل لنا بعيشك اتخطب انت في جامعك وتدعو في كنيستك بغير ما يخطب
 هو في جامعه ويدعو في كنيسته . اتشاهد على دنائرك ودرامك غير الطغراء
 السلطانية التي تشاهدها على ديناره ودرهمه . اتحقق فوق سفنك في البحر وحصونك
 في البر لواء غير لوائه

بل قل لنا من الذي اباح لكبارك القاب الشرف اليس الذي اباح لكبار اخيك .
 وباسم من وصلوا الى الرتب والمقامات السامية . اليس باسم الذي وصل اليه كباره .
 وباي النياشين تزدان صدورهم ومن احسن اليهم بذلك اليس بمثل ما تزدان به صدور
 كبار ذاك وان المحسن اليهم واحد هو جلالة السلطان

بل قل لنا باي قانون تاتمر اذا ذهبت الى صقع اخيك ومن يكون حاكمك والى
 اين مصير امرك ومن يدافع عنك . ألك حاكم غير حاكمه وقانون غير قانونه وهل
 له اذا نزل ارضك غير حاكمك وقانونك لانكما كليهما في التبعية سواء وهي الجاهة العثمانية
 بل كيف لا تتفخر معه بهذه التبعية الجليلة وانت عثمانى في حين ترى الدول
 الاوروبية تتسابق الى صفاة السلطنة ومحالفتها كما اوضحنا لك في لمحة سابقة وكيف
 لا يكون منك ذلك وانت ترى اخوانك في المذهب دون التبعية يشدون بحمد
 جلالة مولانا الخليفة الاعظم واليك بياناً واحداً بشأن ما لقيته السفينة العثمانية التي
 محرت في بحر الهند اثنا ذهابها الى اليابان تشبهت لك منقولاً عن جريدة الحقائق
 الغراء وهو بنصه السائق

ورد تلغراف من رئيس المدرعة العثمانية المساة ارطغول اوضح به ما لقيه من
 حسن القبول والاحتفال بمقابلته من الطوائف الاسلامية وهرعهم الى زيارة تلك
 السفينة وانه من عهد وصولها الى سنغافوره الى الان لم تكذب تخلو من وجود الزوار
 طرفه عين ولقد زاره من مدينتي بومباي وكولمبو نحو الثلاثين الف زائر ما عدا
 من تسارع الى زيارته من كبار وعظام جهات ملقه وسوماطره والجاره حتى قال انه
 وعموم من بيعته من ضباط السفينة لا يمر عليهم يوم الا وهم مدعوون فيه لضيافة

حافلة وانه عاجز عن بيان ما شمل عمومهم من الفرح والسرور وابداء شعائر الوداد والمحبة القلبية وتوالي الدعوات في المساجد ببقاء مولانا الخليفة الاعظم امير المؤمنين «
ليس هذا كافياً لوثامك ووفائك . وليس هو برهاناً ناصعاً على ما اوردناه
المرّة بعد الاخرى من سمو تقوّد الجناب السلطاني على جميع العثمانيين اولاً ثم على
جميع المسلمين ثانياً بصفة كونه امير المؤمنين

واليس ذلك برهاناً على قوة الدولة العلية وشوكتها وضربة قاضية على اولئك
المنافقين الخائنين المارقين الذين ينكرون حقوقها واليست الدول كلها تعترف لها
بذلك حتى ان انكثرتا نفسها من عهد رجالها بيل وبالمستون حتى الورد سالسبري
لا ترتاح الا الى السياسة التي يكون من ورائها استمالة الدولة العلية اليها مما سناتي
على بيانها في لحة ثانية

ايها العثماني قد صحص لك الحق فاصدع به وثابر على هذا الوفاق والوثام واقض
القضاء الصارم على من عق وخان . وانت ايها المصري العثماني الذي كنت في مقدمة
من اخلص وحافظ على هذه التابعية وعلم انه خاضع ديناً وسياسة لجلالة سلطانه
احتفظ على هذا المبدأ الشريف وتمثل بسمو عزيزك واميرك الوكيل الشرعي عن
جلالة سلطانه والحاكم على بلاد هي من جسم السلطنة بمنزلة القلب بل هو العضد
الاكبر للدولة والوطن ومقر ثقة العظمة السلطانية ومحط التفاتها وميلها . واسأل
الله ان يصونهما ويعزز شان الامّة والوطن ويزيل داعية الشقاق وتزريق الكلمة
ويؤيد الاتحاد والالفة فيهما العزة والمنعة وحسن الختام

الاعمال بالعمال

« له ايضاً »

(في ١٨ يناير سنة ١٨٩٠)

سئل بزرجمهر الفيلسوف عن الاسباب التي اودت بدولة بني ساسان بعد ان
كان لها من بسطة الملك ونخامة السلطان واستتمحال الكلمة ونفوذ الشوكة ما لم تصل
اليه دولة فاجاب بقوله « لان ملوكها قلدوا كبار الاعمال لصفاير العمال »
ذلك لعدم الحق جواب قاطع مانع بلغ من البلاغة حدّها واصاب مهمه من

الحقيقة كدها . وهو ولا مشاحة من اهم المواضيع التي تستلزم من مطالب البحث والشرح ما يفي بالغرض ويستلقت ارباب الكلمة التي تدبره والتنبيه اليه وقد تخيرناه موضوعاً لمحتنا هذه ندمج في سلكها من مبناه ومغزاه ما يحتمله المقام ولا تقوت فائدته فنقول

لا يغرب على الافهام ان الوجود نفسه لم يحفظ الا بالنظام على نحو ما شاءت ارادة واجب الوجود جل جلاله وتلك العناصر والنواميس لا يكفل حفظها الا بقاء ذلك النظام السامي الشامل دقاتها واحكامها اصلاً وفرعاً وهذا النظام العام كان علة للنظام الخاص من قبيل الميل الغريزي الطبيعي الى المحافظة على البقاء . وعن ذلك تولد نظام الشخص الفرد فالعائلة وما فوقها بسلسلة صاعدة الى الدول والممالك . وهذا النظام لم يبق الا بما تبينه العقل من القواعد والنواميس الضامنة ادراكه والكافة رعايتها حفظه وهي ولئن اختلفت مبداء باختلاف العادة او المكاف لا تختلف غاية وهي الاحتفاظ عليه لقيام العمل به

واذا وضع هذا كان ذلك النظام الكافل حفظ تلك العائلة المنضوية الى رعاية ربها في منزله هو نفس النظام الكافل حفظ تلك الحكومة الباذخة الشان برعاية اربابها . وكما ان ارباب العائلات مسئولون لدى هذا النظام عما يفعلون بالنظر الى عائلاتهم كذلك ارباب السلطة مسئولون عنه لديه بالنظر الى شعوبهم ورعاياهم وهذه المسؤولية تعظم ان نقل نسبياً قرب العائلة تطالبه امرته فهو مسئول لها ولذمته واما الحاكم فتطالبه رعيته كلها فهو مسئول لها ولذمته ولوطنه لعائلته ايضاً فواجبه من هذا القبيل اعم من مواجب رب العائلة ولقد كان له تلقاء اهمية ما عليه ما ليس للثاني من احكام الحرية قرب المنزل يضيق عليه في سبيل حفظه لنظامه ما يفسح معه مجال الحاكم في سبيل حفظه لنظام حكمته لان النقطة لدى الفريقين واحدة وهي التعاون تتج مما ذكر ان نظام كل حكومة او مملكة يقوم بعالمها وهؤلاء يصلحون لحفظ ذلك النظام الابرةاية امور ثلاثة وهي حسن انتقاد وانتقاء وتعيين فبالاول وقوف على حقائقهم وبالثاني نزوع الى تخييرهم وبالثالث احكام في استخدامهم والى هذا المعنى اشار الحكيم بزرجهر في جوابه فكفى بكبار الاعمال عن الخطيرة منها وبصغار العمال عمن يصغرون ادارة لا عمن يصغرون سناً فكفى بلع حلم الشيخ وشيخ في حلم الفتى وما كمال الفتى بالشيب في شعير لكن كمال الفتى بالشيب في الخلق

وتحرير عبارته اهمهم قلدوا الوظائف لمن لا يصلح لها فوضعوا الشيء في غير موضعه وهو مبدا الخلل

وانه ليسهل علينا ادراك هذه الحقيقة اذا التفتنا الى مراجعة حوادث الامم السالفة وتواريخ الممالك الماضية وحسبنا من ذلك وقوفنا على حالة الشرق ايام كان يجر ذيل العجب والتهيه ومقابلته بجالته ايام اخى عليه الزمن فتناقل متعثرًا بذيل الفقر والخلول اما الاولى فكانت له يوم رعاة رعاة مقسطون مدركون انتقدوا الرجال وانتقوم وقلدوم من الاعمال ما ياهل لهم . واما الثانية فكانت يوم ساسه ساسة اضلم الجليل واعمال الغرض وافرطوا وفرطوا فاودوا بهم وبالرعية وساءت الحالة مصيرًا . ومعلوم ان العالم درجات وان التفاوت من احكام الطبيعة وبه تقوم مصلحة العباد والله در من قال

لولا التفاوت في البرية لم يكن امر بمصلحة العباد يقوم
وكم من امة ذليلة اعزها شخص واحد وكم من مملكة عظيمة اذلها شخص واحد
فالقول باعمالها وهذه بعالمها . وقد تنبه رجال الممالك في هذا القرن الى المبدأ الجليل واعملوا الفكرة في تمهيد المسالك الموصلة الى المحجة البيضاء وبالاستقراء ادركوا الوسائل الكفيلة نيل هذه الغاية وهي محصورة في مطلب واحد هو تعميم العلم
فالعلم انما هو المراقبة التي ترقى بها الحكومة والرعية الى قمة العظمة والمجد والكمال
لان تعميم العلم يتيح تكثير الرجال الصالحين للعمل فتتزين بهم مصالح الحكومة فهي مع تشعبها ليست الا بمثابة سلسلة محكمة الحلقات فلا بد من رعاية كل حلقة منها لان انتشار الواحدة يؤذن بانتشار الاخرى فيفسد النظام ويتسلط الخلل . واذا دققنا في احوال كل دولة من دول هذا العصر وجدنا ان الاسمى نظامًا بينها هي الاكثر رجالات والعكس بالعكس واليك البرهان

قلنا ان مصالح الحكومة متعددة وكل فرع منها منفصل عن غيره لفظًا متصل معني
فسلامة نظام مجموعها موقوفة على سلامة نظام افرادها ومعلوم ان الانسان كيف كانت درجة ادراكه اكفى لاثنان عمل واحد منه لاثنان عمليين اثنين لان في الاول توجيه القوى مجموعة الى نقطة واحدة وفي الثاني توجيهها متفرقة الى نقطتين والجمع حليف القوة كما ان التفريق حليف الضعيف . فاذا قل في الحكومة عدد العمال الصالحين للعمل اقتضى ان يقلد بعض مصالحها لمن لا ياهل لها وذلك يستلزم من كبار العمال

النزوع الى واحد من اثنين اما الاعضاء واما الالتفات فان كان الاول فلا بد من وقوع الخلل الذي لا تحصر دائرته في مشتملات ذلك الفرع من المصلحة فقط بل تحيط بغيره لما هنالك من ملائمة الصلات وان كان الثاني اقتضى بالطبع توزيع القوى على جهات متعددة ونقط متباعدة فتفوت العناية حقوقها مما يستلزمه المهم من تلك المصلحة لاضاعة الفرقة في مناظرة ما هو اقل اهمية وقد قلنا ان الضعف حليف التفريق . فنج اذاً ان كل حكومة كثر عمالها الصالحون المدربون اسنقام نظامها وقل خللها او امتنع وهذا هو محط الرحال

وان لنا من وراء ذلك ايضاً مطلباً خطيراً يورث عزة كل حكومة ومنعة كل دولة وهو احتفاظ الرعية على وطيده ثقتها باهلية حكامها ووكول امرها اليهم وارتياحها الى اجراءاتهم حتى لا يعود بهمها فصل هذا الموظف سواء كان وزيراً او وكيلاً او مديراً او قاضياً ولا يروعا استغافره او مبادلته غيره في وظيفته او تقاعده او موته لتأكدها ان رجال الحكومة الصالحين للعمل كثيرون فلا يخشى ان تتعطل مصالح دولتهم او تسقط بعملة فصل وزير او استغفائه (الا في ما ندر كما لو كان الموظف نادراً في صفاته بين الرجال والنادر لا يبنى عليه حكم) لان تقليد الوظائف لا كفائها يتبع لهولاء تدبير الشؤون على وتيرة واحدة تساق اعمالها بالنظام الاستقرائي ولذلك لم يرع انكثرا موت ديزرائيلي كما لم يهلهما نفي غلادستون وقس على ذلك غيرها من الدول التي كثر رجالها المعظام وكان لها الحظ الاوفر من تميم المعارف

واذا تبين هذا وجب على كل حكومة متيقظة ان تصرف منتهى العناية وغاية المهمة الى تمهيد السبل المبيحة تكثير الرجال الصالحين للعمل لكي تحافظ على نظامها وتدرأ عنها غائلة النقص والذل وتكون امينة من مستقبلها كما انها من حاضرها لعدم وجودها تحت رحمة واحد فرد فان الخلود لله جل جلاله . بل وجب على كل رئيس كيف كان مقامه ومركوه ان يدرب من يرأسهم على العمل ولا يستنكف من تعليمهم وثقتيهم وافادتهم وتشجيعهم وان ينبذ ذلك المبدأ الذي اتخذه بعضهم حاجزاً دون اعداد الرجال وهو الخوف من المزاحمة فان الخدمة العامة مفضلة في كل حال على الخاصة وليس للانسان الا ما سعى . وما افضل ان يقال ان زيدا لم يخدم وطنه وهو في الوظيفة او في حياته فقط بل خدمه وهو يعزل عنها او بعد موته ايضاً وذلك بين علمهم من ابناء الوطن واعدهم رجالاً عظاماً ومدبرين حاذقين وساسة محنكين

فالوطن يحفظ له ولا له الذكر الجميل والاثر الجميل

واذ قد تبين لنا ان سلامة النظام في الحكومات والدول موقوفة على اكفائها من رجال العلم والعمل وجب ان نرى في الشان الذي ينبغي ان يراعى لهم لدى وجودهم . فنقول ان الواجب في هذه المسألة من وجهيها انما هي واحدة فكما انه يجب النظر في تكثير العمال الصالحين حفظاً للنظام كذلك يجب النظر في تعيين كل عامل للوظيفة التي يصلح لها حفظاً لنظام تلك الوظيفة والا فسدت النتيجة لفساد مقدمتها واستوى العالم والجاهل والقلة والكثرة ولقد ذكرنا آنفاً انه يجب على المقلد الوظائف ان يكون حسن الانتقاد والانقضاء والتعيين اما الاول فيقضي على المنتقد ان يكون عاقلاً لان نقد الرجال من اصعب الدروس وان يكون مستقبلاً لئلا يتغلب الغرض والصنعة على معرفته . واما الثاني فيقضي عليه بان يحسن التخير لان مجرد العلم دون العمل لا يعني فضلاً عما يستلزم ذلك من رعاية الاخلاق والصفات . واما الثالث فيقضي عليه برعاية النظير اي بتقليد الوظيفة لمن له سبيل الى بلها اذ لا يسوغ ان يقلد الطبيب وظيفه مهندس ولا هذا وظيفه كياوي الخ ولكن اذا سلمت الوظائف لاربابها حسنت الحالة وقاموا بواجباتها قياماً مشكوراً لانهم يعلمون بما يعلمون فلا تقوتهم اوجه المنفعة ولا يصعب عليهم درء المصرة وذلك ولا مراء هو الشان المهم الواجب التنبيه اليه والتعويل عليه بل هو قوام كل حكومة وميزان كل دولة ومن هذا المطلب يساق توجيه التنبيه الى كل حكومة قل عديد عملها الصالحين الى الاحتفاظ عليهم بما يصل اليه وسعها والى حسن انتقائهم وتقليد الوظيفات وتدريبهم على العمل وتعويدهم على النشاط واعدادهم لرياسة المصالح المهمة لدى الكفاءة دون النظر في اعمارهم اي يجب ان نجعلهم كباراً في الاستعداد والادارة ولو انهم صغار في السن ليمكنوا من خدمة الوطن وهم في حدة الشباب ونشاطه قبل ان يدركهم عجز القوى العقلية والبدنية فتفوت المزية المطلوبة منهم في خدمة البلاد

على ان النظام المطلوب في بياننا هذا لا تدرك غايته الا اذا روعي فيه ما على ارباب الوظائف ولا سيما كبارهم من الواجب المهمة وهو ما نلم به في ختام بحثنا هذه لتكون محيطة بالموضوع من جميع اطرافه
فمن ذلك اولاً وجوب ثقة رئيس المصلحة بين يرأهمم ليمكن من التفرغ

الى المهم من وظيفته فيوفيهما حقها والالتبس عليه اشغالها واستوى الاعم منها بالمهم
فانقص من واجب الاثنين . ودليل ذلك ان الناظر مثلاً لا يمكنه ان يكون ناظرًا
ووكيلًا ورئيس قلم ومديرًا ورئيس ضبط وناظر قسم فاذا لم يثق بعامل نظارته بل
وجه عنايته الى هذه الفروع توجيهًا عمليًا قصر بالطبع عن القيام بهام النظارة الاولى
واقعد العمال عن العمل جنبًا وانبثاءً وكان بما اتاه مشتغلًا بما يمكن لغيره ان يشتغله
وتاركًا ما لا يباح لغيره ان يشتغله فالثقة اذاً واجبة على شريطة ان نقرن بالمناظرة العامة
ثانيًا يجب ان يقتدي المصلحة العامة بكل مصلحة خاصة وهذا الواجب يقضي
عليه برعاية مطالب عديدة منها عدم اتخاذه المنصب ذريعة لتبيل اغراضه الخاصة .
ومنها عدم تحقير من يرأسهم امثلاً يسأموا . ومنها عدم استنكافه من مشورة من يتبين
كفاءته منهم في حين لا يحسن ان يكون آله في ايديهم . ومنها اعطاء كل ذي حق
حقه وتقديم المستحق وثقيف المستعد ونبد المتأخر وما شاكل ذلك

ثالثًا يجب عليه ان يشرف المنصب بشريف اعماله فالخير في من تصدر في
المجالس لا في من صدرته المجالس وذلك يقضي عليه بان يقرن العزة بالحلم والعظمة
بالانضاع والوقار بالوداعة والعدل بالرحمة والشدة باللين . وفي هذه الحالة ينبغي
عليه ان يترفع عن الدنيايا كترفعه عن العار رعاية لحرمة وحرمة منصبه . وان يجعل
مقامه اسمي من ان تصل اليه وشاية واش او نقل ناقل حتى لا يكون للغرض عنده
مجال حذر ان تحركه العوامل النفسانية الى ما لا يؤذن به سمو المنصب وهو الانتقام
الذي لا تدانيه كبار رجال ولا تتنازل الى تصوره ارباب المناصب السامية

رابعًا واخيرًا يجب على رب المنصب ان يتخلق بجميع الاخلاق الحميدة الشريفة
فهو من الرعية بمثابة مثل الاقتداء ونبراس للاستضاءة فلا يحسن به ان يكون عبوسًا
فينفر عنه ولا ضحوكًا فيهزأ به ولا كاذبًا او مخادعًا او منافقًا لثلا يفقد ثقة العالم به
ولا سكيرًا او بذوي اللسان لثلا يحتقر او يهان بل يجب عليه ان يحافظ على كرامته
بمحافظة على كرامته غيره وان يكون ثابت الراي لا عنيدًا فيه وان يعلم فضل الاخلاص
والولاء والود ليشوق الناس الى رعايتها وان يحترم الحسنة ومن اتاها ويقسو ليؤدب
لا لينتقم يحنو ليستعمل لا لينفر فاكنتساب ميل الناس وثقتهم من اهم واجبات
الموظف وبالتالي ينبغي ان يكون مثليًا بالاخلاق التي يستلزمها المنصب ويقضي بها
ناموس الانسانية

ذلك ما عن لنا ان نعلقه في هذا الموضوع العام المهم ونحن على حالة نحمد الله
لوصولنا اليها في شرقنا فقد اقتضت حكمة جلالة سيدنا ومولانا الخليفة السلطان الغاري
عبد الحميد خان الاعظم ان يعزز السلطنة السنية بعزة عمالها وتكثيرهم وتقليد
الوظائف التي يستحقونها ومثابرة التنبية والوصاية للنظر في مصالح الرعية التي تدعو
بتأييد ملكه ودوام نصره

وهكذا انتضت حكمة سمو امير مصر وعزيزها وتوفيقها فانه حفظه الله لازم
السهر في سبيل الوقوف على احتياجات الرعية وتمهيد العقبات الحائلة دون نجاحها
وصرف العناية الى تعميم المعارف بين ابناء البلاد واعز شأن المدارس وادام التفاته
اليها فاكثرت بذلك عدد العمال الصالحين للعمل واحكم في حسن انتقادهم وانتقادهم
وتعميمهم وفتح لهم ابواب التقدم وسهل مضمار المباراة فشادت القلوب بحمده ونطقت
الالسنه بمدحه واشتركت في الدعاء له بطول البقاء وحفظ الانجال الكرام

هل عندنا رجال

له ايضاً

(في ٨ فبراير سنة ١٨٩٠)

اجمع ارباب الحجي على ان الشرقي قد افاض الله عليه من بركات الحجي ما
اتاح له الاندماج في سلك المرتبة الاولى بين مراتب بني آدم
واتفق المؤرخون على الحكم بسمو مقام الشرقيين بما استدلوا عليه من بدائع
اثارهم واوايد اخبارهم

وقرر المدققون ان للايام اطواراً وللحكام اقداراً وللزمن ادواراً تنحصر
لنواميس الطبيعة بين اقبال وادبار ايماء الى حركة الوجود
وقضى الحكماء بان العقل كالجسم في قابلية النمو فلا مندوحة عن رماية
الوسائل والوسائط

واجمع العالم عن ان العلم حياة العقل فهو غذاؤه وقوامه وملاكه وبه نشأته
وعليه معوله

وحكم الطبع بان المصري هو من فريق الشرفيين وان له من الاثار ما يربو
 على اثار غيره عدداً وعظمة ونظاماً واحكاماً وعملاً وصناعة . وان الايام قد دالت
 على هذه البلاد فاشابها من رائعات العوادي وعاديات الروائع ما قلب لها ظهر الجفن
 وغمزها بسنان النكد والقهر حتى اذا اتهمى طور اديارها بسم لها ثغر الزمان مبشراً
 بطور اقبالها وذلك من يوم عاهدتها العناية بعهد المغفور له الرجل العظيم محمد علي
 باشا ومن ترائب يده من اعضاء اسرته الكريمة حفظها الله

فمن ذلك العهد هدمت حصون الاستعداد ودكت صروح الجهل . وشيدت
 على اثرها قصور المدارس . وخفقت فوقها بنود المعرفة والعلم . وعمرت دور الطباعة
 وولفت السنة الافلام في دماء الحابر وجرت ساجاتها في ميادين الطروس وثقفت
 العقول بالفنون . وارسلت الطلبة الى البلاد الاجنبية للوقوف على معارفها واختراعاتها
 وعجائب اعمالها . وترجمت الكتب المفيدة ببراءة ارباب البراعة . وامم مصر الرواد
 والسياح والنزلاء يخالطون ابناء البلاد ويمارجونهم ويعاملونهم . ذلك فضلاً عما كان
 لقطر من دانيات القطوف في جنان الفضل وزواهر العلم من بستان الازهر بل
 حرم العلوم الذي كان ويكون وسيبقى الحافظ الاكبر لعلوم الامة العربية
 وموضوع غورها وموطن مجدها وهكذا مر على البلاد نصف قرن وهي
 جانحة الى التقدم ناهية منهج السداد سائرة الى المحجة البيضاء . تذكر مجد اجدادها
 وما آلت اليه بدمهم فتحتمز الى القيام لارجاعه وتشاهد عناية الاسرة العلوية بها تحفظ
 على جميلها وتداب السعي في اجابتها لرغائبها . وترى تسابق غيرها الى توسيع نطاق
 الادبيات والماديات فتائف من السكون الى الخمول . وتبين انعطاف سمو اميرها
 وتوفيقها الى تأييد عزها وتشديد دعائم مجدها قشيد بمحمده وتهب من رقدتها ناشطة
 من عقل الحطة والخسف

تلك هي حالة مصر وما وليها من ذرائع التقدم مضافة الى ما انشأته يد الحوادث
 فيها من طور الاقبال من مدارس التجربة وسطوته من دروس الاختبار ورسمته من
 مشاهد الاعمال وصور العمال على صحائف السياسة والواح الادارة فضلاً عما انتبذته
 من مطالعات ساقطة ومطالب ضاغطة . وقد اقررنا وليس من يعنفنا او ينكر علينا ان
 قد صحت عقول ابنائها لصحة هوائها ومائتها فنالوا بالاسرة الكريمة والفوز بالعلم الاطبيين
 بعد ان ذاقوا بسوء الحكم وتسلط الجهل الامرين . فهل بعد ذلك يسوغ لنا يا ترى

ان نسأل (هل عندنا رجال)

لقد مرّ علينا بضعة اعوام اختلط خل حوادثها بخمرها والتبس خيرها بشرها .
فنظرنا من بادي السياسة ما نسر عن خافيتها وتبيننا من خافيتها ما شد عن باديها حتى
اذا ما وصل مستطلعوها السير بالسرى وقفوا وقد تفتقت استارها وقوف من اذله
ما لم يخطر له بالبال اذ شاهدوا يد السياسة قد كتبت على صحيفة الاعتذار سطرًا
ملخصه (هل عندنا رجال)

ولكن من تري هم الرجال الذين يقصدون في هذا السؤال . افلاحون يتخذون
الارض ويسمونها ويمرعونها التجماعاً للورد الخصب . ام مزارعون يذرون الدرهم
لاستغلال الدينار ويحكون الزرع لاستدراار الضرع . ام تجار يردون ويصدرون
ويوردون ويصدرون ويبيعون ويشتررون . ام مزاربون يستزقون بالحركة وتقذفهم
عوامل الايام بين خوف من العناء وامل بالاكتفاء . ام محترفون يسلطون المادة على
مثلها لايجاد الصور فينقدم مساوهم ما ينفقه صاحبهم . ام موسرون كفاهم غناهم مؤونة
النصب فاخذوا الى الراحة وجانبوا شظف العيش - كلا ان السياسة بسواها لم تقصد
الرجال الذين من هذا القبيل اذ ليس لهؤلاء فعل موثر في احكامها ولكنها تقصد
رجالاً تقوم بهم الهيئة الحاكمة لمساند اربعة وهي السياسة والادارة والحقوق والجنديّة
اما السياسة فهي الركن الاول من اركان كل حكومة وبلاد بل هي الدعامة
الوحيدة للمساند الثلاثة المنوه عنها فكل حكومة لا سياسة لها لا قوام لها وليس يخفى
ان الحوادث قد قضت بان يكون للسياسة في مصرنا شأن مهم لا ينكره الاكل من
لا يعلم من السياسة غير اسمها

واما الادارة فتأنها معلوم وهي محط رحال العمل ومهيح النظام وموئل الاتقان
وبها تميد عقبات الاشغال والصلة الثابتة بين الحاكم والمحكوم والمنهج الواضح اما الى
محجة العمار او الى هدة الخراب . وان لهذا المسند في مصرنا شأنًا يربو عظيمة واهمية
على مثله في بلاد اخرى لاسباب عديدة لا تحتملها عجالتنا هذه بل لا بد من الافاضة
فيها في لمحّة ثانية قريية العهد

واما الحقوق فاسمها يعني عن تبيانها فهي ميزان العدالة بل هي الكفالة تبادل
الحقوق وصون الحياة والرزق وقد كان لها في مصرنا شوون تبرى يانف ذو الشامة
من ذكرها ثم اقلب الشيء الى ضده لئناهيه فامسى هذا المسند موضوع اهتمام

القريب والبعيد ومرمى سهام النظر من الصديق والعدو
 واما الجندية فيكفي وصفها بانها سياج الحكومة والامة ولها فضل الامن الداخلي
 ودفع الطاريء الخارجى ولم يكن لها في ما مضى الشأن الذي امسى لها الان عندنا
 بعد ان ساورتنا الايام بمصائبها او اكتنفنا الحوادث بنواصيها فباتت وهي نقطة الدائرة
 لخطوط مستقبل القطر

تلك هي المساند الاربعة التي تحتاج الى رجالها في قطر يبلغ نحو السبعة ملايين
 نسمة عدداً وقد جرى من نيف ونصف قرن في المنهج الواضح علماً ودرية ولابتائه
 من الذكاء الطبيعي ما يؤهلهم الى ادراك المرام بسرعة الاكتساب فهل يسوغ لنا بعد
 ذلك ان نقول « هل عندنا رجال »

نقول ولا نخشى في الحق لومة لائم ان عندنا لهذه المساند اكفاءها من الرجال
 في حين لا تتناول الى القول بان عندنا منهم عدداً ومقماً ما عند انكلترا او فرنسا
 او غيرها ولكن لدينا اكفاء الله لما اهم من المصالح . واننا موردون للمطالع برهاناً
 ناصحاً على صدق ما اثبتناه وهو يشمل النظر في مستدي الحقوق والجندية فنقول
 لا يغرب على المدققين ان الوطنيين كانوا في ما سلف يبيعون دعاويهم او يرفعونها
 باسم الاوربيين لكي تقام امام المحاكم المختلطة اذ كان لهم من الثقة فيها ما يحاكي عدم
 ثقتهم بالمحاكم الوطنية السابقة وكانوا يعذرون في ذلك . ولكن لما سمحت ارادة
 الجناب الخديوي التوفيقي باشاء المحاكم الجديدة على السنن والقوانين العادلة وبدا
 للناس من احكامها وحرية ضمائر قضاتها ما حسنت بدايته وشرفت غايته عدل
 الناس عن منهجهم الاول ووثقوا بالمحاكم الاهلية وثوقاً جاء اصدق برهان على اهلية
 رجالها ولا سبيل للشكول عن هذا الوثوق الا اذا تبينوا ما يعث به واهمه الخلل
 بالاستقلال

اما رجال الجندية فنكتفي بالبرهان على اهليتهم ما كان منهم في مواقع الحدود
 ولا سيما موقعة طوسكي التي ابوا فيها ولستنا ننكر فضل قادتهم عليهم بقدر بهم ولكن
 الفائدة التي وصلت الى الجندي البسيط كانت اسمى ولا مراء عند الضابط فكما ان
 ذاك احكم القيام بمواجهه كذلك امكن لهذا ويمكنه ان يحكم بها اكثر من الاول
 لسموه عليه في الاستعداد فالتفاوت امر طبيعي وحسبنا شاهداً على ذلك ما قاله
 رؤساء الجند من الانكليز في هذا الموضوع . واذا كان لمستدي الحقوق والجندية

المهمين جداً اكفاؤهما فكيف لا يكون اكفاء للمسندين الاخرين
ويذكر المطالع اتنا ابنا في لحة سابقة عنوانها (الاعمال بالعمال) ان القيام
بالمصالح يستلزم وجود العمال وهذا يستلزم رعاية ثلثة امور وهي حسن انتقاد وانتقاء
وتعيين وقد ثبت لنا الحصول على الاول فاذا اقررنا برعاية الثاني كان لنا عند ذلك
ان نقول انه لا يسوغ ان نسأل (هل عندنا رجال)

بل كيف يسوغ ان نسأل ذلك ولا نخشى ان تسالنا العدالة وما الذي ينقصكم
من معدات النجاح او من لم يستوف حقه من العلم والعمل . الم يقم منكم شبان طورا
اردية الشباب باحراز العلوم ثم نشرها في سبيل العمل . اليس فيكم ارباب السياسة
الذين اتاحت لهم الايام سهولة المظالمة والمراقبة والمعاشرة والمجالسة . وتلقي الحوادث
سيئة وحسنة والتنقل في المناصب عظيمة ووضعية اليس فيكم ارباب الادارة الذين
اعد لهم الاستحقاق او الحظ مقاماً في الخدمة وتمكناً من المنصب وتقلباً في الوظائف
ودرساً في صحف الخبرة والتجربة وتوكوءاً على عصي الحوادث . اليس فيكم المهندسون
الذين رسموا مقدمات اقليدس على الواح افكارهم وانا فوا عليه بما اربى على متونها
من شروح المتأخرين اليس فيكم الاطباء الذين احيوا ذكر بقراط وجالينوس والشيخ
الرئيس وقرنوا العلم بالعمل اليس فيكم الاقتصاديون الذين يحكون النقد في العمل
والمعاملة فلا يلبث ان يسي درهمهم ديناراً - بلى فيكم كل هؤلاء وكيف لا يكون
ذلك وطور اقبالكم في عهد الاسرة المحمدية العلوية اتاح لكم الوصول والحصول على
هذه المطالب فلذلك هل يسوغ ان نسأل (هل عندنا رجال)

نم يسوغ هذا السؤال ولو ان هنالك رجالاً في ما اذا انتفى حسن الانتقاء
او قصر العمال في العمل ويمن حصر ذلك في امر واحد لا غير وهو تفضيل
المصلحة الخاصة على العامة فان ذلك من ادعى الاسباب الى هدم كل نظام ومنع كل
اصلاح ولا سيما في البلاد التي قام للسياسة فيها شؤون واغراض واشرايت اليها
اعتناق الاطماع والغايات وهيئات ان يقوم للمقصر عذر او تقبل منه حجة في حين
انتدب لخدمة وطنه واستلم زمام الامر والنهي وعلم انه انتظر ان يسمع من وراء
حجاب الحق صوت الذمة والشرف يسأل ذاك العامل ما عذرک في صرف هممتك
الى تحقير من ترأس وتفریق كلمتهم والقاء الشقاق بينهم وارتكابك الدنيا باهتمامك
في الانتقام من زيد واعداد الشر لعمر ونبذك او امر رئيسك واستمالك الجفوة

والقسوة وجهلك مواجيك ولزومك الخداع والرياء والمخاتلة وعدم الوفاء والحناف
وتوجيه جميع قواك في سواد ليلك وبياض نهارك الى شر تدنيه وخير تقصيه في
حين يجب ان يقودك عقلك الى انك باستلامك وظيفتك قضت عليك ذمتك وشرفك
ودينك بان تكون اعمالك كلها لوطنك ولا ميرك ولا رئيسك . وانك في مقامك بمثابة
مرآة لمن هم يصدعون بامرك فيقتدون بك ويعلمون ان القيام بمواجبههم فروض
مقدسة وينقادون الى اشارتك عن ميل ورغبة لا عن ازورار ورهبة وان ليس
للانسان الا ما سعي وان سعيه سوف يرى

فماذا تجيب عزة النفس وانت تسعى الى الذلة والحطه وباي حال تقابل الشهامة
والاتفة وانت تسعى الى رعاية الصعائر . وكيف تسال الاخلاص من غيرك وانت
غير مخلص لغيرك بل غير مخلص لنفسك . بل كيف تشكون وطأة المراقب
وانت تفتح بفتح تقصيرك افعال منزلك . وكيف تشكو مناملة رئيسك وانت
اكرهته عليها بماملتك

ولكن ان للعدالة ان تشكوك او لصوت الحق ان يعتفك وقد اعززت مقامك
باعزاز نفسك وشرفت منصبك بشريف اعمالك واوجبت على الغير احترامك برعاية
مواجبك فنفرت من الدنيا وتمدكت بالعظائم ولزمت حرية الضمير واستقلال الفكر
وقوام الارادة وصدق الاخلاص فايبت ان تكون آله صماء تديرها يد الاهواء كيف
تشاء تفضيلاً للصالح الخاص على العام

بل كيف لا يكون لك ذلك وانت تعلم ان شمس الحرية في هذا العصر قد
نسخت ظلام الاستبداد والرق وان مشكاة العلم قد انارت الابصار والبصائر فالاعين
بك شاخصة والاذهان مراقبة والاقلام مسطرة والتاريخ حافظ

بل كيف لا يكون منك ذلك وانت ابن بلاد يتعشك هواؤها ويرويك ماؤها
وتدر عليك ارضها وسمائها وقد ربيت في احضانها وصدرتك في ديوانها وعلمت
ان شأنك يقوم بشأنها

بل كيف لا يكون منك ذلك وانت الذي لزمته دار العلم من يوم اميطة
عنك التمام ونقدت جديد الشباب درساً لتحافظ على درهم المشيب ادارة وتبرهن
لاقرانك انك ذاك . ولوطنك انك غير عاق . وللقريب انك من انسال اولئك
وان في البلاد رجالاً من امثالك ياهلون لاجل المناصب فلا يكون للفكر مجال في

ان يسأل « هل عندنا رجال »

بل كيف لا يكون ذلك منك وانت تستوهب نعم تلك الامرة المحمدية العلوية
وتعيش في ظلها وتعترف من نيل جدواها وترى التوفيق بالتفات سمو توفيقك العزيز
الذي وقف نفسه خير وطنك واسعا وهجر الوسن في سبيل انجاح مقاصده وتحقيق
امانيه . فاعرف واعترف بجود يديه . وكل امرك في مهام الامور اليه . اعز الله
به البلاد . وبلغها بطول بقائه المراد . حتى لا تبرح لتجاذب بوجوده اطراف الفوائد
ولا تنفك تهصر لمكارمه اعطاف المحامد

من استقلت ارادته استقامت ادارته

« له ايضاً »

(في ١٥ مارس سنة ١٨٩٠)

نصور فنريد فنعمل فنجازي فالجزاء مترتب على العمل وهذا موقف على
الارادة . وقد ذكرنا في لحة سابقة ان سلامة الوجود العام تكفلها سلامة النظام
العام . وان سلامة الموجود من ادنى فاعلى يقوم بحفظ النظام المترتب على حسن
العمل وذلك ما لا يكفله الا ادارة مستقيمة تصدر عن ارادة مستقلة فمن استقلت
ارادته استقامت ادارته

نتج اذن ان سلامة كل فرد بل كل حكومة موقوفة على سلامة نظامها وذلك
مترتب على حسن ادارة . فالادارة اذن ميزان كل حكومة وقوام كل مملكة . ورجالها
هم الكافلون صون بلادهم والقائمون بشؤونها والذابون عن حوضها والدارئون طوارئها
والذاهبون بها من غمرات الخلل والضنط الى سواحل النظام والسعة بل هم سياجها
الضامن استقلالها والصائن حقوقها . ولذلك وجب ان يكونوا اكفاء لها وبالتالي
اكفاء للقيام باعباء تلك المسئولية او التبعة التي تلحقهم اصلاً وفرعاً من وراء قبضهم
على ازمة العمل واستثمارهم بتصريف الفعل فيما اندبوا اليه ومطالبة كل منهم بما
تستلزمه قوانين ادارته لان التصدر لتحمل اعباء تلك التبعة هو الذي اباح لذلك
العامل ان يتصدر في ادارته ويمتاز ادياً ومادياً عن هم دونه

ذلك ولا مرء هو الناموس الذي قضى بالرضى المتبادل بين ار باب المراتب على اختلاف النوع والكيفية . والا فكيف يحكم العدل على ذلك العامل بالسكوت وقد دأب على العمل مكلفاً بحمل الانتقال ومعرضاً حر وجهه لحر الشمس وضاعطاً على قواه البدنية ضغطاً اقل نتأجه شق النفس وعرق القرية وله جزء ذلك من نقد معدود ما لا يتيح له الا الحصول على كسرة من خبز اختمر بحجارة التعب وعجن بعرق الجبين ولكنه رزق حلال وكفى به انه يغني عن ذل السؤال بينا يرى ناظره او رئيسه مكتفياً بالايماء والاشارة نهياً وامراً غير مكلف بمشاق العمل وله جزء ذلك من نقد معدود ما يتيح له بسطة العيش والتأنق بالمأكل والمشرب والتدثر بخير الملبس . وقس على ذلك كل مروؤوس تلقاء كل رئيس وكل مرعي ازاء كل راع . فالاول قد رضي وحكم العدل برضاه لان مسؤوليته لازمة به فهو لا يطالب الا باتمام ما امر بعمله ولا يهيمه عمل سواه واما الثاني فمسؤوليته لازمة ومتعدية لانه مشول عن العمل من حيث هو وعن كل من قام من اعماله بذاك العمل فهو اذن في موقف لا تثبت فيه الا قدم اقدام وثبات ونشاط وكما بعدت همة رب الادارة زادت همومه وجسمت اعماله لان العموم بقدر المهم

ولا يفوت الخبير ان هذا المطلب الخطير كان له في شؤون الحكومات الخطيرة شأن مهم ترتب على رعايته نقد الرجال واختبارهم ومعرفة مقاديرهم لان الوظيفة محك للموظف ولا سيما ما تعلق منها بالادارة فهي تقضي على اربابها بالابانة والاعظهار فتمدق الابصار بتلك المشاهد وتحكم البصائر عليها اولها . ولما كانت نتأجها متعلقة بالعموم من حيث الضرر او النفع استلزم الطبع ان يكون اربابها عرضة للملاحظة العموم وهدفاً لرمي نبال التنديد واللوم او موضوعاً لعبارات الثناء والشكر . فالوقوف والحالة هذه هائل مهيب لا بد من ان تدرك صاحبه هزة اما عن طرب يولده الشعور باتمام الواجب لوجود الكفاءة واما عن وجل يولده الشعور بالعجز عن الاتمام لفقد الكفاءة وهنا منشا الفرق بين الرجال

وان لنا من وراء هذا لبحث مبحثاً جديداً في شان الادارة بين جانبي الصعوبة والسهولة بالنظر الى الشعوب فهي كما لا يخفى اما متمدنة او متبديية او بينهما وعندنا ان ادارة شؤون الطرفين المتناقضين اسهل من ادارة الطرف المتوسط لان التمدنة تعلم واجباتها وواجبات غيرها فتعطي كل ذي حق حقه وتحفظ للحرية المعتدلة مقامها

وتحول دون من يروم العبث بها ومتى كان لها هذا الشأن تنبه رب الادارة الى مواجهه
وعلم ان عليه من الرعية عيوناً وارصاداً وانه ممثل ومطالب بما يعمل فلا يركب
متن الباطل ولا يتخبط بشوب العجب والتيه ولا يجمع قواه العقلية لتوليد الاضرار
ودره المنافع بل بصرفها الى حيث الفائدة ويرتاح الى الرضى عن نفسه لقيامه بمواجهه
كما يرتاح الى اقتناع نفسه بان هنالك من يعلم نتائج عمله فيقابله بترطيب اللسان سيفه
الثناء فضلاً عن رعاية الحرمة وحفظ الكرامة

واما المتبديه فهي حليقة الارهاب وآلة القوة وبها يسهل قيادها لتعودها على
ان تدب لريئسها وتخضع لاشارته وتقتنع بان رضاه عنها كافل حفظ وجودها فاذا
احكم رئيسها العمل تمكن من قيادتها كما يحب ويختار ولم يخامرهم وجل من الانتقاض
عليه او العبث باحكامه وبلاستقراره سن لها من الشرائع ما يراه موافقاً لمزلتها

اما الصعوبة كل الصعوبة فهي ادارة الشعوب المتوسطة بين الجانبين فهي لم تبق
لها اخلاق البداوة لتعامل بما يناسبها ولم تتخلق باخلاق الحضارة على ما يجب لتعامل
معاملتها . ويغلب على الشعوب التي في مثل هذه الحالة انها تنبذ محاسن البداوة في
حين لا تاخذ من عوائد الحضارة الا ما بدا من مظاهرها الساقطة وهنا محط رحال
الصعوبة امام الادارة لانها اذا عاملتها بموجب البداوة نظمت وشكت وارجعتها الى
الوراء . واذا عاملتها بموجب الحضارة تمردت وعتت وحكم هذا الشأن في الشعوب
حكاهم في الافراد فالعالم امين الحضارة سهل الاتقياد لانه يعلم واجب نفسه وواجب
غيره فلا يؤذن له علمه بالتقاعد عن الوفاء فهو من قبيل من يدري ويدري بانه
يدري . والجاهل يسهل اتقياده بحكم النظرة لاستعداده الى قبول العلم فهو من
فريق من لا يدري ويدري بانه لا يدري . واما التوسط بينهما حكمه حكم الاحمق
فهو من قبيل من لا يدري ولا يدري بانه لا يدري

على ان الادارة بجميع انواعها لا يستأثر بها مديرها استئثاراً يكفيه مؤثنتها
على واجب امرها وفريضة حكمها الا اذا استقلت له ارادة تنصرف فيه بالرشاد والسداد
والحكمة والمعرفة وتسير به في الجادة المصونة بالقانون والمضبوطة بالقواعد العامة حتى
يحتاط باوامرها ونواهيها ويضمن سلامة مبادئها وغاياتها اجابة لارادة الوازع - واننا
بما نذكره عن استقلال الارادة لا نعني به الاستبداد فان بين الطرفين بوناً شاسعاً
وبعداً صحيحاً وما الاستبداد الا الآلة الموثرة على هدم كل ادارة وتخريب كل عمل

بل هو جرثومة الظلم ومنشا الثورات وعلّة التأخر وذريعة الانحطاط وقد قضى عليه
الجيل التاسع عشر المزهري بالعلم والمعرفة قضاء صارماً بجزءه في دركات الهاوية .
ولكننا نغني باستقلال الارادة ان يكون لمستلم الادارة ارادة له تعمل في تلك
الادارة بموجب قانونها لا ان يكون خلياً منها بمثابة آلة لارادة غيره فمن لا ارادة
له لا ادارة له

فاللثك هم ساسة الحكومات والممالك والقابضون على زمام ادارتها يسرون مع
من دونهم من العمال على وتيرة واحدة في الخطط التي اختطها القانون ولا يتخطونها
بوسع الخطي حتى لا يخرجوا عنها ويلعبث بالقانون فيفسد النظام فكلمهم خاضع
للنانون فهو الرئيس العام والاصغر منهم خاضع بموجب هذا القانون لمن هو اسمي
منه ولكنه مستقل ارادة ليعلم القيام بادارة ما اتاحت له السلطة تدبير شؤونه
فالمامور مثلاً هو رئيس على رجال مامورته وله من السلطة اختصاصات صرح بها
القانون ثم هو مرووس من المدير يتلقى منه التعليمات ويبادلها ما عنده من اعمال
مامورته . فللمامور اذاً بصفة كونه رئيساً ان يستقل ارادة للقيام بمواجب ادارته
والا سقطت حرمة عند من يأتمرون بامرهم . وعليه بصفة كونه مرووساً ان يرفع الى
رئيسه شرح متن اعماله . ولرئيسه في هذه الحالة ان يطالبه بما يقضي عليه القانون
وان يكلفه بما لا يقضي به وقس على ذلك حلقات السلطات بفروعها فضلاً عن حلقات
الاعمال على اختلافها حتى يرجع الجميع الى القانون العام المشروع لتلك الحكومة او الدولة
فاذا اترنت هذه المطالب ولم يعثورها نقض وابرام ازدانت الادارة بسلامة
احكامها واقبل العمال على العمل وهم عالمون مواجبههم ومسترشدون بدليل النظام
ومعتضدون باستقلال الارادة والارحموا في يدياء التيه واعتسفوا سبل الضلال
وركبوا متن الفرور وبالتالي اخلدوا الى الرضى بالحاصل احسن او اساء اضراو
افاد واستكانوا الى القبول بما طالما غادروه عن انفة وعزة وشرف وكرامة فافتنعوا
والحالة هذه من مرارة حقيقة المنصب بجلاوة ذكراه وهزوا المنكيين وقالوا لنا جعل
نستولي ولا يعيننا ما هنالك . ومن هذا المبدأ نشأت الصنيعة او ما يطلق عليه بين
العموم لفظ « المحسوية » التي تحمل رب الادارة على نبذ القانون ظهرياً والتداول
الى ما لا يعنيه في سبيل تركه ما يعنيه فيضع الاشياء في غير مواضعها ويستوي
لديه الحق والباطل ولا يلبث ان يمسي آفة على ما تمكنه الايام من الاضرار بهم

اجابة لاغراضه اولدعوة مريديه ثم آلة تحركها يد القوة الضاغطة فيعمل ولا ارادة له . وفي مثل هذه الحالة يعلم المدقق الخبير ما هي مزية استقلال الارادة في شؤون الادارة

وان رعاية هذا الشأن كانت ولا تزال الذريعة الباعثة على صون الادارة في غالبية الممالك الغربية فاستتب نظامها واستقامت شؤونها كما كان عدم رعايته في شرقنا وصلة للاخلال والبعث فافضى الى هدم النظام والتلاعب في الحقوق والاحكام حتى ادركته المنابة بعهده رب الجلالة والشوكة مولانا السلطان الغازي عبدالحميد خان فجلا بشموس حكمته دياجي المظالم واناار ابصار الرعية وبصاثرها بمشكاة عدله ورحمته فانتهى الحاكم الى مواجهه وعلم المحكوم حقوقه وبالأستقرار نالت البلاد ما اعد لها القانون وحق ان تناله فرتلت الالسنه آيات الدعاء بحفظ جلالته وتأييد مملكته

ولقد كان لهذا الفطر العزيز من سمو عزيزه وتوفيقه ما ادرك به الغاية من هذا المطلب المجيد وحقق برعايته امانيه من نحو هذا المبدأ القويم فاخذ الاهلون الى جنان الرضى ولازموا حظيرة الاخلاص اذ وجدوا في سمو اميرهم ذلك الامير الذي عاملهم بالاحسان وقابلهم بالانصاف فهادوه قلوبهم وسأوا الله ان يطيل ايامه عليهم محفوقاً بسلامة الانجال وصون الآل

الامة والوطن

« لاديب بك امحق »

الامة الجليل في كل حي ومن الرجل قومه وفي عرف اهل السياسة الجماعة المتجنسة جنساً واحداً الخاضعة لقانون واحد وليس المراد بوحدة الجنس التوفيق بين الانساب لتعذر ذلك في كثير منها ولما طرأ على انساب الناس ولا سيما الحضرة من المفاسد الكثيرة ناشئة عن تحالط الاقوام مختلفة انسابهم وتوالي الحروب والغارات وتوطن بعض الفاتحين فتوحهم وتزوجهم في اهلها الى غير ذلك مما جهلت به الانساب وخفيت به الاحباب الا ما حفظ بنباعة اهلهم عن ان يدانهم فأنح غريب وهو قليل لا يقاس عليه وانما المراد بوحدة الجنس اتفاق الجماعة على الاعتزاز الى جنس واحد

يتوالدون فيه وبتسمون به كالجنس الاميركاني لسكان الولايات المتحدة الاميركية سواء كانوا انكليزاً او فرنسيين او اسبانيين او اميركانيين اصلاً والعثماني لسكان البلاد العثمانية في اوربا واسيا سواء كانوا تركاً او عرباً او تراً اصلاً والاوستري لسكان سلطنة اوستريا سواء كانوا الماناً او صقالبة او ايطاليين اصلاً وهلم جرا

وقد زعم بعض الناس ان من لوازم وحدة الامة وحدة لغتها وهو وهم لانه اما ان يراد بذلك الاستدلال باللغة على الجنس اولاً فان كان الاول فهو فاسد لانه قد يلد الانسان بين قوم وينبت فيهم فيتكلم بلغتهم وهو بعيد عنهم نسباً ولان ما ذكرنا من تحالط الاقوام واغتراب الفاتحين قد احدث في لغات كثيرة من جماعات الناس فساداً بحيث صار مزيجاً يعجز ابرع الكباويين عن تحليله كما في لغة اهلي مالطة مثلاً فامتنع بذلك الاستدلال باللغة على الجنس وان كان الثاني فهو من قبيل ايجاب ما ليس بواجب ولو اقتصر اهل هذا الرأي على استحصان وحدة اللغة في الامة لاحسنوا فقد ثبت بما ذكر ان الامة هي الجماعة من الناس تُجنس جنساً واحداً اي تنسم

بسمة واحدة على اختلاف اصولها ولغاتها وتعارف باسم تنسب اليه وتدافع عنه اما الرطن فهو المسكن يقيم به الانسان وفي عرفهم البلاد يتوطنها سواد الامة الاعظم ويتوالدون فيها ولا يشترط فيه مساحة معلومة بدرجات معينة او اقليم واحد يتقوم معروفة وانما تعريفه ما ذكر من توطن معظم الامة به وقد يضاف الى الوطن بلاد لم تكن منه وهي اما ان تكون فتوحاً ضمت اليه عنوةً واما ان تنضم اليه برضى اهلها فان كان الاول فاما ان يكون ضمها قديم العهد وتكون معاملة حكومة الوطن لها معاملتها لسائر اهلها فتثبت الملكية واما ان لا تكون هذه ولا ذلك فلا تثبت وان كان فلا مساحة في صحة الانضمام

وقد اختلف في سبب حب الوطن فقيل ان السبب فيه اللفة فان الانسان اذا الف شيئاً احبه واجيب بانه قد يخرج الانسان من وطنه صغيراً فينبت في آخر ولا ينسى مع ذلك حب وطنه وقيل ان حب السكان يورث حب المكان كما قيل

وما حب الديار بهيج وجدي ولكن حب من سكن الديارا
واجيب بانه قد ينتقل الانسان عن وطنه بمعظم اهلها واصدقائه ولا ينفك مؤثراً
وطنه بالحب وعندنا ان ياء الاضافة في قولي وطني هي السبب في حبي لوطني كما ان

ياء النسبة في قولنا فرنسوي هي السبب في حب الفرنسي لأمته فتأمله . فله من
 ياءين ياء نسبة و ياء اضافة يدعوان الى فضيلتين حب الامة وحب الوطن
 ولقائل انك قد جعلت مصدر حب الوطن والامة الانانية (حب الذات) وهي
 نقيضة فكيف صح في قياسك صدور الفضيلة عن نقيضها وجوابه ان الفضيلة هي
 الدرجة الرفيعة في الفضل والفضل ضد النقص اما الانانية فهي نسبة لضمير المتكلم على
 غير قياس وفي عرفهم ايثار الانسان نفسه بما يراه خيراً سواء جنى بذلك على غيره
 خيراً ام شراً وليس في حب الوطن او الامة شيء من ذلك كما ترى
 اما وجه كنهها فضيلة اي درجة رفيعة في الفضل فهو لانهما يقضيان على
 صاحبها بخدمة الارض التي يغتزي بخيراتها والانسانية التي جعلته في جماعة من نوعه
 يعينونه على استحصال حاجاته ويدفعون عنه اذى سائر الانواع ولعلك لا ترضى بهذا
 تعليلاً فنقول ان خدمة الانسانية والارض لا ينبغي ان تنحصر في جماعة من الانسان
 او في جهة من الارض وانما يجب ان تكون عامة فيهما والجواب انه لما رأى الانسان
 من نفسه عجزاً عن القيام بجميع حاجاته الطبيعية ودفع اذى سائر الحيوان تالف
 جماعة تفرقت فيها تلك الحاجات فصار هذا زارعاً وهذا حاصداً وذاك طاحناً وذاك
 عاجناً والآخر خابزاً وهلمّ جراً وكل منهم في شأنه ساع فلما كبرت هذه الجماعة عن
 ان يسعها قسم واحد من الارض تفرقت فيما فصارت جماعات منفصل بعضها عن
 بعض حساً من توصلها بالتنوع واقبلت كل جماعة منها على الاشتغال في الارض
 التي اختارتها مقاماً استحصلاً لحاجاتها واخذ كل من اهلها في الاشتغال بما ارتضاه
 لنفسه من الصناعات ليعين بمصنوعه رفيقه مستعيناً بما يصنعه ذلك الرفيق ولو حاول
 الانسان الاشتغال في جميع الارضين بجميع المهن والمشاغل لفتي عمره ولم يات بفائدة
 تامة بخلاف ما اذا اقتصر على الاشتغال بمهنته في جماعته اذ تيسر له اسباب الاعانة
 والاستعانة فحصل الفائدة التامة في الجماعة وينتهي ذلك الى حصولها في النوع لما بين
 الجماعات من علاقات الانسانية وهذا وجه الفضيلة في حب الامة وحب الوطن فليترسم
 اسمهما على صفحات كل قلب وليلجئن بذكرهما لسان كل انسان فانما المرء باصغريه
 القلب واللسان

الملك والرعية

« له ايضاً »

(كتبها في جريدة مصر التي انشأها عام ١٨٧٧)

الملك اما استبدادي او شورى والشورى اما جمهورية او ملكية وهذه مراتب الملك منذ كان القانون ووجب حفظه وخرج عن هذه المراتب الحكومة الفوضى ان صحت تسمية الفوضى بحكومة

وما كل ملك بلائم لكل قطر وما كل قطر بصالح لكل ملك فالجمهورية لا تصلح للصن كما لا تصلح الملكية الاستبدادية لانكثرا فان تلك وهي حكومة الشعب بالشعب لا يحسن ان تكون في قوم تولاهم الجهل وهذه هي حكومة الشعب بواحد منه لا يصلح ان تكون في قوم بلغوا من التمدن والمعرفة غاية نبيلة وان كانت فلا تلبث ان تنقلب شر منقلب كما جرى لحكومة لويس السادس عشر وشارل العاشر وفابوليون الثالث في فرنسا فان حكومات هؤلاء الملوك وان سميت بالشوروية ظاهراً فقد كانت استبدادية باطناً وذلك ما دعا الى نقضها وتل عروشها

ومعلوم ان مصلحة الملك متعلقة بمصلحة المملكة فلا بد للملك الحريص على مصلحة نفسه ان يحرص على مصلحة بلاده لان عمرانها يقضي برفعة شأنه وتوطيد ملكه والعكس بالعكس وعمران البلاد ينشأ عن حسن قانونها والعدل في اقاذه وهذا وذاك متعلقان بالحكومة فهي التي اذا ارادت عمران بلادها جعلت لها قانوناً يلائمها واقامت على انفاذه قوماً لا تاخذهم في الحق لومة لائم ومن الحكومات من تراعي ذلك فتجربيه ايثاراً لمصلحة بلادها وحرصاً عليها ومنها من تمتنع عنه فتكره عليه ومثال هذه حكومة انكثرا وفرنسا واسبانيا ومثال تلك حكومة الدولة العلية والحكومة الخديوية فانهما ايدهما الله قد جعلتا حكومتهما شوروية ولا حامل لها على ذلك الا الرغبة في عمران البلاد واحياء العباد شان الحكومة الحكيمة من قبلها ومن بعدها وليس الشورى في الحكومة او الحكومة بالشورى بدعة جديدة فان شواهد النقل مؤيدة بدلائل العقل تثبت قدمها فمن ذلك التواريخ على علاتها وقوانين الامم على اختلاف عاداتهم ومشاربهم وكتب الشرائع واقوال الشارعين العظام وفي (وشاوروم بالامر) نعم الدليل

ولقد عرف الناس الان شرور الاستبداد وترفعت نفوسهم بالعلم عن الرضي
به وصار الامر شوروي عند جميع الدول المتقدمة الا الروسية وذلك ان صحت تسمية
الدولة المستبدة مطلقاً بدولة متمدنة

ولم يكفِ الروسية بقاءها مستبدة على حين تحول سائر الدول الى الشورى حتى
كانت سبباً في توقيف غيرها عن ذلك القصد النبيل فانها قد منعت الدولة العثمانية
حيناً عن انجاز ما شرعت فيه من اصلاح داخلية وتنظيم شوراها بهذه الحرب العنيفة
التي دعا اليها الغرور على ان الدولة العثمانية لم تكن لينعها من ذلك مانع فانها لم تهمل
ذلك الشأن مع اهتمامها بالدفاع عن وطنها ولم تغفل عنه ساعة مع انها كما في نازلتها
المهمة وحسبنا على ذلك دليلاً ما رأيناه في مخاطبة مولانا السلطان الاعظم للعساكر
المحافظة التي عرضت عليه حيث قال (لقد ملأ قلبي سروراً ما رأيت من اهتمامكم
واتنظامكم وارجو ان يكون لكم مثل ذلك بعد الحرب حين اجراء الاصلاح) واصرح
من هذا ما حكاه مكاتب (الدالي تلغراف) حظي بمقابلة مولانا حفظه الله فلاحظه
بكلام شف عن حسن النية ودل على نبالة القصد وقد رأينا ان نعرب كلام هذا
المكاتب مشرفين هذه المقالة بتعريب ذلك النطق اثره قال المكاتب ما مفاده

تمكنت من اجتياز خطوط الروس الى صوفيا ومنها قصدت الاستانة فبلغتها
واستأذنت في الدخول على السلطان الاعظم فاذن لي فرغت اليه ما عاينته من شجاعة
العساكر العثمانية ورئيسهم في بليغنا فسر بذلك وانسي كثيراً ولاظفني بالمحادثة
ثلاث ساعات متواليات فاذهلني ما رأيت من الدعاء في سلطان امة عظيمة منتصرة
وادهشني قوله كما ادى الكلام الى ذكر الانتصار ما النصر الا من عند الله وما توفيني
الا بالله وقد خلا كلامه بجملة عن كل ما يشف عن الكبرياء او ما يدل على الخقد
وافي ناقل منه ما يأتي . قال مولانا . جاءني اللور سالسبورى قبل الحرب بلائحة
تضمن صنوف الاهوال التي تتعرض لها الدولة العثمانية برفضها قرار المؤتمر فاجبته انك
يا عزيزي لم تجعل لله مقاماً في لا تحتك ولم تفكر في انتقامه للعثمانيين على حين
بؤسهم ولقد كان لساني حينئذ يترجم عن قلبي فاني كت على يقين من حسن ظني
بالله وتوكلي عليه

وقد جاءت الحوادث بما اثبت لي الاصابة على اني مع التوكل على الله كثير
العناية بامري شديد الاهتمام به ولا اغفل عنه ساعة

واول ما في نيي اجراؤه بعد ابرام الصلح تنظيم المالية لوفاء الدين واصلاح حال
الزراعة وغيرها من اسباب العمران وغاية ما ارجوه ان ارى حكومة الدولة العثمانية
حكيمة شورية والله اسأل ان يوهلني لصنع الخير في قومي ويجمع على محبتي فلو بهم
ويعينني على ان اقيم في بلادتي بعد هذه الحرب الظلمية حكومة جيدة تضمن لها
مستقبلاً حسناً

فكيف لا تجتمع قلوب الرعية على ولائه ولا ينتظمون تحت لوائه وهو يعدم بما
لم تعدم الاماني من جعل حكومتهم شوروية حكيمة لا تأخذ بالوجوه وتصرف عنايتها
الى اصلاح شأنهم باستخراج المعادن من ارضهم المملة وصيانة اراضيهم الصالحة
للزراعات من افساد المعتدين وجلب الصناعات ونشر العلوم وكيف لا تحب سلطانها
امة كالعثمانيين رأت في الكثير من سلاطينها المتقدمين كبراً وافراداً حين ترى
فيه من الذمّة ولين الجانب ما ادش الاوريين فضلاً عن الشرقيين ودعاهم الى
الثناء عليه

فهذه الصفات مضمومة الى ما تقدم ذكره من حسن النية ونبالة القصد ايدت
ثقة الامة بسلطانها وجددت قديم هممتها وسابق فتوتها واحيت في قلوبها حب الوطن
بعد موته فبادرت الى بذل النفوس وكل نفيس لتندراً عنه كل من رآه بشرّ ولقد
وهم من حسب هذه الغيرة محض تعصب للدين فان العثمانيين جميعاً على اختلاف
مذاهبهم ومراتبهم قد جادوا بالارواح والاموال للدفاع عن وطنهم ولو صح ما قيل
من انهم فعلوا ذلك تعصباً للدين وحده لما قام به غير فئة منهم فان قيل ان الجائدين
بالارواح مكرهون على ذلك بالقرعة العسكرية والجائدين بالاموال مكرهون عليه
بالفرض المحتوم قلنا فاین المتطوعة الذين تسارعوا الى الانتظام تحت اللواء العثماني قادمين
من جهات شتى واين الاعانات المرسلّة من كل ناحية ليستعان بها على تفقات الحرب
بل اين جمعية الصليب الاحمر في ضمن الهلال الاحمر التي انشئت في ازير لجمع
المتطوعة والاعانات فجمع فيها من اولئك عدد غفير ومن هذه شي كثير بل اين
متطوعة الارمن والروم وغيرهم من العثمانيين اكان تطوعهم في الجندية العثمانية تعصباً
للدين ام اكرهوا عليه لعمري انهم لم يكرهوا وما كانوا بمغتصبين وانما هي غيرة وطنية
تجددت فيهم بما رآوه من حسن مقاصد حكومتهم على اننا لا ننكر ما حاجته هذه
الحرب من عواصف التعصب في افكار بعض الناس ولا سيما الجاهلين غير ان جاهلنا

قد تعود الاقياد لله اقل بخلاف جاهل بعض الاجيال فانه مع جهله شديد التمسك
برأيه ولذلك لا يتعذر على العاقلين منا ان يزيلوا آثار التعصب من افكار الجاهلين
فنكون جميعنا امة واحدة لا نتعصب الا لوطنها ولا نطلب الا صيانتها وتنقش على
صفحات قلوبها (فلتحي الامة) (فليحي الوطن)

من نحن

(لسليم افندي البستاني)

نحن ذرية قوم افاضل قد اشتهروا قديماً بالمعارف والصنائع والتجارة والحماسة
والشجاعة والفتوحات والفصاحة والحكمة فذا من ينتسب الى العرب الذين سادوا ومدادوا
شرقاً وغرباً وتملكوا بلاد العرب والعجم وافريقية واقصى المغرب والهند وامتدت
فتوحاتهم الى اسبانيا واكثر بلدان اوربا ونشروا الوية العدل والمعارف والصنائع
والتجارة والزراعة في كل صقع ونادى امتدت سلطتهم اليه واخترعوا اموراً شتى
والفوا كتباً لا تحصى وانشأوا مدارس لا عدد لها في كل مكان خضع لسلطتهم
القاهرة . ومنا من ينتسب الى السريان والكلدان اصحاب الفتوحات والشجاعة والسطوة
الذين امتدت سلطتهم في الشرق الى جهات مختلفة واشتهروا بحج العلوم والمعارف
والحكمة حتى وصلوا فيها الى الدرجة القصوى . ومنا من ينتسب الى اليونان الذين
اشتهروا بالفلسفة والحكمة والصناعة والتجارة والشجاعة والاقدام حتى اخضعوا لسلطتهم
كل الكرة المعروفة حينئذ شرقاً وغرباً . ومنا من هم اخلاط متسلسلون من امتزاج
تلك الشعوب العظيمة بعضها مع بعض . ونحن سلالة الذين اعطوا العالم الاديان
وعلموه الصناعة واخترعوا له اصول ما له من الامور النافعة واكسبوه مبادي ما له من
التمدن واسباب الرغد والراحة وفتحوا له ابواب المنجى برآ وبحراً واقحموا الاخطار
والاهوال العظيمة لكي يكسبوا بلادهم ثروة وصولة وشهرة وهيبة . ومنا الشرفاء
والاكابر واشهر الكرماء ونحن نكرم الضيف ونحسن مشواه وبلادنا احسن البلدان
هواء وماء وتربة ورغداً ولفنتنا ارفع اللغات واوسعها
ولكن واسفاه اين كنا واين صرنا الآن اين مدارسنا اين علومنا اين كتبنا

اين مكاتبنا اين آلاتنا اين تجارنا اين زراعتنا اين صناعتنا اين نخوتنا اين ثروتنا
 اين قوادنا اين تمدنا اين اكابر رجالنا اين معاملنا اين مراكبنا اين سككنا اين شعراؤنا
 اين علماؤنا اين محبو وطننا اين الرغد والراحة والكرامة التي كنا فيها . ان اكثر ذلك
 قد صار اثرًا بعد عين وكثير منه صار لا اثر ولا عين . نعم انه قد بقي لنا الافتخار
 بكوننا كنا وكنا ولكن اين هذا من ذلك . وقد ابتدأت انوار المعارف تشرق
 ثانية في بلادنا ولكن اين هذه من تلك . وقد ابتدأنا نرى هنا مدرسة وهناك فثة
 قليلة من النجار ولكن ما هذه بالنسبة الى تلك وعلى الخصوص اذا كان قيام هذه هو
 على مصروف الصناعة والزراعة التي هي من اعظم اسباب الثروة ولا سيما في بلاد
 كبلادنا . وما نحن الا مريض سئمت نفسه الاكل بحيث صار يفتذي من شحمه
 ولحمه . وقد كثرفينا الوعاظ والمندرون الذين ينهوننا الى ما نحن فيه من الخطر وما
 قدامنا من الخراب والوبال ولكن ماذا ينفع الوعظ من دون عمل وماذا يفيد الانذار
 اذا كنا ممن يضرب في حديد بارد او لم يكن من يسمع فيبادر الى المعالجة ما بنا من
 الادواء والامراض المتنوعة التي كثير منها عضال واكثرها قد اختلفت عليه الاسباب
 وتناوبت العقاقير والعناصر الضدية التي لا تحصى بحيث تجعله عضالاً بعد ان كان قابل
 الشفاء واختلفت فيه اراء الاطباء الذين هم من بلدان ومشارب ومآرب مختلفة
 متضادة وآراء ومذاهب ومطامع متباينة وعلى الخصوص حين يكون المريض كما يقال
 كمي بين يدي مغسل . هذا على اننا لا نقول اننا لسنا على تقدم ولكن نخشى جداً
 من ان يكون تقدمنا خطوة من الجهة الواحدة يرجع بنا خطوات من الجهة الاخرى .
 ولا نشك بان المدارس مثلاً هي من اكبر وسائط التقدم ولكن ماذا يفيدنا اذا كثر
 فينا العلماء والمتكلمون باللغات ولم يكن لهم مراكز يحصلون منها على اسباب معيشتهم
 وراحتهم وكذلك لبس الجوخ وتحسين الاثاث والتفنن في الاظممة هو مما يناسب
 الجميع ولكن ماذا يفيدنا ذلك اذا كنا نلتزم ان نبذل عنه ذهباً اصفر ونعرب اموالنا
 عنا حتى نصبح بعد قليل في حالة الفقر ولا يبقى لنا الا التمتع بتلك الملابس والاثاث
 الى ان يملوها البلى فلا يعود لنا اقتدار على تعويضها . وهو معلوم انه كما ان الاسماك
 الكبيرة تفتذي بالاسماك الصغيرة كذلك الاقوام المتمدون واصحاب السطوة
 يعيشون على كد وتعب من هم دونهم في ذلك ولهذا ما دمناعلى ما نحن فيه من
 التواني وعدم الاتحاد والالفة والجبل والتعصب والاعراض والانقياد الاعمي للذين

يحاولون ارتفاع سطوتهم وراحتهم على كيس جهلنا وغباوتنا مكثفين بما ورثنا اياه
 المرحومين من المغروسات والآلات والثروة لا يمضي الا القليل حتى نرى انفسنا قد
 وصلنا الى اسفل السافلين ونرى جيراننا قد سبقونا في ميادين التجارة والصناعة والسطوة
 على مسانة فراسخ كثيرة بحيث لا يبق لنا امل بان نلحقهم ولا نحفظ مركزنا الحالي
 وما دمنا نرى اهالي اوربا مع ما لهم من الوسائط والثروة والصولة يجدون ليلاً ونهاراً
 ولا يدعون شيئاً من وقتهم الذي يحسبونه ذهباً يذهب سدّى كيف يسوع لنا ان
 ندعي بكوننا نحن وايام في ميدان واحد من ميادين السباق حال كوننا لا نصرف
 ثلث الوقت الذي يصرفونه في الاشغال سياسية كانت او دينية او صناعية او تجارية
 او كيف يكون لنا امل في مزاحمتهم حال كوننا نسير على ظهر الجمال والحمير وهم
 يسرون على ظهر الرياح والتجار . وافي يدرك الظالم شأو الضليع . او كيف نؤمل
 نجاح صناعتنا وتاخر صناعتهم في بلادنا حال كون كل عربي يمدح صناعتهم ويطعن
 في صناعة بلاده ويفضل ما كان افرنجياً مهما كان على ما كان عربياً ولو كان احسن
 وارخص وكيف يمكن ان ينجح ناسجو الحرير عندنا مثلاً ما دامت السيدات لا
 يعجبهن ان يلبسن الا الاطلس الافرنجي وعنق الحمام وما اشبه من الاشياء والحلى
 الافرنجية . واذ كان الافرنج يقدمون لنا الابرة والدبوس والحيط والكشيتان والمغزل
 والصنارة والحبر والورق والاقلام والرمل المصبوغ وكل ملبوسنا واحذيتنا واثاث
 بيوتنا وآلات مناعتنا وتجارتنا ومطابعتنا ومعاملتنا الى غير ذلك مما لا يحصى افلا يحق
 لنا ان نندب حالة بلادنا النعيسة وعوضاً عن ان نقول من نحن ومن كنا وابن كنا
 بقول ابن نحن الآن

لماذا نحن في تاخر

« له ايضاً »

اذا سقط شيء من فوق الى اسفل او ارتفع من اسفل الى فوق نقول ان قوة
 جاذبة جذبته او قوة دافعة دفعته واذا دمدت الرعود ولعت البروق نقول ان الفيوم
 قد حك بعضها بعضاً والرياح تصدمها . واذا نجح زيد وتاخر عمرو نقول ان ذلك

جداً وسعى واغتنم الفرص وهو اهل للقيام بحق العمل وهذا تكاسل وتهامل وهو غير اهل لذلك . واذا تاخرت الامم او نجحت نقول انه لا بد لذلك من اسباب . اما ادراك حقيقة تلك الاسباب والوقوف على ينابيعها فمع انه صعب فهو ضروري لمن اراد ان يستأصلها . لانه لا بد من معرفة المرض واسبابه قبل اعطاء العلاج . وهذا هو سر التطبيب . لان معرفة العلاج سهلة بالنسبة الى معرفة المرض ولا سيما اذا كان المرض داخلياً غير ظاهر . وهذا هو الذي اعيا اعظم فحول اطباء السياسة واحذق علماء التاريخ الذين دأبهم البحث عن امراض الامم واسبابها . وعلى الخصوص لان هذه الاسباب وتلك الامراض لا تكون واحدة في كل الشعوب بل تختلف باختلاف الزمان والمكان والدين والذوق والقطرة والاحكام اما ادراك اسباب امراض امة فهو صعب على من ليس من اهلها كما ان من كان مريضاً لا يحسن تطيب نفسه ولذلك يلزم ان يستعان بما من شأنه تسهيل السبيل الذي يقود الى معرفة تلك الاسباب وهذا انما يتم بالبحث المدقق الخالي من الغرض والتعصب في مراة العالم وهي التاريخ . لانه بمقابلة ماضي امة بمحاضرها ومعرفة اسباب ارتفاعها وسقوطها ينكشف الحجاب الكثيف الذي يحجب حقيقة الحاضر . ويصبح كل مستور مكشوقاً . لان المقابلة بين الاشياء تظهر جيدها من خبيثها . لانه لو عم الظلم امة بدون وجود ما تقابل به مما هو احسن منها في غيرها او في نفسها في زمان حاضر او ماضٍ لظنت تلك الامة ان من عندها هو كل ما يمكن الحصول عليه . اما اسباب تاخرنا فسهل ادراكها على من ينظر اليها بعين التاريخ العادلة . وهي كثيرة تكاد لا تحصى وقد ذكرنا بعضها فيما سبق من الجنان وسندكر بعضها الان وفيما ياتي ان شاء الله تعالى لعل ذكرها وتعداد اضرارها يحملنا على الابتعاد عنها وسلوك سبيل يسوقنا الى الاتحاد والاشترك في الاعمال . لاننا منذ انقسمنا الى عصب دينية واخذ كل منا يحاول عضد عصبته وتنكيس غيرها قد عمنا التاخر وخسف ظلام الجهل بدرنا

هذا ومن بعض واكبر اسباب التاخر الانشقاق الداخلي . فاننا لانكف عن رشق ابناء مذهبنا بسهام الحسد والملامة والقذف . على اننا نتكاتف معهم في رشق امة اخرى بها . وذلك لاننا لا نطيع ان نرى احداً من ابناء ملتنا وغيرها في صدور المجالس ومراتب الاحكام بل احب اليانا ان نخسرها نحن واياهم من ان نراهم متمتعين بها دوننا . وهذا هو من اخبث واعظم اسباب التاخير . لان الامة التي شأنها ذلك

تكون منشقة تجارب نفسها وغيرها بدون راحة ولا فتور . ولذلك لا امل لها بالنجاح
ما دامت على تلك الحال

اما الدواء الذي يشفي ذلك الداء فهو العلم (وليس المقصود مجرد معرفة العلوم
المتعلقة باللغة) الذي يطرد من ذهن الانسان المبادي الفاسدة ويرسخ فيه المبادي
الحقيقية . لان كل من نظر الى الامور نظر عادل محقق يرى انه لا يسوغ له ان
يحتقر غيره ويحكم عليه بفساد الدين مثلاً حال كونه صاحب دين لانه ذو غرض
هذا مع قطع النظر عن الايمان المبني على التسليم . ومن نتائج العلم الاتحاد والمحبة
وتضحية المصالح الخصوصية للصالح العمومية . ونتيجة ذلك الشفاء من تلك الامراض
العضالة ورجوع الصحة التي هي اعظم بركات الله . فعليتنا بالاتحاد والينا عن الانشقاق
وكل يمين حاولت تكدير هذا الدواء نغير لها ان تثل وان يحسب صاحبها جيفة
تكدر اريج الاتحاد الذكي وتمكر صافي كووس الالفه والاتحاد

التردد

« لاديب بك اسمحق »

اذا كنت ذا رأي فكن فيه مقدماً فان فساد الرأي ان ترددا
ووال الزمان اذا والاك وخذ منه ما اعطاك فهو مولد يألف الصد وبخيل لا
يانف الرد وانتهاز فرص الحوادث فالمر وان طال قصر من ان يسع المطال
واعتبر بالذين يقتلون الايام بين الاحجام والاندام ويؤجلون اللغد ما امكن
بالامس الى ان يمتنع الامكان بما يحول دونه من مصاعب الزمان كيف تلاشت احوالهم
وساء ما لهم فصاروا الى الضعف بعد القوة والهرم بعد الفتوة والخلول بعد التباهة
والخسف بعد الوجاهة حتى عاد مجدهم صفارا ومسح فضلهم عارا
وانظر الى الذين ينيطون الاقوال باطراف الاعمال ويستلبون الاوقات من
مخالب الآفات وينتهزون الفرص كيف سنحت ويدخلون ابواب السعي متى فتحت هل
زلت بهم الاقدام ام ندموا على الاقدام ام اسفوا كما بأسف المهملون ام خسروا كما
خسف المترددون

او ما نراهم في ذروة المجد وربوة النعمة وعقوة الحرية لا يبلغ شأوهم الساعون
ولا يسهم الشقاء ولا ينالهم الظالمون بسوء فهم القادرون اذا رغبوا والمذركون اذا
طلبوا والعالمون اذا نطقوا والسابقون اذا لحقوا بتبسم الحياة لشبوخهم كما يتبسم الموت
لقتياننا ويروق الوجود لفقرائهم كما يروق الغنى لاغنيائنا حتى كان الزمان عاهدنا على
الراحة وواعدنا باستمرار الهناء كما واثقنا على الجهد واستقرار البلاء

فبتنا نعاني صنوف العناء ولسنا نرى في الانام معينا
ودارت علينا رحي نكبة تظلُّ الحجارة فيها طحيننا

فيا قوم : لقد مرت بكم الايام باسباب النعمة والنعمة والراحة والتعب واليأس
والرجاء فلم تستوقفوا الرغائب ولم تجنبوا النوائب ولكن وقتم بين الجزع والكسل
والامل والملل ففرَّ المرغوب وقرَّ المرهوب فلم تحيوا خيبة الساعي لتعذروا ولم تصيبوا
اصابة المثبت لتنكروا ولم تدركوا الارب اتفاقاً لتذكروا

وتلك حالكم شاهدة بما اقول فقد ليتم بما يذيب الشحم ويقرض اللحم وينقي العظم
وانتم صابرون ومنيتم بما وفر النعم وغير النعم واهلك النعم وانتم صامتون ورزقم بما جلب
المصاب وهتك الحجاب وبرز الكعاب وانتم خاشعون فما الذي تخافون . بل اية
عناء لم تعانوه واي بلاء لم تقاسوه واي فناء تجذرون بعد هذا الوجود ام اي وجود
ترجون من هذا الفناء

لا جرم ان مثلكم في الصبر على هذا النكر كمثل بخيل ينفق العمر في التماس المال
ثم يجبهه عن نفسه وعن العيال راضياً باسواء حال

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقرٍ فالذي فعل الفقر
تقولون لا نرضى بهذا الخسف ولا تقوى على احتمال الذل فقد صار تاجرنا عاملاً
ونبيهنا خاملاً وعالمنا سائلاً فلم يبقَ فينا غير الاجير والتابع والشحاذ والزارع والجندي
منقوض الجانب والشرطي منقطع الراتب

بل زارعنا الذي يدفن مع الحبة قوّة يمينه ويسقي الغرس بئاء جبينه نزيل في
دار ابيه وغريب في ارض ذويه يحصد مما زرع ولكن لسواه ويحني ما غرس ولا
يذوق جناه

وجملة الامر ان الشدة قد بلغت في امرنا حد الحدة فصار ومن دونه الخوف
بعد الامن والسقم بعد البرء واليأس بعد الرجاء والفقر بعد الغنى حتى لو استزدنا

الدهر بلاءٌ لما وجد الى ذلك من سبيل وحتى عذب الموت بافوا حسنا والموت خيرٌ
من مقام الدليل

تقولون هذا وانتم في مراتع الاشمال ومرابع الآمال تحوصون على القناعة حرص
النجيل على درهمه وتضنون بالاندام ضن الجبان بدمه

وهل ينفع الخطي غير مثقف وتظهر الا بالصقال الجواهرُ
وكيف ينال المجد والجسم وادعُ وكيف يحاز الحمد والعزم فاترُ
بل ما اجدر القائلين من غير فعل بان يفعلوا من غير مقال . أجل ولسوف

تفعلون

وكأني بكم عصابة من اهل العهمة والاصابة ترفعون الاصوات في طلب الحق
المسلوب وتمدون الاكف لالتماس المال المنهوب وتعملون الابدان للوطن سوراً يرد
عنه العدو مذعوراً

وانتم الكلمة المتخدة والقوة المتجمعة هي اقوى من العدد الكثير

الآنكم تترددون

ياخذكم فيما ترومون عدل الخائفين فتنسون ماضي الزمان على رجاء آتية فيومكم
ابداً مستهلك في غده والغد فيما يليه فيا حليف الصبر ويا نضو العناء نداء مشارك
في بلواك وسامع لنجواك دع التردد ان اردت النجاح والنجاة وأقدم قرب حياة تكون
في طلب الموت ورب موت يجي من طلب الحياة

ولا تبع عاجلاً منها بأجل ما ترجو فذلك امرٌ شأنه الطولُ

ولا يصدك عن امرٍ هممت به من العواذل لا قال ولا قيلُ

تغير يومك يوم انت فيه اذا ميزت والناس محمود ومعذولُ

السياسة والاخلاق

له ايضاً

قال احد حكماء الفرنسيين: اتى على الناس الوف من السنين وهم يتصورون
ويقولون فما ترك الاول للاخر وجاء السلف باحسن ما يمكن ان يقال في الاخلاق

(والسياسة) ففابتنا جمع ما ثروه والتقاط ما اسقطوه . ونحن في هذه المطالب
مصداق ذلك القول فهي شذرات لبعض حكماء العصر بلحمة من خدرات الفكر
نسج على هذا المنوال وتنشر تحت هذا العنوان

(١)

قالوا دع السياسة لاهل الرئاسة فهم فيها احق وبها اعلم وعليها اقدر
لا يعرف الحكم الا من يكابده ولا السياسة الا من يعانيتها
وتقول هل اتى على الناس حين من الدهر لم يروا واحداً او غير واحد من ذوي
الاقلام والافهام يبحثون عن حقائق السياسة من خلف ستور العزلة وينظرون الى
آداب الاخلاق من وراء حجب الخفاء ألف الكاتب الفرنسي (روسو)
كتاب الميثاق الاجتماعي في السياسة وشعر من اهل زمانه بمثل ذلك الاعتراض
فاجاب : يقولون أ انت امير ام انت حاكم لتكتب في السياسة واقول لا ولكنني من
اجل هذا كتبت فاني لو كنت اميراً او حاكماً لما اضعت الزمان في كتابة ما ينبغي ان
افعل بل كتبت افعله او التزم السكوت

ولكنه مقال يشف عن حسن الظن بالنفس فان قبل من مثل روسو فلا يقبل
من سائر الناس ولذلك لسنا نتخذ حجة على حقيقة خوضنا في هذا البحث ولكن مجتئنا في
ذلك انه لا يلزم الباحث في الاحكام والقوانين السياسية ان يكون اميراً او حاكماً
او وزيراً كما لا يلزم المؤرخ الناقد ان يتولى كل خطة ويشهد كل واقعة ويحضر
كل حادثة يقع نقده عليها بل من حقوق الانسان الطبيعية بل من واجباته ان
ينظر فيما يمس وما يحيط به من الامور الدنيوية والاحوال الاجتماعية ولقد جاز للمرء
ان يبحث عن اسرار الوجود ويستكشف نواميس الطبيعة في حالة كونه لا يستطيع
تغيير شيء من نظامها ولا يقوى على مخالفة حرف من احكامها فكيف يحظر عليه
النظر في النظام الذي هو جزء منه والاحكام التي هي من وضع الانسان

نم وقاية النظام وانفاذ الاحكام واجراء ما يتعلق بذلك من الامور منوط باهل
الحكم لمقدرتهم عليه واستحكام ملكتهم فيه واختصاصهم به من دون سائر الناس الا
ان تقرير اصول الاحكام وتحديد شروطها وتبيين انواع الحكومة وتعيين الحقوق
والواجبات كل ذلك من باب العلم لا الحكومة فان اهل الحل والعقد مشغولون بالعمل
عن التصور ولو راموا الدخول في المباحث الخلافية والمسائل الخيالية لاهملوا الشؤون

واضعوا المصالح التي يجب عليهم حفظها من الضياع ولكن اهل البصيرة والرشد منهم ينظرون الى ما يقال في ذلك بعين التأمل والاعتبار فيأخذون بالنافع منه ويتنبذون ما لا نفع فيه كما هي الحال في رجال - حكومتنا الحرة واولي امرنا الراشدين في هذه الايام

فاذا تبين ذلك مما ذكرناه ثبت وجود علم باصول تعرف به احوال السياسة والحكومة لا احوال حكومة معلومة مقصودة بالذات ولكن الحكومة على الاطلاق بالنظر الى طبائعهم وقوانينها واشكالها الاصولية وما يجب عليها وما يجب لها وما ينشأ عنها من الآثار وهو ما سماه بعضهم بالفلسفة السياسية

(٣)

على ان السياسة وان كانت من حيث هي علماً منفرداً بقواعد معلومة متعلقة بنظام امور وسمت شؤون لا ينبغي ان تختلط بغيرها في حال ما الا انه من النافع اللازم الاتصل عن العلم الذي تمسه من كل ناحية وتصل به من كل سبيل وتبني عليه في كثير من الاحوال الا وهو علم الاخلاق المسمى في بعض مظاهره ادباً وفي بعضها تربية وحكمة

ولم يكن الاقدمون في ريب من وجوب هذا الاتصال بل بالغوا في تمكينه وتقريبه حتى جعلوا السياسة والاخلاق علماً واحداً لم يفتلوا بينهما ولم يميزوا احدهما من الاخر بشيء تدل على ذلك تصانيفهم في الحكمة والسياسة بما بنيت عليه من وحدة الموضوع وان كتاب السياسة منهم هم الحكماء الافاضل المرهون الباحثون عن آداب الاخلاق كاذلاطون وارسطو وشيشرون

غير ان اتساع نطاق المعارف والعلوم في العصر الاخير بانفساح مجال التصور وتوفر مادة الاختبار واجتماع اشتهات الآثار قد اوجب اختصاص كل من هذين العلمين بفريق من الباحثين يقتصر على النظر فيه غير مبالٍ بالذي يليه كما حصل في كثير من الفنون التي كانت فيما سبق فروعاً من اصل واحد معلوم ثم صارت الآن بمنزلة الاصول يختص كل منها بطائفة من العلماء كالطب الذي كان يشمل الجراحة وعلم الطبائع والامراض الباطنية وعلل العيون والاسنان وسائر ما يتعلق بهلم الابدان وهو الان علوم مستقلة على نوع ما بقدر هذه الفروع ولكل علم منها رجال يقومون عليه فيقال لزيد فيسولوجي ولعمرو طبيب اسنان ولبكر طبيب عيون وغالد طبيب

نساء وهم جراً

ولكن اختصاص اهل الحكمة والتربية بعلم الاخلاق تفرغاً له واستيفاء لما اقتضاه الاتساع واختصاص اهل الادارة والتدبير بعلم السياسة تجرّداً له واستيعاباً لفروعه الكثيرة غير مانع من تلازم الفاعلين واتصال احدهما بطرف الاخر وجوباً كما يتصل طب النساء بالفسولوجية وطب العيون بالامراض الباطنية والكل باصول الطب العمومي . وذلك لان السياسة نتناول حتى التربية والتهديب والتأديب لغة واصطلاحاً وفي واقع الامر وعلى اتصالها بعلم الاخلاق حجة نظرية وحجة وانمعية الاولى ان علم الاخلاق والحكمة الادبية هو الذي به الفلسفة السياسية وتعلم غايتها الحقيقية لما انه مبنى على العدل الذي هو قسطاس الاعمال والفضيلة التي هي حد الكمال كما سيبيح*

والثانية انه لا قيام للامة ولا قوام للدولة الا بآداب زاجر للانفس عن السوء واخلاق كافلة بحفظ النظام وتربية عمومية يتيسر معها تنفوذ الاحكام والادب وحسن الطباع والتربية من فروع علم الاخلاق وهي من لوازم السياسة فهو وعلم السياسة متلازمان

(٣)

تفصيل الحجة النظرية والحجة الواقعية على اتصال علم السياسة بعلم الاخلاق الاولى اذا صرف النظر عن التربية واحوال الطباع والحكمة التي هي البحث عن الحقيقة والعدل تاه الفكر في اصول الحكومة وعجز عن معرفة الواجب والجائز والمخطور والمكروه لامتناع العلم بذلك من التاريخ او الآثار ولانه لو حصل هذا العلم الممتنع لما دل على احسن تلك الاصول لامكان وقوع الخطأ والظلم وخلاف الحق في الاصل الاول كما امكن وقوعه في الكثير مما تفرع عنه . فلا بد والحالة هذه ان يكون الحكم في ماهية الحكومة الحققة مبنياً على المقابلة بينها وبين موجب العدل ومقتضى الفضيلة وهو علم الاخلاق فان الحكومة ليست بألة مركبة من اجزاء معلومة تدار على اعمال معينة غير قابلة للتغيير وانما هي جسم مؤلف من رجال ذوي طباع واخلاق فهي بمنزلة موجود واحد له غاية ادبية وحقوق مدنية وعليه واجبات فقايته حسن الحال وحقوقه اجراء الحق وواجباته اقامة العدل وكل ذلك لا يحصل الا بالفضيلة في جانبه وفي جانب الامة معاً (والفضيلة غاية علم الاخلاق)

والثانية ان الحرية التي هي غاية الحياة السياسية والكمال المدني لا تكمل ولا تحصل الا بالفضيلة فان المملكة الحرة ان هي الا بلاد تجوز فيها امور كثيرة محظورة على الناس في بلد غير حر من مثل الاجتماع والخطابة والكتابة والغدو والرواح والادلاج واطلاق الارادة في اهواء الانفس المتعلقة بها بالذات وهلمَّ جرّاً فان وجدت هذه الحرية مع فساد الطبع وسفالة النفوس واستحكام الجهل وانتشار الرذيلة وضياع الفضيلة كانت مدرجة للخلل والفساد وذهاب الحقوق وقيام بعض الناس على بعض يتنافسون ويتقاتلون فيغلب القوي الضعيف ولا يبقى من فارق بين الانسان وسائر الحيوان اذ تغلب الشهوة على الشهامة ويستولي الشره على العفة ويستعلي حب الذات على الحق فتقلب الحرية استبداداً بيد الاقوياء وتنبو التحزبات على الراي العمومي فينسى الذين تولاهم الفساد واجباتهم الذاتية والوطنية والانسانية ويبيعون انفسهم ووطنهم وحقوق الانسان بشهوة القلب ينالونها وحاجة في النفس يقضونها والجملة ان السياسة لا تصح الا اذا بنيت على الحرية والحرية لا تحصل الا بالفضيلة (والفضيلة غاية علم الاخلاق)

(٤)

تبين بالحجة النظرية والشاهد العملي ان علم السياسة متصل بعلم الاخلاق غير انه لا يلزم من ذلك الاتصال كون الفضيلة هي الغاية المقصودة بالذات من الحكومات فالحكم لم يكن الا ل حفظ الحق اما الفضيلة فهي واجبة على الافراد . وغاية الدولة العدل ولا عمل الا مع حرية الامة ولكن استعمال الحرية لا يتخلو عن الضرر الا اذا اهتدى الوطني فيه سبيلاً مستقيماً فعرف شأن اخيه واعترف بحق دولته ومواطنيه ولم ينس واجبات الوطن فالسياسة من هذا الوجه محتاجة الى علم الاخلاق وان لم تكن مبنية على الفضيلة

أرأيت لو ذهبت الامانة وعمت الشجاعة وزالت الاستقامة وضاع حب الوطن فكيف تكون احوال الدولة والامة . . توجد في اهل القضاء ما يفتي عن النزاهة . . اتحدث للحامية ما يعوض من الاقدام اتبدي لاهل الادارة ما ينوب عن الغفأ او تبعد للكافة ما يكون بديلاً من المحبة الوطنية . فان قلت تقيم على اهل القضاء رقباء ونجعل لذوي الادارة رؤساء قلنا اذا لم يكن رقباءك ورؤساءك من الفضلاء فما هم بمصلحين فالحاجة الى الفضيلة واقعة على كل حال . وان حسبت نظام الجند كافياً

في تعويد الشجاعة وقانون الاحكام مغنياً عن الادب الوطني فاعلم ان النظام والقوانين عوامل غير محرّكة وحواجز غير حصينة لا تجلب حسنة معدودة ولا تدفع سيئة في النفوس وانما نظام الشجاعة في القلوب وقانون الوطنية في الاحشاء فيلصق القلوب من رام من الجند الحماسة وليظهر النفوس من رام من الامة حفظ القانون فانه لا تنتهي الاقس عن غيرها ما لم يكن منها لها زاجر

وغاية النظام في الجيش انه يحفظ البسالة الموجودة ولا يقوم مقام المفقودة . واثم القانون في الامة انه يكف عن بعض الاثم الظاهر ولا يمنع من اركاب الباطن الخفي فما الجند ولا الامة باقل حاجة الى الفضيلة من ذوي الادارة والقضاء فانه اذا ضاعت الشجاعة فصير المملكة الاستعباد واذا فقد حب المصلحة العمومية فآلها الضعف واذا عدم الاتحاد والاخاء فغايتها التفرق واذا اهمل السعي فحتمتها الفقر واذا نبذ الاقتصاد فآبها الخراب واذا ماتت العزة والشهامة فعاقبتها الظلم وجميع تلك الفضائل داخله في علم الاخلاق

ومن اجل ذلك رأى الحكماء الفضلاء الذين نستمد من فيضهم هذه الاراء ان يجعلوا البحث في السياسة تابعاً للبحث في الاخلاق فانتفينا اثرهم في ذلك ليعلم الوطني منا ما يجب عليه لنفسه ولا لبيته وللحكومة والوطن فاذا حصل من هذا العلم في ذهنه صورة غير خادعة فانه ينظر حينئذ الى السياسة نظر الراشد البصير والله ولي التدبير

خطرات ألباب

« له ايضاً »

دع الحريري بين حارثه وهامه والمنتبي لدى سيف دولته وحسامه وابو نواس عند ظبيته وجامه وقف بنا تندب وقتاً اضاعوه وذكاء في غير محله صرفوه فالوقت هو التبر الثمين ولكننا نتلقاه غير مكترئين فنبتد الاعوام واحداً بعد واحد لا نستفيد منها نفعا ولا نحسن فيها صنعا

فقل لمن يصرف الايام بين الاوهام والاحلام ان كنت تجهد مقدار ما تضيع فقف بالقبور ملتسماً من سكانها برهة من الوقت تعلم انه العزيز الذي لا يملك من

اضاعه واشترى به ثمنًا قليلًا فأولئك هم الخاسرون

الا ان الطبيعية لحكيم يهذب الافكار بدروس الاعتبار وانا لنموت في كل حين
ثم نحيا ثم نعود امواتًا فلنا في كل يوم عمر جديد ولكن اكثرنا لا يشعرون
تمر بنا الاوقات سرعًا وتكر الايام تبعًا فنذهل عن تعاقبها كالخندق بالكرة
الدائرة يحسبها ساكنة او كالمفتسل في النهر يمر به الماء جاريًا فلا يميز بين
منصرفه وآتيه

والحق انا لفي ضلال مبين لم يكفنا القعود عن شراء الوقت المفقود حتى نشري
بكل نفيس ما يضيع به الموجود

نبدد كنوز الايام غير شاكرين فاذا بدا الشاغل قلنا ما ابطأ الزمان متحركًا
وما اثقله نزيلاً واتمنا الى الفرار منه سبيلاً ولا نفر الا من انفسنا فالزمان عين الوجود
نمل البقاء ونرجو النناء فاذا جاء نذيره وددنا لو نكون من الخالدين ويمثل لنا
الوقت شيئًا ثقيلاً الوطأة فاذا تولى رايناه طائرًا عظيم الجناحين فنسعى في طلبه فلا
ندرك له اثرًا فنعود عنه آسفين

فما سر هذا التناقض وما بالننا نرى اليوم الحاضر بغيضًا فاذا انقضى بكيناه وقلنا
ان الزمان بمثله لضنين . ولا يرضن الزمان بالايام وانما نحن بها مسرفون وما كان ندمنا
الا عقابًا على الاسراف كذلك يجزى المنرطون

تفيض علينا اوقات فننفق منها بنير حساب ثم نحسبها على المسير فاذا انصرفت
ناديناها غير مسمعين فنحن نسعى الى الموت ثم نفر منه كعاشقة حمقاء تغاضب من
تهواه سعيًا الى العجز فاذا رامه الله مستغفرة انها من التائبين

ونمل الاعمال ولا راحة الا بالاعمال فالهناء ثمرة لا تثبت الا في حقول الاشغال
والحياة ان لم تكن مقرونة بالهناء فهي عين العناء

فقل لمن يلبس الملاهي لصرف ما يحسبه بطيئًا من وقته السريع اي هذا المسترجل
طفلاً المستطفل كهلاً القاعد عن النعمة سهواً نراك تحسب اللهو حياة فهل تحسب
الموت لهواً

تنام ملء عينيك على وساد الفساد تحت ظلال الوبال ولا تسمع حركة الرجود
كانك ممن اجروا فاكتنفتم الانواء تجر سحابًا يظفر عذابًا فخل دوها باذانهم فهم
لا يسمعون

فنبه طرف الفكرة من رقدة الغفلة واحرص على يومك حرص البخيل على الدرهم
 فر بما مرّت النعمة تحت جناح ساعة منه وانت لا تعلم
 وأعد بما تعد من الفضل ما صار من وقتك منسياً فلما آثرت تعيد مائة الزمن
 حياً واعلم ان من اضاع شيئاً من الرقت فقد سرق التبر بل سلب العمر وكان من
 القتلة الظالمين

الحرب

« لسليم افندي البستاني »

لقد نذبت سوء حظ الانسان منذ كشف سنّ البلوغ عن عينيّ سيار الغفلة
 والصرير . واملت نظري عن شره منذ عرفت الخير من الشر . وكمن مرة حملني
 جهل نفسي وجهل الانسان عن ابراز سنّ الاستهزاء والضحك على ما نبديه من
 الافعال التي تخجل بالمباري الصحيحة والاعمال الصالحة . وكمن مرة قلت في نفسي
 ان ابن آدم هو اجهل مخلوقات الله سبحانه وتعالى . وكمن مرة نظرت الى كوكب
 الليل وهو في كبد السماء يرسل اشعته المنيرة على نجاد وبطاح هذا العالم . فقلت هل
 نستحق ان نعتبر بهذا البدر الجميل . وهل تستحق الدنيا الغرور التي طالما خدشت
 وجناتها ايادي العدوان والشرور ان تكون مستترة تحت كف كرة لا تلوح على
 سطحها غير لوائح السلامة والهدوء . وهل يستحق الانسان الذي مال طبعاً عن سبيل
 الاستقامة والصلاح ان يكون قاطناً ربيع هذه الدنيا الجميلة وان يتمتع بملذاتها
 ومحاسنها المكتسبة والطبيعية . ان في التأمل في ذلك حزناً وكدرًا وعناءً تجامر
 قلب اولاد حواء التي لم تقطع غير مسافة قصيرة من حياة هذا العالم حتى رأت دم
 ابنها قاتياً على سطح الدنيا التي كثيراً ما برهنت لها ان بناتها سوف يجريين من الدموع
 انهاراً تحاكي انهار فردوسها الذي خرجت منه بخروجها من حالة الميل الى الصلاح
 وسلوكها سبيل حالة في وسطها اشواك الطلاح . كيف لا نرفع اصوات الويل والحرب
 ونحن الذين ندعي اننا في رتبة ثانية بعد الانبياء والملائكة قد امسينا على ما نحن
 عليه . كيف لا تندب سوء حظنا وآثار القرون السالفة نقيم لنا شاهداً يشهد باجلى
 بيان بان حالتنا بش الحلات . كيف لا نختصر حزناً ونبكي دماً وفي ايدينا ما يهدم

بناء الله ويحمد انفس اخوتنا بني البشر . من ذا الذي يقدر ان ينظر ما حوله من
 هذا العالم العجيب التركيب والحسن المنظر ويقول ان هذا ربع الذين يحيدون عن
 السبل المستقيمة ويسلكون سبيل البغض والحسد والنميمة والطمع والكبرياء والكذب
 حال كوتهم قادرين ان يقطعوا سراطاً مستقيماً يذهب بهم الى جنان السعادة
 والجور وراحة البال . من ذا الذي لا يسرُّ بالزوال متى كدرت راحة اذنيه دمدمة
 رعود اسلحة الويل والهوان . وابهرت عينيه بروق لوامع الاسياف العجمية والعوالي
 المشرعات التي لا تأتي العالم الا بما يرجع به الى الوراثة ويكدر كؤوس راحته وتجارته
 وصناعته وزراعته وعمله . من لا يبيل عينيه عن ميدان القرطاس الذي يأتي بخبر
 هلاك الوف ومئات الالوف . من ذا الذي لا ينفطر قلبه حزناً وحنواً وشفقةً متى
 تصور ساحة الحروب وارى عينيه الوقاً من جثث الشبان الذين منذ برهة كانوا
 يفخرون بقواهم ومحاسنهم وشرفهم ومالم وشجاعتهم ونسبهم وكانوا مقيمين في احضان
 الراحة العائلية يقبلون المحبة الابوية والحنو الاممي والتعلق الاخوي وعلاقات الوداد
 والمحبة رابطة قلب كل منهم بنت من بنات حواء اللواتي كانت اماهن تبسم لهن عن
 ثغر عيشة رضية في جنات محبة من يحبهن من اولاد ادم . وامسوا بواسطة شر
 الفطرة البشرية والمطامع الفارغة تراباً يكاد لا يجد من يكرمه بوضع قليل من التراب
 فوق بقاياهم . كيف يطيق الذين في ايديهم زمام الامور ان يفعلوا ما يأتي رعاياهم
 بهذا الخطب . كيف يطيقون ان يروا دموع الوالدة والارملة والاخت والقييمة
 والمحبوبة تجري كالسيل الهاطل وفي قلوبهن من نيران الحسرة والويل ما لا يطفئها غير
 رطوبة القبر الموحشة . كيف لا يبكي القريب والبعيد وانين الجرحى وتنهيدات
 المصابين بسهام الحرب وصرخات المتوجعين تمزق احشاء السماء وارجل سوابق
 الفرسان تقع في اجساد الذين كتب لهم الدهر عذاباً من اطول عذاب الذين تزور
 رسل الموت مقاتلهم ويحمد ما كان باقياً لهم من رمم . من يطيق ان ينظر هنا شاباً
 متمرغاً بدمائه يسلم الروح . وهنا جريحاً يصرخ طالباً النجدة والاسعاف . وهناك جثة
 بلا راس وهناك راساً بلا جثة ويداً بلا جسم وجسماً بلا يد ورجلاً بلا ساق
 وساقاً بلا رجل . وصدراً مطعوناً ودماً مهزقاً وراساً مشقوقاً واحشا خارقة وجثة لم
 تبق لها يد الشر صورة ولا هيئة . ودخان جنود الموت قد حجب نور الشمس والفتام
 قد زاده كثافة . ودمدمة رعود الاسلحة وصواعق المدافع الرشة ونيران البنادق

المهلكة وبروق البارود اللامعة وبرد الرصاص الساقط وانين كرات المدافع ورصاص
 البنادق واصوات وقع حوافر الخيل وصهيلها وحركة دواليب المدافع ومركبات المعات
 وآلات طرب الحرب واوامر القواد وصليل الاسلحة تؤكد للناظر ان داخل تلك
 الغيمة الكثيفة لا تلعب الرجال بجنود الشطرنج ولا يججارة الدامة بل اللعب انما هو
 الموت الاحمر والهلاك المخيف . ما اشر الانسان وما اصاب قلبه ورب سائل يقول
 ولماذا تفعل هذا الشر . هل ذلك لنقتله او لنُدفع عنا الذين هاجمونا ليسبوا نساءنا
 ويثتموا اولادنا ويسلبوا اموالنا ويتركوا اوطاننا خربة خالية . فمن يقدر ان يقول ان
 هذا سبب الحروب . ومن ظالع التاريخ منذ وجد الانسان الى الدقيقة التي يقرأ فيها
 هذا الكلام يرى ان اصل كل حرب انما هو احد امرين وهما الطمع والحسد . وهما او
 احدهما ما حمل سمراميس ملكة اثور على قيام الحرب على الهند . والاسكندر على فتح
 الدنيا . ونيورلنك على تخريب الشرق واورليان على تخريب تدمر وغيرهم كثيرين
 من الذين ازلوا في العالم جنود الوبلات والهوان . وما وصفنا من ساحة الحرب هو
 جنة بالنسبة الى ما يرى في المدن التي يفتح المدفع فمه المهلك ليفتح ابوابها لدخول
 المهاجم . فان هناك يصيب النساء والاولاد والشيوخ والاطفال ما يصيب الرجال في
 ساحة المعارك قترى ما ينفطر منه القلب شفقةً وحزنًا ويحمل صاحب المرؤة والحنو
 على لعن طمع الانسان وشره . واين ذلك من الضيق الذي يحمل الوالدة الجائعة على
 ذبح ولدها واكله ولو كان وحيداً انه يصعب علينا ان نتصور حق التصور مصائب
 ورزايا الحروب من دون ان نجهد قوة التصور ونضع انفسنا في ظرف الذين يطرحهم
 الدهر في حفر هذه المصائب الشديدة . وفضلاً عن ذلك يقوم من اجتماع
 الجيوش امراض بكل القلم عن وصفها وتفتك باولاد الناس فتكاً لا يستطيع امره
 الكتاب التعبير عنه . فانهم يهجرون ربوع الراحة والرفاهية ويعرضون انفسهم للبرد
 والحرا والتعب والجوع واين ذلك جميعه من المعارك البحرية فانه يرى فيها المراكب
 كأنها جبال نارية في حالة الهيمان تقذف حديدًا ورصاصاً فيه موت مخيف . وكم
 من مرة تنزل تلك الجبال الى قاع البحار بمن فيها وليس من مجير . من يطيق ان
 يسمع الشكلي تصرخ فائلة واولداه والاين الذي يرى نفسه في فم اسد الموت يصرخ
 فائلاً يا اماه . قتل الانسان ما اكفره . ولا ريب ان كل من تأمل في هذا الامر
 كما تتأمل فيه الان يشعر بما شعرنا به نحن والذين يطالعون سواد المداد على هذا

القرطاس . على انه اذا اوصلنا الزمان الى ساحة الحرب تفعل كما يفعل غيرنا . لان
الشنشنة الشريرة تغلب في ظروف كتلك على القوة العاقلة وحاسيات الحنو وتصير
الانسان كالوحش الضاري . ولكن لو كان الذين في ايدهم عقد السلام وفتح الحروب
يسمحون لحاسيات الحنو والقوة العاقلة ان تثشف لديهم في قبول السلام ورفض الشر
لغلبت الانسانية على الحيوانية وانقطعت اسباب الشرور . ومن نتائج الحرب توقيف
دواليب الاشغال وطرح كثيرين من الذين كانوا في عز وسعادة في لجة بحر العناء
والفقر . والظاهر ان الحرب لا تسع معها شيئاً فانها تضعف قوة اسباب ارتقاء المعارف
وتخرب التجارة وتؤخر الصناعة وتضر جداً بالزراعة وبكل اعمال البشر . ولما كان
العالم متصلاً بعضه ببعض بعلاقات قرب المواصل وبسلاسل الصوالم التجارية كان
شبوب نيران حرب في قسم منه يؤثر فيه اجمع . والشواهد كثيرة منها مثلاً التأثير
الذي اثره في الدنيا حروب اميركا الاهلية فانها غيرت حالة التجارة عند ابتدائها
وعند نهايتها وفي مدة شوبها كانت في ارتباك دائم . وكذلك الحرب الحالية قد اوقفت
مسير قدمها وربما تطرحها في ما يضرها ضرراً شديداً . والخلاصة انه يصعب
علينا ان نفهم كيف يقيم الناس الحروب وهم يعرفون نتائجها واضرارها . فنسأل الله
سبحانه وتعالى ان يغير السياسة التي تاتي بالحروب و يقيم سياسة مبنية على اساسات
الصلح والسلام . فتقر عيوننا ويرتاح بالنا و يطيب عيشنا ونعيش عيشة رضية لا يتحمرها
مخاوف واحزان ومخاطر عيشتنا الحاضرة فهو حسبنا ونعم المسئول

الحرب

« لاديب بك اسحق »

(كتبها عام ١٨٧٧)

عرف الانسان مزار الحرب ولم يتجنبها فهل تلك طبيعة وجدت في كيانه
الحيواني ام عادة تمكنت فيه بالاستمرار فصارت ملكة يتعذر التخلص منها وهي مسألة
تؤدي الى النظر في هل طبع على الخير او الشر او كان من عجائبه ان اجتمع فيه النقيضان
يجني على نفسه الحرب وهي بلية حتى اذا بلغت منه مبلغها بادر الى تخفيف مضارها
فنه الداء والدواء والسم والدرىاق وهو بالجملة ابو العجب اما تراه قد نتج في القرن

التاسع عشر سوق حرب راجت فيها النفوس ولم يكن سببها السباق ولا البسوس
وانما هي ثمرة الهوى ونتيجة الغرور فلما انشبت فيه اظفارها واضرمت في حماء نارها
طلب الماء لاطفاء اللهب فهو الهادم والباني والزراع والجاني

يحمل على ابن نوعه مقاتلاً ثم يدعو الى اعائه فهو يجلب الداء ويطلب الدواء
ويجرح باليمين ويضمد باليسار او ما تراه في جنوبي البلقان وفي اسيا الصغرى مضمراً
نيران البلاء وفي سائر الارض طالباً اخمادها

فلو رأيت به وهو في ساحة القتال يطلب فرناً يصوله وخصماً يطاوله وفارساً ينازله
بطلاً يقاتله لانكرته في ديار السلم يطلب ذا مروءة يساعد من جرحه وينهض من
طرحه فهو في الجهة ينادي الانسانية الانسانية وما ادراك ما هي صفة تقوم بمن
ضعف فيه الميل الحيواني فقوي الميل الانساني وهو الترفع عن الحاجات الحيوانية
الى المطالب العقلية وتجريد النفس عن دنيء شهواتها لرفعها الى سامي غايتها وفي جهة
ينادي الحرب الحرب وما ادراك ما الحرب هي باعث الهول والكرب اولها شكوى
واوسطها نجوى واخرها بلوى او هي كما قيل فيها

الحرب اول ما تكون فتية تسمى بزيتها لكل جهول
حتى اذا حميت وشب شرارها عادت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل

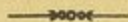
جرحى الحرب

في معترك اومضت فيه بروق المرهفات ولعلمت رعود المدافع فتلتها عيوش الكرات
وسكرت السيوف بنحمر من الدم فعربدت في الرؤوس وعقد العشير لملك الموت
مرادق مظنية بالقنا واخليل ساغبة تقبل ثقالاً وتعود خفافاً وكانها وقد اعيهاها
الفارس حباً قد غضبت على الانسان فداست هامه انتقاماً وقد استحييت الشمس من
خشونة الانسان فاحتجبت بحجاب الضباب وتململت الارض من اعماله فزلزلت زلزالها
وكادت تخرج اثقالها فارعد الرعيد وثبت الصنديد ونادى منادي الحرب من فر
من الموت في الموت وقع ومن كان ينوي اهله فلا رجع . طريق على الارض جريج
ذو كبد حرى يستجير باحدى يديه وفوق الكبد الاخرى يذكر خليمة او حليمة
اله فراقها مع امل الرجوع فما الظن به وقد اختفى نور ذلك الامل ووالدة تالت به

جنيماً وارضعته طفلاً وربته يافعاً وسهرت عليه حالماً ووالداً واساه في كآبته وسلاه
في حزنه وتوجع له في مصابه ثم نُجِّلِي له الدنيا بزخرفها وزينتها فيرى مرير عذابها
حلوّاً وكدر مشاربها صفوّاً فهذا هو الانسان الجريح بسلاح الانسان المطلوبة
مساعدته من الانسان

اعانة الجرحى

من يسير ما تنفقه على الملاذ في المطاعم والمشارب ومن قليل ما تصرفه في اقتناء
الملابس الفاخرة جد على ابن جنسك الساقط في ساحة البلاء حيث ينكر الاخ اخاه
والابن اباه ابها المعطر اردانه المفاخر اخوانه المنجب بلباسه الجائر على ناسه الراكب
العربة يقودها زوج من الخيل العتاق الساكن القصر المشيد اللابس الحرير الآكل
الفالوج الشارب انواع الراح ومن قليل ما تنفقين على باطل الزينة وزائل التحسين
ونزر ما تبدلين في اقتناء الحللى والحلل ابته المفاخرة بزيتها المنافسة في حلتهما جودي
لجريح يحارب عنك ويحمي حماك وابسطي يدك البيضاء بالعطية البيضاء واحسني
وانت حسناء نخبير الحسن ما كان مع الاحسان وخير الاحسان ما كان في
اعانة الانسان



من جرى في عنان امله عثرت رجله باجله

« لسليم بك نقلا »

(في ٢٨ مارس سنة ١٨٩٢)

جاء في امثالهم . اذا سلمت من الاسد فلا تطمع في صيده . وقال الشاعر
الم تر ان المرء قدوى يمينه فيقطعها عمداً ليلسم سائرته
من ناموس الطبيعة ان الشيء يتولد فينمو فيتم اطوار وجوده حتى ينقضى
وهو شرمودع في الطبيعة يجري في هيولاها مجرى الدم في المفاصل فليس هنالك سكون
ولا تخمول بل حركة استتباعية دائمة على تفاوت في الأجل بين الطول والقصر من
فرع واصل ووضع وحمل
وإذا اجلنا لحاظ التنقيب والتنقيب في هذه الحقائق تراجعنا الى الوثوق بسلامة

مجرها واطراد مبادها فالفناها لمناسبتها الطبع ونحن على اكد الاعتقاد ووطيد التصديق
 بان ما انعكس منها وعنها ان هو في كاس الحياة الا ملح اجاج يجه الفم
 كل من خالف الطبيعة لم يجه لذوق وانما يجه الفم
 بل ليس للنفس فيه الا انفة وانكار ولو تبينت منه النفع ورحم الله القائل
 وكل ما عن منهج الطبع التوى تنكره النفس ولو تقعا جنى
 اذن على رسلك يا عاذلاً غير عاذر وقد اجمع كل عاقل عادل على ان مسألتنا
 المصرية قد اخرجتها احكام الدياسة الغائية والاعراض النفسية والاطماع الاشعبية
 من حظيرة تلك القاعدة ودائرة ذاك الناموس فقد اولدتها الايام لتكون ابنة عام ثم
 فيه اطوار حياتها على مبدأ الطبع فاذا بها قد تلبست اطوار غيرها مضيغة الى عمرها
 اعماراً بل اتنا بالعجيب الغريب من دوران حركتها ذلك اننا لم نرها متجاوزة اطوارها
 الاولى الى الثانية حتى رأيناها رجعت الى حيث بدأت فكأن في بها لزمت طور الحضانة
 فالعام الواحد والعشرة اعوام لديها سواء

اذن من تراه يلوم السلطنة السنية على ما اتته وتأتيه في هذه المسألة على علم منه
 بخطارة مصر لديها ديناً وسياسةً فالبلاد اسلامية تعترف في السر والنجوى بخلافه
 رب الخلافة جلالة السلطان الغازي عبد الحميد خان فهو عندها امير المؤمنين وخليفة
 رب العالمين وهي لديه قلب مملكته وطريق بيت الله الحرام والاثر الشريف من
 الافتتاح الجليل الذي اتاه ساكن الجنان السلطان سليم في حين لم تكن من يوم
 افتتاحها عمرو بن العاص الا حكومة اسلامية بين موطن خلافة او تابعة لخلافة . ثم
 هي لدى جلالتهم القسم الخطير المتم جسم المملكة سياسياً يقوم باسمه بتدبيره وترتيب
 احكامه وكياله الشرعي سمو الخديوي على ارتباط قويم واتلاف امين يؤيد بهما
 الحفظ والصيانة فامصر اذاً الا الاثر الماثور للسلطنة بل الجمة النضرة فيها وما
 سياجها الا السلطنة السنية وما جلالة السلطان الا المالك الامر والمالك ان يتصرف
 في ملكه كما يشاء

واننا نقصد ان نأتي في عجالتنا هذه بالشروح الضافية عن ذلك فقد اودعنا في
 الملحات السابقة ما يكفيننا مؤونة الاضافة فضلاً عما في الموضوع من الجلاء المغني عن
 البيان ولكننا نقصد الالمام الى ما شاب الماخرجات الحديثة من وافدات الملل على اثر
 الانقلاب الاخير حتى حدا ذلك الى تضارب الظنون وتباين الاراء

قالوا اننا لا نريد بمصر سوءا وقد انحصرت غابتنا في توطيد امنها داخلاً وخارجاً
وابصالها الى محجة الاصلاح المرغوب بين سعة في المالية وراحة في الشؤون الادارية
ومتى نلنا ذلك تركنا البلاد وشانها ريب شأنها . قلنا قد وثقنا بالغاية وصبرنا ثم راينا
اقراركم ان الغاية قد حصلت فاكمروا بانجاز الوعد ولكم علينا جميل يعرف ويحفظ .
قالوا ان الغاية لم تدرك كلها فالارتحال لم يثن وامره لنا

تلك هي نقطة مسالتنا المركزية ولكنها ليست بالطائرة او الحديثة بل هي القديمة
من عامين وثلاثة وخمسة وسبعة وفي ذلك عود طور الحضارة يتصل بها شرط ليس
من اجل لجوابه وتشوبه علل تؤذن الحكمة للسلطنة السنية بالسكوت عنها لان النتيجة
مترتبة على مقدماتها وكيف نتحدى جانب الوثوق وهي ترى الممانعة في منع حق لها
كالمسائل الجارية في شان العقبة ولحققاتها وقد حالت انكثرا بينها وبين مصر فيها
فاذا اعترض عليها قالت ان مصر لا تريد ذلك واذا اعترض على مصر برئت من هذه
التبعة لقاء نفوذ المختلين فالمسئلة على حد قوله

اذا ضاع شيء بين بنت وامها فاحداها يا صاح لا شك آخذه

واي عدل يتبع لامرء ان يهب او يعطي ما ليس له كما جرى في مصوع والسودان
ثم يمنع عن ذي الحق نيل حقه كالجاري في امر العقبة بعد العلم بان السلطنة السنية
لم تعبت قط في الامتيازات الممنوحة للقطر فاذا قيل ان انكثرا انما تروم ذلك خدمة
لمصر قلنا ان خدمة مصر تقوم بالمحافظة على الرضى السلطاني الشريف وهو لا يريد لها
الا الخير ولا يتمنى الا سلامها وحفظ امتيازاتها وصونها من الاطاع الخارجية
وتأيد تابعتها لمقام الخلافة السامي . فاذا قيل ان ذلك انما ترومه انكثرا رعاية
لمصلحتها . قلنا اذا قد انتفت الغاية التي اعربت عنها وكان للباب العالي حق الرفض
للمقدمات مع انتباز ما يسوق الى الاخلال والعبث . ومهما يكن من الامرين فليس ثم
وجه للارتباب في مقاصد السلطنة السنية كما ان ليس ثم من وجه لفقده لدى مقاصد
انكثرا واذا تبين ذلك حال الحق دون اللوم الموجه من ذوي المآرب والاغراض الى
اجراءات الباب العالي في هذا الشأن وغيره لم يبق لانكثرا سبيل تعترض عليه به
من كونه لا يستمسك بعروة الثقة بها والاعتماد على سلامة نياتها

ولسنا وقد بدا لنا من هذه الشؤون الخطيرة ما كشف القناع عن محيا الحقائق
نتوقع لسلامة العاقبة الاحزم سمو خديونا فهو بما اودع الله فيه من الروح الشريف

يجلوه الذكاء والنباهة يقوى على حل المشاكل ويزيل العقبات المعترضة دون الوصول الى المحجة فالقطر قد وكل امره الى تدبيره على مبدا وثوقه بما شب فيه من التعلق بجوهر التبعية والارتياح الى رضى جلالة الخليفة مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان الاعظم فضلاً عن طهارة ذيله من غوائل الايام الماضية وثبات جاشه في ما يبرمه من الامور لتوقيعها على حكم الحق والعدل ومن اتبع هذين كان ظافر دون مرء ولم يكن من حجة للمناضل في شأنه تمثلاً بما جرى مع عبد الله بن الزبير وذلك ان عمر رضي الله عنه مر بعصبة فيها عبد الله بن الزبير ففر افرادها من الطريق الا ابن الزبير فقال له عمر . كيف لم تفر مع اصحابك . فقال لم اجترم فاخافك ولم يكن في الطريق من ضيق فوسع لك . وذلك سيكون لسان حال سمو الامير لمن يحول دون ما يقصد في هذا المنهاج الواضح ايده الله معززاً بالتبعية الشريفة ليظل مظهر التعطفات الشاهانية وحصناً حصيناً من معازل السلطنة السنية بجوله وطوله

سعادة الحياة

« اسعيد افندي الحوري الشرتوني »

خطبة القاها سنة ١٨٩٣

احمد الله اليكم يا ايها الذين علموا ان لا اطمئنان لمن زاغ عن الشريعة . ولا سعادة لمن عاج عن سواء السبيل ولا هناء لمن عصى الله بل يا ايها الذين ان سئل عن ذوي الآثار الحسنة كنتم على أسلات الالسنه . وان قيل ان احباء من لا يرجي خيره . واخلاء من لا يخشى شره أشير اليكم فيما حبذا مكان حفل بكم ومدينة انتم من رجال الخير فيها ولا اكنتم ان لنفسي اكبر لذة بمشهد يشهده نواصي الناس ادباً وحباً خير وتزاهة نفس وطهارة خلق كهذا المشهد الذي ترى فيه اشجار الفضائل الطيبة وينابيع الرأفة المذبة بل جنة يسقيها فرات التعاليم الانجيلية فتوتي اكلها اخوان المسيح ذوي البؤسى الذين يتبررون خالقهم فلا برحت ظلال فضلها وارفة ومياه حسناتها دافقة

اما بعد فقد سئلت الكلام في هذا المشهد الحافل باهل الذكاء والفضل المزين

يامير الخطباء ولباب الالباء مصباح الحكمة ونسمة الحياة لكل مشروع حميد مطران
 هذه المدينة الزاهرة فسوّفت الامر لتزاحم الاشغال وتنازع الاعمال حتى اذا كانت
 ليلة امس وقد دنا موعد الالتمام راجعت كتاب الايام وتصفحت احوال الزمان وهو
 المصباح الذي استصبح به في خطبي ومقالاتي فجمت بالكلام في الامر الذي
 عليه الاتفاق وفي الاتجاه اليه الاختلاف . وهو «سعادة الحياة» هي رغبة كل
 حي وافصى امانيه ولها يقاسي الاهوال . ويعاني الاشغال . ويثقم الاخطار .
 ويبرّ ويحجر ويغير وينجد ويشرق ويفرب

اما وقد اتفق الادميون من لدن الخلق على الجد وراء الحياة السعيدة الهنيئة
 غير انهم اختلفوا في وجوه التماسها وطرق تحصيلها اختلافاً طويلاً عريضاً . وذلك
 لتباعد افكارهم في رسم صورتها . وتباين آرائهم في تعقل حقيقتها . وقد افضى بعضهم
 الامر الى ان طلبوا السعادة من معدن الشقاء والطمانينة من موضع الاضراب كاللصوص
 والقتلة وزرّاع الاحقاد وداسي الدسائس ومحفظي الناس بسؤ الصنيع وللناس في ذلك
 مذاهب يكاد يعي الطالب حصرها . واليك الان مذاهب بعضهم في السعادة

منهم من ذهب الى ان السعادة انما هي توفر المال لدى الانسان فسي ورائه
 سعى المجد واصلاً عمل النهار بعمل الليل لا تاخذه فيه سامة وقد كفت نفسه
 الكسب والادخار واولعت بالشح الى حد ان حرم ذاته من كل ما تشبهه نفوس
 المكثرين من التائق في المعظم والمشرب والملبس والمركب حرصاً على الدينار وفراراً
 من التالم بلوعة فراقه ووحشة بعباده . فكان الواحد من اهل هذا الوهم انما يتمتع
 ويتمجد وهو في قبره بقول الناس توفي عن كذا وكذا الفأ من الدنانير واخص
 اوصاف هؤلاء انهم الوكلاء الامناء لوراثةهم

ومنهم من يعد السعادة كلها في رخاء العيش والتوسع في النفقة وابهة المظهر
 فيسكن الدار الشاهقة الفيجاء المزخرفة بالنقوش المزينة بانفس المتاع ويلبس
 الثياب الفاخرة ويتخذ المراكب البهية المزخرفة واخيول المطهمة ويسكن من الخدام .
 ونحو نفسه ان ينفق وجده في سبيل ملاذه قراه بصرف اللذة اذنه العشرة الالاف
 والخمسة عشرة الفاً في الليلة الواحدة وقد يكون في جوار بيته بل في انسيائه من
 تمن نفسه الى اكلة من العدس فلا يرضخ له بشيء . وهذا صنف المنغمسين في
 الترف الذين لم يعرفوا من اطوار الحياة الا الطور الجسماني . ولم يدوقوا شيئاً من

لذات الحياة المعنوية بل اكتفوا ان ينقلبوا على بساط الطور الجسافي المبسوط على
 وحول البهيمية . رفعنا الله واياكم عنه وقصارى الكلام ان الواحد من هؤلاء يندل
 وسعه حتى يستوفي جميع ملاذ الطور البهيمي قبل خروجه من الدنيا . ومن كانت
 حقيقة السعادة عنده الترف ماتت فيه الاخلاق الفاضلة وفارقتهم الهمة العالية واصبح
 كالبهيمة السائمة لا يهتمها من الدنا الا علفها

ومنهم من يقولون ان السعادة انما هي السلطة فيطلبونها ويستحقرون في سبيلها
 كل قemis وهم رجلان رجل يتغنيا فصدًا الى تقويم الأود باحياء الحقوق واسعاد
 الرعية . فيكون ولا ريب من اكبر نعم الله على عباده واغزر بركاته على خلقه ورجل
 يطلب السلطة ليطلق يده في حقوق الناس ويقم فيهم شريعة مطامعه وينفذ عليهم
 احكام اهوائه فيكون اكبر تمة تحل على الرعية واعظم ذلة تنزل بهم ولا ينتصف
 من هؤلاء كالتاريخ فانه بصورهم بكال شناعتهم ويمثلهم بهول هيئتهم فيخلد لهم في
 الناس اقبح ذكر

ومنهم من يحرص السعادة في الصيت الحسن والذكر الطيب . وهؤلاء لا يرون
 لوجه الحياة جمالا الا باتيان ما يمدح ومجانبة ما يذم فيبدلون الاموال ويكابدون
 العناء في خدمة الناس ومصالحهم حتى ترى البلاد كأنها السنة تحدث بحامدهم وتنطق
 بمكارمهم ولا يخفون بما جاء في الامثال من قولهم «سمن الكيس ونيل الذكر لا يجتمعان»
 الا وهم الذين يوقنون ان من يعطي المسكين بقرض الله والله سبحانه لا يجاود . فمن
 بذل في سبيله واحداً اعم عليه بعشرة

ثم ان هذا التصور للسعادة لهو من معادن الآثار الحسنة ودعائم الاعمال الخيرية
 واصحابه احمد الخلق ذكراً واعزهم في قلوبهم حكماً فهم موضع ثقته ومحل امانتهم
 واياك ان تضم اليهم من يتحيلون حتى يعرفوا بالخير ويوصفوا به ثم يتخذوا
 ذلك الذكر سلاحاً يستعينون به على اختلاس الاموال وقرض الاعراض فهم
 كالذي قيل فيه

صلى وصام لامر كان يطلبه حتى حواه فما صلى ولا صاما

ومنهم يقولون انما السعادة تطبيق السيرة على وصايا الله تعالى فهؤلاء يتحامون
 المنكرات صغيرة وكبيرة وياتون المعروف قليله وكثيره لا يبتغون لذلك عوضاً الا
 اطمئنان ضمائرهم ورضوان خالقهم وهم الذين يحرمون على انفسهم القذف والنيبة وزرع

الشقاق ودس الدسائس . وهم الذين لا تطوع لاحد من نفسه ان يبذل قرشاً تعجلاً
 للوصول الى حق وان كان اكرم الكرام وانما ذلك وقوفاً عند نهي الشريعة وان دعي
 احدهم الى منصب اكتفى باجرته وقال لمن يحمله على مخالفة الشريعة ما قال الامام
 عليّ لآخيه عقيل وهذا نص مقاله « والله لان ايت على حسك السعدان مسهداً
 وأجر بالانلال مصفداً احب اليّ من ان القى الله ظلماً لاحد من الناس » وهو لاء
 هم عملة الخير الظافرون بالسعادة الحقّة الاتقياء الصدور من ضر الاحقاد المنزهة
 ضائرهم عن هواجس المفاسد ومن لبابهم ان شاء الله اعضاء هذه الاخوية الصائرة
 في سبيل الاحسان الفائزة لحسن صنعها برضا السيد السند يوحنا بطرس البطريرك
 الانطاكي والسيد المفضل يوسف الدبس رئيس اساقفة بيروت الذي على يده قامت
 عندنا هذه الاخوية يتبارى اعضاؤها في المحامد ويتنافسون في المبار . ويشيرون
 بسيرهم الحسن الى افضل ما تصور به سعادة الحياة واخص ما تعرف به والله المسؤول
 ان يرينا الجميع قد تصوروا السعادة كما تصورها القائلون انها تطبيق السيرة على شريعة
 الله عزّ وجلّ

ادب المدارس بعد المدارس

وهو الخطاب الذي لفظه حضرة العالم العلامة المحقق والغوي المدقق

الشيخ ابراهيم اليازجي في اثناء توزيع الجوائز على طلبة المدرسة

البطريكية للروم الكاثوليك في بيروت يوم الاحد

الواقع في ٢٠ تموز سنة ١٨٩٠

ايها السادة

قد دعيت للكلام بين ايديكم بما يتنزّل منزلة خطاب اصرف به مسامعكم الى
 غير ما يتلى عليكم من هذه الاسماء المتتابعة والاعلام المتناسقة استدعاءً لجمام الخواطر
 ودفعاً لما ينشأ عن مثل ذلك من ثقل الملل وان كان ولا ريب مما ترتاح اليه نفس
 كل وطني يرى سباق فيئاننا الاذكياء ومباراتهم الى نيل قصب السبق في مضمار

الفلاح . غير ان ضيق الوقت واشتراط الاجياز في القول يمنعني عن تضيير غرض ذي
بال افيض فيه في هذا الموقف الحافل ولا سيما ونحن في معمعان الفصل وتوقد وطيبه
مع اعترافي بقله البضاعة وقصر الباع ولذلك رأيت ان اوجه كلامي الى الحلقات
الاول من طلبة هذه المدرسة المائتين في هذا المقام مقام الوداع ليكون بمنزلة درس
اخير القيه عليهم في هذه السنة ثبت في محفوظهم آثاره ولا يذهب من قلوبهم
تذكاره والله المسؤول ان يتولاني واياهم بهدايته وتسديده

فانكم ايها التلامذة النجباء بل الاخوان الاحباء قد قضيتم هنا الشهور بل الاعوام
حتى بلغت الحد الذي فيه عرفتم من انفسكم معنى تحملكم مشاق الدرس والسهر وحمل
طبائعكم على الجهد والنصب وفضل انفسكم عن ملاهي الحدائث واعطاء قياد اهوائكم
لمن يسوسها دونكم ومهاجرة المنازل التي اقمتموها والاهل الذين نشأتم بينهم والاخوان
الذين جمعتم واياهم دار المولد والفت بينكم وبينهم عشرة الصباء . وما فيكم من
يجهل ما في انشاء هذه المدرسة من مهات التكليف بين تشييد بنائها واعداد محلاتها
وتوفير الرجال فيها على سياستكم وتهذيبكم والقيام عليكم في دروسكم وغذائكم ومنامكم
وسائر احوالكم وما يتجشم اولياؤكم من النفقات الطائلة والاهتمامات المتواصلة وان
ذلك جميعه وقف على مصلحتكم وسعي في شؤون آتيكم وتبليغكم الطور النسي
تكونون فيه اهلاً لان تقبضوا على ازمة عصركم وتحلوا المحلات الاولى من مجتمعكم
وتكون لكم القدم السابقة في نشر المدنية وتعزيز شأن الوطنية والسعي فيما يعود نفعه
عليكم وعلى البلاد

فاذا خرجتم من هذه المدرسة وفي ايديكم الاجازات المؤذنة باستكمالكم
دروسها فاول ما اوصيكم به المثابرة على درس ما تلقيتموه فيها وتعمد الذاكرة به
مخافة ان يسرع اليه النسيان فان آفة العلم كما قيل اهماله . فاجعلوه حديث النفس
في خلواتكم وتذاكره في مجالسكم وروؤوا باساراه خواطركم حتى تستحکم ملكته
في اذهانكم وترسخ مسائله في مخيلاتكم وتمثل صورته في بدائهمكم ولا تقنعوا منه
بالقدر الذي بلنتموه في حلقات الدرس ولكن استزيدوا ما وصلت اليه ايديكم
منه وخذوا انفسكم بادمان البحث والاستقراء لادراك كنه المسائل والاحاطة
باطرافها واستظهار ناداتها وغربها فان المدرسة لا تضمن لاحد من تلقى علومها ان
يخرج منها عالماً ولا ذلك في غاية شيء من المدارس ولا في طوقها وانما العالم يصير

عالماً في بيته وفي مقام شغله وهو استاذ نفسه على الحقيقة يبلغها الكمال بادمان الجهد
 وتكرار المطالعة والاشغال . ولست انكر على آحاد منكم بلغوا في التحصيل مبلغاً
 عزيزاً واحصوا من الاصول والقياس حفظاً جليلاً غير اني لا اطرىء احداً منهم
 بانه قد استولى على شيء من غايات العلم ولا تقرب من حدود الكمال ولكي ابشر
 الذين بلغوا هذه المنزلة وانتهوا الى آخر درجة من سلم الدروس بانهم قد صاروا
 اهلاً لان يرضوا قدمهم في اول درجة من سلم العلم ورجائي بما عهدت من ذكاء
 افتدثتهم وثبات عزائمهم انهم سيحصون عن قليل في سواد اهل العلم القائمين برفع مناره
 والتطريس على آثاره اذا لم تهب عليهم ريح الكسل التي تطفئ نور الذكاء وتفسد
 حصون الثبات الا وهو الآفة التي احذرهم شرها واسأل لكم العافية منها واذا
 جاوزتموها لم اخش على عزائمكم ان تكسع بوهن ولا على جهدكم ان ينال بضياع
 ولست ازيدكم بياناً ان العالم لا ينفع بعلمه الا اذا كان راسخ القدم فيه مستبطناً
 لاسراره ودخائله محيطاً بما تشعب من فروعه ومسائله وذلك مما لا ينال الا بطول
 الزاولة وتكرار المراجعة وتفرغ الذهن لما يتوخى حفظه واخلاء الذرع لاحصائه
 ولذلك فاني انصح للمستزيد منكم ان لا يتعرض لما لا يعنيه من العلم ولا يتجاوز ما
 درسه الى غيره قبل ان يستوفي حفظه منه ويرسخ في ملكته وان وجد من نفسه قدرة
 على التوسع وميلاً الى المزيد فليكن فيما يجانس ما اخذه وينضم في سلكه بحيث لا
 يكون انتقال الذهن بعيداً ولا تتعارض فيه صور العلوم بما يضعف ملكتها فيه وتضييق
 الحافظة عن احصائه على ان المرء مفتورٌ على التظالم مولعٌ بالاطلاع على ما لم يعلم
 ولكل علم فائدة تتوفر بهامادة العقل ويتسع مذهب الفكر وبعده مرمى البصيرة فلا
 يمتنع على من شاء منكم ان يزين علمه بما يضم اليه من سائر العلوم ويشهد ذهنه بما
 يصل اليه اطلاعه من المدارك ولكن ليكن ذلك بحيث لا يصرفه عما هو فنه الجدير
 بالتوسع فيه وليقتصر فيه على حد المشاركة دون التبحر وقصد الاحاطة لئلا يقصر
 باعه عن تناول كل واحد من العلوم التي يتوخاها فيخرج مختلفاً في الجميع . وان سمعتم
 ان فلاناً المنعوت بعلامة العلماء وفيلسوف العصر قد احاط بتفرق العلوم واصبح في
 كل منها اماماً فانما هو تزيين المحال وتلقين الغرور وهو لاء مشاهير علماء المتقدمين
 والمتأخرين لا تكادون تجدون واحداً منهم ممن يشار اليه بالسبق والتبريز الا
 وهو قد اشتهر بجنس من العلم ولم يكن له في سائر العلوم الاخر الا مشاركات

واذا ضمكم مجلس ادب وتشرتم للبحث فيه فلا تنفروا للنقد والتخطئة والتذية على
 هفوات اهل العلم ارادة ان تكاشفوا الناس بمبلغ علمكم وتوهموهم انكم ارفع ممن تخطئونه
 مقاماً واوسع علماً فان ذلك يبعث النفار منكم في النفوس والاشمئزاز في الصدور
 وتلحظون بعين الكراهة من رصفائكم وانما طمكم وتتصبون انفسكم اغراضاً للقارضين
 واهدافاً للطاعنين وتفرون الالسنه بالفض من مزيتكم واحسانكم فيكون ذلك سبباً
 في حط مقامكم ونصب العداوة لكم والوقوف لكم بالمرصاد فيما تتوخونه من المقاصد
 وتنجون اليه من الرغائب . واحذر كل التحذير من الطعن على من اشتهر بفضل او
 مزية واعترف له سواد الناس ولا سيما اهل العلم بالقدم فانكم ان فعلتم جعلتم انفسكم
 غرضاً لكل من تشيع له فاكثرتم اعداءكم ومناصبيكم في حين انتم على حدثان
 امركم احوج الناس الى الاستكثار من الصحابة والاصدقاء . والمشايخين في احوال
 الدنيا والدافعين الى التقدم في مراتب الشهرة والفضل . ولا تحسبن الناس سواء
 في معرفة الصواب فان ذوي العلم فيهم تفر معدود والمصنفون من اولئك قليل وفيهم
 من لا يهيمه ان يعرف موضع الحق فلا يتفرغ للبحث في دعواكم وانما يحكم بمجرد ما
 تقرر في علمه او سبق الى وهمه من افضلية الاشهر فلا تحصلون منها على طائل . واذا
 كان ذلك حال العلماء . وهو الواقع في كثير من الامر فما الظن بغيرهم ممن لا اداة له
 للحكم ولا موقع عنده للفصل

واذا جالستم اهل العلم ولا سيما ذوي التبريز منهم فليكن مقعدكم منهم مقعد
 المستفيد واياكم والاعتراض عليهم ولو غلطوا فان في علمهم ما يخرجهم مما اخذتم عليهم
 ولا تأمنون ان يرموك فيما لا تخرجون منه . واذا اعترض عليكم عارف واظهر لكم
 خطأ بدر منكم فلا تسرعوا الى الاحتجاج والمكابرة ثقة واستكباراً بعد ما عرفتم
 الحق فان ذلك يذري بعلمكم ويرميكم بالجهل ووهن التمييز ثم يكون سبباً في حرمانكم
 فوائد جمة . واذا دفعتم الى جدال فتماموا الصلف والتحقير واخذ الخصم بالعنف
 والاستملاء لاقتناعه بالحق فان ذلك مما يضيع الحق ويخفي وجه الصواب ويعود عليكم
 بالتهمة لان الصلف من سلاح العاجز واياكم ومساجلة من هو دونكم علماً والاشتغال
 بمغالطته وجداله ولكن ينبغي ان ترشده الى الصواب ارشاد المفيد فان ابى وكابر
 فافلحوا عنه اقلعاً جميلاً لثلاً يشين علمكم ويستدرجكم الى ما يستزل اقدامكم
 فتوتون من الطريق الذي اخذتموه عليه وترجعون عنه بصفقة المغبون

واحذركم الدعوى فانها آفة الفضل ومحل التكبر ولو كانت حقاً وقد اعتادت النفوس ان تنفر منها وتبخص صاحبها من حقه حتى لو كانت له عشرة وادعى عشرة اجتهدوا ان يجعلوها له تسعة فما الظن بمن كان له عشرة وادعى خمسين . واياكم والتمويه في العليات والخلط فيما لا تعلمون حذار ان يقوم لكم في المرصاد من يزيف علمكم ويرد بضاعتكم عليكم فنقعون في النقصان من حيث تطلبون المزيد . ولا تحسبن ان العالم لا يسمي عالماً حتى يحسن الجواب عن كل شيء ولو في العلم الذي تجرد له وقضى عليه ايامه فان العلم لا ينتهي الى حد يقف عنده بل قد تقرر ان من اعظم فضائل العلم ان يبصر ربه بقصوره ويطلعه على جهله ومن اعتر بنفسه وظن انه وسع كل شيء عالماً فقد دلّ على قلة بضاعته وضعف مداركه . فلا يخجلنّ العارف منكم اذا سئل عن شيء فلم يحضره ان يقول لا ادري فان قول القائل لا ادري خير من ان يقال له اخطأت بل قد عدّ ذلك من جملة مآثر ذي العلم وادلة كماله فيه حتى ان السيوطي عقد باباً في كتابه المزهر فيمن سئل من العلماء عن شيء فقال لا ادري فذكر عدة من مشاهيرهم وكبرائهم كالاصمعي وابن دريد والاخفش وابي حاتم وغيرهم من اهل هذه الطبقة : قال ابو عبدالله الزعفراني كنت يوماً بحضرة ابي العباس ثعلب فسئل عن شيء فقال لا ادري . فقال له بعض من حضر : اتقول لا ادري واليك تضرب اكباد الابل واليك الرحلة من كل بلد . فقال : لو كان لامك بعدد لا ادري تمرّ لاستغنت قال : وسئل الشعبي عن مسألة فقال لا ادري فقيل له : فبأي شيء تاخذ رزق السلطان . فقال لا قول فيما لا ادري لا ادري . انتهى بمعناه

ويقرب من ذلك ما حكاه بعض علماء العضر من الفرنسيس قال ان احدى خواتين الاشراف تصدت يوماً لاحد مشاهير العلماء في مجلس حافل فقالت له امطر يكون بعد الهلال ام صحو . فقال : لا ادري . قالت : اذن فماعة اتصال النيث في هذا العام . قال : هذا مما لا نعلمه . قالت : اتظن ان سكان المشتري يكونون على خلقتنا . قال : ايها السيدة اني لا اعلم شيئاً من ذلك . فقالت يا عجباً فلم يتجر المرء في العلم اذن . فقال : حتى يقول احياناً اني لا اعلم شيئاً
 واذا انتدب احدكم للتاليف في علم من العلوم فليتوخّ الفائدة والنفع دون الشهرة ومكاشفة الناس بما اوتيه من فضل علم او سعة اطلاع لئلا ينصرف همه الى التشاغل

بما لا تدعو اليه الفائدة المقصودة عن تاليه ويحشو كلامه بما يفوت طور الدارس من غامض المسائل وغربها فيينا هو يريد اثبات براعته وطول باعه اذ يطرح المستفيد في لجج لا يدرك لها ساحلاً ويصبح كتابه ضرباً من المعاينة . وهذا مما سقط فيه كثير من اكابر العلماء وجلتهم فاضاعوا فضل علمهم في سبيل امثال هذه السفاسف ورغب الناس عن تاليهم الى غيرها فطرحت في زوايا المهملات

وسواء الفتم او حاضرتم فايكم والتسرع في اثبات الاحكام العلمية خصوصاً من رزق ثقة الناس منكم واطمئنانهم الى الاخذ عنه لثلا يشو الوهم وتفسد الحقائق العلمية ولا تثبتوا حكماً قبل الوقوف على صحته وعرفتمكم من انفسكم القدرة على ايضاحه متى سئلتم عنه لثلا تضطروا ان تقولوا هكذا نقلنا فتكون منزلتكم منزلة الناسخ الذي ينقل صور الحروف ولا يعلم ما وراءها . واعلموا انكم متى اجتمعتكم لثلا تعلمون من كثرة المتهافتين على التاليف بقصد الشهرة او الكسب افهموا ما يتقوله او لم يفهموه فاذا لم تعتمصوا بالبحث في كل مسألة لتلقونها عن غيركم لم تامنوا الوقوع فيما يعسر عليكم المخرج منه وكنتم سبباً في نشر الاوهام وذريعة في افساد العلم ولا سيما ونحن في عصر قل تقاده فيفسو الفلط من غير تكبير وتلقاه الناس من وجه الثقة فيعم الفساد

وكلكم يعلم بما صارت اليه حالة العلم في هذه الاقطار وما نحن فيه مذ مئآت من السنين من التخلف والوقوف حالة كون غيرنا من الامم التي رقيت بعدنا في معارج المدنية لم تزل عاكفة على ادمان البحث والتحقيق دائبة في سبيل الكشف والاستنباط الى ان بلغوا من البسطة في العلم والتبحر في مداركه واستقصاء غاياته ما هو معلوم وزادوا عليه وفرعوا منه ما لا يقف عند حد ولا يحيط به احصاء وكل ذلك مما خلت كتبنا ومدارسنا عنه فضلاً عن ذهاب ما كان في خزائنا من بقايا علوم السلف الا ما لا غناه به مما لا يتعدى اداب اللسان . فمخن اليوم في امس الحاجة الى استرجاع تلك الذخائر ونقل هذه المستحدثات الى لساننا العربي لئلحق باولئك القوم ونستأنف خطواتنا في السبيل الذي تقدمونا فيه . فاذا عمدتم الى شيء من التاليف فليكن فيما دعت اليه الحاجة مما ذكر تذرماً الى بث مثل هذه العلوم في البلاد لما تعلمون من اننا قد انهبنا الى عصر لا يتجزأ فيه من الحقائق بقواعد النحو والبيان ولا يستغني من الاختراع بابتكار معاني الغزل والمدح وكلكم آخذ بطرف صالح من

السنة اولئك القوم وعندكم من اصول العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها ما يمكنكم من نقل كثير من الفوائد المحتججة وراء ظل العجمة تردونها في قالب عربي وتنشرونها في البلاد فتتوفر بذلك علوم الوطن وتزوين مكاتب اللغة بما تزيدونها من مثل هذه التصانيف المرسومة فيها اسماؤكم بما يضمن لكم الثناء الطيب والذكر الباقي على الاحقاب

وليس من غرضي فيما ذكر ان اصرفكم عن الاشتغال باداب العربية والتوفر على اثنان علومها واحكام الجري على اسلوبها ولا سيما مع بعثة اللغة في هذا العصر وانتعاشها بعد كيويتها اعصاراً طويلاً واقبال المتادبين واهل العلم من كل اوب على اقتباس فنونها واحراز اعلاقها علماً بما لها من المزية التي انفردت بها عن سائر اللغات بجزالة الفاظها وبلاغة تراكيبها وما في وضعها من الحكمة والابداع فضلاً عن ان اثنان اللغة عند كل امة مقدم على جميع العلوم اذ هي القالب الذي تسبك فيه المعاني والمرآة التي تمثل فيها صور الخواطر فما كان ذلك القالب اجمل تكويناً وتلك المرآة اصنى ماء جاءت المعاني ابداع والخواطر اظهر وانصع ولذلك كان اشتغالكم بها واحكامكم لعبارتها واسلوبها والتعمق في معرفة مفرداتها واحكام مجازها واشتقاقها من اعون الذرائع لكم على بلوغ الغرض من التاليف فيها ونقل العلوم المذكورة اليها لانكم بذلك تستطيعون ان تصوروا المعاني بصورها وتلبسوها اثوابها اخليقة بها وتستنبطوا لها الالفاظ التي لم يسبق لها وضع في هذه اللغة مما حدث بعد عهد اربابها وانما الذي ينبغي ان يجتنبوه فيها الايغال في نقصي مذاهب النحاة واستنقراء ما قيل في كل مسألة مما لا فائدة فيه للعقل ولا زيادة تبصرة في الاستعمال اذ وجه الاستعمال على جميع الاقوال واحد والمجمع عليه من الوجوه الفصيحة منصوص عليه في اماكنه مما عرفتموه . ويتصل بذلك التنقيب عن الانواع والجناسات البديعية وتوخيتها في صوغ الكلام من النظم والنثر فان ذلك هادم لاركان البلاغة مشوهة لمحاسن وجوه الفصاحة لما يقتضيه على الغالب من التكلف والخروج بالكلام عن وجهه الا ما جاء منه اتفاقاً او على غير كلفة فانه يعد من المحسنات وحسنه يكون بقدر قربه من النظم الطبيعي الا ان هذا قلما يعتمد به في نظر البليغ اذ العبرة باصول المعاني التي يبنى عليها الكلام لا بالتجسينات اللاحقة الواردة مورد الزينة على ما نهبت على ذلك كله علماء البديع . ولهذا كانت المحسنات المعنوية اعلى من المحسنات اللفظية لرجوعها الى المعنى الذي هو

المقصود من الكلام فضلاً عن ان اللفظية كثيراً . يكون المعنى فيها مستبعداً للفظ
 لاقامة الجنس او الفاصلة وانما يطلبها على الغالب من لاغناء عنده من المعاني فيموه
 على الاسماع بهذه السفاسف التي لا تثبت على النقد ولا محصول منها في الفهم
 ولقد رأيت من الناس من التزم السميع والجناس حتى في التقريرات العلمية
 وكتب التاريخ ونحوها مما قيد الكاتب فيه باغراض وحقائق لا متسع له عنها ولا
 محل فيها للزخرفة والخيال وبهذا تعلمون قدر ما اولع الناس بهذا المذهب السمج ولا
 حاجة بعد هذا الى ذكر ما بلغوا اليه من ذلك في الخطب والشعر مما استغرقوا فيه
 المذاهب ولم يتركوا غاية الا اتوها حتى صار السامع اذا تلي عليه كلام كثير من
 اولئك ظنه ضرباً من تصريف الكلم او باباً من ابواب الاشتقاق واصبحت المعاني
 الشعرية كأنما مسخت فاستحالت جناسات وانواعاً وصار من تناول منها شيئاً تاه على
 امرى القيس وابن ابي سلمى ولم بعد المتنبى ومن في طبقتة شيئاً . ومهما يكن من
 مذاهب الشعراء فاني لا ارى لاحد منكم ان يتعلق قول الشعر ويضع اوقاته في
 معاناته لان احدكم احوج الى علم يستزيده وليس في احدكم فضلة لان يخرج من
 قريحته ما ياخذ به الناس عنه واذا لم يكن في الشعر ما يستفاد من حكمة او ادب او
 ما يعجب من ابتكار معنى او ابتداه نكتة وكان قصارى ما يدور عليه الوزن
 والتقنية فما اقلها جدوى تسهر عليها النواظر وتكد فيه الخواطر ثم لا يكون وراءها
 الا اصوات يمكن ان يؤدى مثلها بنقر الدف ووقع مطارق القصارين . واذا كان
 فيكم الشاعر المطبوع يجيش في خاطره الشعر فلا يستطعم ضبطه فليصرفه في الاغراض
 الادبية والتاريخية او وصف شيء من الاحوال والمشاهد الطبيعية او ضبط شيء
 من قواعد العلوم دون التشبيب والمدح وما شاكل ذلك مما يذهب بالزمان سدى ولا
 يتناول منه فائدة

واعلموا ان المرء مفتون بينات افكاره فسواء كتبت شعراً او نثراً فلا تعجلوا الى
 نشر ما كتبت ولا تكونوا من انفسكم على ثقة وان استحسنتم ما صدر من قرائحكم
 لاول وهلة ولكن ينبغي ان تكونوا لخواطركم متهمين وتراجعوا ما كتبت مراجعة الناقد
 المتعنت وان اصبت في كلامكم ما ينبغي اطراحه فلا تبتئسوا من ضياع جهدكم فيه
 ولا تحرصوا على كثرة ابيات القصيدة ولا على توفر الجمل وتعدد السطور فانه لم تعب
 قصيدة قط بقلة ابياتها ولا مقالة بقصر لفظها ولكنها تعاب بقلطة واحدة او لفظ

ركيك او معنى في غير محله فتسقط لذلك برمتها . ولا باس عليكم ان تضعوا كلامكم بين يدي من تتقون بعلمه لينبهكم على ما فيه من العيوب فان نقد واحد من من الاصدقاء ومناصحته في السر خير من تنديد جماعات من الاعداء والحساد على رؤوس الاشهاد . وكلكم يذكر شأن الشاعر الكبير زهير بن ابي سلمي وما كان يفعله من عرض قصائده على اصحابه الشعراء والتوفير على تنقيحها حتى يأتي على القصيدة منها حول كامل ولذلك لقتب قصائده بالحوليات ولم يكن يستحي من ذلك ولا أتى من جهته قط فضلاً عن انه كان معدوداً في جملة فضائله يؤثر عنه الى هذا اليوم

وفي الختام اوصيكم بالمحافظة على ولاء هذه المدرسة التي هي موضع نشأتكم وجمع اشدكم وفيها غذية احلامكم ومنها نبضت لكم مناهل الدراية والرشد ومن اشعثها اقتبست بصائركم ما تسرون في ضوئه سبحانه العمر وعلى الجملة فهي التي اتمت لكم ما رزقكم الله من نعمة العقل واكملت فيكم فضل النطق ووصلت ايديكم باسباب النجاح ونهجت في وجوهكم سبيل الفلاح وارسلتكم رجالاً يتدرجون في مراقي الفضل والعرفان ويحلون محلهم من اندية العمران واعلموا انها لن تزال عصمة لكم تاوون منها الى ركن عزيز كما آوتكم من قبل في حرز حريز فكونوا عندما يفرضه عليكم الوفاء من تذكر نعمائها وما تقاضاكم الذمة من الاقامة على صدق ولائها ولا تغفلوا عن عرفان ما لعبطة مؤسسها العلامة المفضل من الايادي البيضاء واجمال الشاء على تشييده لكم هذا المقام الذي فيه تعلمتم صوغ الكلام وتجبير الثناء وتعهدكم لكم بالعناية وجميل الرعاية في حالتي المشهد والمغيب وافاءة ظل فضله عليكم واحسانه اليكم ليبلغكم من الفوز اوفى نصيب لا زال كوكباً للشرق ترسل اشعة هديه في الاقطار وتسير بفضل نوره متحيرات الابصار

وهذا اليوم موعد تفرقكم الذي به ينحل عقد هذا النظام وينوب اجتماع كل منكم بذويه عن اجتماعكم في هذا المقام فكونوا على التقرب والبعد اخوان صدق تجمعهم نسبة الادب ووحدة الطلب وتضمهم رابطة الوطنية وجامعة العثمانية حتى تكونوا كالبنين المرصوص يشد بعضه بعضاً في احياء اثار العلم والثقافة وتوثيق اسباب الحضارة والتقدم في ظل دولتنا العلية الباذخة الاركان القائمة تحت لواء مولانا السلطان عبدالحميد خان ايد الله دولته وايد به دعائم العدل والامان وجعل ايامه

تاجاً على مفرق الدهر كما جعل ذاته تاجاً على مفرق الاكوان . اللهم آمين

عيشة الخلاء

« لاديب بك اسحق »

كتبها اذ كان في صيف عام ١٨٨١ متردداً الى بعض
قرى لبنان طلب التنزه وتبديل الهواء

قال

لقد سكن الهواء وقتر الماء ووقعت سهام الشمس على الراس وثقلت وطأة الليل
على النفس فما لطلاب الهناء سوى الخلاء وما لاخوان الصفاء غير الفضاء . فهاجر
هواجر الحواضر وذر مفاسد المحاشد وسر في بسرب الادب وصحب اولي الالباب
نلتمس في الجبال نسيماً بليلاً وفي الاودية ظلاً ظليلاً ولا نتمتع بنا العربة سارية
على عجل بين السهل والجبل فانك ان ادركت اثارها لم تامن غبارها ولا تيجر وراء
الفرس يركفه القبعي خبيثاً فيسحب قوائمه تبعاً . فانك لم تجد ثم رفيقاً يكون بنفسك
رفيقاً بل انقرض بالخاطر تطلقه اطلاق الجواد بين الربى والوهاد

واغتنم نشق نسيمات السحر قبل ان تمنى بانفاس البشر
وقابل الفجر قبل انفجار بركان النهار وقبل طلوع الغزالة على هودج النار وتعطر
بما يمر بالخزام والشبح من خطرات الريح وسرح طرف عينيك بجالي جمال ما بين يديك
فقد نسقت صفوف الاشجار على ضفاف الانهار وتكلمت هام الاغصان من لآلي
الندى بتيجان وغرد العندليب على العود فاذا ذكر بانغام اسحق على العود والهواء يملأ
القلوب حياة وهناء والماء يسيل في الابدان صحة وشفاء

والافق ييسم والطيور صواحح والنهر يرقص والغصون تصفق
ومن فوق ذلك جبال لبنان تستهزى بعاديات الزمان لزم رؤوسها الشيب
فازدادت به جمالاً فنادى لسان حالها رب زدني كلاً . فكان في هامها الشتاء وفي عنقها
الربيع وفي قلبها الخريف وتحت اقدامها الصيف والبحر من وراء ذلك يحدجها بينه
الزرقاء قرده صخورها الصماء فيعود راغياً وجداً مزبداً حقدماً يدفع سابقه

اللاحق انكساراً كما انهزم الجيش فارتدت طلائعه الساقية فراراً
 فتلك هي الحياة لا ما اتفقت في الطلب وما صرفت في التعب بين مداح تدينه
 وتحشاه ومفاج تخاف غضبه ولا تأمن رضاه والفراى اللوم راعه وسكن اذا اودعته
 القلب اضاعه وبين ذلك تمالك وانقباض وصد واعراض ودلال وهجر وملال وغدر
 وصحبة بالموادعة ووفاء بالمداغة وشفاه لا صلة بينها وبين الضائر والسنة لا علاقة
 لها مع السرائر وعيون لا تشف عن القلوب واخوان فيما لا يمس الجيوب ودهان
 واجلال واعظام ورياء واكرام واحتشام
 ولقاء الانام عذب ولكن كدرته مؤنة الاحتشام
 فاغتم هذه الاويقات قبل انهدام اللذات فالزمان يومان ماضٍ لا يرد وحاضر
 لا يعلم له غد فاذا ذكر امسك الذي فات ووات يومك قبل الفوات



التشبه

« له ايضاً »

قال

من تردى برداء ما رآه لايه
 وابتغى ما قد تعالى عنه مما يشتهي
 سوف ياتيه زمان يتمي الموت فيه

وقد ابت لي نفسي ومشرب يعرفه الناس منها ان اكون من القائلين بالامتياز
 من غير مزية . افي او من بالله واقر له سبحانه وتعالى بالعدل الذي هو عين المساواة
 واظن بيني نوعي خيراً معترفاً لكل سوي منهم بقابلية الفلاح والارتقاء فما اردت
 بما تمثلت به من ذلك الشعر ايجاب تشبه الانسان بابيه وقوقاً عند حد التقليد ورضاه
 بما وجدت يده فعل الوكل البليد وانما قصدت الاشارة الى من يتمثل بمن لا يصل
 اليه فيما يز ادراكه عليه فيكلف نفسه ما لا تسع ويلقي على عاتقه ما لا يطيق فيغيء
 بالحياة والذل صاغر النفس قبل الوصول الى منتصف الطريق وفي مثل الضفدع
 اذا انتفخ تمثلاً بالجاموس فانشتت مرارته عبرة لاولي الالباب
 ولقد سرت هذه العلة في ديارنا بين الاكابر والاصاغر والواوسط فضاعت بها

الاموال وساءت الاحوال وفسدت الاخلاق وضاعت الارزاق وصار اكثرنا كلقبور
المكساة بيضاء الظاهر وليس في باطنها غير الدود

فياقربني الوسط المستور بالبركة على م نحمدى الغني فيما لا نخدع به الا انفسنا
من الزخارف والاباطيل ا رأيت لو رفلت زوجاتنا بالحرير الاطلس يكس باطرافه
قامة الشوارع فيغنين البلدية عن الكناسين ولو تحتم اولادنا بالجوهر مستعاراً وتقلدوا
سلاسل الذهب مبتاعة بالدين تشبهاً باولاد الاغنياء ولو سكننا القصور مفروشة
بالديباج يطالبنا الغرماه بثمنه قبل انقضاء العام او نبذل فيه جل راس المال انسدل
على حقيقة امرنا حجاباً ونلتي في اعين الناس تراباً فلا يظهر من حالنا الا ما نريد ولا
يرى منا الا ما نظهر بل نحن نسعى الى دمارنا بارجلنا مغربين بيوتنا بايدينا

وانت يا خليلي الفاعل الاكل الخبز بعرق الجبين فيم تشبهه بالاوساط وما
فوقهم من الدرجات ا رأيت لو خرجت زوجتك من بيتها الحقير بزي امرأة جارك
احب القصر الكبير على رأسها تقاب ثمين وفي يدها عالة او مظلة من الحرير ولو
رضيت بالفول غداءً وباذناب الفجل عشاءً لتلبس زوجتك واولادك ما يلبس الاغنياء
وانتم في مبيت لا يرضونه مربوطاً لخليهم ا يغير ذلك شأنك ويرفع بين الناس مكانك
فلا تحسب معه حمالاً او حماراً ولا تعد ماهناً او اكاراً بل انت معرض نفسك للسخرية
تجرمها مما يحتاج اليه لتظهر بما يضحك الناس منه

سلفي اخبرك باحوال امثالك في بلاد المساواة المطلقة والاجتهاد المستمر فاولئك
لا يتحلون بالذهب ولا يلبسون الجوخ الناعم من فوق معدة فارغة تطلب المدد ولا
تتزيا نساؤهم بازياء نساء المتولين وانما لبامهم الكتان صيفاً والصوف شتاءً ولنسائهم
واولادهم ملابس تليق بشانهم وتلايم احوالهم يخرجون بها في اوقات الفراغ راضين
بما وصلوا اليه فرحين بما هم عليه لا يس قلوبهم الحسد ولا تعرف اقسيمهم الذل فاذا
انقضى زمن العطلة او يوم العيد عادوا الى شانهم يسعون فيه تشتغل نساؤهم كما يشتغل
الرجال ولا يرى اولادهم في الازفة متمرغين في الاحوال واذا مر بهم سادة القوم من
الوجهاء والاغنياء لم يخفضوا بين ايديهم راساً ولم يخافوا لهم قوة وباساً وانت مع
ترديك بالجوخ ولبس زوجتك الحرير تقف على ابوابهم موقف الدليل الحقير فما
ضرك لو تركت ذلك الزين ولم ترض هذا الشين وانت في غنى عن الخالين
الا ساءت عاقبة من جهل حده فعداه ونظر الى من فوجه فعداه فزلت به القدم

فندم حين لا ينفع الندم . اطمع نفسه فيما تقصر يده عنه وعود اهله ما لا
يستطيع الاستمرار عليه فطالبوه به فلم يصبه حلالاً فاحتال فلم تغن عنه الحيلة
فسرق فامتعت عليه السرقة فاغتال فان عز عليه بعد ذلك نجاته في اهله عناء
دائم وبلاء مستمر

ونعم الرجل من تشبه بذوي الفضل واهل الاجتهاد فيما ادركوا به الامنية وبلغوا
المراد فطلب فحصل وسعى فادرك وجد فنال وتعب فاستراح لم يقنع قناعة الوكل ولم
يطمع طمع المغرور فذلك هو المعنى المراد من قول من قال فاجاد
وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالكرام رباح

اليونان والرومان

« له ايضاً »

(وهي خطبة القاها في جمعية زهرة الاداب)

لو عدل تاريخ اليونان والرومان بتواريخ سائر الامم في جميع الازمنة لكان
اوسع منها مجالاً واوفر مادة واكثر انتشاراً ولا بدع في ذلك فان هاتين الامتين
معدودتان بمنزلة الاصل الاول او الوسيلة المعروفة في وصول التمدن والعلوم الى
الغرب حتى ان العلم بلسانيهما القديمين كان من لوازم العالمية في جميع البلاد الاوربية
ولا يزال كذلك في كثير منها الى الان . ومن اجل هذا اقبلت على جمع شيء
من تاريخها بقصد المقابلة بين ما نشأ عن كل منهما من الآثار النافعة والموازنة
بينهما في الفضل والمقام المدني لا اقصد بذلك غرضاً في النفس ولا اخرج فيه عن
قسطاس التاريخ على ان المقام ضحك فيما تعلمون وما هي الا تجربة مبتدئ يعرضها
لاخوانه ويسترها عن غيرهم من الناقدين

ولا بد قبل الشروع في تاريخ الامتين من الاشارة الى جغرافية المملكتين لما
بين التاريخ والجغرافية من التلازم في كثير من الاحوال
فمملكة اليونان لم يحددها القدماء تحديداً شافياً جلياً وانما قسموها ثلاثة اقسام
البلوبونيزية جنوباً واليونان خاصة في الوسط وتسالية شمالاً ثم اضافوا اليها ايليرية
الجنوبية ومكدونية وثرافة والجزائر اليونانية . هذا حد ما بلغ اليه تقسيمها الاصلي

على انه كان لدولها املاك كثيرة في سائر اقسام الارض بما فتحت من الامصار
وما اكتشف رجالها من الاقطار وما استعمرت نزالاتها من الديار . وقد اختلف
تقسيمها عن ذلك عقيب موت بلويس وفي خلال حرب تروادة وحرب البلوبونيزة
الى ان دخلت في ولاية الرومان عام ١٤٦ للميلاد فصارت ايالة او قنصلية رومانية
وسميت اخائية ثم صارت في زمن اغستوس ولاية سنائية اي لاحقة بمجلس السنوات
ولما قسمت السلطنة الرومانية في زمن قسطنطين دخلت مملكة اليونان في سلطنة
الشرق وما برح اسمها مع ذلك اخائية ثم صارت مع مكدونية في النصف الثاني من
القرن الرابع مملكة برأسها الى ان استولى الصليبيون على القسطنطينية فجعلوها
امارات متعددة لغير واحد من روساء جند البندقية وجنوى ولما فتح العثمانيون
القسطنطينية استولوا على معظم تلك البلاد ثم تم لهم املاكها جملة فجعلوها ولايات
اربعا ولاية تسالونيقية وولاية يانينة وولاية ليوادية وولاية المورة او ثريبوليزة
فقيمت على هذه الحال بلا تغيير يذكر الى ان كانت سنة ١٨٢١ فنشط اليونان لطلب
الاستقلال فتسنى لهم ذلك بمساعدة بعض الدول العظام فصارت بلادهم مملكة
مستقلة تمتد من الغرب الى الشرق من جون ارتا الى جون فولو ويحدها من الشمال
بلاد الدولة العثمانية في اوربا ومن الشرق والشمال الشرقي الجزائر المعروفة
بالارخبيل ومن الجنوب البحر المتوسط ومن الغرب بحر اليونان وطولها ٢٥٠ كيلومترا
وعرضها مئتان

اما مملكة الرومان او ايطاليا القديمة فقد كانت منذ القرن الرابع قبل الميلاد
مقسومة ثلاثة اقسام غالبية او غولة السلبية في الشمال وايطاليا خاصة في الوسط
واليونان الكبرى في الجنوب فكان يحدها شمالا مسكرا وانين وانيس وغربا البحر
المعروف بالداخلي وجنوبا سيرانوس وفرتو وشرقا بحر الادرياتيك ثم قسمت في
زمن الجمهورية سبع ولايات وفي زمن الامبراطورية احدى عشرة ثم غير ادرينانوس
هذا التقسيم فجعل المملكة ولايتين اثنتين ولما مات قسطنطين رقت المملكة من
بعده اطلق على ولايتين من سلطنة الغرب اسم ايطالية ولم يكن كل ما فيها من البلاد
منها وبعد اضمحلال سلطنة الغرب قسمت ايطاليا بين يوستينانوس الثاني امبراطور
الشرق والمباردين . هذا حد ايطاليا القديمة اي نفس بلاد الرومان اما الاقطار
التي آلت اليهم بالفتح والاستعمار فما لا يكاد يدخل الحصر لشعبه وكثرته وتعاقب

انواع التقسم فيه

ولعد الى اليونان لذكر شيء من تاريخهم فنقول سمي اليونان اولاً استبين اي اهل تربة واحدة وهم في الاصل قبائل وبطون من البلاسجيين ولا يعرف اصلهم في ما وراء ذلك ولكن الاكثرين على انهم جالية من اسية الصغرى وقد كانوا قبل عام ٢٠٠٠ قبل المسيح في حالة البداوة والخشونة ولم يذكر التاريخ لهم من مدينة قبل سيسيون التي اخطتها اجباله في القرن التاسع عشر قبل الميلاد ثم اتهم اقوام من مصر وفيديقية باسباب الحضارة والمدينة فاخط ايناكوس وابنه فوروني منهم مدينة اركوس وشرع اسبرتون في بناء مدينة اسبرته عام ١٨٨٠ ولم تم على عهده وانما كمل بناؤها على يد ليليس عام ١٧٤٢ وبعد ذلك ظهر الهيلانيون الذين يطلق اسمهم على امة اليونان الى هذه الايام فاستولى رجل منهم يقال له سيرويس على اثينا سنة ١٦٤٣ وآخر يقال له دكايون على تسالونيكية عام ١٦٣٥ وحكم كوموس في ثيبة عام ١٥٨٠ ودانوس في اركوس عام ١٥٧٢ ومينوس في كريت عام ١٥٠٠ وهذه العصور معروفة فيهم بايام الابطال لما حصل فيها لبلاد اليونان من المجد والسؤدد والفلاح في الزراعة والصناعات وفيها ادخلت بتلك البلاد مذاهب المصريين والفينيقيين وسنت لاهلها القوانين والشرائع وظهرت فيهم سطوة المراقبة فاستولوا على البلو بونيزة فانماها الهيلانيون الذين كانوا اصحاب تسالية واقاموا بها في ولاء المراقبة الى ان امتلكوها على يد اولاد بلويس عام ١٣٠٧ ثم كانت حروب تروادة التي بالغ شعراؤهم في وصفها وذكر شجاعة المقاتلين فيها حتى امتزج في تاريخها الصدق باخراقات وانتهت عام ١١١٠ ثم حصل الوفاق بين المراقبة والهيلانيين فاستولوا ثانية على البلو بونيزة واخرجوا سكانها بقوة وكان ذلك ابتداء عصر اليونان المعروف بالوسط وهو الذي وقفت فيه حركة نجاحهم المدني الى ان عاودتهم الغيرة فبعثوا بملاحيمهم الى سواحل اسية الصغرى وايتاليية والغولة وهسبانية وسارت ركبائهم باشعار هوميروس العجيبة التي ترفع الذهن بقوة التصور الى ما فوق رتبة الانسان فاتسع فيهم نطاق الادب وجد بهم الحرص على العلوم والعقائد حتى صار لكل بلد من اقطارهم معبود مخصوص بذلك البلد ووضع لهم ليكرغوس القوانين في اسبرته عام ٨٩٨ وقامت الجمهوريات في مدنهم لاقامة امور العدل فالفي الملك في اثينا عام ١١٣٢ وفي اركوس عام ٨٢٠ وفي اليدة عام ٧٨٠ وفي قرنتية سنة ٧٤٧ وفي ارقادية

ومسينة عام ٦٦٨ ولم يبق محفوظاً الا في اسبرته . ثم ادخلت الى اثينا شرعية
 دراكونوس عام ٦٢٤ وشرعية سولون سنة ٥٩٠ ووقعت الحروب المادية عام ٤٩٠
 فبلغ ابطال اليونان فيها مقاماً منخفضاً لمثله رؤوس الابطال . وفي خلال ذلك نبغ
 فيهم العلماء وظهر منهم الحكماء الذين فتح عليهم بما كانت مغلقاً على سائر الناس
 فاخرجوا الازهان من ظلمات الجهالة ومهدوا سبل الخروج من دياجر الضلالة فاشتهر
 اشيل وسفقيس واوربيدس بفن التراجيدية البديع وظهر ارستوفانوس بفن
 الكوميديا البهي ونبغ هيرودوتوس وتوقيديدس في صناعة التاريخ وابتدت اثار
 الحكمة والفلسفة من تاليس وذيقرطيس الذي ينسب اليه الديمقراطيةون اليه ومن
 فيثاغورس وبرمينيدس وهرقليدس وانكساغورس فانثشت على يدهم مدارس الحكمة
 الخالدة الآثار وابدع ابقراط في الطب وهو واضع اصوله واول كاتب فيه بلغ من
 العلم به الى حد ان عد علمه وحياتاً وبقي من بعده ستائة عام لم يزد واحد عليه حرفاً
 الى ان ظهر جالينوس فاخذ ما كتبه ابقراط وهدبه وزاد فيه . وظهر سقراط
 وافلاطون وارسطوطاليس حكماء الارض غير معارضين واشتهر فيدياس مصم
 الهندسة العظيم وبرقليس الخطيب البليغ الذي ولي الامر في اثينا ثلاثين عاماً
 وغيرهم كثير من العلماء والحكماء والفضلاء الذين ابقوا لبلاد اليونان مجداً ثابتاً
 على مرور الزمان

ثم اختلفت امور اليونان الداخلية بما نالهم من النشوة بالنصر في الحروب الخارجية
 فوقعت حرب البلبونيزية ودامت فيهم سبعاً وعشرين سنة ثم اجلت عن حصول
 الامتياز لاسبرته على سائر البلاد اليونانية ثم وقع الاتفاق بين تلك البلاد على ضد
 لقدمونية وعظم شان اثينا باعمال كولون واققراط ولكن انتالسيدياس واثق الفرس
 ميثاقاً دينياً عائباً عام ٣٨٧ فكان ذلك سبباً في قيام اليونان على اسبرته . ثم جرت
 الحرب المعروفة بالمقدسة على ضد الفوقيين الذين احرقوا هيكل ذلفة عام ٣٥٥ فكانت
 وسيلة لتداخل فيليب صاحب مكدونية في امور اليونان فانتهزها فرصة لادخالهم في
 طاعته فقاومه دمستين اشد المقاومة وذاذ اليونان عن انفسهم ما استطاعوا ثم دانوا
 له بعد يوم شير وفي عام ٣٣٨ واستمرت فيهم الحروب الاهلية بعد ذلك حتى وهنت
 قواهم وعظم اختلال احوالهم وضعفت مستعمراتهم من قلة المدد فباغتتهم الرومان
 على هذه الحال من الوهن واستولوا على ايليرية عام ٢٢٩ ثم نزلوا مكدونية عام ١٦٨

وامتلكوها عام ١٤٧ وصارت بلاد اليونان ولاية رومانية عام ١٤٦. ومذ حينئذ لم يبق لتاريخ اليونان شأن يذكر لما انه دخل في تاريخ الرومان ثم لما شطرت السلطنة الرومانية في القرن الرابع للميلاد ادخلت بلاد اليونان في سلطنة الشرق واخذت هاته السلطنة في التلاشي من توالي هجمات البرابرة من الوستغوت والوندال والاستروكوت والبلغار وغيرهم ثم زحفت العرب اليها في القرن التاسع وتلامم البلغار في العاشر فلم يفوزوا منها بطائل ثم نازلها فادكسكار بالنورمنديين عام ١٠٨٠ ثم قامت بها الدولة اللاتينية فجعلتها عدة اقسام لامراء من الصليبية يتولونها في حماية صاحب القسطنطينية الى ان تم الفتح الكبير للسلطان محمد الثاني عام ١٤٥٣ فاستولى القائد عمر باشا على اثينا عام ١٤٥٦ ودافع اسكندر بك المشهور عن استقلال ابيرة الى ان مات فوفعت بيد العثمانيين عام ١٤٦٧ ثم دانت لهم المورة سنة ١٤٦٠ وبقي اليونان في ولاية الدولة العثمانية قرنين الا قليلاً وفي ولاية الاجنبي من قبلها خمسة عشر قرناً صابرين ذاكرين مجدهم السابق مترقبين الفرص لاعادة الاستقلال حتى ان الوقت فشتوا من العقال وشقوا عصا الطاعة واعانتهم بعض الدول الاوروبوية فتم لهم الاستقلال وصار لهم مملكة معروفة بهم عام ١٨٣٠

اما سلطنة الرومان فخلاصة تاريخها ان ايطاليا كانت معروفة منذ القديم باسم ساترنية ثم حل بها قوم من الاركاديين تحت لواء (انورتوس) قبل حرب تروادة باربعماية سنة فسميت (انورتية) ثم استولت عليها قبيلة غير تلك من الاركاديين تحت قيادة (افندر) الذي خرج من البلوبونيزة مطروداً . وكان سكانها الاول من البلاسجيين والابوريجيين واللبريين ثم اتاها الهيلانيون من اليونان وجاء بعدهم اقوام من الغاليين فكانت لهم مستقراً مكيناً الى ان اتاها بلوفير في القرن السادس قبل الميلاد فضعفت شوكتهم ومالت سطوتهم الى الهبوط . وكانت رومية عامرة منذ اختطها قوم افي عام ٧٥٣ قبل الميلاد فلما ضعف امر الغاليين عدا اهلها عليهم فدانوا لدولتها خاضعين ثم سار اهل رومية على الملك تركين الملقب بالكبير عام ٥٠٩ ق م فخلعوه واقاموا لانتقسهم حكماً جمهورياً فكانت هذه الثورة سبباً في تأخير ظهور آثارهم مائة وستين عاماً على انهم جدوا بعد ذلك في سبيل المجد حتى بلغوا منه غاية لا تدرك . وكان في تلك البلاد على ذلك العهد ثلاث قوى عظيمة الشأن قوة الغالين في الشمال وقوة السمينثيين في الجنوب وقوة الرومان او اهل رومية فتمت

هذه القوة الاخيرة بعد استحكام جمهوريتها وانتظام جنديتها فقامت الحرب على
 ساقيها من سنة ٣٩٥ الى سنة ٣٥٠ ومن سنة ٣٤٣ الى سنة ٢٦٧ قبل الميلاد فخضع
 لها السمينتيون واستولت على بلاد الوسط والجنوب من ايطالية ثم انصرفت الى محاربة
 الغالين على ارضهم المسماة بغالة السيلبية فصبروا لها من سنة ٢٢١ الى سنة ٢٧٣
 ثم وهنت قواهم فاستولى الرومان على بلادهم الا نواحي قليلة منها وصارت جمهوريتهم
 اعظم قوة في ذلك الاقليم بل اعظم قوة في الارض على الاطلاق بما حصل فيها من
 حب الشرف وحب الوطن وحفظ النظام العسكري فداخلها الطمع في غير ما ملكت
 من البلاد فانصرفت قوتها الى الفتوح واستولت على سردينية ووغولة اي بلاد الغوليين
 التي هي الان بلاد الفرنسيين وعلى قرطجنة وكانت بينها وبين انيبال قائد قرطجنة
 الكبير حرب ليست كالحروب واشكت ان تكسر شوكتها وتبيد سطوتها وتجعلها على
 سفار الاضمحلال ولكن ساعدتها التقادير فنجت من ذلك القائد وغلبت عليه فبلغت
 معاوفا الحرية وقتئذ نهاية الكمال . ثم اخذت هذه المزية في الضعف بعد سنة
 ١٢٥ وضعف معها سائر معاوفا الرومان وشبت بينهم الفتن الداخلية فادت الى تغيير
 الحكم فصار ملكيا وسد بارادة مجلس الشيوخ الى اكتاف فدعي اغسطس ومعناه
 الامير والامبراطور ومعناه القائد الاعظم فابتدأ اغسطس ملكه باعادة الراحة
 والامن فتم له ذلك واجتنب الحرب الا فيما اقتضاه تأمين حدود الملك الى ان مات
 عنه كاملا محفوظا فتولاه خلفاؤه من بعده الى ان مات تيودوروس عام ٣٩٥ بعد
 الميلاد فقسم شطرين امبراطورية الشرق وامبراطورية الغرب فاما امبراطورية
 الغرب فكانت منقسمة خمسة اقسام برطانيا وغالية واسبانية وايطاليا وافريقيا ثم
 قسمت هذه الاقسام اقساما واندفعت عليها قبائل البرابرة من كل صوب فتلاشت
 بعد وجودها بمائة عام واما امبراطورية الشرق فنار ينحيا بتدي بموت تيودوس
 وينتهي باستلاء العثمانيين على القسطنطينية عام ١٤٥٣ وفيه خمسة فصول الاول
 من سنة ٣٩٥ الى سنة ٥٦٥ وفيه اخذت ارمينية وسقطت امبراطورية الغرب
 والثاني من سنة ٥٦٥ الى سنة ٧١٧ وفيه توالى عليها النوايب والمصائب فتمكن
 اللبرديون من ايطاليا واستقر البلغار والصرب في جنوب الطونة واستولت العرب على
 سورية ومصر وافريقية وقبرص . والثالث من سنة ٧١٧ الى سنة ٨٦٧ وفيه ظهرت
 دولة ايزوربان ففقدت ما بقي للسلطنة من الملك في ايطالية وادخل اليها اكرام

الصور على يد سبعة من امراء تلك الدولة وتم انقسام الكنيستين الشرقية والغربية عام ٨٥٨ فكانت رومية مركز هذه والقسطنطينية مركز تلك كما هو اليوم واخذت جزيرة كريد وصقيلة وغيرها ووقعت الحروب البلغارية التي اضرت بسلطنة الشرق كثيراً والقسم الرابع من سنة ٨٦٧ الى سنة ١٠٥٦ وفيه ظهرت عليها علام السقوط اذ هاجمها البلغار والروس والبشناق على انها استعادت بلاد البلغار والصرب وقبرص مرتين ٠ والخامس من سنة ١٠٥٦ الى سنة ١٢٦٠ وفيه استولى السلاجقة على ثلثي اسية الصغرى ومر الصليبيون بها وكانوا من الساعين في تدميرها ووقعت حرب النورمانيين فاستلوا على صقيلة ثم مات كمنيتوس الاخير فازدادت المملكة ضعفاً فاستقل عنها الصرب والبلغار وعادت الصليبية الرابعة من القدس الى القسطنطينية فامتلكتها فصار عاصمة مملكة لاتينية ثم نازلها الامبراطور ميخائيل باليوغوس فاستردها لنفسه وبذل الجهود في اعادة المجد لهذا الملك وتلاه ولده من بعده ولكن تعذر عليهم الامر اذ تايد استقلال البلغار والصرب والبشناق واستولى الترك على سائر بلاد المملكة فاخذ امبراطور القسطنطينية في استنجد ملوك الغرب وواعدهم بالعدول عن المذهب الشرقي فلم ينجدوه وعظم هذا الامر على رؤساء الدين في المدينة فكانوا اعواناً للعثمانيين على الامبراطور ثم فتح الترك بلاد البلغار وقتلوا الصرب وتم لهم فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الثاني وهي الى الان عاصمة دولتهم واسمها اسلامبول او الاستانة او دار السعادة

المقابلة

ليس بالامر اليسير محاولة المقابلة بين هاتين الامتين العظيمتين فقد امتلأت باخبارها صحف التاريخ وحارت في آثارها افهام الناقدین واختلقت احوالها وعاداتها كما اختلقت آثارها والمنافع الناشئة عنها حتى كادت الموازنة بينهما تمنع لولا ان يكون الغرض منها محدوداً قاصراً على ما نشأ عن كل من الامتين من النفع الانساني فاذا تبين هذا وعلمنا ان اليونان خرجوا من الحالة الهمجية الى حالة العرفان والتقدم من عام ١٩٠٠ ق م وان الرومان لم يخرجوا الى هذه الحالة الا بعد ذلك بالف ومائتي عام قلنا

ولكن بكت قبلي فبيح لي البكا بكاه وان الفضل للتقدم
وعلمنا ان اولئك جدوا باكتشاف البلاد المجهولة واستعمار الاماكن المهجورة

وتوسيع نطاق الاسفار في البحار ونشر آثار التمدن بين المتوحشين وفي جملتهم اصحاب دولة الرومان وان هولاء لم يزيدوا على اقامة الحروب واضرام الفتن وفتح البلاد واذلال الشعوب طمعاً ورغبة في الملك فلنا

من اصالح الامر هو السيد لا يستوي المصلح والمفسد

وان اولئك هم الذين ضربت بحكمتهم وعلومهم امثال المتقدمين والمتأخرين وبقيت آثار علمائهم على كرور الايام والاعصار فائدة للتبصرين وهم اهل الفلسفة غير معارضين ومنشئو الطب غير منازعين ومخترعو فن الروايات غير مسابقين وموجدو صناعة التاريخ غير مسبوقين ومنهم رجال الاهوال وعطاء الابطال واكابر الخطباء واعاظم الحكماء وفحول الشعراء وهم الذين رفعوا في الارض الوية التمدن ونكسوا فيه اعلام الجبل وان هولاء وان ظهر فيهم الخطباء والعلماء وكثر منهم الامراء والشعراء وبلغوا من التمدن غاية قاصية ووصلوا من العلوم مكانة عالية الا انهم في معظم ذلك مقلدون وفي كثير منه لاهواء النفوس تابعون فلنا

بين المقلد والمقلد نسبة تحكي التي بين التكل والتكل

نعم ان الرومان قد نشروا انوار العرفان في كثير من جهات الارض وهذبوا الفنون والصناعات والشعر والخطابة احسن تهذيب وان منهم فرجيل المدني لوميروس وشيشرون المضارع لدمستين وغيرها ممن اتضن بمثلهم الايام ولكنهم مع ذلك لاحقون لليونان غير سابقين في شيء من تلك المحاسن فالفضل الاكبر لاسانذتهم على كل حال

اما اساليب الحرب واحكام العسكرية الممدودة من بدائع الحرب فلم يكن اليونان من قبلهم ذاهلين عنها على تقدير ان تكون من المنافع الانسانية كيف وفي اليونان امثال القائد اباميندس الكبير

وجملة القول ان اليونان والرومان من بعدهم امتان تجارتا في مضمار المجد والسؤدد وتبارتا في مجال العز والنجاح وكانت كل منهما مظهراً للفنون البهية والعلوم السمية والتمدن الانساني حتى امتلأت صحف التواريخ باخبارها وتزينت بقاع الارض المعروفة بآثارها وما برحت علماءها اسانذة العالم وحكامؤها ادلا الانسانية اعواماً تليها اعوام وهم في المنزلة الاولى من الفضل الى هذه الايام غير ان الامة الاولى كانت الى غايات الفضل اسبق وفي نسب المدنية والمعارف اعرق فالقول الحق انها

الحرب

« لفرنسيس مراثي الحلبي »

خربت الارض خرابا . وانقلبت الجماعة انقلابا . لان الحرب انتشبت . والفننة
انتصبت . فنباعدت الشعوب . وتنافرت القلوب . وخيم سحاب البغض . واكفهر محيا
الارض . حتى اذا ما كثرت مضارب السيوف . وتطنبت مضارب الختوف جرت
الدماء كالجوارى . وتصورت الناس كالضواري . فهبطت جواشن النظام . وانتقلت
شواجن الانضمام . وانتلت عروش الصنائع . وانسدت مسالك البضائع . وسقطت
التجارة . وانقطعت الاجارة . وتقوضت البلاد . وانجزر الامداد . وذهب الجار
يعوث بالجار . والمزار يشط عن المزار . وراح كل يزيع في وعث البلى . ويروغ في
وعكة القلى . فما هذا الدثار العام . والدمار التام . انما هو الحرب والظعن والضرب .
حيثما الفيالق تحمل على الفيالق . والبنادق تسطوعى البنادق . والكتائب تجاذب
الكتائب . والركائب تغور على الركائب . والقنابل تصادم القنابل . والدواب
تستميل الدواب . فتتكسر السنابك على السنابك . وتلتطم المسابك في المسابك . اذ
تلعلع المدافع باهوالها . وتهال الارض فتزلزل زلزالها . بينما تنجف القمام . وتتطاير
الجماجم . وتساقت الهياكل المتحركة . وتهدم المباني المدركة . يوم يصفر البحر
بالامواج . وتلفظ الاودية بالجرجاج . ويلبس الجو جلاب القمام وتغور السماء
في حجاب الظلام . ترقد عيون الدراري . وتدلهم وجوه الثراري . فظلمات بعضها
فوق بعض . وبلايل تبليل السماء مع الارض . فما ذلك من شان الصواب . وما
هو الارجسة الخراب . ووقوع العذاب والمصاب . فكيف تنزل البشر منازل البهائم
العارية . ويفعل الانسان فعل الوحوش الضارية . اذ ينثر عقد شمله . ويفرق
مجامع جملة . شاهراً حسام القراع . وساهراً باعين النزاع . على عزيمة الصراع . ليختلس
جيرانه . ويقتبس اقرانه . محرصاً من عدو الطمع الالاد . ووساوس الحسد
الاشد . يستزيد ذاته بنقص الغير . وينسج خيره بنقض الخير . ولذلك لا يفتر
مستغلاً بتتيمم العدد . وتكثير العدد . فسوف ينجم النقصان عن التمام . ويستقر

الوجود من الاعدام . والحسام يظل الحسام . فالضرب يقلب الضرب . والحرب
تقلب الحرب



السلام

« له ايضاً »

ولما وقعت دول الحروب . وسكنت حركات الشعوب . تبسم ثغر السلم عن
شنب الهدو . وطافت كؤوس البشرى على الاصال والغدو . واسفرت الارض
عن محيا الابتسام . فاغتمت الناس في بشائر الامن والسلام . حتى اتسخت البوادي
بجلايب التهاني . وامتصت الصوادي انايب الاماني . وعاد الوري ينضم الى الوري .
والقوم يحمدون السرى . وازدهت البلاد . وازدهرت العباد . وتمكنت مباني الاعمال .
وتوطدت مغاني الاشغال . وبذخت قصور العمار . واستقرت متون القرار . وانتظمت
سلوك الوفاق . وانقصت عرى الشقاق . فخرس الفم الفاجر وانكسر الذراع الكاسر .
واقبر الطبع القاهر . حتى نام الطرف السهود . وطاب الفؤاد المقوود . ونعم عوف
الجبان . وامن خوف الزمان . وفك الغنى طلاسم كوزه . واخذ الذهب ببروزه .
فرت الاغاني في المغاني وغنت الاواني على الاواني . وقلص نهار الافراح ليل الاتراح .
واستظهرت الاقلام على الصفاح . فها هذه الحالة الهادية . والعيشة الراضية . انما ذلك
طلوع السلام . ووقوع الخصام . حيثما تنعم الناس . ويتبادلون الايناس آمنين على
بيوتهم . وظافرين بقوتهم . فيعيشون حسب خوفهم . يموتون حثف انوفهم . فليعش
السلم المبتغى . وليمت الحرب والوغى

خطبة

في ان الدين مقتضى الحكمة والكفر مقتضى الجهل

« لسعيد افندي الخوري الشرتوني »

القيت سنة ١٨٩١

احمد الله اليكم ايها المائلون الى الصواب حيث كان . المظاهرون للحق كيف

تقلب بكم الزمان . المكرمون للعقل برد ما يردّه البرهان . العاقبون للنفس ما لا
يجمل ذكره بلسان

وبعد فان الضمير يطالبني ان ابنه الخواطر اليوم الى مسئله هي اعظم من ان
يستطاع الاغضاء عليها . وربما استراح من اضطجع على الشوك ولا يستريح من يحسن
تصورها . ألا وهي الوهم القائم في اذهان جماعة من الخواص ان الدين والعقل ضدان
لا يجتمعان الا متى اجتمع الليل والنهار . وعدوان لا يقسمان الا متى تسلم المرء
والفار وهو الوهم الذي سطا زمناً على ابي العلاء المعري الضرير فقال
قسم الورى قسمين هذا عاقل لا دين فيه ودين لا عقل له

ويتبع الوهم ذلك ان كل دائن بدين انما هو جاهل يبحث لا حظ له من العقل .
وان اهل العلم يتظاهرون بالدين بحكم القواسر المعاشية ولولاها لجحدوه وحرّروا
انفسهم من ظلمه . وان رؤساء الدين المعروفين بالعلم انما يتظاهرون به وليسوا في
شيء منه لكن يبعثهم على ذلك حب ان يستمروا سادة الناس وحكامهم واصحاب
الكلمة النافذة في ارواحهم . ولولا تلك ما زينوا للناس الاستمسك باصوله والقيام
بفروضه حالة كونهم يرونه حباله من جد وراء التسلط على القلوب . وبعبارة اخرى
نحن معاشر اهل الدين في نظر الواهمين عوامنا جهلة كالبييمة العجماء ورؤساؤنا
وعلاؤنا زنادقة . هذه نتيجة هذا الوهم الذي كان اول قدومه الينا على يد بعض دعاة
البدع ثم افشاه عبيد الشهوات الملقبون انفسهم برجال الحرية حتى صار يتكلم به
اليوم على وجه المفخرة بعد اذ كان يستحي من ذكره

وقد اندس هذا الوهم في كثير من الشبان واعظم داس له امران احدهما معاشره
المصابين به المضروبين بقروحه . وهؤلاء يتذرعون الى القاء بذوره في اذهان
الشبان مرة بالقدح في اصول دينية يخرجونه مخرج الهزل الذي يراد به الجدل
ليجتنوا من روض البديع عذراً لم اذا كان ثم من ينكر عليهم كلامهم . ومرة بتزيين
الاجابة للدواعي اللذات البدنية لمن اكبر همهم قضاء اوطارهم منها . وكلاهما من
اسهل الطرق التي تدب فيها آفات العقائد والفضائل الى القلوب . والثاني مطالعة
المكتوبات التي دس فيها من المطاعن والشبه ما يجير الوهن الى عقائد العوام . وذلك
لضعفهم عن ردها وبيان وجوه الفساد فيها . والمتعلمون لعهدنا جلمهم او كلهم خالو
الاذهان من علم العقائد وحكم الشرائع وتواريخ الاديان ومقتضيات العمران حتى

انها لتدخل على اذهانهم الشبه بصور الحقائق المنزلة

واذا علمت ذلك كان اول واجب علينا نحن المتشرفين بسمة الدين ان ننبري لدفع هذا الوهم . ونلطح بعار الجهل جباه اهلنا . ونخلع ثوب الرئاء والزندقة على ذويه فعل من يقتات عليه وهو حي ناطق فاقول ان القائلين بالدين هم اهل الحكمة والعلم والصدق ولامانة . واما الذين قالوا ان الدين ظلم للعقل فهم الجهلة الاغرار الذين تبرأت منهم الحكمة واليك اثبات ذلك بخمسة مناهج

المنهج الاول ان عمار الارض من الادميين لا بد لهم من اخلاط بعضهم ببعض وذلك بحكم الحاجة ولا يتسنى لهم هذا الاخلاط على وجه الراحة والطأينة الأمتى كان مطالباً من قبل نفسه ان لا يخون ولا يغدر ولا يمكر . ووفقاً انه ايان غدر او مكر تعس جدّه في امر اخراه . وصار مغضوباً عليه عند من لا تتخفى عليه خافية . ولا يكون الناس في هذه الحال الا وهم على دين يحرم الضرّ وبأمر بالنفع ويشيب على الحسنات ويعاقب على السيئات . وعلى رأي هولاء الواهمين لا يكون للانسان مطالب داخلي يطالبه بالتزام الصدق والوفاء والمحافظة على حياة القريب فيضطرب المجموع البشري وتخلل شوؤونه . وليس اضطرابه واختلال شوؤونه بالامر اليسير . واذا ذكرتم ما نالكم من ايجاس الخوف عند اقشار خبر الوباء منذ قليل علمتم ما يكون عن اضطراب المجتمع الانساني هذا في جانب الناس . واما في جانب الله فهو غضاضة على حكمته والتواء في تدبيره وحاشا له من ذلك . وان قيل ان كثيراً من قوما من الدين والاحوال منتظمة قلت ان السائد حتى الساعة انما هو الدين . وبآثاره الحسنة يتمتع بالاطمئنان اولئك الذين كذبوا به وحاولوا استئصاله من قلوب معتقديه . على ان كثرة الكفار قد اوقعت اثرًا غير محمود في الالفة الا وكل يشعر اليوم بان طأينة الخلق قد اعتلت بانتشار ما انتشر من مبادئ المعطلة . وعاد الناس في عناء من تفشي الخيانة في المعاملات . الا قولوا لي ناشدتم الله ان يتخذ وقاية لحياته واموره هو الجاهل ام من يعرض حياته للقتل وامواله للسلب فلا شك ان الثاني هو الجاهل الاعمى والاول هو الحكيم البصير

المنهج الثاني ان الرسل الذين جولو الارض ونثروا حب العقائد في الصدور لو كانوا يعرفون ان هذا الدين اكذوبة ما اقتحموا الخروج من مشارب قبائلهم ولا جافوا اذواق اقوامهم . ولا فروا مما كانوا عليه الى الفقر ومناهدة الناس واثارة

سخط الملوك والاقدام على بذل النفوس . ومن البديهي ان الحامل لهم على الخروج عن كل خير دينوي انما هو حب الحق الذي رأوا ان لا سعادة للانسان في دار البقاء الا باتباع سنته فمن اين يكون هؤلاء خداعين مكارين . فدعوى الواهمين اذا لا يليق ان يرتفع لها حجاب السمع . ولا جرم ان قبولها من اشد ما يحققر به العقل المنهج الثالث ان التعطيل على تقادم عهده وجدّه ذويه الى ان يقرروا لمبادئه السيادة في الخلق لم يخبرنا تاريخ من التواريخ انه كان في عصر من الاعصار الخطة المتبعة في مملكة من الممالك مع ان الوثنية على علائها قد سادت ولم تنزل حتى اليوم ديانة عدد كبير من الناس . نعم نقل الرواة ان التعطيل كان يستوي في بعض الازمنة كما تستوي الامراض فيجرف عقائد الذين يأمنون به جرف السيول ثم لا يلبث ان تنكسر عاديته وتخمّد ناره . اما الدين فقد ساد من لدن تالفت الجمعية الانسانية الى يومنا هذا ولن يبرح سائداً يدّ الدهر . والحاصل ان حلاوة ثمرة الدين هي التي سودته واعلت في عيون القلاء مرتبته . ومرارة الكفر هي التي تسببت في ركود ربحه والجات اهله في كل عصر الى التستر برداء الدين والاستذراء بظل الايمان

المنهج الرابع ان الحرية التي كانت شعار دعاة الدين وزعمائه واتباعه والشجاعة التي اظهروها بين يدي من كان يخبرهم بين القتل والردة ومجاهرتهم باختيار القتل على الردّة واستحباب الدين مع المذلة والمتربة على الترف وسعة العيش في ظل التعطيل . كل ذلك يثبت للدين اجمل صورة واعلى قيمة عند اولي الالباب . بل كل ذلك جواب مسكت مخجل لمن يرمي عوامنا بالجهل وعلماؤنا وروساءنا بالرياء . قل لي هداك الله هل يجتمع الحرية والرثاء بل هل يأتلف الجود بالنفس في اعزاز الدين مع الزندقة

فياليت شعري لو قدر ان ملكاً وثنياً اراد كافرّاً على الوثنية فقال له انت بين اثنتين اما ان تعبد الوثن وتعيش واما ان لا تعبده وتقتل آكل يمد عنقه للقتل كما فعل آباؤنا الاولون . كلا بل كان يقول آمنت بالوثن وصدقت ويدخل في الوثنية طائفاً . وهو الصواب بحسب قاعدة التعطيل لانه لا يسخط الها بعبده ولا يخاف على ثواب يرتجيه ولكنه يصير كاذباً بدعواه انه انما يفعل عن تلقين العقل وانما يجري على حكم البحث فما ثبت به يكون مقبولاً عنده . وقد صح بعد البحث ان عبادة

غير الله مرفوضة بحكم العقل فلماذا خالفها ان كان ينقاد لاحكام العقل . وكفى بهذا
 للعاقل دليلاً على تعالية المعطلة فما من حكيم بخلصهم من التناقض بين دعوى الحرية
 والتلبس بالدين

المنهج الخامس ان انوار العلم انما برزت في الغالب من رجال الدين فهم الذين
 تولوا تعليم الناس وارشادهم وعنهم اخذت المعارف والعلوم وقد نبغ عالم من المتدينين
 وبلغوا شأواً من العلم قصرت عنه جياذ الازهان . وقد تسهل لبعضهم اسباب
 المروق من الدين فما فعلوا بل ثبتوا وكتبوا ما هو صريح بان الدين هو مصدر المدنية
 وحياة الانسانية . فلوان العلم يبطل الدين ما كان روساء الدين يبنون المدارس
 وينشرون المعارف ولو ان العلماء الذين ترقى بهم علومهم الى مراتب عالية من الفهم
 وصفت نفوسهم من اكدار المطامع والشهوات لو انهم يرون الدين اكدوبة لارتدوا
 عنه وجاهروا بمقاومته . الا وان حالم حال من ينصف عقله ولا يظلم حسه . فهذه
 خمسة مناهج كل منها ينتهي بك ان نهجه الى الاقتناع بان الديانة ثمرة الحكمة والكفر
 ثمرة الجهل والشهوات والمطامع

ثم انكم تعلمون ان في هذا العصر جمعيات كثيرة بعضها مرفوض المبادئ
 في مذهبنا كما هو معلوم لكل احد وقد صدرت المناشير البابوية بانشاء اخويات
 ينضم فيها الشبان الكاثوليكيون ويتعاونون على تايد الفضائل والآداب واحياء
 مكارم الاخلاق وكل ما هو ضروري لانتظام الجمعية الانسانية وتوثيق دعائم الملك
 حتى تكون لهم سيرة حسنة تقرب اليهم من كان بعيداً عنهم ولغاية تهذيب
 الاخلاق وتصفية النفوس انشئت هذه الاخوية . والامل معقود بانها تصل الى ما
 تريد من تهذيب السيرة بعناية غبطة السيد السند بوخنا بطرس البطريرك الانطاكي
 والسيد الفضال المطران يوسف الدبس مطران بيروت وسائر مطارنة الطائفة
 الاجلاء وكنتها الفضلاء ووجهائها العقلاء وكل من يعلم ان تحسين الهيئة الاجتماعية
 تابع لتحسين الاخلاق حتى تكون في جملة مخلصات الحضارة في ديارنا من علل
 التعطيل والسلام

الاقتصاد

« لعيسى افندي اسكندر معلوف »

(مقالة ادرجت في جريدة لبنان الغراء سنة ١٨٩٢)

بين تبذير وبخل رتبة وكلا هذين ان زاد قتل

الاقتصاد وما ادراك ما الاقتصاد هو في النفقة التوسط بين الاسراف والتقتير وفي غيرها التوسط بين امرين الافراط والتفريط فيهما مضر للغاية فلذلك لم نزل حده احسن من قول ابن الوردي الذي صدرنا مقالتنا هذه به

وقبل ان نطلق عنان القلم في مضمار البحث عن هذا الامر المهم يجب ان ننظر اليه من حيث الانواع فنقول

الاقتصاد انواع عديدة منها الاقتصاد السياسي وهو عبارة عن معرفة الوسائل التي بها تنمو اغراس الثروة في حقول السعة والهناء وتخفيف ما يهدد الامم من الكوارث

والوفتي وهو ان يوفر الانسان وقته ولا يدع فرصة تمر سدى حتى لا يذهب شيء من عمره طلقاً وقد قال احد الحكماء (الصناعة طوييلة والعمر قصير) وقال الشاعر اذا مر بي يوم ولم اكتسب يدًا ولم استفد علماً فما ذاك من عمري وله علاقة ذات شان بالاقتصاد المالي

والكلامي وهو الاقتصاد على ما يفيد منه اذا كان الاكثار مضرًا كقول الاخر الصمت زين والسكوت سلامة فاذا نطقت فلا تكن مكثارا ما ان ندمت على سكوتي مرة ولقد ندمت على الكلام مرارا والمالي وهو ما اتخذناه دستوراً الان ففيض فيه الكلام على قدر الاستطاعة الى غير ذلك مما يكون الافراط فيه او الاقلال منه مجلبة للاضرار على حد قول القائل فرط التناهي غلط خير الامور الوسط

ولنلم الان بذكر القسم الاخير منها وهو ما يحذو بنا داعي الشوق الى توجيه النظر اليه لاهميته

الاقتصاد المالي هو سبب ذو شأن من الاسباب التي تسني الانسان ان يعيش

عيشة معتدلة في الهناء والغبطة . ولطالما شغل عقول كثير من الامم الخالية ويشغل
الان وسيشغل فهو والحق يقال الركن الذي تبنى عليه صروح الغنى والاس الذي
تشيد عليه ابنية السعة بل الوند الذي تشد فيه اطناب الراحة فتمتد عليه سرادق المنجاح
والفلاح كيف لا وهو الاعتدال بين التبذير والبخل وله من الاهمية ما تضيق دون
سرده صدور الطروس وتقل عند رفته ظبي الاقلام ولكننا نورد الان من فوائده
وشلاً من بحر ونسرد عليك من منافعه ثمداً من قطر

يبحث الاوربيون في المجهري ليعلموا طبائع ميكروب يتهدد الانسان اي تهديد
ويمزق جلايب غبطته اي ممزق فهو سيل يجرف ركام الثروة الى وهدية تلتمهما
وبركان يدك طود السعة لما يشتعل في داخله من نيران الاسراف وينبعث من
حمم التبذير فيذيه ويذهب به كل مذهب بل يفرق اجزائه طرائق
وبعد التحري وجدوا ان ذلك الميكروب لا يقتله من الادوية الفعالة سوى
دواء مهما تجرمت السنون وانقرط عقد الايام اذ ليس لحمارة القيظ والنار من تاثير
فيه ولا لسبارة الشتاء والبرد من فعل فهو بالحقيقة العدو الاصفر

وذلك المرض هو عدم الانتظام في امر المعيشة فمن الناس من يبذر ويسرف
جزافاً ومنهم من يحرص ويشدد حرصه على غير جدوى وكلا الامرين يؤثران في
المجتمع الانساني واشد تاثيرها في من ابتلي بها وانقضت عليه صواعقها وذلك
الدواء هو الاقتصاد الذي لا يصلح ذلك الداء الا به ولا يقتل ذلك الميكروب غيره
من الادوية الفعالة

فعمدوا لجنات خصوصية تلافياً للامر ولما للشعث خففوا بعض البلاء اذ اخذوا
يعلمون الناس ان ينظروا في دخلهم وخرجهم . ثم عرفوا معدل ما يصرف كل انسان
وما ارى عليه مما كان في نيته ان يبذله وراء مطامع لا طائل تحتها يجمعونه في
صندوق فلا يمر زمن حتى يصير ذلك النزر القليل وفرّاً لا سيما والانسان مرهون
لاحكام القضاء فقد يلتم به مرض يقعده عن اكتساب معيشته فيجد من الاقتصاد
سداً لعوزه ولعمري انهم اجادوا كل الاجادة بتهديدهم الطرق لهذا الامر . وقد فتحوا
مدارس عديدة لتعليم المرء (قبل ان يدخل في مدرسة العالم الكبرى) كيف يجب
ان يتصرف بثروته ان كان متمولاً وبداخله ان كان صانعاً الخ
ومعلوم ما ينفق من التبغ والتبناك في بلادنا مما يذهب جزافاً ولا يجدي نفعاً

وقد قدر بعضهم كما ذكرت النشرة الاسبوعية الغراء ان نحو ثلاثين الفا من اهل بيروت يشربون الدخان ومعدل ما يشرب احدهم في اليوم مقدار غرشين ونصف وشارب التبك نحو غرش واحد فالمدل ١٤ واذا ضرب هذا في ٣٠٠٠٠ = ٥٢٥٠٠٠ غرش او نحو ٥٢٥ ليرة في اليوم فتكون قيمة ما ينفق في السنة ٨٢١٢٥ ليرة واذا حسبنا سكان بيروت واحداً من ٢٥ من سكان كل سورية كان ثمن ما ينفق من الدخان فيها كل سنة ٢٠٥٣١٢٥ ليرة فالسوريون يتلفون من اموالهم بالدخان اكثر مما يتلفه الصينيون بالافيون وقيمة ما يتلفه اولئك كل سنة (٤٠٠٠٠٠٠٠) ليرة وسكان سورية نحو جزء من مئتي جزء من سكان الصين وقال احد الظرفا عندما وقف على ذلك

ما من هواء اصفر مثل الهواء الاسود

فضلاً عما يستهلك فيها من الاموال الطائلة على المشروبات والتائق وغير ذلك من اسباب الرفاه التي لا داعي لها للاكثرين وانما التشبه والتقليد قد سريا في مفاصلنا كالدم فاستنزفا اموالنا وقتنا باحوالنا
 واشد ما تحتاج كل بلاد الى اصلاح هذا الخرق قبل ان يتسع وزيادة للفائدة
 نضرب لذلك مثلاً بسيطاً فنقول

لو فرضنا ان صانعاً يدخل يومياً خمسة غروش ويقتضي له من الخرج ثلاثة غروش ينفقها على عياله فاذا لم يتدبر امره اين يذهب الباني من دخله الذي هو غرشان كل يوم؟ لا شك انه يصرف ذينك الغرشين على اشياء كان في غنى عنها ومتى تعود على ذلك يصير فيه ملكة يد الدهر ولكن لو وفر ذينك الغرشين لوجدها بعد سنة سبعمائة غرش ونيقاً وبعد عشر سنين سبعة الاف وتزيد وهكذا فانه لا يشعر بما ينفقه يومياً من القليل الذي لا يمضي عليه بضع سنوات حتى يصير وفراً فتأمل

هذا واذا انتقدنا الامر بعين بصيرة نجد ان اقل صنعة يتخذها الانسان يقدر ان يدخل منها اضعاف هذه القيمة وباقتصاده بما يربو على خرجه يتمتع بثروة بعد سنين ليست بالنزر القليل

فيا من قد رزق من لدن العناية الالهية سعة العيش واوتمن على جميع المخلوقات فتستخدم بعضها للقيام باعباء اشغالك والبعض الاخر لقوتك وتزرع الارض

وتشتغل الادوات وتبيع هذا وتشترى ذاك وانت تزرع الفلوات وتضرب في الارض
لتحصل على ما يسد رمقك فبعيتك من وراء المصاعب لماذا تبالغ في الاسراف
الذي هو التهلكة بل الصاعقة التي تنقض على معادن ثروتك فتذيبها كذوبان الشمع
في النار وتسلبك الراحة وتقتنص جميع مسراتك كما قيل

وقد تهلك الانسان كثرة ماله كما يذبح الطاووس من اجل ريشه

وانت ايها الانسان الآخر لماذا يشتد حرصك على دراهمك فتدفن بعضها في
الارض وتخزن البعض في مخدعك وتعيش بالتقتير ولماذا لتعبد للمال وتترك الجمل
يملك قيادك ولا تدع بارة تخرج من يدك لنفقتك ونفقة عيالك فتذوق الامرين
جوعاً اما سمعت قول الشاعر

يفني الجليل بجمع المال مدته وللحوادث والايام ما يدع
كدودة القز ما تبنيه يهدمها وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

اذا علمت ان خير الامور الوسط وان شدة التقتير كالاسراف والتبذير او ليس
ير لك في بال ذكر الاقتصاد وهو ان تبذل حيث تجد للبذل محلاً وتحرص حيث
تجد للحرص موضعاً . فيه تعدل ميرانية الامم فكم احيا من رفات . واقام من موات .
والرجل الحازم من تدبر امره بامعان وعرف خروجه ودخله كهذا الشاعر الذي عير
على عدم اسرافه فقال

العمرك ليس امساكي ليجل ولكن لا يفي بالخرج دخلي
وفي طبعي السماحة غير اني على قدر البساط مدت رجلي

قال الاصمعي سمعت بعض العرب يقول « من اقتصد في الغني والفقر فقد استعد
لنوائب الدهر » وقال عبدالله بن جعفر « كمال المرء في خلال ثلاث . معاشرة
اهل الرأي والفطنة . وداراة الناس بالمعاشرة الجميلة . والاقتصاد من اجل
واسراف » وقال احد الفريجية : « الناس اثنان مقتصد ومسرف . فكل ما تراه من
الصروح الشاهقة والسفن الضخمة والمامل الرحبة شيده المتبذير على عاتق المسرف
وتلك شريعة طبيعية فمن يقول لك ان التقدم يتم بالاسراف فهو خداع مباحك
فلا ينطلي عليك الخول ولا تركب متن عمياء

والاقتصاد قديم جداً لشدة اضطرار الانسان اليه في معيشته وعلاقته بالعمران
ذات شان وعندي انه اهل لان ينخرط في سلك اسباب العمران لما يتوقف

عليه من الفلاح فمن اتقنها ولم ينظر في الاقتصاد وپبل امره تذهب اتعابه ادراج
الرياح

وعلى ما يلوح لي ان الانسان قد اخذ يقشبت باهداب برده ايام اضطر الى الدخول
في المدينة والحضارة لاحتياجه بذلك الى خرج اكثر مما كان عليه سخابة ايام
طوال في البداوة كما يظهر الان من المقابلة بين البدو والحضر فان الاولين
مقتصرون على القليل من الملابس والامتعة وعلى النزر من الاطعمة وسواها فترام
لا يتعاطون امرًا مهمًا للقيام على معيشتهم بل يقومون على رعاية الماشية فيا كلون
من لحومها وتلك كافية لمعيشتهم اما الحضر فيخلاف اولئك لانهم يضطرون الى
تشبيد البيوت وتكثير الرياش وانتظام المعيشة والتائق في الاطعمة والتبرج في
الملابس والانخراط في الاجتماعات المدنية والولائم والوظائف وغيرها فكانوا من ثم اشد
احتياجًا الى اتقان اخص اسباب العمران من زراعة وصناعة وتجارة فيربحون الدرهم
لكن ثم حجرة عشرة في سبيل نجاحهم وهو انه كيف يجب ان يتصرفوا بالدرهم اذا
عرفوا طرق تحصيلها فهذا السبب الضروري حجة من عقد اسباب العمران لحقها ان
تنظم في سلك اخواتها الا وهي الاقتصاد فما الفائدة اذا اتقنا اخص اسباب العمران
واجتنتت الدرهم والثراء ثمرة منه وبذرت بعد مكابدة عرق القربة وارقة دم
القلب وعرق الجبين طلقًا الانسي بحالة يرثى لها في المجتمع الانساني بعد ذلك
التفريط لاننا لم نعلم كيف يجب ان ننفق ما ندخاه فهو لعمرى من اشد الضروريات
للانسان وبدونه يئن تحت نير الفاقة حيث ليس من يعضده وبعد ان كان قد
امتطى صهوة السعة والرخاء وارثقى الى ذروة المجد ويقاع الثراء يرجع القهقري الى
حضيض الفقر المدقع وتلك اشأم الاحوال التي نقتض على الانسان كصواعق ماحقة
بايام فلائيل جميع ما حشدت يدها بعصب الريق وقتل السنين الطوال فيقرع السن
ندمًا ولكن لات ساعة مندم

اجل ان الرجل الحازم من ابتلى الامور وسبر غورها بمسبار الحزم والفتنة
ووزن دخله وخرجه بقسطاس الاقتصاد بحيث يحفظ منزلته في المجتمع الانساني حتى
لا ينشب الجوع فيه مخالبه ولا تمركه الشدة والضيق عرك الرحي بثقلها داملاً
بقول القائل

انفق بمقدار ما استطعت ولا تسرف وعش عيش مقتصد

من كان فيما استفاد مقصدًا لم يفتر بعدها الى احد
ولا باس ان نلم الان بذكر طرف من اخبار الكرم والنجل عند العرب
جاء في كتب العرب عن اخبار الكرماء ان يحيى البرمكي كان يقول : اعط من
الدنيا وهي مقبلة فان ذلك لا ينقص منها شيئاً واعط منها وهي مدبرة فان منعك لا
يبقي عليك منها شيئاً فكان الحسن بن مهمل يتعجب من ذلك ويقول لله دره ما اطبعه
على الكرم واعمه بالدنيا . ومن ذلك ما قاله احد الشعراء في محمد بن يحيى بن خالد
وكان يوصف بالكرم

سالت الندى والجود مالي اراكما تبدلتما عزاً بذل مؤبدا
وما بال ركن المجد امسى مهدماً فقلا اصبنا باين يحيى محمد
فقلت فملاً مما بعد موته وقد كتما عبديه في كل مشهد
فقلا ائمانا كي نعزيه بفقده مسافة يوم ثم نتلوه في غد
ولنسرده عليك مثلاً آخر من قولم عن النجل والنجلاء ما رواه صاحب المستطرف
قال :

قال رجل من النجلاء لاولاده اشتروا لي ثياباً فاشتروه فامر بطبخه فلما استوى
اكله جميعه حتى لم يبق في يده الا عظمة وعيون اولاده ترمقه فقال ما اعطيت احدًا
منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف اكلها

فقال ولده الاكبر : اُشمشها يا ابي وامصها حتى لا ادع للذر فيها مقيلاً
قال لست بصاحبها

قال الاوسط : الوكها يا ابي والحسها حتى لا يدري احد لعام هي ام لعامين
قال لست بصاحبها

فقال الاصغر : يا ابي امصها ثم ادقها واسفها سقاً

قال انت صاحبها وهي لك زادك الله معرفة وحزماً

وكان دأب العرب الكرم فلذا كانوا يفتخرون به ويتناشدون الاشعار المؤذنة
بذكره وعن اشتهر به من غيرهم البرامكة ولم يزل ذكركم الى الان فيقال (فلان
برمكي) اي انه كريم يبدل الدرهم ولا ينجل به . ومن المشهورين به من العرب حاتم
الطائي وله حوادث عديدة تدل على انه كان مطبوعاً على الكرم وقد ضربت بكرمه
الامثال فيقال اجود من حاتم وكثير غيرهم لا محل لاستقصاء اخبارهم الان على اتنا

أوردنا ذلك وليس من غرضنا تبيانه زيادة للفائدة وذكرى
وهكذا فانهم كانوا يذمون في اشعارهم البخلاء لان الفريق الاكبر منهم كان
يجب الكرم ويقال في امثالهم فلان ابخل من مادر وما الطف قول الوراق
بجيلة

ومبخل بالمال قلت لعله يندي وظني فيه خاف مخلف
جمع الدراهم ليس جمع سلامة فاجابني لكنه لا بصرف
ومن ذلك قول احدهم

لو ان دارك انبت لك واحششت ابراً يضيق بها فناء المنزل
واناك يوسف يستعيرك ابرةً ليخيط قد قميصه لم تفعل
الى غير ذلك مما يذهب الوقت في سرده سدى وبالقليل غنى عن الكثير
واما الكلام عن الاقتصاد في كتبهم فاليك نبذة منه من وصية ابن طاهر لابنه
قال «وعليك بالاقتصاد في الامور كلها فليس شيء ابين نفعاً ولا اخص اماناً ولا
اجمع فضلاً منه والقصد داعية الى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد
الى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد . . . وآثره في دنياك كلها . . .
نأته واقتد به ثم امورك وتزبد مقدرتك وتصلح خاصتك وعامتك» فانظر كم
اطلب بفوائد الاقتصاد وشدد على ابنه التكبر باتباعه والسير على جادته حتى يامن
العثار

والاقتصاد جدير بكل اطراء لما يمهّد للانسان من السبل ويجعله على تدبير كل
امر والدخول اليه من بابه قال ابو الطيب المتنبّي واجاد
فوضع الندى في موضع السيف بالعلی مفرّ كوضع السيف في موضع الندى
فيه يشد ازر السعة ويرتع الانسان في بحاج السراء ويتنزه في رياض اريضة
من السعة والرخاء فلا تمس نعماء يد الفاقة ولا يلج به داء الفقر العياء الذي يجلبه
التقتير او الاسراف

ونصارى الكلام ان الانسان وجد بعقل كامل وقوى وحواس ليختبر كل الاشياء
فما يحلو بحواسه يقبل عليه وما هو مرّ يعرض عنه فكما يمج ذوقه الاشياء الرديئة الطعم
وينبو سمعه من الاصوات القوية ولا تقبل معاطفه الروائح المنتنة ولا تستطيع نواظره
الاحداق بالاشياء السجبة الخيفة فكذا يجب ان يتدبر بعقله امري التقتير والاسراف

فما استكبره منها يتجنبه وما حسن يستعمله ليس في النفقة فقط بل في كل ما يجد
 الاطراف فيه او الاقلال منه مضرًا ورحم الله شاعرنا بقوله
 فضول المال ذاهبة جزافًا كماء صب في كأس دهاق
 وقوله ايضاً

من عاش بالتقدير من ذوي الغنى فانه افقر من فوق الثرى
 ويجدر بنا الآن ان نمسك عنان القلم عند هذا القدر فان الموضوع ذو شان
 ويد المقدرة قصيرة عن الخوض في عيابه مختتمين بهذه الايات
 توسط بين تبذير وبخل ولا تسرف بما تلقاه تزا
 فان النزر يمسي بعد حين اذا لم يمين بالاسراف وفرا
 وان الوفير في الدنيا ببخل وتقتير يريك اليسر عسرا
 وكن في حالة تزداد فيها لدى الاقوام مرتبة وفدرا
 وخير الناس مقتصد لبيب تفرد في الملا بجنًا وخبرا
 وكن في كل امر ذا اعتدال فرب حلاوة توديك ضرًا
 فما من باخل احياء مال وما من مسرف يعتز دها

حياة البلاد

في الكد والاجتهاد

« له ايضاً »

مقالة ادرجت في جريدة لبنان الغراء سنة ١٨٩١

من انعم النظر في احوال العالم منذ ضربت القبة الخضراء . ومشى ادم على
 بساط الغبراء . مستقرياً العصور الخالية التي مرت على الكون بتلوناتها العديدة مع ما
 تهدد بني آدم من الكوارث والبوائق واراقة الدماء التي قضت عليهم مرة بالدمار
 والدثار واخرى بانقلاب حالهم من ترف الى شظف فامات همهم وسلبتهم رغيده
 العيش حتى اصبحوا في كل واد من المشقة يهيمون وآونة بافالة عثرتهم واطلاق
 مراحمهم من مبحن الغائة والقنوط الى صرح المجد الرفيع فلكوا ناصية العمادة ودارت

حركة دولاب سمهم واجتهادهم حتى تدفقت عليهم سيول الثراء من سحب الكد
والجد وامتد حولم رواق العز فانلمت اعناقهم ملتوية طرباً فاكلوا وشربوا هنيئاً
مريئاً رأى الزمان يتعاوره ضدان رقدة وهبة ويتعائب عليه شيثان نومة ووثبة الى
ما شاء الله

فهذه بلادنا عموماً مهد البشرية بل مجدها القديم كم انتقلت من حال الى حال
وكم تنازعها عوامل الرفع والخفض في كل ابن وان . كانت ارياف البحر المتوسط
يوماً ما أهلة بالفينيقيين الذين اشتهر امرهم اشتهار اشمس في رائة النهار وبعد
صيتهم في الخاقين حتى ترنمت اعطاف تلك العصور لمجدهم ومنعتهم وابتمت ثغور
المدن فاطبة لعزتهم وعظمتهم وشارت اليهم الامم والشعوب بالانامل

هذه صور ام المدن الذائعة الصيت في ذلك العهد كانت فرضتهم ومعين غنাম
ومحط رحال الامم المتقاطرة من كل فج وصوب لشد او اخي الاخاء معهم رجاء ان
يسلبوهم الصنائع العجيبة ويشاطروهم الارباح العظيمة

قيل هم ابتدعوا صنعة الزجاج ولم فيها القدم القارعة . وصيغ الارجوان الذي
عز نظيره بل هم الذين عثروا على خبايا المعادن التي كان من سلف يدوسها بارجله
آناً انين الشكلى من ضيق ذات يده متضاغياً تضاغي الجياح مما الم به . ونظراً لتوسيع
نطاق تجارتهم في اقطار المعمور لم يمكوا عنان عزهم عند ذلك القدر بل طفقوا
يمشون عن المعادن في غير بلادهم فتغلغلوا في الاقطار وجابوا التفار ومخرت جوارهم
المنشآت (السفن) في عباب اليم الزاخر حتى القوا عصا الترحال بين وهاد وجبال في
معلات عديدة واخذوا يستخرجون من التراب تبرا . واذا اندوا ما اندوه انقلبوا
راجعين على الطائر الميمون بغنائم وافرة وآمال زاهرة وهكذا كانوا لا يدخرون وسماً
في التنقيب والتنقيب فاستنب لم الراحة النامة والخير العاجل حتى اذا نزلوا بطون
الثرى خلفوا لنا الاثار العجيبة التي بعضها مطوي عن الابصار والبعض منشور للعيان
كأنها تقول بلسانهم

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

ثم اذا خطونا خطوة قليلة مقربين البحث عن احوال اخلافهم من بعدهم وجدنا
الدهر قد قلب لم ظهر المجن فولتهم السعادة اذ نابها وتبدلت السراء بالضراء والنعمى
بالبؤسى وما ذلك الا شاهد عيان على ان

الدهر لا يبقى على حالة لا بد ما يقبل او يدبر
 لكن ذلك الانحطاط لم تثبت قدمه طويلاً بل شق العسا فعبه انعاش
 الاروح وحياة التوفيق بالتشمير عن ساعد الجد والاجتهاد والسباق في حلبة النجاح
 حيث ظهرت النتيجة التي من ورائها جرم مغنم للبلاد . ووجدان معين ثروة لا
 ينضب للقيف العباد

وهكذا تجرمت السنون والاجيال بين عزي وذلي وغنى وفقير وضحك وبكاء حتى
 اوشكنا ان ندخل بقرنا الحاضر الذي يجب ان نرمقه بعين قسطاس الحكمة
 والسداد نابذين الاغراض وضاربين صفحاً عن الميل الوطني اظهاراً لحقيقة الحال
 والحق من وراء ذلك

ليس من الحسن ان نقول ان قرنا الحاضر كانت باوائله اسباب العلوم موفورة
 واثار المعارف دانية القطوف بل بالعكس (وان كان قد اشتغل بعض افراد بلادنا
 بالعلم واحرزوا خصل سبق ونبغوا فيه والقوا كتباً تنافس تشهد لهم بطول الباع
 وذكاء القرينة وحصافة العقل) ثم من مضي ثلاثين سنة او اكثر اخذ شذا العلم
 يعطر ارجاء سورية ولبنان حتى اذا قابله اريجها العطر وعرف ازاهيرها الطيب
 اتلفا فرغ في رباها ضارباً اطنايه في كل انحاءهما ومن ثم شرعت اراس العلوم
 تنمو شيئاً فشيئاً

فاطلقت اعنة الاقلام بجلبة المهارق وابشمت هذه بيكاه تلك واتشرت اعلام
 الفنون على كل اكمة وراية

فديجت الكتب بينات افكار ابكار وزفت لكل طالب علم رادب وانتظمت
 عقود الجمان بقلائد العقيان وازهرت حدائق الفضل فصار الخريف ربيعاً والجديب
 مريعاً . تلك بشرى الفلاح

فهبت الجرائد من عالم الخفاء الى عالم الوجود ناشرة عاطر النماء من طي سطورها
 مبشرة البلاد وهاتفة حي على الفلاح فما قد دفن القنوط وحيي الرجاء

هي التاريخ اليومي العام الذي ينبئك عن احوال قريبك وجارك لتخذو حذوه
 بالتطبع بلين الجانب وحسن الخلال ويرشدك الى ما يجب ان تثبت باهداب
 برده من الفوائد الجليلة والاخلاق الجميلة والمساعي الخطيرة والمآثر المبرورة وهي
 الخطيب المصقع والشاعر المقلق والتاجر المدرب والطبيب النظامي والسياسي المحنك

والكاتب التحرير والعالم الخطير والاديب الارب و الزارع المتفنن والصانع الحاذق
بل هي خادمة الدولة والوطن مخلصه التبعة وصادقة الصبغة وهي الاثر الذي يتركه
الخلف ليفتخر به السلف

فالوقت قدحضر والعلم قد انتشر فلنبادر للجد والاجتهاد في سبيل ترقى البلاد
ولو كابدنا عرق القرية اما نظرنا ان حياة البلاد في الكد والالفة والسلام . بل في
الاعتناء بتحسين اخص اسباب العمران من زراعة وصناعة وتجارة بما يمد جناح
السعة والبسطة في المعاش ونحن والحمد لله قد منحنا من القوى العقلية والاستعدادات
الادبية ما يمكننا من زيادة تحسين الاحوال لنخلف من بعدنا الآثار التي تذكر
قتشكر . وما لبنا اننا الشيخ المشتعل راسه شيباً الا مريضاً امن وسلام فقد هومت السنون
ولم يهرم اذ بقي منتصباً ازاء المخاطر التي تهددته على ممر الاعوام وكروور الايام ولم
يخن لعظائم الاحوال راساً بل دحرها وثبت يقول بلسان حاله

لمع المشيب وبعد عندي صبوة ييلي القميص وفيه عرف المنديل
هذه لمحة وددنا رقبها ليس على سبيل التنديد بل استنهاضاً لهمم الاهل
وسعيهم وراء ما يعود على الوطن بالثروة والترقي حتى تزداد اشجار الحالة الحاضرة
ازهاراً ونماء فتجلب غيوماً تندفق على اراضينا بالقناطير المنقطرة من الاصفر الزنان
(ومن جد وجد)

العلم والجهل

« لفرنسيس مراث الحابي »

كان العقل مطبوعاً على الاكتساب . وحاوياً ملكة التمييز بين الخطاء والصواب
او عزت اليه دواعي الحركات الذهنية . وبواعث الحياة البدنية . واللوازم الدينية
ان يرتب تصوراته ويهذبها ويحجم دلالتها النطقية ويؤدبها . وان يبحث في
الموجودات ويستقصيها . فيدينها اليه او يقصيها . حتى يستخدم ما طاب له
وسر . ويطرد ما خبث وضر . فيستعين بالجوامد على حيوياته . وباللاديات على
روحياته . وان يعرف الخالق من المخلوق والصانع من المصنوع . والموجد من الموجود .
معرفة الوالد من المولود . وهكذا فقد نشأ العلم . وقام الفهم . فالعلم ربحانة النفوس .

روح قدوس . به تنتشر الافكار . وتبصر الابصار . وتكشف الاسرار . وتجلب
 السرائر . وتبرز الضمائر . وتسمو العنايا . . وتصفو النوايا . وبجسده تحسن الصفات .
 وبكامله تكمّل الذوات . وهو الكنز الذي لا يفنى . والجمال الذي لا يشنى . قوة
 الكبير . سند الصغير . ذخر الفقير . فمن حازه حاز الجلال ولو كان حقيراً . والكبر
 ولو كان صغيراً . والثروة ولو كان فقيراً . والعز ولو كان اسيراً . والسطوة ولو
 كان ضعيفاً . واللفظ ولو كان كفيفاً . والعز ولو كان ذليلاً . والصحة ولو كان
 عليلاً . والقبول ولو كان رذيلاً . والدخول ولو كان دخيلاً . فيه ارتقى الانسان
 ونجح . وتجلب فلفح . واصبح اعظم الكائنات . واجود الموجودات . والخيرات اتسعت .
 والاضرار امتنعت . والنفوس غلت . والحياة حلت . والممالك شيدت . والمدائن
 تسيدت . والصنائع عمّت . والفلاحة تمت . والمتاجر انتشرت . والاطهار اندثرت .
 والطبيعة خضعت وندت . والعاصيات طاعت وعنت . والآفات غلبت . والنوائب
 سلبت . والمعاملات شاعت . والمعامل ذاعت . والسياسة صلحت . وتجمعت . والاحكام
 عدلت . وتكملت . ولم يعد للظلم مدار . ولا للجور جوار . فما العلم الا جمال الانسان .
 وكال الاذهان

اما العلم فهو لذة ثابتة للعالم وتعزية له في الام العوالم وبيننا ذلك فلا يخلو
 من النكد والثفت في القعد . على ان العالم لا يبرح متبلبل بالبال . فلق الحال .
 لا يسكت له . ولا يسكن قلبه . ولا نهج افكاره . ولا تصمت اذكاره . فقومه
 ارق . وتسكينه قلق . وراحته تعب ووصب . وجهاد ونصب . . وسروره غموم .
 وضحك وجوم . فيرى الدنيا مطارح نعاذيب . وسارح اكاذيب . فاذا اعتبرته
 لا يعتبرها . واذا عرفته ينكرها . لانه لا يحفل بكل الاشياء . ولا يعبأ بمحركات
 الاحياء . فالمراتب عنده مكارب والمناصب مغاضب . والاموال اتقال . والاحسان
 قيل وقال

اما الجهل فهو عدم العلم وافتة . وقاعدة التوحش ودعامته . وعلامته ورايته .
 وما الانسان انسان الا بالعلم . ووحش ضار بالجهل المم . فالجهل عثرة السائر . ووعكة
 الحائر . وعاء الناظر . وتيه الضائع . وغرس الناطق وصمم السامع . واينما حل
 حلت الملايح . ونزلت القبايح . وسقط الفار . ونهض العار . وسكثت صواح
 الفطن والفكر . ونطقت جوارح العي والحصر . ونكس راس المعلوم والمقبول .

وشمخ انف المجهول والمرذول . ووقع الاجدع . وتسلمح الاكتع . وسبق ذو القزل .
 واصاب ذو الشغل . واغتني الثيم . وافتقر الكريم . وهار الهدى والصواب . ووتأ
 انخطا والمعاب . وتوج راس الاسير . وثقيدت رجل الامير . على ان الجهل هو
 مصيبة الجاهل . وعطشه في المناهل . ومع ذلك فلا يبرح الجاهل صاحب الفرح . عدو
 الترح . ساكن البال . رائق الحال . مرتاح اللب . خالي القلب . يبسم مدى
 الدهر . ويقهقه في كل امر . ولا يعبأ الا بالحال . ولا يفكر الا بالحال . قتره هائماً
 بالاموال . وضارباً في وادي الامال . يتوقع المراتب ولو بعدت عنه . ويستعطف
 المناصب ولو نفرت منه . ويستحب الباغض . ويستفتح القابض . وربما تقلد السيف
 وهو الجبان وطلب الكرامة وهو المهان

الحياة واركانها الاربعة

وهي : العمل والممل والصحة والامل

« له ايضاً »

الحياة مصدرٌ يشتق منه نظام الاكوان الطبيعية . واصل تنبعث منه حركات
 الكائنات العضوية . اذ به تحفظ الجامدات نواميسها وشرائعها . وتحرس الناميات
 اشخاصها وطبائعها . فهو التناقل والتبادل للاجرام السماوية . والنمو والتغذية
 للاكوان الآلية . والحس والانتقال للخلائق الحيوانية . والاشعار والادراك للطبيعة
 الانسانية . فبالحيوة يدخل التحرك في العلاقة مع المحيطات الاجنبية . ويستبضعها
 اغراضه الحيوية . فيقدر الادراك تتسع الثقة . وبمقدار الاشعار تعظم المشقة
 ولما كان الانسان جامعاً لكل الادراك والاشعار . كان اعظم حامل لاثقال تلك
 الاثار . وهكذا تكون حياته حية عليه . ووجوده عدماً لديه . حتى اذا ما بلغ حد
 الانصرام . راي ذاته خيالاً مر في ضفت الاحلام . على فراش الاوهام . اما بناء
 حيوة الانسان . انما يتوقف على اربعة اركان . وهي العمل والممل . والصحة والامل

العمل

كل يعمل لحث راحلته . ولكل عمل على شاكلته . فلما انتقل الانسان من

الوحشية الى الانسية . ومن الطبيعية الى الادبية . اثبت له ذلك الانتقال وجوب
الاعمال . ونادته الجماعة حي على التعامل . فمن لا يؤثران يعمل لا يأكل .
فاندفع كل الى الخط في مهنته . والغوص في حرفته . فذهب يمارك الجمادات كل
كثيف . وبأشر الصنائع كل خفيف . ويمارس العلاقات كل عليل منقطع . ويتاجر
بالبضائع كل كليل مبتدع . ويستقصي الموجودات كل دقيق مخترع . وهكذا قد
انخرط الجميع في سلك الارتباط . وغرق الكل في لجج الاختباط . فكل طائر
على اجنحة الطيش . ليقطع افاق العيش . قارى البعض يشكو الكلال . والبعض
يندب الملل . وهذا يتوجع في التعب . وذاك يتفجع من الوصب . فاعين تبكي من
العسر . وافواه تضحك من اليسر . والزارعون يتمحلون بشع الجذب وعليه ياتمرون .
او ينجحون بسح الخصب فيعتبطون به . ويتطوبون والصانعون يستعظرون الطلب .
فيحمدون الشبع او يذمون السغب . والتاجرون يحشرون البضائع ويرقبون الطلائع .
ويعومون في السوق . ويفرقون في الصندوق . ويرصدون افلاك الدوائر .
ويرتدون طوالع الدفاتر . فكم اخطأت استنتهم الحفرة . ولم يصب سهمهم الثغرة

الملل

وينا يكن الانسان لاهياً عن نفسه باعماله . ومشتغلاً عن ربه باشغاله .
يدهمه شيطان الملل . ويوسوس في صدره عند كل عمل . وربما يغلب عليه هذا
الروح . حتى ينفذ ونديمه في الغبوق وفي الصبوح . وسميره في الهجر والوصال .
ورفيقه في الحل والترحال . فابنا رحل ربح امامه . وايان حل كان خيامه . وحيثما
لفت وقف قدمه . وهكذا يكون الملل الماء في المذات . وغما في المسرات . وترحاً
في الافراح . وفرحاً في الاتراح . فهو حادي الاجل وشادي الوجل . وابن
الاعمال . وابو الامال

الامل

واذ يكون الانسان ساقطاً تحت ثقل الملل . وهابطاً في وهدة الوجل . تبسط
له الامال يد اخلاص وتلقي له الاوهام حبال المناص . فيضطجع على سرير الاحلام .
ويضرب في وادي الاوهام . فيصعد بفكره من غرفة الى غرفة . وينتقل من حرفة
الى حرفة . ثم يرتقي من صغرى الى كبرى . ومن نتيجة الى اخرى . حتى يبلغ من

غناه الى غناء . ومن سناه الى سناء . ولم يزل الى ان يرى ذاته مالكا كل
الاشيا . وسلطان كافة الدنيا . وفيها يكون طائر فكره حائما في تلك الذروه . ومغردا
بهاتيك الثروه . ينقض عليه باشق البطلان . ويرجع به الى حيث كان . فيغيب
عنه كل خيال . وينتلقى دونه مرشح الامال . فكما ذهب امل . جاء امل . وكما
غنت خيبة رقص وجل . وعز الدهر وجل . وبالامال يعيش الانسان . وبالاوهام
تحيي الازهان . ولكل سن مامولات . وعلى كل مامل مقولات . اما الامل فهو
تسليه الانسان . وتعزيبته في الاحزان والحدثان . وحلاوته عند الزعاق وغناه يوم
الاملاق . ويسره في العسر . وكسبه في الخسر . وسميره وانيسه . ونديمه وجليسه .
ولا تفرط سلسلة الامل . الا في بيت الازل

الصحة

لما كان ليس بحسن ان يعيش الانسان وحده . اتخذ له امرأة تكون عونته
ورفده . فيخدمها في العيال . ويستخدمها في البعال . فالمرأة خير الاصحاب . واطيب
الاحباب . ولا تطيب الحياة الا بها . ولا يصحب السرور الا باصطحابها . وهي الشريكة
في تقويم الحياة الطبيعية . والرفيقة في تثبيت الحياة الابدية . فاذا كانت سالحة
كانت نخرة لاهلها . ونعمة لبعليها . واساسا لدارها . ومركزا لمدارها . وتمهيدا
لذويها . وتأديبا لبنيتها . وغنى في الاقلال . وراحة في البلبال . وسترا للظلمات .
وكشفا للصالحات . واذا كانت شريرة انما تكون ذلا لاهلها . ونقمة لرجلها . وزلزلة
لدارها . وزعزعا لمدارها . وشكا لذويها . وعثرة لبنيتها . وفقرا في الغناء . وغما
في المناء . وفضيحة للمعائب . ونميمة ومثالب . وهذرا ومذر . وغمزا وشذرا . وانتقالا
من وحلة الى طمس . ومن رذيلة الى دنس . فهي تناجي بارماز الميل وتناجي بالقاز
اللبل . حتى اذا ما جاشت فاجهشت . وبشت فهشت . رجعت مخادعة لمحظ بغزل
رموزا . ومخادنة بقلب يحيك نشوزا . فمفخوض ينصب شراكا . ومقصور بمد شباكا .
فتكون شر الاصحاب . واخبث الاحباب الا للباغي والطارق . واللاغي والمارق .
ومن شأن الانسان الميل الى الاصحاب . والولوع بالاصطحاب . ليتأسى في الشدة .
ويستأنس في الوحدة . على انه لا يستطيع اللبوث على الانفراد . والقرار في الامور
الشداد

فمن الاصحاب صاحب الوفي . وهذا يكاد لا يوجد لشدة ندارته فهو الموافي في

الشدائد . والموالي في العوائد . والمقرب من الابتعاد . والمنصالح في الفساد . والصالح
في الذنوب . والسامع في العيوب . والمسعف لدى الانتضاء . والمعين في روع القضاء
والثابت على كل اضطراب . والراسخ في كل انقلاب

ومنهم صاحب الفرضي وهو من يصحب لفرض متى بطل بطلت صحبته وربما
انقلب الى عدو مبين . وداء دفين . فيرتد على صاحبه بالاضرار . وبإذاعة
الاسرار . ليهتك كل ستر مسدول . ويمزق كل حجاب مسبول . فيثلب وينم .
ويقدح ويذم . حتى يكون قه مملوءاً مرارةً ولعنة . وقلبه ينقلب على ضغينة ونقمة .
فخذار حذار . وبدار بدار

وقد قيل

عدوك من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام او الشراب

وربما اعتبت الفة زوال اغراض . وقام جوهر عقب اعراض . فيتلو ذلك
صحبة جديدة . وتنشأ صداقة حميدة الى ان ينقلب القلب العديم الثبات . ويفعل
الود الكثير السبات

ومن اصحاب الاغراض يوجد المملق والمداهن . والمطرية والملاسن . والناصح
بالباطيل . والهادي بالاضاليل . والساعي بالخير على قدم الشر . والمهم بالنفع
على همم الضر . ومنهم صاحب البسيط وهو من لا يفي ولا يخون . ولا يهتك
ولا يصون . ولا يحب ولا يبغض . ولا يقبل ولا يرفض . فلا يتقاعس ولا يخفل .
ولا ينشط ولا يكسل . ويتوجه حسب البواعث . ويتحدث طبق الحوادث . فلا
تهمه حصرة ولا معايته . ولا تمضه غيبة ولا مباينه . فهو يصلح للمنادمة والمجالسة
والمفاكمة والموانسة . على انه نعم نديم مسامر . وخير جليس محاضر .

فهاك حيوة الانسان . وما فيها من الاركان . هذا عدا ما يتخللها من العاهات
والاسقام . والهوم والآلام . على ان الحيوة هي عرضة المصائب والبلايا . وغرض
المتاعب والرزايا . حتى يكاد يكون وجود اللذة في عدم الألم . وحصول النعم في
زوال النقم . وربما كان اعظم اللذات . ظليعة لهجوم الحشرات . ونذيراً يهتف
بالمضرات

خطبة

في ممثلي الامم والممالك

« لسعيد افندي الخوري الشرتوني »

(القيت سنة ١٨٩٢)

احمد الله اليكم ايها الممتازون بالانفة في مواقف الحيف والهوان . المتبرمون بسطوة المين والبهتان . ثم اقول قد سبقت لي خطب في مثل هذا المشهد نتمنزل من خطبة هذا اليوم منزلة الاساس من البنين . وها اني موافيك الساعة بما لم يكن في الحسبان مبرز لا عينكم صورة مهولكم منظرها . وبروكم مخبرها . وهي لديكم ومن العجب انكم لا ترونها . تلك صورة آفة هائلة لكنها ما تراءت لامة الاستلت السخائم من صدور آحادها . وازالت ما كان من التقاطع والتدابير بين افرادها وبدلت القطعية بالوصال والتخاذل بالتناصر لا تعدو بذلك سنة الشرع ولا تفوت حدود النظام حتى تصورها لسائر الامم صورة الرجل الواحد في الاقبال على ما ينفع والادبار عما يضر والتزام ما يفتح في وجوهها ابواب العلم والثروة ومجافة ما يدحرها الى مهاوي الجهل والفقر

تلك صورة من يرتدون مجد الامم والممالك وتهمي عليهم غيوث الرزق باسمها ثم يتشاقلون عن تلافي شؤونها ويدوون عند هجوم المخاطر على كرامتها ويستجولون الكلام في حرصهم على حقها . وهم يبيعونها بما استحي ان اذكره واخجل ان اعين مقداره فرما كان اقل مما باعت الاسباط به يوسف ذلك الصديق بل اقل مما باع به عيسو بكوريته . مع انهم لو عقلوا ما حجبوا عن مقاماتهم نسات الشكر ولو فكروا لتبينوا انهم ما ارتفعوا الى مناصب العز والوجاهة الا على مناكب تلك الامم والممالك ولا استقرت لهم قدم فيها الا بنعمة انتماهم اليها . فما كان جائزاً لهم بوجه ما ان ينسوا سبب ارتفاعهم ويذهلوا علة ارتقاؤهم ولكن من لا يتدبر العواقب تبطره النعمة وتاخذه سكرة العز ويرين على خلائقه الصلف فيعود مثله في تصوراته مثل من تحبب في ظلمة وتورط في حيرة

فمن كان هذا شأنه فقد قاطع الحق . وجافى الشرع . وقلب للانصاف ظهير الجبن وتبرأ من قومه بل تبرأ من عقله ونادى لسان حاله بعداوة ملكه وخيانة

مملكته . وصاحت عليه احكام القانون بانه عدو المملكة وخضم الشريعة . الا وان
 من يتولى النظر في شؤون الناس ينبغي ان يرفع نفسه من مقامات الامانة والحزم
 والعلم حيث وضعه الناس كما ينبغي له ان يلتزم ارادة سلطانه ويتبع في احكامه
 شريعة مملكته اتباعاً خالصاً عن التمويه والخذاع بحيث لا يحكم الا بما تقتضيه شريعة
 المملكة ليخلص من معاذلة وجدانه ووخزات ضميره وان نكب عن هذه الخطة فقد
 نكث الذمة وخان عهد المملكة وذلك هو الاثم الذي لا كبيرة وراعه تجاه قوانين
 الممالك بل تجاه احكام الشريعة الالهية

واذا نقرر ذلك فاقول ان راحة المجتمع الانساني وتقدم العمران معقودان
 بحافظين احدهما الوازع الباطن وهو الدين والثاني الوازع الظاهر وهو الحكومة .
 الوازع الباطن فهو سائد على كثير من عباد الله . واليه يستند كل ما نجد من
 الخير في المعاملات المطلقة من قيود الوثاق والشهود المؤمنة من يخل بها مس صيته
 عند من يجتهد ان يصور لم نفسه بصورة الامين . ولكنه قد اعتل في صدور من
 اذا عرضت لهم الشبهة تردوا . وترحل عن صدور ادعياء العلم الذين لم يوجد
 ابعد منهم عن الصواب في هذه المسألة . وانخفضت شوكتهم عند من في صدورهم
 استعداد لقبول العدوى وفي الجملة فقد ابتلينا بضعف سطوته وقعدنا لتقليل
 على نار عتده . ولكن صبراً فما نحن بالمنفردين في تقمته . فقد انتشر ضره في اطراف
 المعمور فنحن اذاً في زمن احد الوازعين فيه عليل والاخر صحيح

وهذا الوازع الصحيح هو في اصل طبيعته لا يبصر ما يبصر ذلك ولا يتوصل
 الى ما يتوصل الى معرفته من الحوادث السرية والوقائع الخفية . وشتان ما بين الغائب
 والشاهد فكيف به وقد صار ملتزماً ان سد مسد اخيه عند من لم يبق لهم والعياذ
 بالله وازع باطن

واقنع علاج لهذا الداء انما هو تسليم امور الامة الى من له علم يهديه ودين
 يحميه فبالعلم يطالع على الحق وبالدين يرتدع عن الخيانة

واذ قد انجز بي الكلام الى هنا ترتب علي ان اذكر ممثلي الامة باقل ما يكون
 من الكلام فاقول مماثو الامة ولا يخفى عليكم هم الذين يتقلدون مناصبها . ويتبواون
 مراكزها ويرجع اليهم في شؤونها . ويطالبون بترويج مصالحها وتعزيز كلمتها ولكن
 على طريق الشرع ومن وجه النظام . ذلك كفاء ما تلبسهم من شرف المناصب

وتدر عليهم من الوظائف فهم صورة الامة عند الناس . وعنوان حالها في اعينهم .
 وكلاء حقوقها وحماة عرضها وشرفها . ومن ثم ينبغي ان ينتقوا من اوسع رجالها
 علماء وابلغهم حجة وارسخهم امانة ووفاء واشدهم مرؤة . واعلامهم همة . واثبتهم جأشاً
 واقوام جنائناً . وارحبهم صدرأ من كل من يخوض الغمرات الى الحق ولا تشرف
 نفسه على طمع . وقد اتفقت الامم على اشتراط هذه الاوصاف في كل من يقوم ممثلاً
 لامة في منصب ما . واي امة لا تتبع هذه الخطة في اختيار ممثلها تكون كمن يهدم
 بيته يده . ويقوض اركان بنده بسعيه ويجعل حقوقه عرضة للهلاك واذا لم تتوفر
 هذه الشروط في الرجل فيكون وضعه ممثلاً للامة كوضع المدينة الحادة على عنق الحق
 وابشع احوال الممثل ان يجتمع فيه العلم بالقانون وحيل الشريعة مع عدم الوفاء وضعف
 الامانة . وقد اجمت ولكم تركت التفصيل ففصلوا ان شئتم والسلام

بعض البلاء ينتهي الى بعض

« لاديب بك اسحق »

(كتبه في مجاعة حلب عام ١٨٨٠)

هو الظلم حتى تمطر السماء بلاء ففتبت الارض عناء فلا تجد على سطحها الا جسوماً
 ضاربة في ديار خاوية وقاوباً تحترق في بلاد تحت رق
 وهو الجهل حتى تضع الاخطار وتفتى الاقدار وتبطل الهمم وتزول القيم
 ويعفو العلم ويدرس الفهم ويستعلي الخامل ويستولي الجاهل وتتحض الارؤس
 وتقبض الاتس وحتى ترى

بكل ارض في شرقنا امماً ترعى بعبد كأنها غنمٌ

يستخشن الخبز حين يلسه وكاد يبرى بظفره القلم

قف بالربوع الدارسة المعاهد العافية الآثار وانشد هنالك عزماً اضاعه الاهمال ومجداً
 اخفاه الخمول الابقية آثار في المعالم كبقايا الوشم في المعاصم وابك العز وبنيه والفضل
 وذويه حتى نبت الآس على القبور وحتى تسمع اصواتهم من وراء حجب العصور
 بل دع النشد والبكاء في هاته الخطوب الفادحة فلا نفع للشكلى بنوح النائحة واقصد
 بنا مرابع النعمة ومصانع الرحمة نسأل فيها الاعانة والاحسان لاسد عضها كلب

الجوع و ارام وقعت في حبال الفاقة واطفال يتلقون دموع المراضع يحسبونها البائناً فقد
الف الغرب الاحسان و تعود اعانة الانسان

واتل على كرامه ما جاءنا من خير المجاعة في حلب وما بين النهرين فقد بلغت
الحاجة من اهل الشهباء ان النساء هتكن السور وخرجن من وراء الخدور وطفن
بالقلعة صائحات معولات مولولات يلتمسن القوت لرجال اضوام الجوع فلزموا البيوت
فخرج الوالي اليهن بوعود لا تقني عن الجائع ولا تدفع آلامه فرجعن عنه آيات
وظفن بالاسواق يبعثن الرجال على الفتنة فنوطاً من زوال الخنة فانقض هولاء على
الافران يلتمسون الخبز لا ينتهبونه

اما ديار بكر وماردين وسائر ما بين النهرين من المدن القديمة الشان فلم
نقف بها الشدة عند هذا الحد بل اتصل الموات باطرافها على مثل ما سمعناه منذ
عامين من اخبار المجاعة في بعض الهند واميركا حتى اكلت اطراف الفصوف
واصول الاشجار

فسمى ان يكون لصوتنا الضعيف صدى تردده الصحف الوضاء في هاته العاصمة
الزاهرة فيقبل اهلها على مساعدة المصابين ولا يضيع الله اجر الحسينين
« وتد ترجم هذا الفصل عامثد ليثبت في بعض جرائد باريس على رجاء ان
« تفتح الاكتماب الاعانة على ما تعودته في مثل هذه الحال »

تأمل

« له ايضاً »

بلادنا احسن البقاع تربة وهواء واصفاها سماء وماء واوسعها مرتعاً وفناء . كانت
فيما سلف ثقل الملايين من ذوي النعمة والرفاية يستخرجون منها ما يحتاجون اليه
ويفضل عنهم ما يتجرون به وذلك مع توالي الحروب وتواتر الشارات واستمرار المنافسة
بين الامراء والدول

ونحن ذوو ابدان شهدت بقوتها حوادث الايام واهل صبر دل عليه ثباتنا في
المتاعب وارباب اقدام اقر به الاعداء وحلفاء قناعة اثبتها الجور والفقر . كنا اهل
السطوة غير معارضين وارباب الثروة غير منافسين تزين بضائعنا الامصار وتعمر

صنائعنا الاقطار وتبهر معارفنا الافكار

فما لتلك البلاد التي وسعت الوف الالوف تضيق عن المثين وكيف صارت قوة
اهلها ضعفاً ومنع مجدهم ذلّة وخسفاً

هل انتقلت الارض ام غضبت عليها السماء ام فسدت القلوب ام عميت الابصار
ام هذه سنة الزمان في ابناؤه . . .

كلا . ولا عتب على الزمان فهو النهار نضيء شمساً والليل يطلع بدره والربيع
يزين الارض بازهاره والشتاء يروي المزارع بمطاره ولكن هي البصائر غشياً
وهم الكمال في العادات ودعوى العصمة في التقليد فاحتجبت عنها حركة الخواطر
في بلاد الغرب فسار الناس ونحن واقفون وحركتهم عوامل الغيرة وضائرنا مبنية
على السكون

فمن لنا ذي غيرة تهتك سبحوف الاوهام عن البصائر ويجلو حقائق الامور
للابصار قرى نفعنا في اعتماد الكمال وخطأنا في ادعاء العصمة فننبذ ما جناه علينا
السلف من اسباب التيه والصلف وتقترب للنعمة بوسائل الاجتهاد فان قصر
العمر عن الوصول الى غاية النعمة ودرجة المناء فلا اقل من ان يموت الشرقي عن
سعي يشكر واثر يذكر

فمن عاش في ذل فذلك ميت ومن مات عن فضل فذلك خالد
ومن لم يميت بالسيف مات بغيره تنوعت الاسباب والموت واحد

فذلك

قائد الغفلة الامل والهوى قائد الذل
قتل الجبل اهله ونجا كل من عقل
فعلى م الوقوف في ساحة العجز والكسل

اقهر

نقلًا عن مجلة البيان لمنشئها الشيخ ابراهيم اليازجي

والدكتور بشاره زلزل

هو بعد الشمس ابهى الاجرام السماوية على العموم . ونكتة الفلك الارضي

بل اغرب ما يرى الناظر في عالم النجوم . اذا استقل في فلكه يسبح فوق الوهاد
والاكمام . ورأيت به يراجع مع النجم وهو مجد في وجهته الى الامام . فتخط الابراج
وكأنه راقف لا يحس له الناظرون انتقالا . وظهر باشكاله من الهلال الى البدر
حتى يعود هلالا . فكان قيد الابصار تراه ابداً جديداً على تقادم عهده . وتوهمه
على قيد اميال منها وهو الشاسع في بعده . على انه ادنى العوالم من الارض مقيلا
واعلقن بها جبلاً واقربن تمثيلاً . فهو صورة الارض في السماء . ورفيق طيتها الى
حيث لا تدري في اجواز الفضاء . وشريك بختها فيما أرصد لها من احكام القضاء .
بل هو وليدها وان تقضى قبلها شبابه . وشابت دونها اترابه . وقد دفعته عنها منذ
فضاله فر الى حيث لا مطمع في اياه . ثم عز عليها الا ان يكون بجياله فاخذت
عليه طريق انسيابه . فهو ابداً يدور من حولها مقطع النياط . ويقطع معها اضعاف
ما تقطع من الاشواط

بل هو مثال الرنق والجمال . واية الابهة والجلال . اذا برز من الافق فانهزمت
من وجهه جيوش الظلاء . وانفجرت الكواكب لمره في عرض السماء . فاقبل بتنقل
بينها وهو يسير الهوينى عزة وخيلاً . فسمت اليه الابصار اعجاباً واكباراً وانصرفت
اليه الوجوه ابتهاجا واستبشارا . وانسلقت له النفوس نشاطاً وارتياحاً . واتسعت به
الصدور انبساطاً وانشراحاً وخلا اليه العاشق يتذكر وجه حبيبه ولها به المحزون
فسلا من حميمه ونسيبه . واوى الى المسهد فكان سميره في مهده واتخذ المسافر
رفيقاً فذهل به عن مخاوف سفره ومشقة جهده . وجلس اليه الشرب بتعاطون مثل
الشمس في مثله . وتساير بازائه المتعاشقان يستبصران بنوره ويستتران بظله . وقد
تحلل شعاعه نسج النسيم . حتى اتحد اتحاد الماء بسلافة النديم فكان الطف ما مر
يبصر في الين ما التحف بشر فاسجل الشاهدان لياليه اصفر الاوقات . وانه
الجمالي لا كدار النهار كما تجلي به كدورة الظلمات

لا بل هو مبعث الوحشة ومحرك الاشجان ومثير هواجس الصدر وبلابل
الجنان . اذا طلع في ليله وقد سكتت الاصوات وسكنت الحركات ولم يبق الا

تموج الهواء باختلاج الانفاس الصوامت وحفيف النسائم بين ورق الشجر المتخافت
فارسل نوره الضعيف ساجماً في انحاء الفضاء مترقراً على وجه النبراء تظهر من
تحت الوهاد المنبسطة في العراء والقمم الشاخصة في الهواء لا يمشي فيها حيوان ولا
تسمع نأه انسان فونف المتامل امام مشهد ذلك الجمود وقد ملكت عليه مشاعره
حتى توهم نفسه بمعزل عن الوجود فتخيل ما حوله من الارض بجاهل خالية او اطلاقاً
بالية بل تخيل الارض كأنها يوم خلقت فهي ادغال وتنانف وتصور نفسه آدمها
وقد وقف فيها بين الدهش والمخاوف فخيبت فوقه وحشة العزلة واحاطت بنفسه هيبة
الوحدة وانبعثت الاشجان في صدره فتفرغ لمناجاتها وهاجت الذكر في نفسه
فغاص بين تياراتها وتوارد عليه من الخواطر ما حجب اليه الحقائق بعالم الفناء ثم
استهواه ما يرى من جمال الطبيعة فثابت اليه الرغبة في البقاء فتمنى لو اتخذ سبيلاً
الى هذا العالم المائل فوق راسه او تعلق بما تدلى اليه من اشعة نبراسه فربما تخيل
ان هنالك حدائق علياء ومدائن غناء وقصوراً شاهقة وانهاراً دافقة واقواماً
يروحون في نعيم ويرتعون في خصب مقيم وما ثمث لو يعلم الاكون جامد وقفر
هادئ وسكون سائد وحطام خلق باند لا يخطو هنالك غايه ولا رايح ولا
يسمع صوت باغم ولا صاوح ولا يسبح طائر في السماء ولا يدب حيوان على
العراء ولا يخفر واد ولا آفة ولا تسحب اذبالها نسمة ولا ينتشر سحاب ولا
ضباب ولا ينزرق ماء ولا سراب ولكن جملة ما هنالك طلل دائر وعالم من
عوالم الدهر الدبر بل جنزة يطاف بها حول الارض وان لم تحملها المتاكب وقد
صلت عليها السيارات فترحمت عليها الكواكب

لا يبر هو خلف الشمس ومصباح الظلم ومقياس الازمان وموقت الامم عنه
اخذ حساب الاسابيع والشهور وبحركته حددت الآجال والتواريخ من اقدم
الدهور فكان اسمجل الذي يرجع اليه في المعاملات والامام الذي ينزل على حكمه
في توقيت العبادات بل طالما عبده المتقدمون لانهم راوا في فعله ما يشبه افعال
العاقل وآسوا في صورته ما يقرب من هيئة الناطق وشاهدوا من بقائه ما نزله
عندهم منزلة الخالد فكان له الحكم في السعادة والثقاء والاعتلال والشفاء وصلاح
الفرس والزرع وصحة الجنى والقطع وعلى الجملة فقد كان الحاكم في الاحوال والاعمال

والمستشار في العزائم والآمال بما يبدو عليه من نقص أو تمام أو يتفق له من اقتران
 بغيره من الاجرام مع اعتبار ما يقع ذلك فيه من الايام^(١) شوون ساق اليها ضعف
 الاحلام . واستيلاء الاوهام . والله وراء ما يفعلون وهو العزيز العلام

* * *

لا جرم ان اول ما يبديه الناظر من مرأى القمر وهو في اوان البدر وما
 حواليه انه يراه على خلقة وجه الانسان فيه العينان والحاجبان والانف والشم والتم وذلك
 بما يتخلل سطحه من الخوا اي السواد المنتشر على وجهه بحيث يتبادر منه الى الخيال
 هذه الهيئة القريبة فهو في ذلك على حد ما يتخيل احياناً في قطع الغيم المتراكمة
 من هيئات الاناسي والدواب وغيرها بما يعرض لها من اختلاف الاشكال وما
 يتخللها من الظلال في جنب ما يقع عليها من ضوء الشمس . وهذا المنظر في القمر
 يستمر من لدن طلوعه من المشرق حتى يبلغ الزوال فاذا مال بعد ذلك واقلب الى
 جهة المغرب تبدل منظره واستحال الى صورة رجل قائم على ساقيه وقد مد ذراعيه
 الى الامام كأنه يدافع بهما الا ان كل ذلك انما يكون في نظر العين المجردة فاذا
 نظر اليه ولو بمنظار ضعيف اتسخ ذلك بجملته ولم يبق له اثر

ثم ان هذا الخوا كما كان سبب تضليل للام الاولى ومن بقي على شاكلتها ليومنا
 هذا من العامة فقد كان محل حيرة للعلماء واهل البحث منهم وقد اختلفوا في امره
 اختلافاً بعيداً واختلفوا في ماهيته على مذاهب نورد بعضها تفكها للقراء فمنهم من
 ذهب الى ان ذلك ناشيء عن شكل القمر وخلقته اذ هو مخلوق على هيئة وجه
 الانسان على نحو ما نقوله العامه فهو عند هؤلاء القائلين تمثال راس ضخيم بمنزلة راس
 ابي الهول مثلاً وزعم آخرون انه شبح ما ينطبع فيه من السفليات من الجبال
 والبحار يعنون ما في الارض من ذلك وهذا مبني على ان القمر جرم صقيل كالمرآة
 بدليل عكسه لضوء الشمس على ما سير بث من مذهبه . وقال غيرهم انه السواد
 الكائن في الوجه الآخر منه اي النصف المظلم الذي لا يقع عليه ضوء الشمس وهو

(١) كان يوم القمر عندم يوم الاثنين كما لا تزال تدل على ذلك تسميته
 عند اكثر الامم الافرنجية فاذا اتفق ان يكون القمر في ذلك اليوم بدرًا ففيه تمام
 السعادة . وكثير مما ذكر من هذه العقائد باق الى يومنا هذا ولا سيما عند اهل الفلاحة

قول من يزعم ان الكواكب اجسام شفاقة . وهناك مذاهب اخرى لا نقل غرابة عن
 هذه كانوا يقولون فيها بالحدس وينونها على قواعد فلسفة ذلك العصر مما لا محل
 للافاضة فيه في هذا الموضوع . والصحيح وهو الذي يشاهد بالآلات المعظمة ان
 بعضه لون النخل الذي تلقيه جباله على وهاده وبسائطه وأكثر ما يكون ذلك وهو
 في احد التريبعين وما اليهما وقوع شعاع للشمس عليه حينئذٍ منحرفاً والبعض الاخر
 لون صحاريه وما يتخلل جباله من الاتربة والرمال وبقايا الخلق الدائر . واما في
 اوان البدر الذي يكون فيه صفحه المواجه لنا مقابلاً للشمس وحين يكون ظل جباله
 محجوباً عنا بقمم تلك الجبال انفسها فلا كلام في انه لون تلك الاتربة

اما شكل القمر فالظاهر لنا انه كروي على الجملة الا ان الذي يستقبلنا منه انما
 هو احد صفحيه دون الآخر اذ هو يوجه الى الارض جهة واحدة ابدأ كما يظهر
 ذلك بمراقبة محوه وتبعه من اول الشهر الى آخره . واما الجهة الاخرى فلا يكاد
 يرى منها الشيء النزر من اطرافها لاسباب ليس هذا موضع بيانها ولذلك لا يعلم
 شكله من تلك الناحية وبالتالي لا يعلم قطره المسامت لخط النظر * قالوا وعلة ذلك
 قوة جذب الارض له وبمانعتها اياه من الدوران على نفسه الا في القدر الذي يدور
 به احد وجهيه حول الارض فتكون له حول نفسه دورة اضافية يتمها مرة في الشهر
 عند تمام دورته حول الارض على انه قد رؤي احد اقمار المشتري وهو اقربها منه
 مستطيلاً من القطر القائم على السيار فهو اشبه بهيئة البيضة وهو ايضاً لا يوجه الى
 السيار الا وجهها واحداً فغير بعيد ان يكون قمرنا كذلك ويكون ما ذكر هو العلة في
 وحدة اتجاهه الى الارض

ولما كان القمر يدور حول الارض ويدور معها حول الشمس لزم بالضرورة
 ان يكون القمر تارة بيننا وبين الشمس وهو اوان المحاق فلا تثنأى لنا فيه رؤيته
 اذ يكون الوجه المستنير منه الى الشمس والوجه المظلم الى الارض وتكون الارض
 تارة بينه وبين الشمس وهو اوان البدر وحينئذٍ نرى كل سطحه المستنير لوقوعه
 في استقبال الشمس . وتارة تكون الارض والقمر متحاذيين على بعد واحد من
 الشمس وهو اوان التريبع فنرى نصف السطح الموجه منه الينا لوقوع النصف الاخر
 في جهة الفضاء وكما اتنا نرى القمر مثكلاً بهذه الاشكال فلو وقف ناظر على
 سطح القمر المواجه لنا راي الارض كذلك اي يراها بدرًا عند ما يكون القمر في

الحاق ويراهما في الحاق عند ما يكون هو بدرًا واما في التبريع فالمنظر بينهما واحد حتى يجاوزاه فيعود الى الاختلاف شيئًا فشيئًا الى ان يصير احدهما بدرًا والاخر في الحاق

ومما يستلحق ايراده هنا ما جاء في كتاب الكشكول للامام بهاء الدين العاملي من اهل القرن العاشر للهجرة (٩٥٣-١٠٠٣) فانه وصف منظر الارض من القمر بما لا يقصر عن وصف اعظم علماء هذا العصر قال « كما ان جزم القمر يقبل ضوء الشمس لكثافته وينعكس عنه لصقائه كذلك الارض تقبل ضوءها لكثافتها وينعكس عنها لصقاتها لاحاطة الماء باكثرها وصيرورته معها ككرة واحدة . فاذن لو فرض شخص على القمر تكون الارض بالقياس اليه كالقمر بالنسبة اليها وبحركة القمر حول الارض يخيل اليه انها متحركة حوله ويشاهد الاشكال الهلالية والبدرية وغيرها في مدة شهر لكن اذا كان لنا بدر كان له محاق واذا كان لنا خسوف كان له كسوف لوقوع اشعة بصره داخل مخروط ظل الارض ومنعه اياها من وقوعها على المستنير من الارض والماء بالشمس (كذا والصواب من وقوعها على الشمس) واذا كان لنا كسوف كان له خسوف لوقوع اشعة بصره داخل مخروط القمر ومنعه اياها ان تقع على الارض الا ان خسوفه لا يكون ذا مكث يعتد به لكونه بقدر مكث الكسوف ويكون لكسوفه مكث كثير لكونه بقدر مكث الخسوف . لان بعض وجه الارض يابس فلا ينعكس عنه النور بالتساوي فكما يرى على وجه القمر المحو يرى على وجه الارض مثله . وهذا الفرض وان كان محالاً لكن تصور بعض هذه الاوضاع يعين الفكر على تخيل اي وضع اراده بسهولة » اه

وهو كلام في غاية الحسن وقد اصاب في اكثره شاكلة الصواب الا انه جعل علة انعكاس النور على الارض كون اكثرها محاطاً بالماء وهو خلاف الواقع لان شطراً من النور بل معظم اشعته ينفذ الماء ويتكسر فيه فلا ينعكس الا اقله وبخلافه الارض فانه لا ينبغي فيها من النور الا الشيء الذي لا يعتد به وباقيه ينعكس بجملته . ولا اثر للصقالة هنا اذ هي انما تعتبر في عكس النور عن السطح المستوي كما في المرآة ووجه الكأس والبركة مثلاً حيث لا يظهر للماء تحذب محسوس فتنعكس الاشعة كلها الى جهة واحدة وذلك بشرط موافقة خط انعكاسها لاتجاه خط البصر

واما السطوح الكروية فانما يرى النور المنعكس عنها من نقطة واحدة وهي التي يوافق انعكاسه عنها جهة البصر كما ترى في الكرات العاجية والزجاجية وغيرها وباقيها تنعكس الاشعة الواقعة عليه الى غير تلك الجهة فلا يرى منها شيء . ومن هنا يعلم ان الانعكاس عن الارض يكون اشد واكثر لانها لتضارستها تعكس الاشعة عن كل قمة وحيد مما لا بد ان يوافق الكثير منه خط البصر كيف اتفق وضعه بالقياس الى الشمس والى الناظر . وقد ثبت ذلك بمراقبة القمر نفسه في مروره على البر والبحر واختلاف ما يرى عليه من النور المنعكس عنها حتى يروى ان كستلي وهو خريج غاليلاي المشهور استدل بذلك على وجود قارة اوستراليا قبل كتبها . وذلك انه راقب الهلال عند عبوره فوق المحيط الجنوبي فوجده كما انتهى في فلكه الى الموضع المسامت لهذه القارة يقوى النور الضعيف الذي على سائر جرمه المظلم وهو النور المنعكس اليه عن الارض على ما سنذكره قريبا فتبين من ذلك ان هنالك ارضا واسعة اذا قابلها اشتد انعكاس النور عنها اليه بخلاف ما يكون عليه وهو مواجه لغير ذلك الموضع من البحر .

ثم انه يفرض ان الواقف على القمر يرى الارض تدور حوله يعني مرة في الشهر وقد يتبادر من هذا الفرض ان ذلك على حد ما نرى نحن الشمس تدور حولنا وهو غير مراده قطعاً لانه جمل ذلك مسبباً عن حركة القمر حول الارض ونحن انما نرى الشمس والنجوم تدور حولنا بدوران الارض على محورها لا بدورانها حول الشمس فالظاهر ان لهذا الفرض وجهاً اخر وهو انه يقدر ان القمر يدور حول الارض واقطاره الاستوائية موازية لنفسها بمعنى انه لا يتحرك على محوره البتة فهو يستقبل الارض بجميع اجزاء سطحه على الولا ، ولذلك يخيل الى الواقف عليه ان الارض تتحرك حوله . وهذا ايضا ليس بصحيح لما ابنا من ان القمر يولي الارض وجهاً واحداً ابداً فالذي يلزم من هذا ان الواقف على نقطة منه حيثما راي الارض من تلك النقطة سواء كانت على الافق او في السماء او ما بينهما لا يتغير عليه موضعها ولا يراها تنتقل منه الا بمقدار ما يترجح في فلكه على ما سبقت الاشارة اليه وهي حركة ضعيفة لا يكاد ينتبه لها ولا نتم الا في الزمن الطويل

بقي ان قطر الارض يكون نحو اربعة اضعاف قطر القمر فهي ترى من القمر

اعظم مما نرى القمر بما يزيد على ثلاث عشرة مرة فيكون منظرها منه ابهى من منظره من الارض بما لا يقاس والنور المنعكس عنها اليه على ما يقرب من تلك النسبة حتى اننا نشاهده من هنا على المكان المظلم منه واضحا وذلك في وقت الهلال وابين ما يكون بين الليلة الثالثة والسادسة منه حين يرتفع القمر عن الشفق وقبل ان يعظم القسم المستدير منه بحيث يكشف رؤية النور المنعكس عليه من الارض وهذا ما يسميه علماء الافرنج بالنور الرمادي لمسايمته لون الرماد فانك اذا تأملته رأيت به يتم دائرة القمر واذا وجهت اليه المرقب امكنك ان ترى ما فيه من المحو الذي تراه بعد ذلك تحت ضوء الشمس . واذا اردت ان تستوضح النور الرمادي وترى القمر معه بصورته البدرية فقف بحيث يحتاج عنك القسم المستدير من الهلال وراء طرف جدار ونحوه ويبقى القسم المستدير بنور الارض وحده فانك تراه في تمام الوضوح ما يكسفه من حاجب الهلال

وهنا مسألة نختتم بها هذا الفصل للتفككة وهي ان الناس يختلفون كثيراً في تقدير دائرة القمر فمنهم من يتوهمه بمقدار الصحن الذي لا يزيد قطره على عشر المتر ومنهم من يتوهمه بمقدار الطبق الذي قطره نحو نصف متر ومنهم بين ذلك وهي مسألة كثيراً ما يتحاور فيها حتى لا تكاد ترى اثنين يتفقان على قياس واحد . ولعل فصل الخطاب في ذلك ان تؤخذ قطعة ورق او نحوه ويثقب فيها ثقب مربع كل من اضلاعه نحو نصف سنتيمتر ثم تثقب من موضع اخر ويدخل في الثقب طرف عصا بحيث تجر به الورقة على العصا وبعد ذلك يوضع احد طرفي العصا عند موق العين وينظر الى القمر من الثقب المربع وتدنى الورقة وتبعد حتى تماس دائرة القمر اربع اضلاع الثقب فاذا انضبط ذلك يؤخذ صحن او شيء اخر مستدير وينظر اليه من الثقب المربع على نحو ما نظر الى القمر فيدون الناظر منه او يبعد عنه حتى يتماس محيطه واضلاع الثقب فتكون دائرة القمر بقطر ذلك الصحن على البعد الذي رؤي عليه والله اعلم

جمل ادبية

« لاجد افندي فارس صاحب الجواب »

من الناس من يتعلم العلم لينفع به نفسه وغيره فتراه ابدًا حريصًا على جمع

فوائده وايضاح منهجه وتسهيل وعره فاجل امنية عنده ان يفهم القول كما عناه قائله وان يفيد غير كما فهمه فمثله كمثل الكرم الذي يستفيد ويفيد وفي الحقيقة فان الكرم كما يكون في افادة المال كذلك يكون في افادة العلم فالكرم من العلماء يفرح لسؤال الطالب ولا يمل من السائلين واذا اجاب عن شيء او الف شيئاً جعل اقصى همه وعنايته في توضيح عبارته وتصريحها حتى لا تكون مظنة للتاويل والقال والقييل فهو لاء الذين ينفع الله تعالى الناس بعلمهم وعملهم وهؤلاء الذين بعد وفاتهم يتخرج عليهم كثيرون من الطلبة كما كانوا في حال حياتهم فلا يزال كلامهم نوراً يضيء على الناس ولا تزال بركة مساعيهم ومقاصدهم نامية الغراس ومنهم من يتعلم العلم لينفع به نفسه دون غيره الا ان ذلك النفع الذي استاثر به يعود بالضرر عليه كمن يتعلم الفقه مثلاً ليصير به عوناً لواحد على اخر فيبذل جهده والماله هذه في ان يصير الحق باطلاً والباطل حقاً وما ذلك الا ليكسب بعض دراهم ينفقها في ريشه واثائه اذ يزعم ان الاكثار من الرياش والاثاث يكسبه المهابة في عيون الناس فاذا قصده غريم مثلاً ورآه على هيئة الغنى عظم في عينيه واجزل له العطاء لان الناس في الغالب يراعون الظاهر دون الباطن فيكون قد اتخذ العلم سبباً للاكثار والتشبع والاكثار والتشبع سبباً للبخس فيضل عن طريق العلم وبتبعه في مهامه التكسب والاستغناء واذا ساله احد الطلبة عن شيء تعاطم عليه وازدرى بسؤاله واخذ يشكو من قلة فهم الطلبة في القاء السؤال وتلقي الجواب فاذا اجاب عن شيء ليس في القول ووارب حتى يزيد السائل حيرة وارتياباً فاذا انصرف السائل من عنده على هذا الوجه قال انه لم يبق من اهل عصره من يفهم كلامه بل العلماء ايضاً تقصر عن ادراك معانيه وتلك مزية فضله الله تعالى بها على جميع الناس اذ جعل اقواله اعلى من اذهانهم وليست عبارته فيما يكتب باقل ابهاماً وتلبساً مما يقول وهو داء فاش في كثير من المصنفين الذين يقصدون من التصنيف اظهار علمهم ودقة افكارهم وتصوراتهم لا افادة الطلبة واذا مدح بخصرته احد على عمله وفضيلته امتعص وامتعض فلا يريد ان يكون احد من الخلق شريكاً له في العلم بل يمتعض ايضاً من مدح غيره على علم شيء من اللغات الاجنبية فاذا قيل له ان فلاناً على امامته بالعربية يعرف اليونانية قال وانا ايضاً اعرفها تيكان في ابلادو قالون واذا قيل له فلان يعرف الفارسية قال دوست برادر خوش الا ان الله تبارك وتعالى قد فضلي منذ

الصبي على اهل العصابة فكت اقرئ الناس وانا ابن خمس عشرة سنة وصرت احكم وافتي وانا ابن عشرين سنة فدانت لي الامراء واقبلت عليّ العلماء فما منهم الا من اخذ عني او استملاني او استجازني او سألني فشرحت وامليت واجزت واجبت وبكل احسنت واصبت ومع ذلك فاني غير محب بنفسي ولا شاخ بانفي كما يفعله كثير من العلماء الا ترى اني لا استنكف من مجالسة الناس ولا آنف من ان اصحح لهم كتبهم اي كتب كانت وما ذلك الا عن كرم وحب للغير فاني مجبول عليهما اذ لو كنت ممن يطلبون الغنى لملك الدنيا بخذا فيرها ويا طالما اتفقت وجمعت وفرقت واقتنيت وبذلت وادخرت وافضلت ولست ممن يحرص على قطع ارزاق الناس واطهار معائبهم وانما حجب الي الحق ونفع الناس وذلك يضطرني الي ان اقول ان فلاناً مرء في الدين فيجب قطع معاشه وان فلاناً غير جدير بوظيفته فيجب عزله وان فلاناً اعترض عليّ في امر كنت فيه على الحق وكان هو على الباطل فيجب قطع لسانه وهلمّ جرّاً الي ان يبدو لجميع الناس ان عمله شرك للاذى والشر ووسيلة للضلال والخطر فلا يسعهم بعد ذلك الا اقصاءه ورذله واهانتة وخذله فيصبح بينهم ذمياً مدحوراً داخراً مبتوراً فهذا مثل العالم الذي يقصد بعلمه نفع نفسه وضر غيره والله يهدي من يشاء

من الناس من يتعلم العلم وهو مجبول على صفات حميدة فيزداد هدى ورشداً وورعاً ودمائة اخلاق وحسن تصرف واستقامة طبع ونزاهة نفس وصفاء عقيدة واخلاص مودة وسلامة نية وعفة قلب ولسان وانبساط يد فمثل كمثل الجوهر الشفاف اذا قابله شعاع الشمس او كمثل اناء من زجاج نظيف صاف اذا وضع فيه الماء لم يغير من طبعه شيئاً فتراه دائماً مقبلاً على نفع الناس ساعياً في اصلاح شؤونهم وتسنية احوالهم باذلاً اقصى جهده في تسكين خواطرهم ولم شعثهم وتاليف متفرقهم وتسلية حزينهم وارشاد غاويهم وتأييد ضعيفهم وليس من همه التردد على ابواب الامراء والخضوع لحجابهم وملاينة خدمتهم ولا استعطف ذوي الثروة والعز حتى ينال منهم وظيفة او رزقاً ولا التشدد بالايات والنوادر حتى يعجب السامعين ويحملهم على اكرامه وتعظيمه ولا التعرض لما لا يعنيه حتى يقال فيه انه ذو همة وسعي وانما همه كله في مراعاة ما يقتضيه العلم وهو فعل الخير لوجه الله تعالى فهذا

هو العالم الذي يحمّد حياً وميتاً ويبقى اسمه مذكوراً بالخير في كل مكان وزمان وهو الذي تبرك الناس بنقل اقواله كما يرتاحون لحمد افعاله وكلما ذكرت سجية حسنة وخلة مستحسنة ذكروه بها ونسبوا اليه كثيراً من امثالها فان من طبع الناس ان ينسبوا الى من عرف بالحماد والفضائل في عصره كل حمد وفضل عرفا لغيره ومنهم من يتعلمه وهو مجبول على بعض صفات ذميمة فيتهدب به بعض التهذب ويتغير به بعض التغير فشأنه ان يبقى فيه علمه وشره كالقرنين المتكافئين فمرة يقوى علمه على شره وذلك اذا تذكر ما مر به من قصص الصالحين وسيرة اهل السمى والخير فيؤثر الاقتداء بهم ومرة يقوى شره على علمه اذ يطمس الله على قلبه فينسى ما قراه وسمعه ويتبع هواه فمثله كمثل الشمس في شهر الغيم تبدو مرة وتختفي اخرى وهذه الحالة هي التي تحير الناس في وصفه فمرة بهم يدحونه كل المدح وبعضهم يذمونه كل الذم وكل في نفس الامر صادق الا ان العادة ان خلة واحدة مستهجنة تمحو خلافاً كثيرة مستحسنة فكأني من محسن مجبول على الاحسان زلت به قدمه مرة فصارت حسنة كلها في عين المتعنتين عليه سيئات ومنهم من يتعلمه وهو على الاخلاق الذميمة فلا يزداد به الا طيشاً وتربصاً الى الشر واضطراباً في الراي وحدة في الطبع وشراسة في المعاملة وتطاولاً على حقوق الناس وتهافتاً على الطعن فيهم فثله كمثل شمعة موقدة معرضة لعواصف الرياح فلا تزال الرياح تعث بها يئنة ويسرة حتى يتقنى الناظر اليها اعطفاً بالمرّة ثم ان كل علم نافع وكل نافع ممدوح الا انه ينبغي النظر في حقيقة معنى النافع فان من يقصد العلم لينفع به نفسه دون غيره لم يبق ذلك النفع الخاص مستوجباً للمدح العام وكيفية اقتصار الانسان على نفع نفسه هو ان يزدري بغيره حتى يصير مرجع المسائل اليه وان يستحل اموال الناس بما تسول اليه وساوس نفسه من انهم لم يحرزوها على وجه الحق وان يتهددهم باظهار عيوبهم في الاماكن التي ينتابها حتى ينيلوه كلما يقترحه عليهم وان يغري زبداً بعمرو ويضري عمراً على زيد ويتربص بهما الرزايا والبلايا فيرزأ من كل منهما واقبح من ذلك ان يتعرض لغيره اذا عرف انه ينال رزقاً فيسمى في قطع رزقه وان لم يعد عليه ذلك بعائلة فنفع نفسه هنا غير حقيقي وانما هو باعتبار ضر غيره وهو مثل ابليس لا محالة لان ابليس لا نفع له من وقوع البشر في المهالك الموبقات الا الشماتة بهم او مثل الجعل الذي يرتاح لحل الاقدار ويانف من رائحة الطيب ومن العيب كل العيب ان يظل العالم مترقباً

زلة غيره ومتربصاً لخلول الشر بهم ولا لذة له من ذلك ولا نفع سوى مجرد وقوع الضر بمن يكرهه فإذا اردت ان تختبر جليستك لتعرف من اي صنف هو من هذه الاصناف الثلاثة فاذا ذكر له نعمة انسان وفضله وعلمه فان رأته قد فرح بذكرها وتمنى بقاها عليه فهو من الصنف الاول وان رأته قد سكت او نسب ذلك الى بطر الزمان وعوارض السعد فهو من الصنف الثاني وان رأته قد امتنع فهو من الثالث وهو الذي لا يجب خير احد وهو الذي علمه فيه كالقرط في اذن السنور او كالعومة في بطن الثعبان وهو الذي يجب الاحتراز منه كما يحترز من الجاهل بل أكثر لان كلام الجاهل لا يؤثر في احد وانما التأثير لكلام العالم الا ان الحق عصمة كل معتمد به وفعل الخير جنة كل من تحصن به فاذا واظبت على حب الحق وفعل الخير فلا تخش شر احد من الناس وما عليك اذا تجنى الناس عليك وانت بري عند الله فعليه وحده عول وبه اعتصم واليه التقي ومنه استهد والله يهدي من يشاء

من الناس من يكبح اعاشه كأنه لا يموت ابداً فتراه دائماً مهتماً بالاحتراف والاصطراف والاجتراح والاقتراح والاكتساب والاختلاب والاهتلال والاجتداء والاعتداء والاستكثار والامتيار والاستئثار والادخار وما يبالي ان فقد صاحباً بتحصيل درهم او غنم من حيث لا مغمم او ان انشب مغلبه في غير منشب او ان يادهمته الناس باللوم والسب فان حب المال اذا استولى على قلب المحتال خيل له السراب شراباً والوشل عباباً فاذا اعتاد كسباً من جهة اتخذ تلك الجهة قبلة له وناط بها امله ومعوله واذا استفاد من احد فائدة ظننها قد صارت عليه فرضاً مكتوباً واداء محسوباً لا يبرح من باله ولا يشغله عنه حال من احواله فاذا خاب يوماً امله ظن ان قد ادركه اجله فيعول ويشكو ويصيح ويمكو ويقول بالرجال ابن المال وابن الامال وابن من كان يلقى السائل بالنوال فقد فسد الزمان وضاع العرف والاحسان وقلت الاخوان لقد طالما اعطيت ولم اسأل واليوم اسال ولا اعطى وهيبات من بذل وصان وجه الحر عن ان يتنذل هذه الارض واسعة رحيمية والناس عليها أكثر من ان يحصوا عدداً وما اجد ممن يؤاسيني منهم احداً فالي احرم وهم يرزقون وما لي اخفق وهم يتناقون فباي شيء فضلوني وعلام خذلوني وابساوني فتخيّل اليه وساوس طمعه انهم جميعاً اعداء له الداء وانهم جد يرون بالارداء حتى يكون

هو وارث الارض والمتصرف فيها وحده وحسبه اذا فقدوا جميعاً دون ان يفقد فيها
جده فمثل هذا لا ينفع فيه لوم ولا نصيحة ولا ينبيه عن الكسب فضيحة واذا ذكرت
له المنية اشتغل عنها بذكر الامنية واذا ذكر بهادم اللذات اعرض عن الذكر
يبشرى ما هوات فيا للعجب كيف يشغل الانسان نفسه بالاماني الويلة ويستغرق
في المطامع المستحيلة وهو يرى نكبات الزمان وصورف الاحوال لا تبقي شيئاً على
حال فكم اهرمت من فتي واقفرت من غني ووضعت ذا رفعة واجاعت ذا رفعة وكم
من رفيع سفلى ونبية خمل وذوي امرة في الناس صار ماموراً وذوي خطر وشان
عاد وضيعاً حقيراً هكذا دأب الایام في الانام ترفع وتخفض بين قعود وقيام وتز
وتدل بين يقظة ومنام من ذا الذي دامت له السيادة وصفت له مشارب السعادة
فاذا كانت الدنيا منذ خلقها الخالق لم تصف لاحد في المغرب والمشارك ولم يهناً
بها عيش فاجر ولا يروا حلت بها ساعة الا ومر بها دهر فكيف الاعتزاز بها
والارتواء بجليلها وهي نقول بلسان الحال الذي هو افصح من لسان المقال اني اعامل
بني جميعاً على حد سوى وما لدي من ثنيا فان كنتم تشكون من الظلم فما انا قد
عدلت بينكم وعممت حينكم فكلكم مرتد يوم حينه بشوب واحد وكلكم اه حشرجة
واحدة عند ذوق حمامي الراصد فمن كان سكران من حبي فليستفق من سكرته
ومن كان قد اخلد اليه فلينبته من غرته وليتخلص من غمرته لعمرى ان حال الدنيا
هذا مقالها وهذا اندارها وتعذالها فما احد من العرب والعجم الا ويفهم معناها ويفطن
لفحواها ولذا قلت ان لسان الحال افصح من لسان المقال ومنهم من هو مجبول على
الزهد في الدنيا لكنه غير زاهد في المسعى ولا متطلع الى ما في ايدي الناس ولا
يصرفه عن سعيه ظفر ولا ياس وانما يسعى لوجه الله الكريم في الطريق المستقيم
ويتخلص ما يملكه ويمحص من ياتيه ويفعله فان انتفع به غيره فذاك اربه وخيره والا
فانه يحتسب به عند الله اجراً ويزداد اليه ارتياحاً وسراً وهو مع ذلك غير غافل
عن ميعاد الحمام الا ان الحمام لا يصرفه عن نزع الانام فلا يقول ان لهم من يرزقهم
ويكفلهم ويقوتهم ويثملهم فعلي الاشتغال بنفسي وهذا ابدأ طيبي وفتسي فانظر الى
الفرق ما بين هذين الرجلين وها من طينة واحدة وانظر الى تفاوت ما ربهما
المتعاندة لا جرم انه ليس من فرق في شيء من الاشياء كالفرق في بني آدم فمنهم
من تسمو نفسه الى المعالي وطيب الشيم فيقرب من الملائكة المقربين ومنهم من

تسفل مزوته وتسقط همته فيدنو من حد الشياطين ومنهم من بوحدة رأيه يسعد
 الوفاً عديدة من الناس ومنهم من لا لذة له الا في اشقيائهم وايقاتهم في لباس ذلك
 حكم الله الذي تقصر عن ادراكه الحكماء وعن علمه المحيط لتقصير العلماء وهو الذي
 خلق الداء والدواء وجعل من خلقه اسعاداً واشقاء فاسالك يا ذا الجلال ان تجعلني
 ممن يطلب الرزق الحلال ويؤثر السعي النافع على القيل والقال ولا تكفي الى
 الاماني الباطلة والمطامع الزائلة واقرن قصدي بالاصابة وعملي بالاثابة انك
 ولي الاجابة

من الناس من يتكل على حسب ابائه فيفتخر به لدى جلسائه واخلائه في صباحه
 ومساءه فلا ينهض لما اثره ولا يصبو الى مفخرة فشانه ابدان يقول في كل مجال من
 القول ان ابي كان ذا فضل وطول وانه كان يقري الضيوف ويرضي الالوف وكان
 السائل ياتيه فيرجع وهو غني عليم ويشور رايه المستشير فيعود وهو نطس حكيم وكان
 له ملكة في التاليف ومزية في كل عمل رصيف وكان مغناه مقصودا وخياه مشهودا
 ونواله قريبا ومقاله مصيبا وهو الذي انتهى اليه علم الاوائل والاواخر وصار نبهاً في
 جميع الحامد والمفاخر فما احد من الناس يبجل قدره وشانه او ينكر عرفانه واحسانه حتى
 سارت بحمده الركبان وشدا بهديحه كل قاص ودان فلا تسالوني على ذلك دليلاً ولا
 تطلبوا له فيمن غبر وحضر مثيلاً فما من فاضل الا وكان بالنسبة اليه مفضولاً وعلى
 هذا الاتكال يبغي فخره ويشيد ذكره فيصبح عاجزاً وكلاماً متقاعساً عن المكارم والعلو
 وما يهيمه ان ندب الى اغانة محتاج واعانة ذي الفاج وايواء طارق مضطر واجدء
 طارئ معتز وتراه ابداء عند ذكر الاموات يتنفخ ويتنفس حتى يتوصل به الى ذكر
 ابائه فينتعش واذا ذكرت له الاحياء قال الولد سر ابيه ولا يلد النبيه الا النبيه ثم
 اذا قيل له هذا فقير كثرت عياله فساعت حاله وقد طال ارقه وبدا خلقه بعد ان
 كان يتأنق في ملبسه ويجود على ملتسه وهذا تاجر استخرب ولم يبق له وجه مطلب
 قال امره الى القشف والم به الضفف قال ما انا على الخلق بمسيطر وحسي ابي على
 تشييد مجد آبائي مقتدر فقد فقالوا ان اشتقاق الابن من بني بعني انه يعني ذكر ابيه
 ويدم عليه التنا وهكذا يصم اذنيه عن ذكر كل من طرق اسمه سمعه ويقسوا قلباً على
 كل من يقصد صنعه وينشد نفعه ومنهم من يكون له ذلك الاتكال ويفتخر بما كان

لابائه من شرف الفعال وكرم الخلال وصالح الاعمال الا انه يدأب في الاقتداء بهم
والسلوك على مذهبهم وفي اتمام الامر الذي قصدوا والارتواء من الورد الذي وردوا
والتخلق باخلاقهم الكريمة والاستقراء لمكارمهم العظيمة حتى يزيد عليها ان كانت
الزيادة مما يطاق كانه واياهم في حلبة السباق وعلى هذا ترى كثيراً من ابناء العلماء
قد حاكوا اباهم ادباً وعلماً وفضلاً وفهماً فهذا للمرء هو الفخر والشرف الباقي على
مدى الدهر وهو الذي يجب ان تحت عليه البنون ويكون اماماً يقتدي به المقتدون
وينبه له الغافلون ويعتبر به المعتبرون وهو اشرف من ميراث النصار والعقار وابقى
ذكراً على عمر الادهار فان النصار يزول والنعمة تحول ولو بقيا لاحد لخال بينه وبينها
الهرم فلا يتمتع بهما الا بئس ما يتمتع الخالم بما حلم بالتمني بالعدم اما العلم فانه كنز لا
يفنى على الاتفاق ولا يخشى على ثروته حوول اطلاق فهو قرين صاحب نفسه الى ان
يودع في رمله وهو في الشباب له جمال وفي المشيب كمال يقوى عند هز العمر
ويزيد عند نقصان الخصب واليسر ومنهم من يقر بنسبه اصل اجداده لكنه يفتخر ببجده
واجتهاده وبعده وعتاده وكسبه واعداده حتى يحاول ان يستر بفضله ما بدا من عيب
اصله فاذا ذكر لاحد حسب قال لا حسب الا الادب ولا فخر لمرء الا بنفسه فلا
تسأل عن نفسه وهذا القول هو في نفس الامر صواب وهو الذي يعتمد عليه كثير من
ذوي الآداب وهو راس مال الذين لا حسب لهم وعليه يعملون معولم الا انه لا ينكر
ان للاصول تأثيراً في الفرع عظيماً فلا تكاد ترى ذا اصل زكي الا وتوسم فيه خلقاً
وسياً وشاناً كريماً فاذا اجتمع الاصل والفعل وانتزنا كان ذلك غاية المنى والا فان
هذا الثاني خير من الاول واكرم منه وافضل وبقي الكلام فيمن لا حسب له ولا ادب
وهو مع ذلك يفتخر في كل مطلب وبنيه على من شرق وعلى من غرب ويملا المكان
من دعاويه ولا يبالي بلاحيه فعمده قول انا جواب عن كل سؤال وتلخيص لكل
اشكال فهو الذي يجانب جانبه ويتعب به مصاحبه فلا ينبغي ان تضاع في معاشرته
ساعة ولا ان يكون مع الجماعة فانبت عنك كل من يكثر من قول انا وهو بعزل عن
الثنا ولا عائدة منه ولا غنا ولازم من يذكر محامده غيره وينوه بخبره وخيره ومن
يشيد بذكر الاكياس ويزيل عما بدا في انحاءهم من التباس فان الطباع تعدي كما
تعدي الادواء وان العمر قصير لا ينبغي ان يضاع في مباح هذر وهراء واتباع
اضلال واغواء ولا تكن كمن ينفق زيته في الليالي سهراً على ذكر الاعصر الخوالي

فحسبك من آثار الزمن الحاضر ما يهيك عن ادكار الغابر الا ان تريد بذكر الماضي
 عبرة تحض على اصطناع مبرة واللبيب من استفاد علماً وحكمة من كل ما يمر عليه
 ويذكر بين يديه ولا يشتغل الا بما يعنيه ولا يطلب ما يشقيه ويعنيه والسلام على
 من اتبع هذه النصيحة وتوخى المقاصد الصحيحة وجد واجتهد فيها بحمد وسعي وقصد
 وكان من امره على رشد

من الناس من يتصدر في المجالس ويحدث كل مجالس وينافث كل مواس
 فيطرب السامع بما يورده من الفقر النواجع ويسلي النفوس بما يسرده من الحكايات
 والنوادر والاليات ويواصل الاخبار ويروي الاشعار ويصل قضية باخرى ويقول
 تلك حرية وهذه اخرى ويلتفت ويستطرد ويمثل ويستشهد ويلج الى وقائع وفنون
 ويفيض في حديث ذي شجون حتى تقول ان صدره مستودع لجميع الاخبار وفكره
 محور لكل الاسرار وانه مورد المسائل ومصدرها وخبر الفضائل ومخبرها وانه فضا
 المشكلات ومستفاد البنات وبديع البيان وحسان الفصاحة والتبيان وان له مصنفات
 كثيرة ابدعها ومولفات وفيرة اخترعها حيث قالوا ان اللسان ترجمان الجنان والاخذ
 في فنون الكلام منبأة عن العرفان فيعظم في عينيك قدره ويثبت لديك فضله وفخره
 وتهابه مهابة التليذ لاستاذه وتوقره توقير المضميم لمعاذه فاذا اخطأ في شيء خلت ان
 اخطأ من فهمك لا منه وانك محتاج الى الاخذ عنه فاذا اخذ القلم وكتب ابان
 عن قصور في عمله وفتور في فهمه فغربت عنه تلك القريحة السيالة وخاتته تلك الفكرة
 الرصالة فلم يجد لارتباط الكلام بابا فكانه لم يقرأ في العلم كتاباً ولا درى من فنون
 القول ايجازاً ولا اطناباً وكان لسانه الذي كان يتكلم به انما كان مستعاراً وتلك
 الفصاحة كانت اضطراراً لا اختياراً مع ان من العادة ان الاقتراد للتأليف والانشاء يظهر
 فضل المرء في عمله أكثر من المجالس ويكون ادعى للايشاء من في الخلوة يصفو
 الذهن من كدر القيل والقال وينشرح الصدر من عنت الارشال فيسهل فيها ايقاع
 الالفاظ مواعها والتأليف بين المعاني فلا يختار منها الا بدائعها واذا التبس شيء من
 الكلام فالكتب تكشف عنه اللثام فكيف تكون الخلوة باعثة على التقصير والزحام
 ادعى الى البيان في التعبير وان كثيراً ممن يتفصحون ويتحدثون والناس بهم محذقون
 واليهم محذقون ليتمدوا حفظ بعض القصص والحكايات لمجرد سردها على السامعين

بينة على ما لم من البيان والتبيين والاطلاع على سير الاولين والاضطلاع من علوم
 المتقدمين فترى احدهم ينتهز الفرصة لبث ما حفظه ووعاه ويزاحم غيره في الكلام
 لظهور دعواه فاذا كان في المجلس ثلثة منهم او اربعة سمعت لم نجيحاً ومعممة حتى
 كاتك في جيش لجب وبجر مضطرب ومنهم من يحضر المجلس وهو صامت ويسمع
 ما يقال فيها وهو ناصت واذا عن له ان يورد نادرة على سبيل المحاضرة تذكر انها
 غير خافية على احد من الحضور او انها ليست من القول المأثور فيضرب عن ايرادها
 ويقبس عليها غير من اندادها وهكذا ينفذ المجلس وهو لم ينطق ببيت شفة ولا اظهر على
 السكون اسفه فيظن جليسه انه ذوعي وغيره من المكثرين كان اللوذعي فان الناس يظنون
 غالب ان الفخار في الاكثار والقصور في الاقتصار فاذا حضر المجلس مرة اخرى
 لم يرفع له احد من اهله قدرًا واتخذوه كلاً وقالوا ان سكوته انما كان جهلاً وان
 حضوره لما يقلى فان من شهد محملاً ولم يتكلم فيه كان كأنه يتطلب عد معايبه
 وحصر مساويه ولكن متى خلا هذا الصامت بنفسه واجرى جواد قلبه على ميدان
 طرسه اراك من فنون الكلام عجباً واذا فاك من حلاوة البيان ضرباً وانثاك من
 انشائه وسلب لبك باساليبه وانخائه فتود لو كنت له ثليذاً وخديماً او سميراً
 وكليماً وقلت لا جرم ان من البيان لسحراً وان من الصمت لسراً فليس كل من
 اورد النوادر كان عالماً ولا كل من تمثل بالايات كان ناظماً فما العلم الا ما استقر
 في البال لا ما تفرق في المقال وهذا الذي يفيد الطالبين ويؤدب المتأدبين وقما
 اجتمع لمرء فصاحة اللسان وبراعة اليراع والناس في تفضيلهما ليسوا على اجماع
 وعندني ان الثاني بالعلماء اليق والاول بالخطباء وذوي المراتب البق فان هولاء
 محتاجون الى اعجاب السامع بالقول الرائع وان لم يتحروا في قولهم التحقيق مما لا بد منه
 للعالم ذي التنويق وفي كلتا الملكتين مزيه وفصيولة وفتيه فاما من خلا عنها ولم
 يحرز سهماً منها فعادة الناس ان يرموه بالمعائب و يشنوا عليه المثالب وما يكادون
 يرونه جديراً بشيء من الاحسان لانهم حصروا الفضل في فصاحة اللسان وبراعة
 الجنان وهو عندي في الجملة غير الصواب والقائل به انما يقول مجازفة بدون حساب
 فان كثيراً ممن ليس لهم احد هذين الشائنين يحسنون مباشرة الامور والتقلب في
 الرئاسة من دون شين فكم من امي ساس العباد وعمر البلاد وليس له في صناعتي
 الكلام والتاليف يدان حتى كان لا انامل له ولا لسان وانما هو نور يقذفه الله

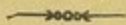
في قلبه فيرى به سليم الامور وسقيها ومنتجها وعقيمها والحري منها بالاجراء والنافع
 منها عند الاستقراء فيشمر له عن ساعد الهمة ويوقفه الله الى اصلاح امر الامة
 وانما يكون هذا في افراد الناس نادراً ولذلك قلما ترى له منهم ذاكراً واحسن
 الملكات واجل الغريزات ما تقع النيات ودفعت عنهم الترهات والفهم على المودة
 والاخاء وازال من بينهم العداوة والبغضاء والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم
 ويمد بالتوفيق من اتاه بقلب سليم



من الناس من يتسنى اسنى المراتب واسمى المناصب فيحاول المطالب ويزاول
 المآرب ويحكم السياسة ويزأم الرئاسة ويراعي فيها ارضاء الخالق والمخلوق وثناء
 الرازق والمرزوق ولا يلبه نعم الصفاء وصفاء النعم عن تمهد الضعيف وتفقد اليتيم
 وعن اسداء المبرات الى ذوي الحاجات واستماع شكوى المظلوم واستطلاع دعوى
 المهضوم حيث يعلم ان احب الناس الى الله انفعهم لعباده واكيس الكيسى من
 عمل لمعاده وعلم ان الله لا يضيع اجر المحسنين وان الدنيا لا تبقى لاحد من الموسرين
 ولا من المسيطرين وان من ولي الامور وجب عليه اسعاف الجمهور الخامل منهم
 والمشهور فمثل الرمان الذي يدخر الزاد في سفينته ويحكم السكان ولا يبحر
 الا على امان ولا يرسو الا وهو ذو اطمئنان جيران احوال الانسان في معاشه تشبه
 السفر في الابحار اذ هي مخوفة بالاعطار والاكدار فيينا يكون فيها رخي البال
 مقبوط الحال ذا اهل ومال واعوان واخلاق اذا بالزمان قد اضطرب عليه فاحاط
 به تهوره وهاج عليه معسوره والتفت به كوارثه وشملته حوادثه حتى تكاد تنضب
 عنه مزاياه وتشين مجاباه فيضيل للناس ان تلك الرئاسة التي نالها والمعالى التي طالها
 انما كانت عرضاً واقفاً وانها كانت عارية عنده لا خلافاً وان في وسع كل انسان ان
 يدركها مثله اذا ساعده الزمان ولكن ينبغي ان تعلم انه لا يتأتى لاحد ولي الرئاسة
 وان انتهت اليه الاداب والكياسة ان يرضي جميع الناس ويستخلص مودتهم له
 من دون التباس فان اغراض الناس متفاوتة متباعدة ومقاصدهم متباينة متعاندة
 واهواءهم كهبوب الرياح لا تستقر على اصطلاح فبعضهم يرى ان الرئاسة تستلزم
 الملاينة والميامرة وبعضهم يرى انها لا تستتب الا بالمشادة والمعامرة والمثرون منهم
 يشيرون بالفضن والاقتصاد والمعسرون يوثرون الكرم الجواد ولذا نرى المورخين

لا يتفقون على اوصاف من نبغ في ايامهم من اهل الامارة فلا تكاد تتحرى من
اقوالهم عبارة وذلك لعدم اتفاق اهوائهم ولتشتت انحاءهم وابعد الناس عن الرئاسة
من كانت نفوسهم في الدنيا زاهده ومن نظرنا الى الاشياء كلها بعين واحدة ومن
استهوتهم فلسفتهم الى التسوية بين الضار والنافع والسار والفاجع وذلك يؤدي الى
اهمال الاحكام واعزاز اللثام اذ لا بد من ان يكون الرئيس ذا بوادر تحيف اهل
الكبائر وتردعهم عن التادي في الشرور والمعاير ولهذا كانت خطة كل من ولي
الرئاسة صعبة متعبة وحالته حالة من وقع بين اضداد متأله واعداء متخربة فمرة يلزمه
ان يكون متشدداً مستقصياً ومرة اخرى يرى الاولى ان يكون هيناً ليناً مسترضياً
وتارة يتحرى الامساك والمنع واخرى الاجراء والنفع فاذا لزم لغيره راس واحد
لزم له رؤس متعددة فلا يهتبه مع تراكم الاعمال وتخالف الاحوال حظ ولا جده
هذه حالة الرئيس الذي يجتهد في ارضاء الله والعباد ويلزم الارق حتى يذيق غيره
لذة الرقاد ويواظب على اقامة الحقوق وتبيين الحق من المحقوق والناس له حاسدون
ولفضله جاحدون وما يدرون ما ينافي من الجيد والنعاء من جدي في كسب الحمد والثناء
ولعمري ان من ظن اعباء الرئاسة امراً يسيراً وخيلت اليه نفسه انه مع اخلاذه الى
الراحة يكون اميراً فقد اخطأ الصواب واخطأ الطلاب ومنهم من المناصب
تسمنه والمراتب تثقمنه وهو غير مترشح لها ولا مترقب وصلها فتجمع به الى حيث
تلتوي عليه الامور وتبجاذبه جوازب الخذور من المقدور وبماصيه من الصروف
اعصاها ومن الحوادث ادناها واقصاها فينبط خبط عشواء ويركب راسه في كل
فيء ثقة بسعد طالعه ومجد مطالعه فان ساعده الجد استمر في ولايته واستقر على غايته
بفجار وظلم وعال وهضم وغدر ونذمر وتجبور وتكبر واكل اموال الارامل والايتام وسلط
اللثام على الكرام ولم يراع عهداً ولا آتياً ولم يراقب ولياً ولا خلاً ونسي من كان
يالفهم في المنزل الخشن وركن الى الزمان ومن صروف احواله امن وهو دليل على
ما للخالق عز وجل من الاسرار الخفية والحكم المقضية لانه تعالى حين يرى عباده
قد آثروا الفساد وعدلوا عن سجة الرشاد يسלט عليهم مغدراً جباراً ومحكماً قهاراً
ليعتبر به من اعتبر ويزدجر من ازدجر فلا تحسبن امهاله اهمالاً ولا تنسبن الى
تدبيره خلافاً تعالى ثم تعالى ومنهم من لا يرتاح الى رتبة ولا رئاسة ويرى انها توجع
راسه وتذهب نعاسه وتنضب ارغاسه فيختار ان يكون محكوماً لا حاكماً ومظلوماً لا

ظالماً بناء على انه حليف الامانة والاستقامة واليف الصدق والسلامة فما احد يشاه
بظلامه او يلقاه بلامه فانحول عنده خير من النباهه والتعالي اذ السيل حرب للمكان
العالي وليس سقوط من كان على مرقبه كسقوط من كان على عتبه الا ان الحق يقضي
على امثال هذا ان كان في رئاسة تقع للناس ودرء لباس ان يسارع اليها ويحرص
عليها فما حسن ان يكون للانسان راس مال وهو يخفي منافعه ويكتم صنائعه فان
فان الاريب الكامل واللييب العاقل من توخي تقع سائر البشر بما خصه البارئ تعالى
به من المزايا الفرر لا من اجترأ بنفع نفسه وعليها اقتصر والله يهدي من يشاء



من الناس من يتعب في شبابه لراحته في مشيبه لعله ان زمن المشيب يحول بينه
وبين دوؤبه ونصيبه اذ يستحوذ الاعياء على رجله والكلال على يديه والكلول على
عينيه والحوول على اصغريه والوهن على جلده والافن على خلدہ والنسيان على ذكره
والاشجان على فكره فيرى اليسير اذ ذلك عسيرا والبشير نذيرا ويخيل له الصغير
زئيرا فتخونه مشاعره وتبسله خواطره ويلازمه البلبال وسوء الظن في كل حال
ضرورة ان وهن القوى طليعة وهي النهى فلا تكاد ترى اذا اعتلال الا وفي عقله
اختلال وما فالوه من ان الشيخ يستحكم رأيه ويتسدد حزمه فيصيب ظنه وبقرطس
مهمه فالما هو مبني على سلامة البدن او ان شيخيته لاعلى مجرد طول سنه مع
الضعف الذي يعانيه وهيئات في هذا الزمان الذي يمتحن فيه الطلب وترهق النوب
وتتعاقب المصائب وتراكب النوائب ويخذل الجبار وتجنس الاحرار ويشط المجير
ويسلو النضير ويكثر الشامت ويهتر الماقت ان تدوم للمعم صيحته وتسلم له منته
ولهذا ترى المعمرين في هذا الزمن قلما ينتفعون بتجارهم او يفضلون بها على مشاغبيهم
وهذه الخلة اعني التعب في الشباب لحصول الراحة في الهرم تكاد ان تكون من
خصوصيات الافرنج دون سائر الامم فهي عندهم اصل المم والالم ومنتهى النهم قترام
يتغربون عن اوطانهم ويتعمدون عن اخوانهم واخذانهم ويجدون ويدا بون و يكدون
ويتصبون ويقتحمون الاخطار ويتجرعون الاكدار ويسهرون الليالي في الاختراع
والاستنباط ويطلبون المعالي بمبالغة وافراط حتى يترفها في اخر حياتهم ويطيب لهم
الاجتماع باهلهم واحبابهم ولداتهم ومنهم من لا يفكر في العواقب عند التسباب فلا
يدخر شيئا مما اكتبه من الطلاب فكل ما يكسبه في يومه ينفقه ويقول ان الحق

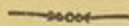
تبارك وتعالى يكفله ويرزقه فما ينبغي له ان يكون مدخراً شيئاً الى الغداذ الغد
موهوم وليس على الموهوم من معتمد فذلك عندهم داب اولي الرشد وشان من آثر
ان يحمده حتى اذا اعيان عن السعي وفاته الطلب فلا تماسك عنده ولا وعى وراى ان
ربيع ايامه الذي غير لم يترك لشتائها ملجأ من الغير وموقى من الكدر اخذ يتندم
على ما فات ويرمي الدهر بالاعتات ويتاسف على تنهايته في الموبقات وانصابه الى
الشهوات وهيهات هيهات فهل ندم على فائت ينفع وهل في استرجاع الشباب مطمع
وتلك في الغالب خللتنا بل بالحري علتنا وبكل من هاتين الخطيتين وردت اشعار
المتقدمين وتبين منها رشد الرشيد وافن الافين يعلم ذلك من يفتن الى انحاء الكلام
واختلاف مقاصد الانام والراي عندي الاول ولا يتم ذلك الا بثلاث خلال الحزم
والمواظبة وكتبان الحال ولا بد من شرط القصد بجانب الشطط وهي حالة وسطي بين
من افراط وفرط اذ كل من الافراط والتفريط مذموم والكلف باحدهما ملوم الا انه
ينبغي ان تعلم ان حصول الراحة بعد التعب كما تقدم انما يتسنى للذين يلون الاعمال
العظيمة والمساعي الجليلة من نحو التجارة والصيرفية والمعاملات البعيدة الجزيلة اما
اصحاب الحرف والصنائع فلا يزالون في بوس فاجع ونصب واضع وتعب باخع وذل
تابع ولطف بتضاعف ووجل بتكاثف فانهم لا يزالون مشفقين من البطالة وهي
للمحترفين شر حالة ولا سيما اذا اقعدهم السقم وارقمهم الالم وكانوا ذوي عيال معولم
عليهم ومستندم اليهم فيكون همهم في هذه الحالة متضاعفاً وحزنهم متوارداً واذا نظرت
الى هذه الطائفة من الناس وتاملت في احوالهم تامل منصف غير ناس للقوق البشرية
ولا متناس راعك خطيهم ولا عك نخبيهم وانساك شانك ما تراه من شأنهم واذهلك
عن فبك ما تشاهده من افنائهم فانك اذا دخلت قصور الملوك والامراء وذوي
السعادة والاثراء واهل السيادة والوجاهة والنبالة والنباهة ورأيت ما فيها من التحف
الباهرة والامتعة الفاخرة والحلى والجواهر والانية والذخائر والتروش المرفوعة والمتكآت
الموضوعة والمحاريب والتماثيل والتصاوير والتشاكيل والزينة والنقوش والبهجة والرقوش
والتذهيب والترصيع والتنضيد والتنويع وغير ذلك من كل ما تتوق اليه النفس
ويشتهيه الطبع وتقر به العين ويضطرب السمع علمت ان ذلك كله من كد هؤلاء المعتمدين
وان شقتوهم في العيش انما هي لسعادة المترفين الكسولين لا جرم انه لولا كنب ايدي
هؤلاء العملة المتواصل وشنتهم وشزنتهم وشثلهم كثفنت البوازل لما نعمت للمترفين

نامل ولولا مشي اولئك لما ركب هؤلاء ولولا ظمهم لما طاب لهؤلاء الطلاء ولهذا لا ينبغي ان تحتقر احداً ممن يعملون بايديهم ويمتهنون انفسهم لصيانة وجوه معلمهم فان زينة الكون بهم وعمران الدنيا متوقف على دابهم فهم اولى بالاكرام ممن يصرفون اوقاتهم في اللهو والمدام والقصف والاثام وسواء منهم من يكسو الراس بعمله او يكسو القدم ومن يطعم سيقاً او مبراة للقلم فهم جميعاً بمنزلة اعضاء متعددة في جسم واحد فليس لك ان تقول ان هذا العضو مستغنى عنه او انه من الزوائد ذلك صنع الله الذي خلق الناس فاحسن خلقهم وجعل من ابواب متفرقة رزقهم فما يعجز عنه واحد من خلقه يقدر عليه اخر وكلهم مشترك في العمل الى ان يحين الاجل

من الناس من يبالغ في مدح وطنه ويحن اليه حنينه الى سكنه فيصف مروجه ورياضه وبروجه وحياضه ووراهده وجباله وتللاه وتلاله وربوعه ودياره ونباته واشجاره وبقوله وثماره ودرجه واطيواره وطيب هوائه ولذة مائه ويزعم ان فضوله كلها كالربيع حسناً وان جميع اقطاره تتدفق بركة ويمناً وان شهراً فيه خير من الف عام في غيره وان كل بلد مستمد من خيره ومحتاج الى ميره ثم يزفر زفير المائم الخيران ويصرخ صراخ الوطنان الا ان حب الوطن من الايمان لقد جبت السهولة والحزن وربت الذلول والامون وطوفت في الامصار وجولت في الاقطار وضربت في مناكب الارض مستقصياً واختبرت احوال من عليها مستفتياً وسبرت اطوارهم واوطارهم وعلت قوافيهم واسرارهم فلم اجد عيشاً هنيئاً الا في بلادي ولم يرفني شيء غير ما رابته فيها من طاريء عادي فعمت البلاد مشوى وطابت مقاماً وماوى انها لجديرة بان تكون مقاماً للولوك وما غياهم عنها الا من النوك فمن اين يجدون لها شيئاً ومن ذا الذي يبني عنها حوًلاً هي البلاد التي تنزلت بها الشعراء فقال فيها فلان ابياتاً وقال فيها فلان قصيدة غراء واسمع ما قيل في جداولها ونواعيرها وبلايلها وعصافيرها وخمائلها وازاهيرها وصروحها وقصورها رمصانها ودررها وظبايها ومراتعها وزكاتها ومواقعها وفي اريج افاقها وبهيج اشفاتها ونضرة حدائقها وبهجة شقائقها بل قد ذكرت ايضاً بعض الكتب المنزلة في عدة مواضع مفصلة فقول انها معدن الخير والكرم ومشوى الصالحين من الامم ومنها كان مبدا الصنائع والعلوم وفي كل معمول ومعلوم فاذا قلت له كيف جارك الادنى لعله كان لك عوناً وخذناً قال ويلى انه شر

جار وهو على البلاد عار وشنار فكيف جاره الذي يليه عسى انه من توافقه وتصانيفه
 قال ويلى انه شر من اخيه فكيف اهل الحارة طراً قال ويلى انهم كانوا كلهم علياً
 شراً ولم اجد منهم الا شراً فكيف اهل البلد اجمعين قال ويلى ما منهم امير
 ولا معين فما كلنهم خلقوا من ماء وطين قال ويلى افي قد اختبرتهم جميعاً فلم اجد
 لاحد منهم من خلاق وان هم الا جهال اغبياء يتقادون لمن يامرهم من الاغبياء
 فانهم عبيد الدرهم والدينار ولا يباليون الا بملء بطونهم ولو من الخسار
 فكيف اهل المدن والامصار قال ويلى انهم اولو غبن وغش وتغريب واخفار ما
 تعامل منهم من احد الا ويمنيك بالكمد والنكد والخسار لانهم لما كانوا متقلبين في
 امور المعاش ومنهمكين في اتخاذ الاثاث والرياش ظنوا ان سائر الناس همج فما
 عليهم في غبنهم من حرج فكيف اهل الجبال عسى انهم ممن صفت طويتهم وطاب
 منهم البال فملك خلة قد اختصوا بها في جميع الازمان وشان قد عرفوا به في كل
 قطر ونعم الشان قال ويلى ومن اين لم الصفاء وقد فطروا على الشراسة والجفاء
 فابتعدوا عن الاداب فكادوا ان يمحوا مع الذئاب فان احدهم ليقتل اخاه على خبزة
 يسد بها جوعه ويسلب صديقه في اكلة ويحرمه هجوعه هذه حالة سكان البلاد الحاضر
 منهم والباد فلا تكثرن من السؤال ولا يخطرن ببالك غير هذه الحال فان قلت له
 ولكن كيف اشتمت بالادكم على تلك الحاسن واهلها على هذه المساويء الشوائب
 قال ان اهلها الاولين كانوا من الخيرين فحرقوها وزرعوها وعمروها وامرعوها ثم فسد
 الزمان فجاءت خلفاؤهم فاسدة لكن بقيت تلك الحاسن فيها فائدة ولكن ما معني
 الزمان وهو لم يكن صالحاً قط منذ خلق الانسان والتوارىخ على ذلك شاهدة ونصوحها
 عليه متساندة متعاضة ثم كيف فسدت الناس وانت بقيت من بينهم صالحاً ترى
 كل من سواك طالحاً ولو كنت من الصالحين لما رأيت في غيرك خلقاً يشين فانما
 ينظر في عيوب الناس من كان اسوأ منهم حالاً (ومن يك ذا فم مر مريض يجد
 مرأ به الماء الزلالا) كذا قال الشاعر الحكيم فما انت في طعنك على جنسك الا ملهم
 وان امرءا يحسب جميع اهل بلاده دونه لجدير بان يشيعوا مفتونه ويذبوا جنونه
 ويتجنبوا محضره ويتنكبوا منظره فيالعجب ممن يمدح وطنه ليرجع المدح الى نفسه
 مع ذم قومه وجنسه ومن لا يعجبه شيء مما يقال الا اذا كانت ذاته وصفاته محوراً
 ليقال ومع ذلك فانه يقول حب الوطن من الايمان هو لاهله شأن ويذكر عيوبهم

شكران وعن عيوب نفسه وسنان هكذا حالة أكثر الناس في هذا الزمان وهذه محبتهم
 للواطن وهي محبة كاذبة ودعوى عابثة ومنهم من يفار على وطنه ويجهتد في نفع
 سكنه واذا ذكر من قصور اهل بلاده شيئاً فانما هو لتسويهم لا لتسويهم ولحشهم على
 الوصول الى الكمال لا للتدبير بهم لدى الاجيال ولكي يجعلهم على عظام المساعي
 لا لان يقوم بالنبي على افعالهم مقام الناصر الناعي قراء كما سخط فرصة لنفهم
 انتهزها او لبانة خيرهم تفجرها فمثلها كمثل المرابي الشفيق والمتعهد الرفيق الذي يحزن
 لحزن من يتعهده ويفرح لفرحه ولا يطيب له عيش الا اذا رآه مثله في غبطته
 وسرحه ولا جرم ان العيش لا يطيب الا اذا كان لكل واحد من رغبة حظ ونصيب
 فاما اذا اختص الانسان بنعمة وراى غيره في كرب وغمة فلان يهينه وروود مشربها
 والتمتع بها وقولنا الانسان المراد به من كملت انسانيته وصفت سريرته ونيته فهو يركب
 سعادة جاره داعية لبوغ اوطاره وتشديد داره لان من كان ذا عينين ولسان يطعن
 بلسانه طعن السنان وينظر بعينه معايب الاقران فشتان ما بينها ثم شتان فقد
 عرفت ان بعض الناس يمدح ولا غيره له وبعضهم يفار ولا يمدح وان هذا هو
 الاصلح الاقل لمن يطرى نفسه ويذكرها ان انت بهذه التزكية الامدكيها وان ما
 خفي عليك من شينها اكثر مما ظهر لك من زينها وانك كما تدين تدان وكما تهين
 تهان فان كان قد استحوذ عليك النقول لعمرك رفع الفاعل ونصب المنقول واستهواك
 المغرور لمعرفتك بون جور فاعلم انك ما علمت شيئاً الا ما علمت ولا فهمت معنى الا ما
 فهمت فبم تفختر ومن الذي تحقر ولم لا تعتبر فتزجر وفيك يدخل الطاهر فيستحيل
 نجساً ولست ترى الا مفراًحاً اشراً او جزعاً مبهتساً فاقن الحياء وليكن عرفانك بقدرك
 اول ما تعرفه من الاشياء ان الله عليك رقيب ولا يخفى عليه مغيب



من الناس من يولد في النعمة اية ينشأ وحوله من يخف اليه بالخدمة ويكسبه
 كما يشتهي من ما كول ومشروب وملبوس ومركوب واذا نظر راعى كل شهى
 انيق واذا استمع لم يستمع الا ما يليق فتمتلي عينه من امانى النفس ومطامح
 الخدس وتجالس الاكابر فيطربه خطابهم وتقصده الاما جد فتعجب ادا بهم فاذا
 دام على هذه الحال جد في التفرد بحسن الخلال وكرم الفعال والوصول الى درجة
 الكمال واذا زاد عزاً واقبالاً زاد شيئاً وجلالاً فلا يكون صلفاً مفراًحاً ولا شرساً

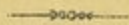
متباحاً ولا لهجاً بذكرها لذبه ولا نخوراً بما حصل عليه ووصل اليه حتى يسوي عنده الكثير والقليل والحقير والجليل وهي الحالة المستفادة من التفلسف الحاضرة على التمتع والتعفف فاذا حط الدهر مرتبته وخفض منزلته كما هو شأنه في دورته وتقلبه وثورته وتغلبه صبر على النير والقدر وتذكر انه احرز من رعد العيش نصيباً وافراً فاذا غير فرب غابر يعود غابراً فاذا لم يعد اليه ما فقدته اكتفى بما عنده من الحامد وهي عند اللبيب خير جده فهي التي لا يعترها نقصان ولا يشترق اليها عدران الزمان وهي ذخيرة للذخر ونخر للفتخر فكما خاض الناس في ذكر المآثر وعدادوا المنائب والمفاخر افتتحوها الذكر باسمه واطنبوا في مدح يذمه وتأسفوا على تقلص ظله من رفع الى خفض وتغير حاله من وفر الى برض ورجوا له العود الى شأنه الاول وتفاءلوا له بالخير بكل ما وقع وحصل حتى كلنهم مشاركون له في احواله او انهم من بعض عياله ولا يخفي ان اقبال الناس على من دهاه الزمان سلوان وان سلوان وان بقاء الحمد والثناء عليه تسلية له عما شمله من المصائب وتطليب لنفسه مما اعراضه من النوائب اذ الانسان ما دام عائشاً بين الناس وله بهم اتصال لن يستغني عن ايناسهم له ولو بالمقال كثيراً ما نغني فوائد اللسان عن فرائد الجمان وفلائد العقيان فاما من لم ييال بما يقال فيه ولا يكثرث لزم ذاميه ومدح مادحيه فعليه ان يعتزلم ويعيش في قن الجبال وحينئذ فما عليه من القيل والقال والا فانه يستهدف لالسنة هائنة صادرة باترة تصيب منه الحز وتبلغ منه مبلغ البرز ولقد رأينا كثيراً ممن ذهبت عنهم السعادة والجد لم يذهب عنهم الفضل والجد لم يبرحوا قدرة للناس في افعالهم وكالمثل السائر في كلامهم وكالمعنى اشار الشاعر وهو قول حكيم ماهر * ان الامير هو الذي يندو اميراً يوم عزله * ان زال سلطان الولاية لم يزل سلطان فصله * جبر ان من كان في السيادة اصيلاً ليس من كان فيها دخيلاً وانك اذا توسمت طلعتة وتقرست في احواله حلت الرئاسة من خلال افعاله واقواله فتلك خلة ترافقه وصفة لا تفارقه ومنهم من يولد في البؤس والشقاء وينشأ في الخمول والضمعة والخفاء فان ساعده الدهر على تبديل هذه الحالة بجمالة هي فوق السفالة ودون النبالة فاحرز من الدنيا بعض حطامها وجالس بعض كرامها فرح و بطر وتاه واشر وظن انه ارفع الناس قدراً واجلهم شأناً وذكرنا فقال انا الذي نتودد اليه الامراء وتهاب مقامه الكبراء فلوشئت لنقيت من البلد كل من عاداني وحرمت

الرزق كل من جافاني وانا منار العلم ومداره ومرجع الفضل ومحاره ومعدن الفضائل
 ومحتدها ومصدر الاداب وموردها وقبلة المال ومقصدها قد ذاع صيتي كالمسك نشرًا
 وتارج عبر مدحي فملا الارض فطرًا فطرًا وان كنت لم اصل بمد الى درجة
 الوزراء فالتما هو لعة مني تاجي الا السراء فان الوزارة تعب والامارة نصب او ليس ان
 الناس جميعًا يقولون انك امامنا ونعم الامام ولا نطبق بعدك يوماً من الايام لا جرم
 انهم لا يستغنون عني ولا يسمعون الا مني وهذا شأن في كل بلد سكنته وقطر استوطنته
 فمن ودعتهم فهم الخاسرون ومن سلمت عليهم فهم الظافرون واذا خلع عليه احد الكرماء
 جبة او فرواً جاب الناس وتاه عليهم زهواً فظن انه الكاسي وكل الناس عراة وانه
 المنعم على من انعم عليه سواء بلباسه وقراه اذ يزعم ان مجرد ذكره لانسان احسان له
 وامتنان وان جحد صنيعه وكم دسيه وما درى ان الكفر مخبئة لنفس المنعم وانه
 اذا التهم طعام غيره لم يقل فيه الا انه شر ملتهم واجشع ملتهم وانزع من منهم
 كذلك شان من هو حديث النعمة وتقييد البوس فانه يتيه على الجاوس ويدهمهم من
 القول بما تشتمز منه النفوس فلا تراه الا نخوراً متمدحاً وجسوراً متبجحاً وعقوراً
 مؤذياً وزنبوراً مدمياً لا يشكر منعماً ولا يحمد مكرماً لاعتقاده ان اكرامه ضربة
 لازب وفرض واجب فويلي على حديث النعمة القديم الهمة الفاسد الشئمة السافط
 المروءة والهمة الذي لا يرى لاحد حرمة ولا ذمة واهون شيء عليه نقض العهد
 وصرم الودود ونسيان المعروف وهجران الالوف وما ذلك الا لانه اخصب بعد الخل
 ورطب بعد اذ هو قحل فياحسرة على من يفتر بالدنيا الغرور وهو يراها في كل
 يوم بالاحرار تدور وعلى الاخيار تجور ولو دامت لاحد لم تصل الينا ولو استقامت
 في سيرها لما عاجت علينا فلا يركن اليها الا الغافلون ولا يحرص عليها الا الجاهلون

من الناس من يكلف بعلم واحد او فن واحد او صنعة واحدة فيقتصر عليها
 ويشغل بها طول عمره فلا بد من ان يفوق بها على اقرانه ويضير بها علماً مشهوراً
 حتى انه لو قصر فيها مرة او اخل بها من وجه من الوجوه لوجد من يعتذر عنه
 ويفضي عن قصوره فيجوز على الناس ما اخل به كما جاز عليهم ما احكمه على حد
 سوى لانهم قد القوا منه الاحسان والاتقان وهذا على حد قولهم من عرف بالصدق
 جاز كذبه ومنهم من ينتف من كل علم تنفة ولا يتمكن من شيء من الفنون فترى

عنده مشاركة فيها بحيث لا توهمه للرئاسة ولا باس بكلا النوعين وانما الباس في
العجاب بها والتوصل بها الى الدعوى والمطالبة فان من يقتصر على فن واحد اذا
غلب عليه العجب به اخذ في احتقار سائر العلوم فيرى انها فضول بالنسبة الى فنه وصاحب
الفنون المتعددة متى جالس احداً وعرف انه من المقتصرين على فن واحد باغته في
الفنون التي يجملها يريد بذلك تفضيل نفسه عليه ونسبة الجهل والعجز الى جليسه
وكثيراً ما تودي هذه الحالة المحجب بنفسه في انواع شتى من الفنون الى ان يتوق الى معرفة
الصنائع ايضاً لانه يزعم ان تحصيله لمبادئ الصنائع اهن عليه من تحصيله لمبادئ
الفنون فرى عنده آلات التجارة والحداة والصياغة فاذا سأله زائر ماذا اردت
بهذه الآلات قال اني اوتيت من كل شيء عملاً ثم تتوق نفسه ايضاً الى شراء اشياء
كثيرة من قبيل الاثاث والفرش فكما زاره احد اخذ يصف له خاصيتها واحوالها
ويبين المواضع التي صنعت فيه والرجال الذين اخترعوها حتى يقال انه خبير باحوالها
فضلاً عن كونه قادراً على شرائها فاذا خرج من داره ولقي بعض معارفه افرد له
بالذكر متاعاً واحداً من تلك الامتعة واخذ في اطنابه بان يقول مثلاً قد ملكت
بساطاً لم يملك نظيره احد غيري ثم يلاقي آخر فيقول له ان في دارى حقنة لم تصنع
الافرنج لها مثيلاً وهلم جراً الى ان يعدد جميع ما عنده من البيات فان لم يجد في
الطرق من السامعين قدر ما عنده منها قصد الناس في منازلهم واتم عليهم ذكر الباقي
فاذا انتهى من الافتخار باثائه رجع الى الافتخار والتمدح بقنونه وخصاله وسيرته
في الناس واطراء الناس عليه فيقول اني في اليوم الفلاني من الشهر الفلاني اجبت
عن مسألة في النحو وبعد هذا التاريخ بشهر اجبت عن مسألة في الصرف وفي
كذا من شهر كذا زرت فلاناً فجاءني بخوان الطعام على رأسه وفي ليلة كذا زارني
فلان مساء بغتة فقدمت بين يديه شرة الوان من الطعام فلما كان اليوم القابل
خرجت الى السوق واذا بالناس يضربون المثل بتلك الالوان والامراء يرتاحون الى
لقائي وهشون لقدومي والحكام لا تفصل امرأ دون مشاورتي والتجار ياتمنوني
على جميع اموالهم ويود احدهم لو اشترى منه شيئاً ولو نسيئاً وان اهل البلدة لا
يستغنون عن وجودي ما بينهم حتى انهم لما بلغهم ذات مرة اني مفارقهم اقبلوا الي
جميعاً وحكوني في اموالهم وذلك من فضل ربي فانه حببني الى الناس اجمعين وجعل
قلوبهم في قبضة يدي وهو الذي يرزقني بغير حساب ويهديني الى طريق الصواب

فلم اعلم من نفسي اني ضللت يوماً عن محجة النجاح ولم ابث ايلة الا وانا موقن باليسر
والفرج عند الصباح وكل ما يسمعه من كلام الناس في غير مدح نفسه فهو عدوه
سدّي وكل ما يجده مسطوراً في الكتب على غير هواه فهو باطل فاذا كان الممدوح
بنفسه على هذه الصفة مضطرباً بجميع العلوم والفنون وخبيراً بسائر الصنائع والحرف
فهل يطبق احد معاشرته وهل تغني عنه فنونه في ادب المجالس شيئاً مع انهم شبهوا
العالم بالغصن المثمر فكما زاد علماً زاد تواضعاً وانما يحرص على التمدح الجاهل الذي
لا يشعر بقصور نفسه وعيب كينته فقسول له الغواية والضلال ان جميع مساوئه
محاسن ومحاسن غيره مساوىء واذا سمعته يمدح احداً على شيء فانما يكون الممدوح
راجعاً الى نفسه لانه مبني على ان ذلك الممدوح قد اجله واكرمه او وصله ببعض
دراهم فهذه صفة العالم المعجب بنفسه سواء كان علمه مقصوراً على فن واحد او فنون
متعددة فخير منه الجاهل المتواضع والفر المودع والله يهدي من يشاء



اني كثيراً ما فكرت في فن البديع الذي هو من بعض الادلة على فضل اللغة
العربية على سائر اللغات فاحببت هذه المرة ان انشيء مقالة برمتها من نوع الترصيع
ومثاله في الكتاب العزيز ان الينا اياهم ثم ان علينا حسابهم فيها انا ادعو جميع من
على وجه الارض من الافرنج لمعارضة هذه المقالة وهي
من الناس من تخلج فكره من فنون الاقتراح خواجه وتلعج صدره من شجون
الاجترار لواعج وتزعجه المآرب الى اقصى الروامي وترعجه المطالب الى اعصى الموامي
وتستفزه وتستهو به وتستفزه وتستغويه لكنه يفتح لها صبره ويشرح صدره ويجتنب
منها بوارح الغصص ويرتقب لها سوانح الفرص ويقيم انبجاعها ويتبين اتفاعها ويحذر
مشروعها ويسبر موضوعها فلا يبغيتها الاحذراً ولا ياتيها الا حظراً ويرى ان
الانتظار احسن معين على تحصيل الامل والاصطبار ايمن قرين لتسهيل العمل
ورب عجل اهب الاجل ولا يخلو ابتسار عن انهيار ولا تجلو اوطار مع اخطار ولا
يعلو منار في مغار واذا دانت نيه او هانت ثنيه او حانت امنيه لمن غادر التبصر
ويادر التهور فطال طلباً ونال ارباً فانما يكون من قل النوادر ولا يهون لكل مخاطر
فالبيب الحازم ما تأني فيما تمنى والاريب العالم من لا يتعنى الا لما به يتقنى اذ ليس
الاستكثار مظنة للرفاهة والا الاستهتار مئة للتباهة ومن تبصر في العواقب وتدبر

في النوائب ايئن ان الرزق قدر على مقدار لا يتعداه والرفق حصر في مضار
 لن يتخطاه فلا وفور التردد يكوره ولا ندور التعهد يحوره ولا ملازمة الارق تعجله
 ولا مداومة الشفق توجهه ولا شيء من الاشياء يفقده ولا حي من الاحياء يوجد
 جبر ان الرزق محدود كما ان الحق موجود والخلق معدود الا انه من الراتب المتبين
 ادائه والواجب المتعين قضاؤه على من انصف بالسداد واعتمكف على الرشاد وكلف
 بالخلال وانف من الحرام وعزف عن الجدال ووزف الى السلام وصان وجهه عن
 الابتذال وزان كنهه بالاعتمال ان يكد قاصداً ويجدر اشداً كيلا يكون كلا على
 غيره او علا لميره فيقلق لقاءه ويتلي هجاؤه وتشنأ لهجته وتبدأ بهجة وتبدو محاسنه
 مساوي وتغدي ميامنه مغاوي وحينئذ فما جاء من اثر عاد عليه وبالاً وما شاء من
 وطر فاد لديه تبالاً ومنهم من اذا طلب بغية او خطب منية امهرها عرضاً مباحاً
 واصدرها عرضاً متاحاً واعد لها صدغاً لا تعمل فيه المعاول واجدلها نزغاً لا ترسل
 عليه المقاول بين اقبال وادبار وابطال واصرار فكر وهم وعر وغر وبربر وثرثر
 وصرصر وقرقرهمزة لمزه نبرة نغزه لزمة نشبه حطمة تقبه ملح ملحف ببحج مجحف
 لا يصيك به كلام ولا يحيك فيه ملام ولا تقمعه المقامع ولا ترده الروادع وما من
 جابه يحمله على الهيبة ولا من ناجه ينقله الى الخيبة فلا يزال يغدو ويروح ويندو ويروح
 ويشدو وينوح حتى يمتص مار به ويهتصر مطلبه فهذا في عصرنا يعرف بالحول الماهر ويوصف
 بالزبل الظافر بل الاول الاخر اذ العمدة في حوز ما قام بالنفس والعهدة في فوز
 ما حام على الحدس كيفما كان من وسائل الاتجماع وهان من وسائل الانتفاع ذلك داب
 اولي الجشع وطب ذوي الطمع فلا يانفون من سوال ولا يصدفون عن محال ولا يعرفون من
 محال وما لهم بالعواقب من مبالاة ولا في المناقب من مغالاة سواء جاروا عن الام او حاروا
 في الدم او لبسوا الفضائح او قسوا في القبائح حتى اذا هتاهم الادم ومرأهم المدام
 سنخروا من نولهم بطرا وقرروا عمن خولهم اشرا ونسبوا بذله الى الاضطرار وحسبوا
 فضله من الاعتزاز وهو كفران مبین وخسران مهين ومنهم من يقر على الكسل ويفر
 من العمل ويقول ان الله جل سلطانه وهل احسانه خالق الاسباب ورازق النعاب
 فهو يرزقني بغير حساب ويرمقني من ضير الذهاب والاياب اذا لزمت معاني فهو
 يغنيني وان اتمت اتاني لا يعنيني فحدي ان ابتهل اليه داعياً وجدى ان اتكل عليه
 راجياً فلا اجري ولا اسمي ولا اسري ولا اشقي واذا كان قد تميز عن امثاله يرسم

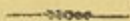
من العلم وتمييز عن اشكاله بوسم من الفهم راد في سرفه وزاد في صلفه فصادرهم
 بمؤوته وناظرهم على معونته اعتماداً على فضائله واستناداً الى شمائله وانه اكرم منهم
 وافضل واعلم وامثل واحلم واكمل وهذه محنة اخرى ومهنة خسرى بل فتنة كبرى
 لا جرم ان الله هو الخلاق العليم والرزاق الكريم وانه قدر كل سبب فاحسن تقديره
 ويسر كل طلب فانقرن تيسيره وانه ياهم خلقه صنيع النعم ويقم رفقه على جميع
 الامم وان منهم الحاكم والمحكوم والخادم والمخدوم والقاصد والمقصود والحمد والحمد
 والجلادي والمستجدي والهادي والمستهدي الا ان الاليق بمن صفت سمجته ووفت
 مروته وزكاصله وذكابه ان لا يكون وكلاً عاجزاً وقشلاً عاشراً متناوماً عن
 المعالي متشامكاً بالليالي متودداً الى المائخ والمائخ متردداً في البارح والسائخ اسير
 الوسوس حسير الهواجس اليف الظنون حليف الشجون قرين الاوهام خدين الاحلام
 فان ذلك من عوائق النجاح ومغاليق الفلاح وان ذا الاحسان من هذا وعى ان ليس
 للانسان الا ما سعى

من عاشر الناس وقام فيهم مقاماً مشهوراً وحل منهم محلاً مذكوراً وجب عليه
 ان لا يقول لهم الا الحق وان كان في ذلك العبء الا شق فان الحق ثقيل بالطبع
 على سامعه وقائله وراويه وناقله وما تكاد تجمد واحداً من الف من الناس يرتاح
 اليه او يعوج عليه فقد الف الخلق منذ القديم التلعي بالاكاذيب فلم يبق لهم من
 دونها خلاق من الصدق ولا نصيب ومعلوم ان ما جاء مخالفاً للطبع تشتمز منه
 النفس وينبو عنه السمع ولست اعني باصحاب هذا المقام المشهور من فلد امور الجمهور
 من اصحاب السيادة والرئاسة والحكومة والسياسة فان براعة هؤلاء انما هي في كتم ما
 في ضميرهم واخفاء الظاهر من امورهم على ما يقتضيه منصبهم ويوجبها ماربهم وانما
 اعني الوعاظ والخطباء والمؤلفين وكتاب صحف الانبياء فهؤلاء مكلفون من قبل
 الباري تعالى الذي فاض عليهم فضله وتوالى بما اتاهم من الحكمة وفصل الخطاب
 واهلهم للاطلاع على الحقائق من دون حجاب بان يبلغوا الناس اجمعين كلام الحق
 المبين فان مسموه فقد نالوا اربهم الى قصواه وان تولوا عنه فاجرهم على الله وبيق ما
 قالوه وما كتبوه شاهداً لهم فواهاً على انهم ادوا الامانة حق موداها ولا غرابة في ان
 من اخلدوا الى اللذات وتشاغلوا بالترهات يعرضون عن سماع انذارهم ويظنون

عاكفين على اوطارهم وانما الغرابة في ان ينكر كلامهم من قام مقامهم ورام مرامهم
 وهو كشف نقاب الغواية عن افهام الناس واطلاعهم على الحقائق من دون التباس
 وقد كان ينبغي لهم ان يكونوا جميعاً كالعازفين بألات الطرب فانهم يتواطون مع
 اختلاف الآتهم على ضرب واحد ونقمة واحدة وبذلك تمام الارب فاذا رأى رئيسهم
 من احدهم خروجاً نبيه الى المتابعة وارشده الى المواضع والا حكم عليه بالجهل او
 العصيان واخرجه من زمرة ذوي الالخان لكن من عساه يكون رئيس هؤلاء الكتاب
 الذين يهدون الناس الى الصواب او زعيم اصحاب الخطب الذين يأمرون باتباع ما
 وجب وينهون عن مجاوزة حد الادب وكيف السبيل الى ابلاغ الحق وارضاء الخلق
 ام هل يجب السكوت في مثل هذه الحال والاغضاء عن فشو الضلال وهل يظن من
 فعل هذا وانفرد عن الناس في قنة جبل انه يسلم من العذل (جمع عاذل) ولا يقبض
 له من عين الجناد ما يكون له ضدًا من شر الاضداد وحينئذٍ فما احد يسمع شكواه
 ولا يرثي لما دهاه مع انه لا بد في المحنة من بث الدعوى ونث الشكوى ولو لم يعقب
 ذلك سوى اظهار التوجع واشعار التفجع لوفى وكفى فلا بد للانسان من صديق
 يشكوا اليه وحميم يعتمد عليه ولهذا يحرص على ان يكون له اهل وذرية واخوان فانهم
 في المحنة خير سلوان ثم افكر واتول ان من كثرت اخدانه كثرت اشجانه وان مخالطة
 الناس توجب البوس والباس فان الماء الصافي المورد متى كثرت عليه الورد تكدر
 والثمرة الناضجة متى لمستها الايدي الكثيرة فانها المذر وقد قالوا ان السلامة في الوحدة
 والمخالطة مفسدة للصفاء اي مفدة ولقد طالما فكرت في امر النساك والزهاد والرهبان
 واعتقدت انهم اغبط نوع الانسان لانهم قطعوا علائقهم من الدنيا وتركوا همومها
 لذوي القينة والقنوة وعاشوا عيشة اهناً وارضى فليس لهم هم في المكاثرة والمنافسة
 والمفاخرة فكل ما اتاهم من رزق شكروا عليه وما ياتيهم الا ما تمنح النفس اليه
 ثم افكر اقول انه حينما اجتمع بشران اتفق شران وانه لا يمكن لاحد من هؤلاء ان
 يعيش منفرداً وحده ا يلزم حالة حرده فميشتهم اذا نكده وصفتهم صفة الحيوانات
 المتاعدة وقد فاتهم الاجر العميم والثواب الصميم في ارشاد الناس الى الصراط المستقيم
 وفي تعريفهم المعوج من القويم وتلك لذة لا يدريها الا من مارسها وغبطة لا يقدرها
 الا من لابسها ثم اعود وافكر ان الخلق اعداء للحق فلا يسمعون النصيحة ولا يتلعون
 عن النصيحة فلا فرق عندهم بين من ضرهم ونفعهم ووضعهم ورفعهم وانما يحبون

التماق الكاذب والاطراء على المعايير وتحسين القبيح وتشويه المبلغ واذا قلت لهم يا قوم
 ما كان لكم ان تحوضوا في هذا الحديث: تبدلوا اليب بالخيث فقد وردت به النواحي
 وقد خاض به اناس من قبلكم فنوا بالدواحي ولا تاتوا ذلك الامر فان موارد وخيمة
 ومصادره غير سليمة قالوا اجئتنا اليوم لتجملنا من العجاوات فما نراك الا ذاهنات فانت
 واحد ونحن جماعة فاي سلطة لك علينا واي استطاعة امانت وحدك على الهدى ونحن
 جميعاً سدى فان لم ترجع عن الفتن لتبليوتك بالحن انت هي الابداء وان انت الا
 جمعة فما ظنك بهذا الجواب لمن تحرى لقومه وجه الصواب وظن انهم يشكرون له
 صنيعة ويحسبون نصيبه صنيعة فياليت شعري اي الخطئين اولى واي العدالتين من
 العدل ادنى ايعتزل الناس طرماً ويعيش في البراري والجبال حرّاً ويخذله من اهل
 الشفري اهلاً وينسى ما وجب عليه من وظيفة الارشاد فرعاً واصلاً ام يظل بين
 قومه هدفاً للامام طيبياً لاسقام الافهام فما احد منهم على سعي يشكره او على هفوة
 يعذره بيد اني اعلم امراً واحداً راياه اتحري عامداً وهو ان الله لا يضيع اجر
 المحسنين وانه تعالى قال فاصدع بالحق والمراد في كل حين وانه قدماً مني المرشد
 بالتكذيب ورموا بالمعيب لكن الباري تعالى قيض من براهم ولو بعد مماتهم واطهر
 صدق كلامهم وصالح اعمالهم ونياتهم فاصبح الساعون يستنيرون بهديهم وسنتهم
 ويساكنون على سنتهم وامتلات الصحف من اقوالهم ولحيت بحميد افعا لم لا جرم ان
 من يغرس في ارض شجرة لا يترقب ان يجني منها في الحال ثمرة وما جدير بن قرا
 ودري وقدر الامور ويرى ان يكف عن البلاغ اذا علم ان ليس له عند سامعه
 مساع فرب كلمة اثمرت نعمة ورب محنة انقلبت محنة وضحك عاد ندحة فما يظن الايام
 الا من صبر وما يستوجب النعم الا من شكر زعل هذا وطننت نفسي واسكتت حدسي
 عالماً ان رضى المعتنت صعب وان لزوم جانب الحق لا يضره ثلب فاما من آثر رضى
 المخلوق على رضى الخالق وظن ان الشقاشق تغلب الحقائق فانه لا يلبث ان يرمى به
 من حائق فيقال له يومئذ لقد اذقت نفسك وغيرك ايضاً في التروير وعميت عن النول
 الماثور فيها ان من حالفك على الضلال صار لك خصماً يرميك بالاضلال ويقول ان
 تظاهرك بالمحامة عن زيد وعمرو لم يكن الا عن غش وختر ومداهنة ومكر وان
 مدحك من لا يستحق المدح لم يكن في الحقيقة سوى عين الدم والقدر فابتدر لاصلاح
 ما افسدت واعتذر الى من اضللتهم الى ما اردت فما عساه ان يجيب به ويدفع عن

حسبه الا ان يقول ان متاع الدنيا انساني حساب الآخرة وما هذه الحال من الاحوال
 النادرة فياويح من اضله هواه عن اتباع الرشد وظن ان لن يقدر عليه احد وقد راى بعينه
 ما صارت اليه الفتوة من قبله وما حاق بالضليل من سوء فعله وخطل قوله وخطا رايه
 وخطر جهله ولكن كيف يدعى لاتباع الهدى من طمس الله على قلبه وبصره فلم
 يبصر قصداً ولم يذكر امداً ولا حداً ومن زعم المواربة ارباباً والرياء طلباً فحسب قائل
 الحق ان يبقى كلامه لمن بعده حجة ودليلاً ودستوراً يرجع اليه في ملمات الامور
 جيلاً فجيلاً فيذكرون اسمه بالرحمة ويسمون ذكره كأنه لهم للمكرمات ممة وحسب
 قائل الزور اذا كبابه جده وافل سمعه ان يقال له فضح الله حاله وما قاله وكفى
 الناس اضلاله فهوذا قد جزى بعمله وخاب من امه ومهما يكن عند امرء من
 خليقة وان خالها يتخفى على الناس تعلم



من تبصر الامور وتدبر المقدر وتقلب في حالات الدنيا وذاق منها البومى
 والنعمى وراقب الناس في معاملتهم وتصرفهم وتفرقهم وتالفهم وقاصدهم ومساعيهم
 وظواهرهم وخوافيهم ونفهمهم وضرهم وخيرهم وشمرهم تاه عن الصواب وراه في
 الارتياب ومد على فهمه حجاب فانك ترى الانسان من وجهه لقا شريفاً ونوعاً لطيفاً
 لا بل قيل انه اشرف المخلوقات واكمل المبروات لكونه عاقلاً بصيراً مميحاً خبيراً
 قادراً على اعمال حواسه واعضائه وبها يدني كل ارب لحوائه يستخرج من السماوات
 والارضين ما خفي علمه وعز رومه ويستخر جميع الحيونات لما ربه المخترة ويصور الجراد
 على اشكال مختلفة مبتدعة واذا شاء جعل البر بجرّاً والبحر برّاً والحمر عبداً والعبد
 حرّاً والبرد حرّاً والحرقراً والظلام نوراً والمغمور معموراً والحزين سهلاً والبور
 حقلاً والوعر نجاً مسلوكاً والنفل ملكاً مملوكاً والسم دواء والسقم شفاء والزعاق
 فراتاً والارق سباتاً والبعيد دانياً والمريد عانياً وبالجملة فان كل شيء في الوجود
 كأنه لخدمته موجود وعلى ارادته مرصود ومن جهة اخرى تراه عتلاً زنياً شريراً
 لثيماً مريداً عنيداً حسوداً حقوداً شرساً شكساً ضيقاً طفساً قدراً مذراً ذعراً
 دغراً يفكر في السوء على جاره الخدين ويخاصمه على شفرة سكين فاذا تمكن منها بها نخره
 نخرّاً وتاد وهو يجر عطفه تيباً ونغراً ويحسب انه قد احرز بذلك ذكراً وتراه غير قانع
 بالكفاف ولا راجع عن الخاف ولا مقلع عن هوى ولا سالك طريقاً سوى ولا يزال ينكت

في الارض حتى يجد له سبباً للخصام وذريعة للانتقام فيقول لقد شهد لي شاهد من
 الارض مقنع مسجل عادل معدل على اني المحق وغيري المبطل فاني لي خلقت هذه
 المراتب وبي اختصت فوائد المخلوقات فما كان لاحد ان يشاركني في منافعتها او يسابقني
 الى مطامعها فهذا الانسان الذي هو مصدر التمدن ومورد التفنن يفعل ما لا تفعله
 الضبع في وجارها اذ يريد ان يشطف الدنيا الى اصبارها ويبتلعها بمخذا فيرها ولا يرى
 لاختيه معه شركة في قليلها فضلاً عن كثيرها وكثيراً ما فكرت في هذا التمدن الباطل
 والمخلوعه عند الاوائل فوجدت انه صار سبباً للشرور والعدوان وشغل النفس بالهموم
 والاشجان وباعتنا على الاسراف والتبذير والعداوة والتوغير والحاسدة والمنافسة والمعاندة
 والمشاكسة وتحميل النفس ما لا يطاق من النفقات والتعرض للهلكات فصار من
 عنده غنى لا يقف على حد من المنى فكل شيء تاقت نفسه اليه حام قلبه عليه وظل
 لسانه به لهجا وصدوره به ملتجياً فلا يقر له قرار ولا يهدأ له عرار حتى يناله ويقصر
 عليه باله ثم يزهد فيه ويرغب في حاجة اخرى يرى حوزها اولى واحرى فيزيد بها
 ولوعاً ويسعى اليها سريعا فيصبح وهو اسير الشهوات صريع اللبانات لا يصحو من
 التشهوي ولا يصح من التلهي ولا ينهض لمكرمة ولا يبالي بمندمة وصار من دونه درجة
 يحرص على ان يكون مثله ويفعل فعله فتراه يتهور في المهالك وينشب في المراكب
 ويرد الغدرة والصلف ويتهافت على الخطر والتلف حتى يعد من المثرين المكثرين
 ويحسب في جملة الموسرين اذ يرى القناعة دون مقامه الاعلى ولا يتصف بها الا
 من كان وغلاً نذلاً اما الفنى فلا ريب في انه نعمة من الله تعالى بحيث يكتسب
 حلالاً لا بالتقار والاحتكار ولا بالتجارة والمصانعة ولا بالتميمة والجريمة ولا بالظلم
 والعسف ولا بالجلس والخطف بل بالسعي والكد والاجتهاد والجد فانه نعم العون على
 اعانة المعتر واغاثة المضطر وجبر الكسير وانعاش الفقير وعلى اداء المساعي الجليلة
 واسداء الخيرات الجزيلة ولكن هيئات فانك لا تكاد ترى غنياً الا وقد جمع في
 السرف ووجع الى الصلف فيرى ان جميع الخلق دونه وانهم محتاجون منه الى المونة
 والمعونة فيترفع عنهم قدراً ويتيه عليهم كبيراً وقد فاته ان حاجته الى الفقير اشد
 من حاجة الفقير اليه وانه لو ترك وغناه لما نقعه شيء مما بين يديه اذ لولا الحارث
 والزارع لهلك جوعاً ولم تنح نائمة عليه ولولا الخياط والتاجر لما لبس خزا ولا ديباجاً
 ولولا الاسكاف لما سلك منهاجك ولولا الفعلة لما تبوأ داراً فيحاء ولولا غارس الكرم لما

شرب الصبأ فما فضل الغني علي التقيير وما بون الكثير على اليسير والمرء يكفيه
 في الدنيا القوت الزهيد والثوب الكسيد بل المقولون اصح ابداناً من المكثرين واضول
 اعماراً ولهم طاقة على تحمل المشاق لا تبارى ويهنتهم الرقود أكثر مما يهني البطن
 المجدود والرغيب المعمود كأنما هو على فراشه زق منفوخ او بوم سلوخ يتقلب بينة ويسرة
 وبنفخ عليه كأن في احشائه جمرة حتى اذا اصبح دعا بالطيب وخاف شر ذلك اليوم
 العصيب فانهدوه وسندوه ودلكوه ورسدوه ثم جازوه بماء الورد فنضحوه على جبينه
 ومسحوا عن فمه ما سال من عرينه وساح من ذنبنه ودعوا له بالسلامة والعافية واستبشر
 بان مداواتهم له كانت شافية وعما سواها كافية واذا بالاسي وافاه وهو آس اواه ومعه
 زجاجات شتى مذهبة متنوعة المياد من بين اصفر فاقع واحمر ناصع واخضر ناضر
 وازرق زاهر فسقاها من احداها واثمه من اشداها حتى ايقن لا وال الباس وسرى
 عنه ما كان يلقه من الوسواس اذ ظن ان تقع به الكاس ويقادر ثروته للناس
 واذا بالعرف اقبل ومعه صحف استاجرها من عند الصحاف ففتح احداها وقرأ اسطرا
 من انلاها وقال له ابشر بالسعد والاقبال وغبطة الخال مع العمر الطويل والسود
 على كل جيل فما كان الله ليحرم هذا الكون من وجودك وامثالي من كرمك
 وجودك واذا بالمطربين وافوه بالزف والتلحين فاطربوه وسبروه وهنأوه
 وبشروه ثم قام ونظر وجهه في المرآة وقال انه بينه ما علاشي مما شان وشاه
 تلك ثمرة الغنى والايثار ولو هو ما عراه اذا اعسار خلعت منه الدار فوبلي على الرجال
 المتأثنين ووبلي على هذا التمدن في هذه الاحايين فقد كاد يسقط المروة والفتوة
 ويطوي الهمم تحت الارائك المحشوة فاصبح كل مشغلاً بنعيمه حتى قيل ان سمته
 في اديمه ومن العجب ان هؤلاء المترفين مع اعتقادهم ان سلامتهم سلامة الناس اجمعين
 وحرصهم على صحتهم حرص الجنيل على الرقين لا يزالون في الالتهام منهومين وعلى
 اللذات متهانتين وهو مجلبة للاسقام وداعية للآلام فهلا كانوا يقتصرون على الكفاف
 ويلزمون العفاف اذا كانوا حراساً على سلامتهم وعلى تعبيرهم وكرامتهم لا جرم انا
 رأيتنا من يومن بالآخرة يحرص على ان يبقي له بين الناس ذكر حسن ومآثره وهذا
 الحرص هو عين الدليل على خلود النفس من دون لبس فاما من كان همه في بطنه
 وعقله في صحته فليس له من هذا الاعتقاد نصيب وهو في خسران وتبيب الا ان
 مثل الدنيا كمثل الماء الاحاج كلما شرب منه الانسان زاد ظمأه او كالشجرة الشائكة

كلما زاد فيها توغلاً زادته ارتباكاً وادماً فمن يرد ان يراها حتى رويتها فليبعدها عن
عينه والا فتدخل فيها وتمنيه بجينه فطوبى لمن تنأى عنها وتبرا منها

من عرف الدنيا ثم ركن اليها كان من احمق الحمقى ومن لم يعرفها بعد ان راي
ثقلها فهو اعمى حقاً الم تر ان فرداً من الناس قد خرب وحده مملكة قديمة كانت ثابتة
الاساس وجلب على اهلها وهم نازية وثلثون مليوناً ذلة وانكساراً وهونا بعد ان اهلك
من جيوشهم مئات الوف وعرضهم لبلاء غير معهود ولا مألوف فابح العدو
يتحكم فيهم تحكماً ويقترح عليهم اشياء لم تخامر خاطراً ولا وهماً فيشكون وليس من
يسمع شكواهم ويدعون وليس من يجيب دعواهم وقد ارملت نساؤهم ويقت اطفالهم
وتضورت شيوخهم وتعطلت اعاملهم وبارت اراضيهم ودكت صياصبيهم وثلت معاقلمهم
وانتهكت موائلهم ونضب ايسارهم واقل اكثرهم وغلت ايديهم وخذلت نواديهم وتقطرت
منهم الاكباد ونقطعت بهم اسباب السداد فكانهم لم يكونوا امة متالفة ولا دولة
ذات اتفة وكان مغايبهم لم تكن محتداً للقصاد ومعالمهم لم تكن مورداً للارشاد فصار
من يراهم ينكرهم ويهجرهم كما كان مشغولاً بنعمتهم يكفرهم ولا يشكرهم والدول تنظر
اليهم نظر الشامت وتعظم قدر عدوهم وكلهم عن نصرتهم قاعد ساكت او في لومهم
صائت وقد ظالمواها بوا ذلك الفرد الذي سعى في خرابهم وتوصل الى تبايهم وكانوا
ياتونه زائرين ويحرسون على ان يكونوا له مجاورين بل الملوك ايضاً كانت تتنافس في
مصاحبته وتهياف على مصادقته اذ كان يده الحل والربط الضبث والضبط والسلم
والحرب والامن والربح وكان اذا ناجى احداً بكلمة عدها منه نعمة واقتربها على
الاقربان واتخذها ذخيراً لصروف الزمان فلم يكن في زمنه من يعصى له امراً او يضر
عليه شراً اذ كان يقال ان الله تعالى كان حارساً له وساتراً لاله فكان اذا اخطأ في
امر او قصر فيه قيل ان السياسة كانت تقصيه واذا اعتراه القرس فالزمه الفراش
قيل ان الارض اهتزت وشمل اهلها الارتعاش وكانت حركاته وسكناته قسطاساً توزن
به الاحوال واسطرلاباً يوخذ عليه تقويم الحال والمآل وهو الذي كبح الصقالبة الروس
فغنت له منهم الرؤس واخف اهل الصين وانفذ في محافل الملوك رايه الرصين وكان
اذا ركب كرم واذا مشى عظيم واذا عطس سمعت وباحسن النعوت نعت واذا نظر
شزراً ملاً القلوب ذعرا حتى اذا اطغته النعمة وظن انه وحده امة وان القدر يليه

والسعد موقوف على شرفه فاراسه بالوساوس وسولت اليه نفسه ان يلتمهي حينما
 يجز الرؤس الشواخس اذ راي بعض رؤس قومه صغيراً و بعضها كبيراً و بعضها
 مستطيلاً و بعضها ممطولا فنادي بجمع الجيوش وقال اني ليعجبني ثل العروش وحشد
 العجول الجيوش الذي يضرب القرن و يشفي منه غليل الضغن ان لنا لضغائن مخبأة
 في الصدور هي لذة الجسور وشفاء المصدر وان قرننا ما وراء النهر وانا نفاجته و تقهره
 اي قهر ثم نرجع وفي صحبتنا العز والنصر والسعد والفخر فاذا صبغنا ماء النهر بدمه كان
 ذلك عبرة في التواريخ تسطر وعلى مدى الاحقاب تذكر فن كان منكم متهمساً
 متوعداً او متهوساً معربدا فموعه غدا فاني اري بطالتكم عارا واخلادكم الى الراحة
 شنارا فان من شرط من تقلد الحسام ان يكون ضارباً به على الدوام ولا يغمده على
 احد من الانام فهذا وقت الانتقام وكسب الثناء من الخاص والعام انظروا اليّ والى
 ابني المترعرع فكلنا بالحرب ولع والى النزال متترع فقالوا يعيش مولانا المحارب انا
 معك نحارب ونضارب وانا بسعدك تقهر المخاصم والمشاغب وان هو الا اسبوع ثم نعود
 الى اوطاننا فائز بن غانمين فنتسع لنا الربوع وبيدنا العيوع ويصفو لنا الرتوع فزحفوا
 متكئين وبالسلاح متلبين وجالوا جولة واحدة وشدوا شدة جاهدة واذا بالعدو
 انبعث عليهم كالسيل الهامر وفاجاهم كالاسد الزائر اذ كان قد استعد لهم حين كانوا
 يرقصون في المغاني ويرحون مع الغواني وكان اكثر منهم ضعفين فقابل كل صف
 منهم بصنين فابلوا جهدهم وتذكروا رشدهم فراوا ان الرجوع اولى وان للعدو عليهم
 صولا وطولا وباله من رجوع قرن بالنشل وبخبيبة الامل وباله من خطة مكنت المعقب
 لهم من بلادهم اي تمكين فدخلها وتبوأها وشد وطأته عليها فكانما هي تحت قدمه
 جرين وكان حصونها وقلاعها كانت مبنية من ماء وطين فما ترك حصناً الا وقعه
 ولا ستره الا وفضحه ثم صادرهم بالاموال وكاثرهم بالسلاح والرجال حالاً بعد حال
 اما اميرهم ذاك الغضنفر فانه كان قد حصر في واقعة منته بالنشل والخور فغاب فيها
 رشده وبطل جهده فلم يسهه الا الاستسلام فاخذ اسيرا وصار امره عبرة للانام وتبعه
 من قومه المذل والملام فقالوا انه هو الذي اضلمهم واوقعهم فيما اذلمهم ففقدوا بسببه اكثر
 من تسعماية الف اسير صاغر ومن ستة الاف مدفع داسر ومن مئاة الالوف من
 البنادق والسيوف البواتر وما لا يحصى قدره من المهمات والذخائر ما عدا القتلى
 الجرحى وما حرق من المدن والقرى بنيا وبرحاحي قيل ان العدو كان اذا احرق

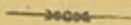
دارا قفل بابها على ساكنيها حتى لا يستطيعوا فراركم من نساء واطفال هلكت في
 هذه الحال ولم يعلم احد بخبرهم ولم يشعر باثرهم الا وكم من عزيز اذل ومصون اذيل
 ومستور فضح وبريء مني بالتشكيل وكم من مخدرات ابتذل ماء وجههن الناضرة وكم
 من دموع اسلن كأنما هي امطار هامة فيا من راي امة فحمة ذلك ودولة ضحمة
 اضمحلت وبلداناً عديدة صارت بلقماً وكتائب فرسان لافت باجمعها من الحمام مصرعاً
 وجيوشاً جرارة عنت بأسرها خضعاً وكهت ولم يقل لها احد لعاماذا ترجي بعد من
 الزمان وكيف تامن من غوائل الخدثان واني للدول اوضيعة الشأن ان تستبد بامرها
 وتتمتع بحقوقها التي ورثتها منذ ازمان فان الحقوق الان قد نيظت بحمد الحسام لا بتعريف
 الكلام فما عسى ان يجدي الكتاب عند اقتضاض الكتابات او يهدي الخطاب عند
 اعتراض المضارب فكيف تكون الحال اذا ضمت هذه الدول كلها الى دولة او دولتين
 او ان يذهب بالجنسية التي هي علة الضم بلا مين وعند بعضهم ان الجنسية مبنية
 على وحدة اللسان فاذا كان لقبائل شتى لسان واحد عدوا جميعهم قبيلة واحدة ولم
 يقم على ذلك برهان فانا نرى لساناً واحداً مستعملاً بمملكتين مستقلتين متغايرتين في
 الاحكام والسياسة منفصلتين وانما هو ان اليد الطولى هي التي تناول الحقوق فسرا
 وطولا وعلى ذلك دارت مسألة تلك المملكة العانية والامة الواية الا ان ابره غدار
 شيمته ارهاق الاخيار وابناق الاشرار ورفع الخسيس ووضع النفيس وانه كثيراً
 ما يدخل البريء في السجن ويخرج منه اللص الخؤون ويجري السفيه على الحلیم ويولع
 اللئيم بعرض الكريم الا ان ذلك من البراهين الساطعة والدلائل القاطعة على عقوبة
 الجرمين في الآخرة وعلى انه تعالى انما يمهل العبد ويستدرجه بحكمته الباعرة اذ يستحيل
 انه يسوي الابرار بالفجار وينزلهم منزلة واحدة في تلك الدار فيومئذ يجزي الحسن
 باحسانه والمسيء بطغيانه فلا ينبغي ان نقيس هذه الدار الفانية على تلك الديار
 الباقية فلا يفرحن الاشر بأشره ويظنن ان الله غافل عن قدره فقد قدر له مصرعاً
 وبيلا وعداباً طويلاً وانما تجري الامور هذا المجري لتكون لنا عبرة وذكرى فطوبى
 لمن اعتبر بما مضى واستسلم للقسا

اذا اعتبرنا الثقلان الصنائع دايلاً على جودة العقل وحدة الذهن وصفو القرينة
 وسلامة الذوق واستقامة الطبع كان لا بد لنا من ان نحكم بان الافرنج هم اجود

الناس عقلا واحدهم ذهنًا واصفاهم قريحة واسلهم ذوقًا وطبعًا لانا نراهم قد اتقنوا
 جميع الصنائع فلان لهم الحديد صائر ما صلب من جواهر الارض واتقنوا التجارة
 والنساجة واخياطة والصبغ والنقش والتصوير والطبع والبناء وكل ما يمكن للانسان
 ان يتعاطاه من اسباب المعاش كالحرث والزراعة والتجارة ونحوها فما وضعوا ايديهم
 على شيء الا واستخرجوا منه مرافق ومنافع حتى انهم ليبرزون النحاس في رونق الذهب
 والتصدير في بهجة الفضة وان يكونوا قد تصروا في بعض اشياء عنم تقدمهم من الامم
 او عاصروهم منها مثال ذلك صنعة البناء فاني ارى ان الاولين قد احرزوا نصب السبق
 فيها فلا يمكن للافرنج ان يجاروهم فيها وان بذلوا غاية اجتهادهم وطاقتهم اذ لا يمكن
 الان لدولة من دول اوربا ان تبني شبه اهرام مصر غير ان الافرنج يتمدرون عن
 هذا بقولهم ان ما فعلونه فانما يريدون بها النفع لا مجرد الفخر والاقدمون انما كانوا يفعلون
 للتفاخر اذ لم يظهر لهم في بناء الاهرام نفع يساوي ما اتفق عليهم من الاموال وما
 تحمل فيها من الاتعاب والمشاق ويقولون ايضا ان الملوك الاولين كانوا يسخرون
 رعيتهم في عمل ما يريدونه ولا يباليون بما يقاسونه في اتقاذ امرهم وهذا لا يجوز عندنا
 الان ثم لا بد لنا من ان نستنتج من بناء الاهرام ونحوها اشياء اخرى وهي ان بناءها
 لم يتم على هذه الصورة البديعة بمجرد كثرة الذين كانوا يعملون فيها او بطول الزمن
 او بعظم النفقات بل لا بد من ان نعلم ايضا انهم كانوا بارعين في الرسم والهندسة
 وجر الانتقال واصطناع الآلات حتى امكن لهم اتقان العمل وبذلك نحكم ببراعتهم
 على الافرنج في هذه الفنون ايضا ومثال ما قصرت فيه الافرنج عن الامم المعاصرة لهم
 صنع الشيلان الكشميرية والزراعي الجمجمة واشياء اخرى كثيرة تصنع في الهند والصين
 مما يبهر الابصار ويحير الافكار ويمكن ان يتمحل للافرنج بان يقال ان الباري
 عز وجل قد خص كل بلاد بمزية ما فضلت به عن غيرها من نحو الماء والهواء والتراب
 وبعضه متوقف على التراب وبعضه متوقف على الماء والهواء فلا يمكن ان يوثق بهذه
 الخصائص من بلادها الى بلاد اخرى ومن الغريب هنا ان الافرنج يدعون بانهم
 اخترعوا اشياء كثيرة وهي كانت معروفة عند اهل الصين فهل يحسب ذلك من توارد
 الخاطر على الخاطر ام نقول انهم لما سمعوا بوجودها اتخذوها واتقلوها لانفسهم وفي
 الجملة فان للافرنج فضلا عظيما في تجويد الصنائع واتقان الآلات وان يكونوا قد
 اخذوا بعضها عن اهل الصين وبعضها عن العرب ولا سيما عرب الاندلس واعظم ما

اخترعوه استخراج منافع البخار الذي مكبهم من اتخاذ البواخر وسكك الحديد وصنع
 آلات الخلق والنسج وغير ذلك واذا اعتبرنا العادات والكلام والاخلاق دليلاً على
 تلك المزايا التي تقدم ذكرها كان لنا ان نقول ان الافرنج لم نزل تغلب عليهم حالة
 الوحش والعجمية كالزمر الذي كانوا يلبسون فيه جلود الحيوانات ويحولون في مناكب
 الارض بلا صنعة ولا عمل اما العادات فانهم الفوا اكل الحيوانات القذرة فكل ما
 ساع منها في مزارعهم فهو ظاهر والانكليز ياكون اللحم المنتن الذي تشم رائحته
 الخبيثة من مسافة بعيدة ويتنافسون في اكل الجبن المدود فكما كثر دوده عندهم
 غلامته ولا يخفى ان عادة الانسان في طعامه وشرابه هي اول علامته التمدن والتطرف
 وبلي ذلك عاداته في لباسه ورقاده ومن اقبج عاداتهم حلقهم شواربهم ولحام قترى
 الشيخ الهرم منهم كالمجردة عن الهيبة والوقار كتحجده عن الشعر وما كنفاهم هذا
 حتى شغفوا بالنساء اللائي لهن شوارب او عنافق او عوارض يخالفوا الطبيعة في
 الحالتين ولو كانوا من ذوي اللحم وراوا غيرهم على هذا المراه الشنيع لكان اول
 ما يصفونه به ان يقولوا انه اقرب الى الوحش من الانسان وهناك عادات اخر كثيرة
 قد تلبسوا بها تلبساً ذمياً مما لا يمكن استيفائه في هذا المحل لضيق المجال عنه اذ
 ليس المراد هنا سوى ذكر الاموذج دون الاستقراء والاستقصاء وكذا نقول في
 كلامهم واصطلاحهم في الخطاب والتفاهم فان استقراءه ينبغي ان يكون في سفر
 على حدته وانما نقول هنا قولاً مجملاً وهو ان احدهم اذا اراد ان يعبر عن معنى وان
 يكن من اوضح المعاني وابسطها وافرنها رأته قد اشط فيه وربكه وعقده بالاستطراد
 والحشو واللغو من الكلام حتى لا تعود تعرف له راساً من ذنب ولا شرقاً من غرب
 ومع ذلك فانهم يقولون انهم يعملون في مدارسهم المعاني والبيان فاي معنى بالله لقولهم
 ما دامت هذه البلدة لم تفتح فانها لم تفتح واي بيان في قولهم سقط فلان عن ظهر
 دابته فاخذ عضواً مكسوراً يعني فكسر عضو من اعضائه وغير ذلك من التعبير
 السخيف وهذا مبحث طويل ينبغي ان يفرد له تاليف مخصوص ليعلم منه فضل اللغة
 العربية على جميع لغاتهم وان ما يدعيه الافرنج من التمدن في جميع الاحوال المعاشية
 لا تقوم به حجة ومن الحد فح الانكليز معرضاً للمصنوعات في هذه الايام على حين
 يرون جيرانهم الفرنسيين منوا بمجن ومصائب غلت ايديهم عن العمل ورمت براعتهم
 بالركساد مع ان من حقوق الجوار ان يفرح الانسان لفرح جاره ويحزن لحزنه فما معنى

هذا المعرض في هذه الايام وذلك يتحاشاه العرب احتراماً للجوار ومراعاة للولاء
والاخاء غير ان الافرنج لا يفكرون الا في منافع انفسهم فقط فلو اهمهم تهذيب
اخلاقهم قدر ما بهمهم ملء اكياسهم لكان اولى فسيحان من يرضي الناس بعقولهم



من اعجب العجب ان الانسان لا يدرك حقيقة حاله وهو مع ذلك يتطلع الى
معرفة احوال غيره فيترك شغله وعمله وياخذ في الاستقصاء عن حال زيد وعمرو اما
كونه لا يدرك حقيقة حاله فقد يتوهم احياناً انه اشقى الناس اذ يري نفسه مقيداً
بخدمه ما او عمل ما ويرى بعض الناس مطلقي العنان ينتقلون من مكان الى مكان
ويصرفون اوقاتهم في اللعب والمزح والقصف والبطالة فيود لو كان نظيرهم ولكن اذا
سمع بان احدا منهم هلك لانهما كره في الشهوات او لتحويله الليل نهاراً والنهار
ليلاً او لعلبه الهوى على عقله حتى ترك طريق القصد والرشد واتبع طريق الزيف
والاسراف رجع الى الحزم وراى ان التقيد بالعمل خير من البطالة بل حمد الله تعالى
على انه ليس من تلك الزمرة وقد يخطر بباله انه كان في الوقت الفلاني سعيداً مغبوطاً
اكثر مما هو عليه حالة الذكر ضرورة ان كل انسان يستطيب الماضي ثم يرى انه كان
في ذلك الزمن قاصر المعرفة لم يكن له علم باحوال الناس وادارة الامور كما هو الان
وعند ذلك يتذكر ما كاده به زيد وعمرو في اوقات متعددة ويحمد الله تعالى على
سلامته منهما وعلى ان ذلك الكيد قد زاد في فهمه وفطنته بحيث انه اتجد جنة
للتوقي من امثاله فاغناه مزيد العقل عما حرمه من حظ تلك الايام فان العقل سيفي
الحقيقة كنز لصاحبه وما اخال احداً من الناس يجهل قدره ولذلك ترى كل واحد
من الناس يدعي ان له منه النصيب الاكبر واذا كان يقر بان غيره ازكى منه حالاً
وانعم عيشاً واكثر نفقة واقل همماً وعناءً فلا يكاد يقر بان ذلك لكونه اوفر منه عقلاً
وانما ينسبه الى بعض الحوادث والعوارض فيقول ان القدر ساعد فلاناً ولم يساعدي
او ان الزمان قد فسد فلا يسعد فيه الا الكذاب والمحتال وربما يخطر في باله
انه غير متمتع بالصحة التامة اذ لا يقدر على اجتناء الملذات واتباع الشهوات كما
يقدر غيره ثم يرى انه يمرئه الطعام والشراب ثلاث مرات في اليوم ويهتبه النوم عدة
ساعات في الليل وانه قادر على عمل يركز به حاله ويطيب به عيشه وانه لو كان
مريضاً لكان ملازماً للفراش وهكذا يبقى فكره متردداً في معرفة احواله فلا يتجه له

وجه منها الا اذا قاسها على احوال غيره وفي الواقع فان اتفق شيء لمن اتعبته افكاره
 في معرفة حاله ان يفكر في حال غيره على وجه المطابقة فاذا كان وضعاً وجب عليه
 ان يفكر في من هو اوضح منه لا في من هو ارفع وان كان غير تام السعادة يفكر في
 من هو محروم منها بالكلية على اني اقول انه ما من احد يكون سليم العقل والبدن الا
 ويكون له حظ من السعادة عظيم وان كان غير تام الصحة يفكر في من اسقمته
 العلل واعلته الاسقام حتى اعجزته عن تحصيل معاشه وان كان مريضاً على هذه الحالة
 يفكر في من هلك فقد نقرر اذاً ان الانسان لا يعرف نفسه حق المعرفة وانما هي
 وسواس تعرض له فتخيّل اليه مرة انه من السعداء ومرة من الاشقياء ومع ان كل
 واحد من الناس يقول بلسانه ما عليها مستريح اي على الارض فكل يحاول في
 قلبه ويتخيل في لبه ان يكون حاصلًا على الراحة التامة وهي في عرف الاكثرين كناية
 عن كثرة المال والاكثر من الخدم والحشم والخييل والديار والفرش والمتاع واحق
 الحمقى من ظن ان حظه ونعيمه ولذته في كثرة النساء ولا يخطر بباله ان هذا الاكثر
 هو عين التعب لان كلاً من هذه الاشياء التي يملكها يقضي عليه بتوجيه همه اليه
 وصرف فكره فيه ولا شك في ان كثرة المهوم والافكار سبب للتعب لا للراحة
 وانما توجد الراحة الحقيقية في القناعة وفي عزف النفس عن المطامع البعيدة فحق
 عرف الانسان كفايته من حطام الدنيا فقد استراح نعم ان الغني يقدر صاحبه على
 اتخاذ ما يستطيعه من الماكول والمشروب ويستكرمه من المركوب ويستنعمه من
 الملابس ويستعديه من البلاد وفي ذلك رفاهية له وتقوية لبدنه الا انك اذا قست اعمار
 الفقراء باعمار الاغنياء وجدت ان الفقراء يعمرن اطول من الاغنياء لان الغني كما انه باعث
 على الترفه والتنعم كذلك هو باعث على الاسراف والانهماك في اللذات المقصرة للاعمار
 وكل من تعمد الخدور واصابه منها خدر الشهوات فبشره بانّه لا يلبث ان يعدم
 حركته اصلاً اما من لزم القناعة واشتغل بعمل ما ينفع به نفسه وقومه فهو في الحقيقة
 سعيد هذا الذي ندبت اليه الكتب المنزلة وحشت عليه الحكماء والفلاسفة من قديم
 الزمان وهو الذي رغب فيه كل ذي عقل سليم وطبع مستقيم حتى الشعراء الذين
 لا يتعاشون من التعرض للجوائز والتعريض بها يعلمون هذا ويعتقدونه ويحرضون
 عليه ومقاد ذلك كله ان الانسان لا يدري ما ينفعه وما يضره وما يسعده وما يشقى
 وانما هي اوهام تلوح له فيظن انها اذا تحققت صار سعيداً ولو كشف الغطاء له

عنها لما شغل بها باله ولا اضاع عليها سوا له ومن هذا القبيل مثل الذين يتصدون
 لتأليف الرسائل وانشاء الخطب ونظم القصائد وهم بهزل عن العلم قترى كلامهم يشف
 عن سخيف المعاني ومستهجن الالفاظ وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا فهلا عرضوا
 كلامهم من قبل ان ينشروه على اهل العلم ليروا ما فيه من الخطأ والخطل فيرتدعوا
 به عن ارتكاب مثله ام يظنون ان كل من قرأ شيئاً من كتب النحو والعروض صار
 مؤلفاً وشاعراً وليس عليه ان يعرف المانوس من الالفاظ والصحيح من المعاني من
 غير المانوس والصحيح ام يخالون ان كل ما يخطر ببالهم يعجب الناس او ان هذا
 الفن لم يضبط في قواعد تعصمه عن الثين وتبعده عن الخلل فلو كان امثال هولاء
 يعرفون احوالهم ويدرون حقيقة انسابهم لما عرضوا انفسهم للهزء والسخرية فان غاية
 كل واحد من الناس ان يكتسب المدح على ما يقوله ويفعله ويدخر الثناء الجميل
 عليه ولو ان احداً حضر محفلاً وعرف انه متى تكلم سخر السامعون منه واحتقروه
 افساه كان يجسر على الكلام ام يرى السكوت اجمل به فما الفرق بين المتكلم والكاتب
 فارى من ذلك كله ان الحياة تقسمها هي سكر للانسان يغطي الحقائق عن بصره
 وبصيرته فيجهل حاله وقدره وياخذ ان يخبط في الامور خبط عشواء واذا بقي
 الانسان بمد بلوغه على هذه الحالة فما ظنك بالاولاد الذين لم يجربوا الامور ولم يعرفوا
 النافع منها من الضار والصواب منها من الخطا ولهذا كان من الواجب على من اقتدبوا
 لتعليمهم وتربيتهم ان يعتنوا بكفهم عن الرذائل على صغر وبارشادهم الى ما ينفعهم
 في المستقبل بان يبينوا لهم مساوى الصبوة والشباب والكهولة والشيخوخة ومحاسنها
 ومحامدها ومذامها وطوارئها وعوارضها ولا سيما فيما يتعلق بصحتهم ويدبم عليهم عافيتهم
 على انا نرى المعلمين يلزمون الاولاد ان يعرفوا قدر ما في الارض من الجبال والاكام
 والاطام والانهار والعيون والجداول والبطاح والسهول المحروثة والبقاع المعطلة وغير
 ذلك ولا يعلمونهم شيئاً يوول الى صحتهم كالنهي مثلاً عن شرب الماء في التعب
 والتكشيف للريح وكالاضطجاع في مكان ندي والاكثر من اكل الفاكهة وارتقاء
 الشجر وعدم المبالاة بعواقب البرد والحر ونحو ذلك مما لا بد منه وبودي لو ان
 بعض اطباء يولف رسالة في هذا الموضوع فتعبر الاولاد على تعلمها وحفظها كما
 تجبر على تعلم كتب الجغرافيا وغاية الكلام ان ارى اهمال تربية الاولاد اصلاً
 لمعظم الشرور والفساد الملازمة للانسان حال حياته فينبغي بذل العناية التامة في

حسن تربيتهم وتهذيبهم حين يكون بهم صلاحية واستعداد لذلك والا فانهم متى ربوا على الفساد ومروا على الطلاح فقراءة الكتب لا تجديهم نقا

تأبين

١

« لاديب بك اسحق في تأبين المعلم بطرس البستاني »

كذا فليجمل الخطب وليقدح الامر وليس لعين لم يفض ماوها عذر
ان هذا المصاب مصاب جسيم . ان هذا الخطب خطب عميم . انها المصيبة وطنية
يقبل في مثلها بذل الدموع . انها لنائبة عمومية لا يكثر في نظيرها تميز الضاوع . اجل
ان المصيبة فيك مصيبة الوطن يامن انفتت العمر في خدمته . مقدماً مجتهداً صابراً
متجلاً متعقفاً مستقيماً . فلا بدع ان تبكيك العيون . ولاغرو ان تنفطر لفقرك القلوب
او لم تكن فينا مثال الفضل والاجتهاد . ونموذج البراعة والادب . وعنوان التجلد
والثبات في خدمة العلم . بذلت في هذه الخدمة شبابك . ووقفت على هذا السبيل اتعابك
وجعلت العلم غايتك القسوى من دنياك فكان لروحك روحاً وكنت لذاته قواماً
فاي اثر ادبي رأيناه ولم تكن انت البادي به او الداعي اليه . واي مشروع
مفيد شهدناه ولم تكن انت الشارع فيه او المعين عليه . اولست اول من خط على
صفحات القلوب ورسم على صحف الجنان « حب الوطن من الايمان » اول من اقدم
على المشروعات الجسيمة العلمية بهمة لا تخاف المصاعب والعقبات ولا تألف الا
صدق العزيمة والثبات

باي آثارك لا تذكر . وبايها اذا ذكرت لا تشكروا به عين ترى اعمال يديك
ولا تفيض دمعاً بل دماً حزناً عليك وما الذي نذكره من آثار اجتهادك في استمرار
ارتدادك ولا نحمد عظيمًا امواظبتك على خدمة العلم والادب اربعين عامًا او تزيد
تأليفك وتصانيفك الغنية بشهرتها عن الوصف أمحيط محيطك . ام قطر محيطك . ام
مدرستك الوطنية التي ملأت بها الوطن انواراً . ورفعت فيها للادب الصحيح مناراً .
ام جناتك التي غرست فيها اغصاناً من العرفان . من كل فاكهة بها زوجان . ام جناتك

الزاهرة الدانية القطوف . ام دائرة المعارف التي . . . كدنا نخاف ان تدور الدائرة عليها
لولا الامل فيمن أبقيت لها خلفاً كريماً . يحقق رجاء المحبين ويتم أمنية المستفيدين .
اجل يتم الامنية ويحقق الرجاء فيكون به للوطن عزاء
في الاثر الماثور يا سادتي « من علمني حرفاً كتبت له عبداً » فمن منا لم يعلمه هذا
الفقيد حروفاً من منا لم يستفد منه فوائد صنوقاً . تصانيفه في كل فن . من مدرسته
الوطنية . من جرائده الزاهرة . من آثار معارفه في كل موضوع ومن منا لم يدفع الملل
في اوقات الفراغ . ويغلب الضجر في ساعات الراحة . وينزه الفكر بعد تعب الاشغال
بتلاوة ما كان فقيدنا يحبي لانشائه الليلي الطوال . فكيف لا نرثيه وكيف لا نبكيه
وكيف لا نستعظم المصيبة فيه

اي هذا الراقد تحت ظلال الرحمة والرضوان لقد عشت سعيداً مفيداً وقضيت
حميداً فقيداً . وان كان عموم الاسف وشمول الحزن مما يبرد ثري ويحلب غفراً فقد جادتك
سحب الرضوان والغفران مسوقة الى ثراك من كل مكان مستمطرة على ضريحك بكل لسان
نم سعيداً يامن قضيت فقيداً . يجميل قدمت بين يديكا
انت احسنت في الحياة الينا احسن الله في المات اليكا

٢

« لاسكندر افندي العازار في تأيين اديب بك اسحق »

قال .

ما طلعت على ادينا شمس الخميس وما عرف في صباحه وجه انيس استحكمت منه
علة الصدر فما دفع الاطباء عنه مقدوراً وما محاً الاحياء ما كان مسطوراً وما راقب
الموت فيه اهلاً ولا عشيراً فبلاشئ تقساً في نفس وقبضت روحه عند الغلس فمات
وعيناه البرقيتان منفتحتان نرسلان نوراً كأنهما محمدقتان الى فضاء الابدية
قضى في سفح لبنان حيث التمس العافية من الهواء والماء ومن اين للداء العياء
دواء فاتصل نمي وفاته ببيروت الآسفة فلا تسلم القلوب عما تمزق ولا الصدور عما
توقد ولا العيون عما جرى انك تكاد لا تجد الا رأساً فلقاً وصبراً مفترقاً ودمعاً مستبقاً
وقلباً محتوقاً فيا لله ما هذه البلية

كان رايتنا في علم اللسان وآيتنا في صناعة البيان وغايتنا في حب الانسان
 كان والله فتي ولا كالفتيان جريئاً في الحق ما اخذته فيه لومة وما رهب فيه وعيداً
 بل ما كان له شعاراً في هذه الحال او مثلها من الاحوال الا قول من قال
 واذا لم يكن من الموت بدءاً فمن العجز ان تموت جباناً
 فعاش حر الضمير فكراً وقولاً وفعللاً ومات حر الضمير فكراً وقولاً وفعللاً يبيكه
 ضمير الاحرار وتذبده الحرية نشأ وطنياً خالصاً صحيحاً وعاش جندياً لاشرف الاصول
 واسمى الغايات وافق في خدمتها من روجه ما كان ينفع في القلم من الروح وجاهد
 جهادا جنسياً بنفس كبيرة اعيت بدنه وقوضت اركانه فصح فيه
 واذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجسام
 فمات شهيدا جميذا فقيدا وحق لاسمه ان يخلد الى الذرية

كان زهرة الادب في الشام وريحانة العرب في مصر فلا عجباً اذا الغيت بنسيانته
 احشاء الشام شحاحاً او لفقدانه امتلأت نواحي ارض مصر نواحاً اي والانسانية
 كان للانسانية نصيرا ولاعدادها نذيرا وبالانسانية بشيرا فلتبكه الانسانية
 ويا اخوان اديب المنتشرين في الارض مات اديب وادرج في كفته واصابت
 الديدان مقيلا في بدنه واخرسه الموت في ترابه وحيل بيننا وبين خطابه فابكوا ما
 وجدتم في العيون دموعاً ولا تسالوا قبلته الوداع فقد قبلته عنكم جميعاً وقد
 ودعته وبودي لو يودعني طيب الحياة واني لا اودعه
 دفناه وتركناه ولو اقننا ما تقنناه وهو من قبل قد نزعتم اليكم روحه شوقاً
 فاوصاني بالقاء التحية

وانت يا شقيق الروح يامن اوحشت الدار ومن فيها وانست القبور وساكنيها
 يا مؤين الامراء وراثي العلماء وباكي الادياء والكبراء والفقراء يا ايها الراقد بلا حراك
 ولا يجدر بتاينك سواك ببيك القلم يا اميره والحق يا اسيره ببيك الاهل والاحباء
 فقد كنت ودوداً حبيباً وبيك الشعراء والكتاب والخطباء فقد كنت شاعراً
 وكاتباً وخطيباً . ببيك المجالس ياخير جليس وببيك محاضر الانس يا خير انيس
 ببيك صحف بعبراتها وترثيك صحف بعبراتها ولا تسلم عمن استرهن الامور
 باوقاتنا فترجمة حالك ستفصح ما كان مستورا ببيك افاضل الكهنوت الحق
 انك كنت للافاضل عضداً كريماً ببيك الجمعيات الادبية ببيك بكاء اندروماك

انك زهرة الآداب ياغصنا نضيرا وتسقيك الذكري في كل عشية
 واما الكتيب الكاسف البال رفيق صباك واعمالك واخوك في جهادك فاجتو
 بالذلة والاكتئاب عند ذلك التراب واستمطر دمع العين لفقاً واستوقد نار الصدر
 اسفاً وابيك وارثيك ما بقي لي من الحياة بقية
 واقسم بوحشتك آنسها الله وبغرتك رحما الله اني مقيم على ولائك محب لاجباتك
 عدو لاعدائك لا عزاء لقلبي ولا سلوان الا الناسي بان تجمعي اياك ظلمة الابدية
 نحسي شجواً ان ارى الدار بلقماً خلاء واشلاء الحبيب ترابا

—
 ٣
 —

« لسليم افندي نقاش في تايين اديب بك اسحق »

كذا فليل الخطب وليفدح الامر وليس لعين لم يقض ماؤها عذر
 امن حد الاقلام ان تجري بعد فقد الاديب من المخابر امن واجب الدموع ان
 تبقى بعد هذا المصاب مصونة في المحاجر . امن العدل ان نغاف اليوم من اثواب الحداد
 امن الغرابة ان نفقد بهذه الفاجعة الهدى والرشاد . لا والاسف وحر نار اللف
 فقد ثل عرش الفضل ودك طود الذكاء والنبل وغاض معين البراعة وشوه وجه البراعة
 وبدد شمل البلاغة واختل نظام الانشاء وكان لا ياخذ محاسنه المد والاحصاء
 وانقبضت الصدور واضطربت القلوب وانذهلت البصائر وشخصت الابصار فعمت
 الاحزان واستولت الاكدار وحات الافكار

وغاضت يتابع المسرة واتقضت ليال بها كم كان للانس اوقات
 واصبحت الآداب تندب حقلها نقول مضى سعدي واهلي قد ماتوا
 كيف لا

والدهر قد فوق نحو العلي مهماً وهذا السهم كان المصيب
 تمساً لهذا الدهر من خائن لم ينج منه فاضل او اديب
 اجل لقد ارسلت المنية رسلها فاخطفت زهرة الفضل الزاهرة وفجرت الداهية الدهاء
 فاما فابتلعت درة الآداب الباهرة
 والموت تقاد على كفه جواهر يختار منها الفوال

ومن ذا الذي يسمع بافول بدر المعارف وغروب شمس اللطائف
 ولم يسلم من عينه ادمعاً تساجل السحب وفيض البحار
 ولم ترزع قلبه خسرة تلون الوجه بلون البهار
 مضى الاديب الذي كان للعلم حرزاً وللبلابة كنزاً وللفصاحة ركناً
 وللصاحبة حصناً

هيئات ان يأتي الزمان بمثله ان الزمان بمثله ليخيل
 مضى فكان الهول هولاً صير بياض العيش سواداً ورحل فكان الخطب
 خطباً جعل نور الحياة ظلاماً
 واني لا بكيه واني لصادق عليه وبعض القائلين كذوب

مضيت واي مقلة ايها الاديب لا تذرف الدمع عليك صبيها واي امرئ من
 مقتوني ادبك لا ينفع عليك بكاءً ونحيباً فارقتنا ونأيت وما اصعب نأيك وفراقك
 ورحلت عنا ومضيت فجمعت برحيلك احبايك وعشاقك وقد اطعمتهم يوم وداعك
 بامل اللقاء ووطدت رجاء الاجتماع يوم لثموك في السفينة لثمة الاخاء فما كان العهد
 بهجرك ان يكون اليوم مزيل الصفاء مذهب الهناء لا صبر بعده ولا عزاء
 ولو قسم الحزن على فقدك اعشاراً لاصاب عشر منها والديك وآلك وعشر
 اصدقاءك وخالنك والادباء الذين عرفوا قدرك وشانك وعشر كل من سمع بك
 وراك او علم برفعة مقامك واصابي انا السبعة الاعشار وما ارضاها قسمة ضئلي
 اكون بها اقل من الجميع حزناً عليك لا سيما انك غبت عن العين ولم اتمك لثمة
 الوداع قبل ان تغمض واسفاه عينيك

ولو جمعت في رثاءك ما قيل في الدنيا من رثاء ما جاء واقياً بجزء من الواجب
 وهيهات ان يوفيك حقه من الامر من هبطت عليه اسرار بلاغتك واعطي منحة
 براعتك وكان لك في البراعة قريباً وفي سرعة الخاطر نداءً ومثيلاً
 وقد شهدناك في ابان شبابك تاخذ بتناصر المبادئ الحرة وتؤيد شأن
 القواعد الصحيحة فدلنا ذلك على انك لست من ابناء هذا الجيل وليس اهل اقربانك
 بل انك سابق بمئات من السنين في الوجود او انك وانه سيأتي على الاعصار
 القادمة زمن يذكرك اهلها بما نشأت عليه في زمانك فينادونك ثم ايها الاديب
 هذا عصرك الخليلي بك فقد وجد فيه رجالك وهم بك حريون ثم وانشر فيهم

مبادئك وتعاليمك فهم لك مصفون ولشأنك معظمون

فقدناك يافئى النباه بالغا مبلغ الكهول من الحكمة ولم تبلغ الثلاثين من عمرك
ولكنك ابقيت لك ذكرا بويددهور او اثرًا يخلد من بعدك اجيالاً فلم بهما الفضلاء
كيف يحيا الذكر ويبقى الاثر

وهم تذكرك تذكيرا بادبك ابطلاقة لسانك وقد كنت واسطة عقد الخطباء
ام بتوقد جنانك وكنت خيرة الالباء ونجبة الازكياء

فكم رأيناك على المناير تجيل عينيك ملتفتاً نحو ملتقطي دررك يمنة وشمالاً
فصيحاً بليغاً قوي التصور حاد الذهن حاضر الفكر سريع الخاطر متين الحجة صحيح
البرهان ثابت الجنان

وكم عرفناك في مكاتب الصحف منقلبا بين فنون البراعة بما هو بادي الآثار
في جرائدنا شاهدآ على سعة معارفك وطول باعك في السياسة والمباحث العلمية
والمناقشات اللغوية والمنافسات الادبية والمدح والهجاء والتابن والرثاء وحسن الرواية
واحكام طرق الاخبار والحكاية والتفنن في اساليب الجدل والهزل والعذل والرجاء
واللوم والعتاب والتوصل منهما بمناصحة الانلان الاحباب والمغازلة والمداعبة والحزن
والطرب وسائر فنون الادب وكليات الامور وجزئياتها على اختلاف احوالها وصفاتها
وهم نستوفي ذكر محاسنك ونستجمع بقية اوصافك واحاسنك انفس القريض
وقد كنت ابن بجدته وقائد نجدته مقتبساً مبتكراً مجيداً مؤثراً مرقصاً مطرباً
محرزاً مبكياً تلعب بالعقول بين الرقة والانسجام وتاخذ بالالباب على ابداع نظام في
نظم الكلام ام برقة جانبك في المعاشرة ولطف محاضرتك في المصاحبة ام بحسن
وقائك وجميل ولائك وبشاشته وجهك وكرامة طبعك

وهم نمثلك لدى العين في سجاياك ومناقبك ومزاياك ابالاداب وقد كنت
صحيحها من غير تصنع ولا رياء ام باخلاقك وطباعك وقد كنت حاد الطبع سريع
التاثر والانتقال غير حقود او جمود طيب القلب سليم النية عنبري الصيت مسكي
السمعة مستقيم الشأن رضي الخلق لا يتولاك الحسد ولا يملكك الطمع ملتئبها غيره على
ابناء جنسك عزيز النفس ايبها ظاهر السريرة نقيها انوفاً من غير كبرياء مقداماً
جسوراً لا ياخذك الهجان الفوز واخلاء حكماً ذكياً منبسط اليدين ممخياً
محسوداً على ما كان فيك من النباهة مشكوراً على ما كنت مفطوراً عليه من النزاهة

وهم تغذ بعد ذلك من اثار حياتك سبباً للسوان وموجباً للعزاء اخطبك
واقوالك التي ذكرنا او صفات كمالك التي عددنا . نعم هذه اثارك في الادهار
تشهد على سعة علمك بغير بيان وهذه باريستك الحسنة نطق بحسن بياتك بغير
لسان وهذه رواية اندر وماك التي لو علم واضعها بما لبناك عليها من فضل التعريب
لا نبعت مطاطماً في موقف الاجلال لمقام الكاتب الاديب وهذه جرائد مصر
والتجارة والعصر الجديد والمحروسة والنقدم وغيرها مما جاء مطوقاً بقلائد فصاحتك
السحباية محلى بفرائد حكمتك اللقمانية وجاء معلناً انك لم تكن فيما اجدت به وابدعت
الا ايامي الذكاء اخطلي الادب وهذه المؤلفات العديدة والمنشورات المفيدة التي
اشتركت مع اربابها في التاليف والتصنيف فكانت دليلاً على اجتهادك وسعيك في
نفع بلادك . وهذه سوربة نفتخر بكونها مسقط راسك ومطلع شمسك وهذه مصر
تنافس بك الامصار وتفتخر بكونها مظهر فضلك ومجلى افكارك

وكيف يسلك اهلها وقد كتبت الي منذ سنة في احدى رسائلك تقول .
آه لو اري مصر نظرة اخرى في حياتي . وقد نلت اربك وبلغت منك فحمتها
ورايتهما فآكرم امرؤها وفادتك ماهلين بك مرحبين ثم نابت عنها على امل العود
اليها بعد الشفاء فخال واحسرتاه بينها وبينك الداء فكانوا عليك آسفين وبما ذكرناك
به ذاكرين

وكيف اسلك يارفيق الشباب وكنت ان نمت رايته في منامي وناجيتك في
احلامي وان صحوت رايته الى جانبي وامامي وان تكلمت كنت موضوع كلامي
وان كتبت سبقتني الى ذكرك اقلامي

فمن اين لي بعد ذلك ان اصبر على عظم هذه المصيبة فيك ومن اين لي ان
ارى بعدك مثل الدرر التي كانت نثنا من فيك فوا اسفاه على اوقات نقضت
بقربك وواحسرتاه على زمن كان به قضاء نجبك الزمن الذي كان يتوقع فيه ابنا
بلادك زيادة النفع باقدامك واجتهادك فتق وانت تحت الثرى اناديك حياً بذكرك
اني لا اسال بعد هذا الخطب صبراً قليلاً كان او جزيلاً فقد رايته بعين الحقيقة
امراً مستجيلاً ولكني اساله لوالديك واخوبك والك وسائر محبيك وخلانك

وكفى لتعزيتي ان لا اجد على فقدك من
يظن ان فؤادي غير ملتهب وان دمع جفوني غير منسكب

« للدكتور سليم افندي جليخ في تأييد نقولا افندي نقاش »

لقد وجدت مجال القول ذا سعة فان وجدت لساناً قائلاً فقل
نعم وجدت مجال القول ذا سعة وارى المادة غزيرة ليخطب فيك الخطاب ايها
الشيخ الجليل والفقيه الكريم . ولكن ارى بالوقت نفسه ان عامل الحزن سطا على
الفؤاد فاضحي اللسان فاصراً عن ان يفك ححك انت الذي عشت مدافعاً عن
حقوق العباد

لما وقت منذ نحو ثلاث سنوات على اسف مني لتأبين فقيدكم العزيز يا آل
نقاش الكرام بكيناه اوانثذ شأباً في زهرة الممرور ربيع الحيوه * وبكيننا في موته
مستقبلاً منيراً كان ذلك الهلال يومئذ به * واما الان فاننا نبكي معكم شيئاً ميمراً
او بدرأ كاملاً ونبكيه لانه كذلك * نبكيه لاننا فقدنا بفقدته رجلاً فاضلاً
اذا عدت رجال الدهر يوماً فيحسب واحداً بمقام الفد

نعم قضى النقاش يا قوم فنقش حزنه على صفحات القلوب كما سينقش ذكره على
صفحات التاريخ * - قضى من كان مثلاً حياً للذكاء والفهم والعلم والهمة
والنشاط والغيرة والاقدام * قضى من كانت نتناول الاعناق لاستماع درر الفاظه
عند وقوفه بين ايدي القضاة يدافع عن حق او يؤيد حقاً * قضى من كان
خادماً اميناً لدولته ورجلاً عظيماً في امته

ايها المتوسد الان امامنا لا تبدي حراكاً مغلولاً بسلاسل الموت بعد ان
كنت بقوة جنانك وسديد برهانك تحمل قيود المعتقلين اننا نبكيك * نعم نبكيك
ولسنا في النوح عليك بمنفردين * - تبكيك الانسانية لامك كنت من نصرائها *
يبكيك الوطن لانك كنت من رجائه الغيورين * تبكيك الطائفة لانك كنت
عين اعيانها الصادقين يبكيك اصحاب المشاكل يامهد ضباب الامور . ويبكيك
المتداعون لانك كنت عن حقوقهم من ابرع الحامين . يبكيك الطلبة لانك
كنت لهم استاذاً من نخبة المعلمين . يبكيك ارباب الاقلام يانبراسها . وببكيك
اصحاب الاقلام يامصباحها . يبكيك الخطباء من اعلى المنابر والشعراء والبلغاء
والقصحاء لانهم فقدوا بفقدك قسمهم وسجبانهم يبكيك الفقراء لانك كنت لهم في

الحاجة ملجأ كريماً . يبيك الادباء والظرفاء لانك كنت سيد الادب والظرف .
 ومعدن الرقة والطف . فلا نستغرب اذا رأينا اولادك وذويك يشقون عليك القلوب
 قبل الجيوب ويزرفون عليك الدم عوض الدمع . لاننا نرى ان كل من عرف بخطبك
 يشاركهم في البكاء والنواج . على اننا نعلم بانك لم تمت حيث خلفت من بعدك من يخلد
 لك الذكر الحميد . نعم خلفت اولاداً اشربتهم العلوم والاداب وريبتهم على مثلك الكريم
 وتوكت لهم من الصيت الحسن والشهرة الطائرة ما يبقى لهم ذخراً في مستقبل الحين
 وابقيت لهم اصدقاء من خاصة القوم يشاركونهم في السراء والضراء لذلك انت خدعتهم
 مدى الحياة وبعدالمات وهذا ما يسليهم ويخفف وطأة الحزن عليهم فم آمناً مطمئناً
 ولتسكب السماء على ضريحك غيوث الرحمة والرضوان . ولتسكن روحك في فسيح
 الجنان . وليبق ذكرك خالد على كرور الزمان



« لعزير افندي صعب في تايين الشيخ خليل اليازجي »

رنة الخطب

الموت نقاد على كفه جواهرٌ يختار منها الجياد

حمل الدهر علينا فلا ندري اني نقي فتكات سهامه . وماربنا الزمان فلا نعلم
 كيف ندفع عنا نوازل احكامه . وتوالت علينا الارزاء الوطنية فلا نسلو رزوا الا
 وتفاجئنا الايام برزء اشد يسيل له الجمد . ولا نصبر على خطب حتى تروعنا يخطب
 املك يتفطر منه الفواد . فانما هي الدنيا تسترد ما تهب فباليت جودها كان بخلا .
 فهي مشغوفة بالندر لا تحفظ لنا عهدا ولا نتم وصلا . فقد سلبتنا اعلاماً تضن بامثاله
 الاعصار . واحاداً يعدون بالاف من الرجال لا يشق لهم غبار . وحرمتنا جهابذة
 كان وداعنا لهم تباعا وابتزت منا افرادا كان سلام الدهر عليهم وداعا . فكم جلوا
 بكلامهم الابصار العلية وشخذوا برقيق معانيهم القرائح الكلية . وكم نهجوا لنا الطريق
 الواضح . واما طواع وجه الحقائق غشاوة العمي الفاضح . نزلت بهم المنون في معمعان
 الشباب وريعانه . وخيم عليهم الموت عند شدة افتقار الوطن اليهم وابانه . ولو امسك
 الدهر على هذا القدر من الرزايا الجسام . والبلايا العظام . لصبرنا على خطوبه

وان كانت امر من الصبر . واحر من الجمر . ولكنه انبثق علينا انبثاق السيل . واندفع
 اندفاع القضاء المنقض بصواعق الويل . فتكلمنا من نقوض لهول . مصرعه اركان العلم
 والادب . وغیضت لنضوب منهله مشارع الفصاحة والخطب . فهو خطب خفقت له
 القلوب . وشقت عليه الجيوب . وخبر تهدجت به في الافواه لسن الفصحاء . وتعثرت
 في مجال الطروس اقلام البلغاء . ومصاب استكت له المسامع . وارتجت له الاضالع
 فالدموع واكفة . والجوارح واجفة . ولو يفتدى الراحل لفته منا الاحشاء . والمهج
 ولبدلنا من دونه كل نفيس ولا حرج . كيف لا وهو سليل بيت العلم والنباهة .
 وفرع شجرة الادب والوجاهة . الشاعر المطبوع والكاتب التحرير المغفور له الشيخ خليل
 اليازجي نجل من صار صيته في الافاق . وطارت شهرته حتى كادت تبلغ السبع
 الطباق . استأثرت به المنية رطب الشباب . غض الاهاب وقد ملا الاسماع والقلوب
 فمن الفاظ خيطة على قدود المعاني . ومعان مبتكرات قد تجلت في ابهى من السندس
 من فصيح المباني . واسفار علمية وروايات شعرية . وقصائد قامت على منابر الفتها
 خطباء البلاغة . وصدحت على اغصان سطورها حمام الفصاحة . فكان لا يمر علينا
 يوم لا نرى له في عالم الادب وشياً جديداً . ولا يجتاز بنا حين لا نسمع له في مجالس
 العلم ذكراً حميداً

فيا لك من فقيد قضيت شهيد المحابر . وعزيز مرت بك الكوارث فكنت عليها
 صابر . فهل لنا كلام يفي بتعديد رثائك . ولسان يقوم بحاسن ثنائك . فلو كنت
 في موقفنا هذا الحرج لكان لك ما نتمناه . ولكنه واحر قلباه . لقد نزلت حفرة اعظم
 من يوم الكرب واحرج من فناء القلب . واقفر من عيشنا من بعدك . واوحش
 من انسنا بعد بعدك . فاصبحت بعد النضارة ورونق الحياة جسدا هامدا . ورفاتا
 سحيقاً ونفساً خامداً . فاحرص عليه ايها الرمس حرص الايام على اثاره وارحمه رحمة
 القلوب لشبابه . واعلم ايها الراقد رقدته الابدية بان ليلنا بعدك قص جناحه . وظفىء
 مصباحه . وذل صباحه

فكيف رياض العيش تبسم بهجة وترجو حياة بعد ما هلك القطر
 وكيف برجى الليل بعدك آخراً وفي ظلمات الارض قد دفن الفجر
 لولا انك صبرت قبلنا على مثل ما نرتاد به صبرا جميلا لانقذنا عليك ماء
 الشؤون . واجر بنا العيون من العيون . اللهم ارحم غربته . وانس وحشته .

واجعله من منزلك مقرّاً . ومن لادنك محبباً . وجله بعفوك الكريم . واكنفه ببرد
 النعيم . انك الرؤوف الرحيم
 اما انت ايها الشيخ الفاضل ^(١) . والامام العلامة الكامل . فقد عرفت اليايالي فلما
 دعتك لم تزدك بها علماً وسبرت غور الايام فلا تحشى لفتكاتها سها . اجل ان
 الخسر لعميم عظيم ولكن العظيم على العظيم صبور . وانت اعلم الناس بان الدنيا
 غرور . ودار الشرور . ولعل هذا السهم اخر ما في كنانتها . وانكى ما في خزانتها .
 فلا اراك الله بعده سوءاً تنفطر له الاكباد . وينصدع له الجباد . ولنا بك التعزية
 اذا كان لا بد من التماسي على فراق الخليل . وبجيب الرجاء الوطيد ان يقيم بعد
 ايده الذكر الجليل . والله يلهمك وايانا الصبر بمنه وفضله . وپيل ثرى الخليل
 بصيب رضوانه ووبله . انه سميع مجيب

٦

« ليوسف بك اصاب ^(٢) في تأيين احمد افندي فارس صاحب الجوائب »

خطب جليل

كذا فليليل الخطب وليفدح الامر وليس لعين لم يفض ماؤء اعذر
 نحن اليوم في موقف حزن ورتاء . ومقام نوح وبكاء . لمصاب عظيم . وخطب
 جسيم . يقل في مثله ذرف الدموع . ويكثر في نظيره تمزيق الضلوع . كيف
 لا وقد ثل عرش الفضل . ودك طود العلم والنبل . وغاض معين البلاغة . وقضى
 مثال الادب ومات قس الفصاحة . فعمت الاحزان واستولت الكرب . وشملت
 الاشجان . جميع الاثدة والقلوب

جاءنا نعي وفاة « فارس الزمان » بلسان البرق منبثاً باقتضاض المنون عليه
 دون ان ترحم قلباً يتمزق . وشمل رجاء يتفرق . فاسترسلنا الى الكآبة والتاساء .
 والحزن والبكاء . باكين ولكن بكاء الخنساء . على زوال مثال الشهامة وانهدام

(١) يريد اخاه الشيخ ابراهيم اليازجي العلامة الشهير

(٢) كان يوسف بك وقتئذ متولجاً ادارة جريدة القاهرة الحرة وتحريرها في

القاهرة وما يأتي منقول عن عدد ٥٢٣ و٥٣٤ منها

علم الكرامة

ففى « واحسرتاه » المغفور له (احمد فارس) مأسوفاً عليه . من الادب
 وبنيه . والفضل وذويه مات ولكن ذكره لم يميت مادامت الارض ارضاً . والسماء
 سماء . مات (واسفاه عليه) عند الساعة الثامنة من ليل ٢٠ سبتمبر في الاستانة
 العلية بين ذراعي نجله السليم وما اتصل نعي وفاته بوجهاء الاستانة وعظماؤها حتى
 هالم الخطب وشملهم الكرب . وسكبوا على فقده الدمع سخياً
 واي امره لا يذرف الدمع عليه صيباً . ولا ينجع بكاء ونحيباً . وقد كان
 شعلة الذكاء ومثال الولاة . واسع الاطلاع . طويل الباع . في العلم والادب .
 حر الضمير صحيح القاعدة . كاتباً مشهوراً طائر الصيت ولغوياً عالماً فاضلاً .
 قوي التصور . حاد الذهن . ففى العمر بين الموائد والمحابر قالف وصنف كتباً
 نفيسة جليلة الفائدة . جزيلة العائدة . منها (سر الليال . في القلب والابدال
 وهو يحتوي على تبين معاني الالفاظ وانتساق وضعها . وكتاب الواسطة في احوال
 مالطة . وكشف الخباء عن فنون اوروبا والجناسوس على القاموس) وكتباً
 كثيرة في النحو العربي والصرف . وفي اللغة الانكليزية والفرنسوية مما يضيق المقام
 عن سردها

وجاء القطر المصري على عهد ساكن الجنان عباس باشا فتولى تحرير الوقائع
 المصرية واقتن قراءها ببلاغة اقواله . وفصاحة الفاظه . فانه كان طلق اللسان .
 متوقد الجنان . واسع المعارف . طويل الباع في السياسة والمباحث ولما بارح القطر
 المصري تسوح بين تونس وباريس ولندرة وه جملة اقوال وصف بها اطوار
 الفرنسيين وطباع الانكليز وشهامة العرب
 وثم اقام في الاستانة العلية فانشأ فيها الجوائب عام ١٢٧٧ هجرية ونقلب في
 كتابتها بين ضروب البلاغة . وصنوف الفصاحة . فوغل الناس بقراءتها وعلقوا بمطالعتها
 فتهافتوا الى الاشتراك بها . مقبلين عليها اقبال الجياع الى القصاص . فانه كتب في
 جميع المواضع احسن ما يخط ويكتب . وقد كانت عبارته تنطلق بين الرقة والانجمام
 فتفتن الالباب وتلعب بالعقول على ابداع نظام وكان العظماء والوجهاء يتباهون باقواله
 ويتفاخرون باشعاره . ويعجبون بالفاظه واي اعجاب
 والحق يقال انه خدم العلم وفن الانشاء في الجوائب خدمة جليلة تجلده له الاثر

الجميل والذكر الحسن ما كرت الايام . ومرت الاعوام . فكم له من الاقوال النفيسة
في اللغة والسياسة والمدح والثناء . والجد والهزل . واللوم والعتاب والحزن والطرب .
وسائر فنون الادب عدا عن قصائد غراء . ومنظومات عذراء . جادت بها قرائح
الافكار فكانت درة بتيمة بين القهائد والاشعار

وجمل القول ان جميع ما فاه به ونطق وجاء مسطوراً على صفحات القرطاس كان
مطوقاً بقلائد الفصاحة . معرباً عن فرائد الحكمة . وجميع مؤلفاته العديدة وكتبه
المفيدة جاءت دليلاً على سعيه واجتهاده في نفع بلاده

وله خدمات جليلة قام بتاديتها نحو دولتنا العلية بكل صدق واخلاص فاستحق
بذلك ان يكون اهلاً لاسمى نياشينها الافتخارية وقد خدم افكار رجال الدولة العلية
في سائر كتاباته السياسة ولم يبخل بارائه السديدة عند كل ملة كانت تحدث في
الولايات (المحروسة) فكان في جميع المعضلات يصف الدواء للداء غير خاش في
الحق لومة او ملتبس بمظاهر الخداع والمخاتلة

وكانت جرائد باريس الخطيرة . وسحف لندرا الشهيرة . تأتي بذكره كثيراً .
في اغلب اقوالها عن سياسة الشرق مستندة في آرائها عليه . مقدرة اياه حق قدره .
فتصفه بالسياسي المشهور . والاخباري الطائر الصيت . والكاتب اللوذعي الفاضل
وغير ذلك من الاوصاف التي لا تلبق الاله ولا تجدر الابه

وكانت منزلته عند كتاب الصحف في اوربا وعلما الغرب والشام ومصر والعراق
ونجد وبغداد سامية جداً فمدحه جميع الشعراء . واثني على فضله جميع الخطباء . والبلغاء
من سائر البلاد العربية حتى من افاصي الهند وبلاد فارس

وكان كريم النفس ابها رضي الخلق لا تاخذه الحدة عند الغضب . ولا يتولاه
العجب . عند امتلاك الارب . لبن العريكة طليق الوجه . محباً للغير وفعل المبرات
ميالاً الى المساعدة والاسعاف وما من قادم الى الاستانة كان يقصده في قضاء لبانة
ويعود خاسئاً خائباً

فوا اسفاه عليه . نعي الينا البرق وفاته فكان نعيه رنة حزينة في القلوب . اورثت لنا
الكمد والكروب . فاين نوادب الفصاحة ترثيه . وعرائس البلاغة تبكيه . وتباً لموت
كبهف لم يوقر شيخنا الجليل وعالمنا النبيل . فاقترب منه واخفى عليه دون ان
تاخذه هيبة من وقاره او ترهبه هيثة اجلاله . كيف مسه باصابع الاذى . الاشلت

يداه كيف اختطفت من كان لعين البلاغة قرّة . وللفضل والعلم فرحة ومسرّة . على
حين ما كنا نخال انه دام عماد الفضل وانزواء الانجم الشهب

ما خلت ان عماد الفضل ينهدم حتى قضى الرجل السامي الذرى العلم
والهفاه . كيف يوارى التراب شخص الكرامة ومثال الشهامة فان اراه لا
يوارى معه طبيبات اعماله المشكورة وآثار فضله وغيرته المأثورة

ما كنت اعلم قبل موت فقيدنا ان القبور منازل الاقار
غير ان تحت الارض رجال فضل ونبيل وفي القبور درر وجواهر
فالموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الحسان

✽ ولد هذا الخبر العلامة ✽ في قرية (الحدث) من اعمال لبنان ولم ينقطع
عن الرضاع حتى ظهرت عليه مخايل النجابة ولما ترعرع ادخله والده مدرسة (عين ورقه)
فتلقى العربية ونبغ فيها حائزاً قصب السبق على اقرانه وما بلغ العاشرة من سنه
حتى اشتهر في نظم القريض وكان فكره دائماً يحوم على الشعر ويتصدى لنظم كل ما
يخطر بباله من المعاني ولما حضر الى مصر تعرف بالاديب البارع نصرالله افندي
الطرابلسي الحلبي والشيخ محمد شهاب الدين فلازمها واستفاد منها فوائد حمة في
اللغة والادب . ومدة اقامته بمصر طالع كتاب (صحاح الجوهري) وديوان المتني
وكتب مشاهير العلماء فاتتسب منها اختيار الالفاظ وسبك العبارة . وكان ولوعاً
جداً بقراءة الشروح التي تبين ماخذ الكلام من اللغة . ووجوه التصرف فيه ومن
وفرة المطالعة استطاع في وقت قريب بما فيه من توفد الذهن على تصوير معان في الفاظ مناسبة
فانصب على الشعر وكان يستعمل في الغزل الفاظاً رشيقة فائقة . وفي الحماسة الفاظاً جزلة فخمة
وفي الرثاء الفاظاً محزنة تاخذ بجماع القلوب وتنطوي على سبك المعاني في قوالب الفاظ تشف
عن بلاغة تخیلها انواع البديع كالجناس والترصيع والتورية دون كلفة . وقد نبغ
في جميع فنون الشعر واشتهر بالحماسة والغزل . والمدح والهجاء . والمجون . وبقي
العلوم . كالنحو . والصرف والاشقاق والمنطق وهذه مزية ما امتاز بها احد من
العلماء قبله . وله جملة قصائد في التطريز والتشطير والتخميس والتسميط وحبك الطرفين
في غاية البلاغة والانسياب فضلاً عن انه كان في النثر كاتباً لودعياً

هيئات ان ياتي الزمان بمثله ان الزمان بمثله ليخيل

بليغ العبارة فصيحها يكسب الالفاظ نغامة وطلاوة والمعاني دقة وانسياباً وقد كان

طويل الباع في احكام طرق الاخبار والتفنن في ضروب الحكاية وما من علم عرف
 في زمانه . حتى بذل فيه جهد امكانه . فجعله محور عمده . وقبلة قصده . فسهل
 حزنه . ووطأ متنه . وصاد شوارده . وقاد اوابده . وصفا مواردته . ووفى مقاصده
 وفتح ابوابه . وراض صعابه . واكب على التأليف في الايام والليالي . متفنناً في الكلام
 ناظماً منه عقوداً كاللآلى . فيارحمه الله على رجل الفضل . وطود العلم . ونجم الادب
 الآفل . واليف المجد الراحل . فقد كان ريحانة العرب في مصر والشام . والغرب والعراق
 وسائر البلاد العربية . ولا بدع ان الشرق قد خسر بفقدته اعظم عالم وافضل كاتب
 فباي لسان تقي حق رثائه . واي براع يستطيع القيام بواجب تايينه . ام اي كاتب
 سريع الخاطر قوي التصور واسع الاطلاع ياهل الى رثاء (فارس الجوائب) . فليس
 من يستطيع على القيام بهذه المهمة الا من هبطت عليه اسرار بلاغته . واعطي منحة
 يراعه . وبرع في الترسل والانشاء . وفاق سواء في سائر الانحاء . ولكن هيهات ان
 ينفي فقيدها حقه (والهفاه عليه) خسرناه نخسرنه شخص حكمة ووقار . ورجل دراية
 واختبار . فلتبكه بكاء الخنساء وما استطعننا سبيلاً الى البكاء . فليبكه الامراء والكبراء
 والعلماء والخطباء . فليبكه الشعراء والكتّاب والبلغاء والقصحاء . فلتبكه الانسانية
 وبنوها فليبكه الافاضل والادباء فكان لهم عوناً كريماً . ولتبكه بكاءً مراً كلما
 رددنا ذكر الفضل والادب . واسم الحسب والنسب . فعلى مثله يحق البكاء باستمطار
 دمع العين . وفي فقدته يطلب الاثر بعد العين

وله فيه

(نثمة رثاء)

حتى مَ تَطر علينا الكروب . وبلاً مدراراً . والى مَ تضرم في الاحشاء والقلوب
 نارا ونارا . (فواسفاه) ما هذه البلية . انها لبلية ضحوك . وشر البلية . ما يضحك
 (ووالهفاه) ما هذه الززية . لا شك انها ززية سكوت وشر الززية . ما يسكت
 اختطفت منا يابيين من كانت نتفاخر به الاوطان . وتسير بذكرة الركبان وهدمت
 فينا يا موت من شاد له في صروح العلوم ذكراً وكان للمعارف والاداب ركناً الا شلت
 يدك التي ثلت عرشه وقوضت ركنة والان اي قلب لا ينفطر على عرش البلاغة
 الذي اندك . واي دمع لا ينهمر على عقد الامل الذي اتك . فلا شك ان لا يوجد

قلب لا يتوجع وفؤاد لا يتفجع على زوال فارس الزمان الذي مضى فخلق لنا حرقه
 تذيب الفؤاد . ولوعة تغلذ الاكباد . فياعين استنزفي من جفنتك الدموع . ويا بني
 الاداب الزموا النوح وهاجروا الجموع . مات (فارس الفصاحة فبمن عدم تم ثقتدون
 ومضى قس البلاغة فاقوال من عدم تم تقراون . ذهب الفارس وقضى . وكان في علو
 الهمة ومضاء العزيمة . والتهالك على حب الانسانية مثالا به يقتدى . فيا فقيدا المحبوب
 الذي عشت عزيزاً ومت كرمياً تودعك الاداب بطرف باك والعلوم بقلب شاك تودعك
 البلاغة بعبراتها والفصاحة بعبراتها . تودعك الموائد والمحابر تودعك الصحف والتأليف
 يودعك التحرير والتجبير تودعك الاقلام بصريرها وحزن نقشاتها
 ومضى ذكرناك . نذكرك بحسن اثارك . ورقة طباعك وفصاحة الفاظك . وسبحر
 بيانك . وعلو هممتك ودماثة اخلاقك . وكرامة طبعك . وحسن خلقك واتضاعك
 ودعتك وسلامة ظويتك
 غير ان في القلب حسره . وهي انك مضيت ولم يعد مطعم في لقياك . فقل
 الصبر وضاعت الحيلة ولم يبق فيها مطعم . ولا في قوسها منزع
 فيا رحمة الله اهطلي على رسمه . وصبي على قبره . ويارب اسكنه فسيح جناتك
 وتغمده برحمتك ورضوانك

تهاني

« لسعيد افندي الشرتوني في تهنئة غبطة السيد يوحنا بطرس الحاج »
 « بارثاقاه المقام البطريركي على الامة المارونية سنة ١٨٩٠ »

الحمد لله الذي جبر الخواطر بعد انكسارها ورد الى القلوب الاطمئنان عقب
 اضطرابها وكفكف الدموع بعد انهما لها . انتم علينا وله الحمد بحبر حري ان يكون
 خلفاً للسلف الطيب الذكر الحميد الاثر . جدير ان يكون راس طائفة كبيرة . كفوء
 لان يجيء بما يوازن الاجماع على اختياره . وهذا الخلف الصالح هو من اشراقات

حكمة الفقيه بل صورة مشربه ومثال نزاهته الا وانه قد صعب السنين الطويلة وشاركه
 في امور جليلة وهو ممن اتاهم الله فكرة وقادة وبصيرة ثابتة تقادة وممن محصتهم
 حوادث الايام حتى صاروا خلاصة صافية وجردهم الزمان عن تفرير الخيالات حتى
 اصبحوا حقيقة محضة وحكمة بجمته ومن ثم تناهته الناس عوامهم وخواصهم باصالة الراي
 وتواصفه بشدة العزيمة لانه اراهم من الشهامة المكللة بالفوز في شؤون عديدة. ما
 كتب له ذلك الوصف على الواح قلوبهم ونصب له تلك الصورة امام عيونهم . فخبذا
 هو من بطريرك يعد غرض مقامه العالي قاعدة اعماله ومرمى مساعيه ووجهة عنايته
 ومن عرف غبطة بطريركنا الجديد كما عرفته علم انه ممتلىء الارادة لاجابة دواعي
 المقام شديد الميل الى ان يلبي طلب الايام بل رأى فيه رجلاً رسولياً احب ما اليه
 ان يتفانى في النهوض بما ينهض بلاده ويعزز شأنها ويجعل الصدق سيد اخلاق اهلها
 وهذا ماضيه في الاسقفية يشير الى منافع مستقبله في البطريركية . جعل الله عهده
 فيها طويلاً ذلك لان شغفه بتقدم العمران وهيامه بحب المملكة العثمانية يدعوه الى
 ان يفتح عيون قومه واهل بلاده على رعاية شرائع المملكة ونظامها ويبين لهم عظم
 النجاح المترتب على حفظها حفظاً صحيحاً لا حفظاً موهماً فان سعادة كل مملكة انما
 هي ثمرة احترام شرائعها . ومما ينبغي ذكره بالشكر انعقاد قلوب السادات المطارنة
 الاجلاء على ايثار المصلحة واجتماع كلمتهم على معاونة غبطته وتأييد فكره في جميع
 ما يعود على الناس بالنجاح وكفى بهم عزاً وشرفاً انهم اعطوا العالم بهذا
 الانتخاب بينة قاطعة على انهم يصونون مشربهم العام ولا يتركون لاحد سبيلاً ان
 يفض منه وكان لسان حالهم ينادي ان بطريرك الموارنة ومطارنته انما هم اعوان مصلحة
 واحدة ورجال مشرب واحد وليس في مكنة اعظم دهاء الارض ان يفرق بين تلك
 القلوب المجتمعة على الخير المتألفة على تميز الحق . المثلثة على خفض الباطل ومن
 هذه الجهة صار لكل منهم نفوذ رئيس الامة برمتها بل كان كلا منهم قد صار
 بطريركاً ولا غرو فتلک ثمرة الاتحاد في الراي وتتيمة الاتفاق في المشرب وسيكون
 عهد هذا البطريرك الجديد ان شاء الله مظهر حكمة عالية ومشهد امور جليلة يحفظ
 لها التاريخ اشرف تذكاًر ويخلد لصاحبها واعوانه المطارنة اجل الاثار
 فنهني مطارنة الطائفة الاجلاء واكبرها ووجهاها وكل واحد منها . نهني
 افاق البلاد بهذا السيد المغبوط الذي يعرف من يستميل وكيف يميل . ثم نقول ابشر

ايها المقام العالي البطريركي فقد تصدر فيك من يحيي كرامتك ويبين علو نفوذك
ويرشد الرعية الى طريق ما يتفقونه . ثم اهنتك ايها السيد البطريرك بانك قد وجدت
مجالاً يسع همتك ومقاماً يكافي . فخونك وطائفة كبيرة يتفاخر رجالها بانتثار امرك .
اطال الله خير البلاد ايامك وضرب على اهلها يد عائتك سرادق الامان . في باحات
الغصب مدى الزمان

٣

« وله في يوبيل سيادة المطران يوسف الدبس رئيس اساقفة »

« بيروت على الطائفة المارونية في ١٩ اذار سنة ١٨٩٢ »

« غلا . العمر ورخصه »

ليس لدى الخطباء في هذه الخفلة الشريفة الا موضوع واحد موضوع التهنئة لهذا
الحبر الفاضل باليوبيل الفضي الاسقي الذي اقترحت له علينا جلائل آثاره وثقاظته
منا بواهر اعماله فلا تحسبن من ثم ان ما يقوله الواحد هو في معنى ما يقوله كل من
عداه اقتراض اننا نخرج الكلام بصورة واحدة او بصور متشابهة حتى اذا سمع السامع
خطبة كان كأنه قد سمع سائر الخطب او أشد قصيدة كان كأنه قد انشد سائر
القصائد فتأخذ السامة سلفاً فيصير مثله بعد الخطبة الاولى مثل من نقص عليه
قصة ثم تعادله مرة في اثر مرة او مثل من يجلس الى المطرب سمحاً يومه ولا يسمع
منه الا نغمة واحدة فان كانت في الحلاوة كالعسل تعود في المرارة كالصبر

ولكن ليس الامر يارعاكم الله بهذه المثابة بل نحن وهذا الموضوع كاصناف النبات
في الارض كل نبت يأكل من ثراها ويشرب مما يقع عليها من ماء السماء او يجري
اليها من مياه الينابيع لكن كل نبت يجيء مختلفاً عن الاخر ورقاً وثمرًا وطعمًا ذلك
ان فلا يجيل غذاءه وشرايه الى طبيعته فكيف التفت ترى الشواهد ماثلة ناطقة بما
قلت ترى التين والزيتون والصنوبر والورد والقلام والحنظل والعودج في البقعة الواحدة
وليس منها ما يشبه الاخر بل ترى لكل ما يميزه عما عداه كذلك الخطباء والشعراء
اليوم كل منهم يجتذب هذا الموضوع السائق بما فيه من الرفعة للعلم والفضل من الجهة
التي يراها اشد تأثيراً في طبعه واقرب من سواها امتزاجاً بهواه واعلى من غيرها قيمة

في عينه واغلى مما عداها ثمناً في نظره وكفى بهذا سداً لباب الملل وان طال عليكم
وقت الاحتفال بل ياخذنا هو من معرض فكري تعرض فيه على الاسماع بضائع
الافكار وبدائع الاذهان فيكتب لشعر هذا العصر وخطبه حكم الفضل على ما كان
يعرض في سوق عكاظ ومربد البصرة من قصائد المناخرات بما هو دون ما تفاخر
به في هذا اليوم من انتصار الفضل، والعلم وابتسام ثغور المجد والجاه لها واهتزاز المنابر
وتهلل الكنائس شكراً لله على ما آتى عبده الامين من النعمة حتى نقضى عليه ٢٥
سنة في رئاسة اسقفية بيروت منقطعاً للاشتغال بما يهذب الاخلاق ويصلح الاحوال
فقل بعون الله في هذه المدة ما ينفذ الزمان ولا تنفذ منافعه وجدد بهذا الصنيع تذكرك
ما لرجال الله من فضل السبق في كل محمداً ومائراً وانطق الجميع بالترحم على حجة
المورخين الطيب الذكر البطريك بولس مسعد لتقليده اياه زمام هذه الاسقفية فانه
اتم بل زاد كثيراً على ما كان في نية سالفه الحميد الذكر والاثر المطران طويبا عون
الشهير رحمه الله عداد حسناته واجزل ثوابه على مقدار مبراته من المشروعات العظيمة
وزاد في جمال ايام ذي الهمة العالية والعزيمة الماضية قطب احبارنا الاجلاء ايننا
المغبوط البطريك يوحنا الحاج الذي لا ريب انه اليوم يرتاح الى ما تقيمه ابرشية
بيروت من شواهد التكريم للديانة الكاثوليكية والمآثر العلمية والادبية وزين عندنا
ايام حبر الاحبار لاون الثالث عشر فريد هذا الزمان من حيث جرى في تعزيز
الاداب والفضل والنصح عنهما على نحو ما صدعت به المناشير البابوية واقتضته
الحكمة اللاونية

وبعد فلما طالبني حق الفضل ان انتظم في سلك المهنتين رأيت ان خطبة لا
يتنفع بها بعض الجمهور انما هي خطبة يقتصر فيها على تعديد آثار سيدنا صاحب
اليوبيل التي ضارت في اشتهارها عند الخاص والعام اشهر من نار على علم ومتى كانت
الخطبة من جمهور السامعين بهذه المنزلة كان الصمت بالخطيب احرى واجدر فتخيرت
لي موضوعاً يحلو لاي من سمعه ويفيد اي من تأمله بل تغزر الخيرات لكل من عرفه
عقلاً وجرى عليه فعلاً وهو الامر الذي لا ريب ان صاحب اليوبيل يراه كشفاً
لما هو خفي من الاسباب الداعية له الى ما صنع ويضع مما لا يطالبه به مقام الاسقفية
فيرضى به رضى المنفرد بحل لغزه هو الامر الذي تنبه له ايام صباه وجرى ولم ينفك
جارياً عليه كما جرى الريكايون على وصايا ابيهم يوناداب (١٨:٣٥) هو الامر

الذي استوجب له هذا العيد الفضي واجرى له فيه من غرر النثر والنظم سيولا
 كذا قام في ذهني ولا بدع فمن احب شيئاً بالضرورة يكون قد رآه الحسن الجميل
 لكنه بعد ان يعرض عليه كثير من افراد ذلك النوع وانواع ذلك الجنس قد يرى
 اجود مما استجد واحسن مما استحسن

فتقوا سادتي انه سيكون لبصائرهم الرقادة اليوم من خطب الخطباء وقصائد الشعراء
 مع تواردها على موضوع واحد مشهد بديع هو في اختلاف وجوه المعاني وصور ادائها
 وتشعب طرق التشبيه والمجاز فيها بمثابة هذا المشهد الخافل في اختلاف وجوه شاهده
 فتبدو لكم جنة مشتملة على افانين من ازاهير النثر والنظم طيبة العرف حسنة
 الالوان قد اهديت الى من رفع قدر الادب بادابه واكرم مقام الفضل بفضيلته فتحصل
 لكم بذلك لذة الاستماع والشعر والخطابة حظ من الانتعاش بحيث يتميز الذهب من
 الشبه وصهباء البلاغة من درري التبالغ سنة الله في كل ما يقبل عليه اكابر العصر
 واصاغره

وان قلتم كفى فقد اطلت علينا كما اظال موسى على قومه قبل ان يدخلوا ارض
 الميعاد فقد عيل صبرنا اشرع فيما تخيرت الكلام فيه اما ترى الشعراء من حولك يتزاحمون
 نعم ارى منهم بقدر ما ارى من فضائل صاحب اليوبيل — واما قولكم ارض الميعاد
 فهو منطبق كل الانطباق على موضوعي لانه يدر لكم لبن الخير وعسل اللذة واسمحوا
 لي قبل ان اصرح باسمه الحلوان اشير اليه ايضاً اشارة تريك خطارة شانه وغزارة
 نفعه منشداً بيت ابي العلاء الماري

واضيع اوقاتي بندي ندامة ويفوتني الشبي اليسير فاندم
 وبقول آخر

ليس من الخسران ان ليالياً تمر بلا نفع وتحسب من عمري
 وقول آخر

اذا مر بي يوم ولم اتخذ يداً ولم استفد علماً فما ذاك من عمري
 واما اسمه الحلوان العذب فهو عمر الانسان اي مدة حياته في دار الدنيا

تعلمون رعاكم الله ان العمر ظرف بمظروفه يغلو ويرخص وبما وعى يطيب ويخبث
 وبما حوى يشفي ويمرض وبما التقي فيه يهدي ويضل حتى يقال ما ارخص عمر عمرو
 وما اغلى عمر زيد وان كان من بلد واحد في عصر واحد في مقام واحد وما اطيب

حياة هذا وما اخبث حياة ذلك وما افقع حياة فلان وما اضر حياة فلان فانلى الناس
 عمراً واطيبهم فيه اثراً واشفاهم لادواء الجهل واردهم للناس عن سبل الوبال انما هم
 الواقفون على منابر التعليم والتذكير آخر الدهر انما هم اولئك الذين بقوة ما ابقوا من
 غلات اعمارهم يسودون من على ظهر الارض وهم في بطنها ويرشدون سكان القصور
 وهم رهائن القبور الا قولوا اين سطوة الاسكندر اليوم من سطوة ارسطو واين غلة
 عمر الاسكندر من غلة عمر استاذه الفيلسوف قد ذهبت اثار ذي القرنين بذهاب
 حياته . واما اثار الفيلسوف فلم تذهب ولن تذهب بل تطاول الدهر عمراً

قولوا لي يرحمكم الله هل من احد يعدل عمر المطران جرمانوس فرحات الذي اذكي
 مصباح العلوم العربية بين اهل النصرانية وزين الكتب البيعية بحلى الفصاحة بعمر
 من عاصره من الرهبان والاساقفة في خلال القرنين ١٧ و ١٨ وهل بقي من غلة حياة
 جميع معاصري علامتنا المثار اليه ما يذكر في جنا ما ترك من كنوزه العالمية
 ومصابحه الادبية كلا كلهم ماتوا واندرست اثارهم وانطوت اخبارهم ولكن جرمانوس
 حي لا يموت ولا يبرح طائر الصيت في مشارق الارض ومغاربها
 ثم اين اعمار معاصري سماعيلينا امير العلماء شرقاً وغرباً من عمره خصباً وطول
 امد وخلود فائدة

فاذا تقرر ذلك انكشف لكم الستار عما حمل خبرنا المفضل على الاشتغال في
 معظم ما يبقى له من الوقت بعد قضاء اشغال منصبه بالتعريب والتاليف وذلك من
 لئن كان في معية الطيب الذكر المطران بولس موسى مطران طرابلس الى ساعتنا هذه
 وعلمتهم ان الحامل له على ذلك امران احدهما معرفة ثمن الزمان الذي لا يسترد فائته
 مع النظر في عاقبة من تقدمه من اهل الفضل وارباب التاليف وما افاضوا به على
 الخلق من الفوائد التي لا تحيف بنايعها وما جلب لهم صنيعهم من علو المكانة في الصدور
 وحياة الذكر في الدنيا اذ خلفوا من نسل حكمتهم وذرية علمهم مما تنقرض امم ولا
 ينقرض والاخر اعتبار ان الامساك عن العمل محل في النفس بل موت فانما النفس
 عمل كما سماها الفلاسفة فهذان الامران هما اللذان قد صيرا هذا الخبر رجلاً كبيراً
 وعالمًا جليلاً اذا ثارت عليه نائرة حملت عليها جيوش اثاره فاخذت نارها . واطفات
 شرارها

ايها الخبر العلامة لك اقول الان قد احسنت معرفة قيمة الزمان حتى حرصت

على فضلاته ان تذهب سدى فانتقطعت فيها للتاليف تهدي الى الناس علماً ورشاداً
 او تجلب لنفسك عندهم فخراً وعد الله اجراً لها قد احسن الزمان معرفة قدرك وامتهد
 على نفسه في هذا اليوم من في هذه المدينة الزهراء من ممثلي الدول العظيمة وممثل
 من له رعية في كل مملكة وجمهور الفضلاء والعلماء والادباء انه معترف بانك بيضت
 وجهه وطيبت ذكرك واجزلت فوائده ونشرت اسمه وابعدت وصمة الخمول عنه اذ قبل
 جهل الفتي عاراً عليه لنفسه وخموله عار على الايام

وانه مقر بانك من اشخ اهله به لتكون من اسخام على بني الانسان بما تجني فيه
 من ثمار العلم وتغرس من جنة الفل فلما الله الزمان ما انصفه اذ كانما بما يصنع في هذا
 العيد يثيبك ايها الخبر الجليل على ما رفعت شأنه وميزته عن الوف من اقرانه بان
 يجعلك جوهرة في تاجه وقدوة لابنائهم تعرفهم ان الزمان اغلى من كل كنز وان اتقاه
 فيما يرضي الله وينفع الخلق هو الفخر والخير وصرفه في نقض ذلك هو الهوان والشر—
 هذا وفي الختام اسال الله ان يعطيك من العمر على قدر معرفتك لقيمته ويجعل يوييلك
 ايقاظاً للهمم النائمة واعظم صارف لادبائنا عن قضاء الزمان فيما لا ينفع الى قضائه فيما ينفع
 وان يرغب طلاب المدح في صنيع ما ينطق به الناس بمدحهم عفواً بلا طلب وصدقاً
 لا كذباً

م

« لسليم افندي كساب في تهنئة الدكتور فانديك »

« في الاحتفال بسنة الخمسين من خدمته البلاد الشرقية في ٢ نيسان سنة ١٨٩٠ »

ايضاح العواطف في الاقرار بالعوارف

يمثل لنا هذا المقام الجليل . عرفان الوطنية السورية قدر الجميل ويشهد هذا
 المحفل الكريم . لسمو حياة العلم والتعليم . ويفصح بلسان الحال . عن ادراك قيمة
 الرجال . وينطق بخير التهاني والبشائر . في تقديره حق العوارف والمآثر . وما
 انتظم عقد هذا المنتدى البديع . الا شهادة لنعم تتمتع بها الرفيع والوضيع . فقد جمعنا
 على اختلاف المراتب والملل والنجل . امنن الصلات المعربة عن فضل العلم والعمل .
 المعززة بالجامعة العثمانية . والعروة الوثقى الوطنية . تحت لواء سيدنا ومولانا وسلطاننا

الجليل (عبد الحميد) . الفاتح لتبعته الامينة جنان المعارف في العصر الجديد .
الموجه قلبه الابوي لخير رعيته المخلصه الولاء . وترقية امورهم ورفاه احوالهم بلا
استثناء . والاخذ بناصر العلوم والعلاء . ايد الله معقل ملكه الحصين . وايدته بالنصر
والظفر المبين . وادام دراري عدله السوافر شموساً تستضي بها الاصاغر والاكابر .
وصان وزرائه ورجال دولته . الفخام يمين الحزم والعزم والاقدام . فنجني من خديقه
مشاورتهم ثمار الترقى وبركات السلام

فلقد قام هذا النهار شاهداً بافصح لسان . لا ياد يبضاه يحجم عن وصفها قس
ابن ساعده وشيشرون وسبحان تلك ايد كست الاوطان باثن المطارف . المنسوجة
من ديباج المعارف والعارف . وبنيت في القلوب افسح المنازل فحل بها ممثل الافصال
والفضائل . الفيلسوف العلامة . والدكتور الجهد الفهامة . كرنيلوس فاندريك خليل
سور يا الحميم وحببها وصفها القديم . من نقضى عليه خمسون عاماً بين المدارس . يوزع
من درر علومه النفائس . وبين المنابر . يلفظ بالخطب الجواهر . وبين بيوت الرحمة
والمستشفيات . يعالج وينذل اكرم الصلات ويفرس بالحمية والجد والثابرة . اغراس
علوم زاهرة ناضرة . انت الوطن العزيز باينع الثمار فبات ماثره جنات تجري من
تحتها الانهار . فخيماً التفث رايت جنة تحلب الالباب . تزهو منابتها الغناء تحت طي
محمدة له او كتاب . يستقطر منها الشيوخ والكهول والفتيان . اعذب الفوائد الراوية
صدى العقول والاذهان تلك حدائق وفرت بها الاشجار والاغصان من كل فاكهة
بها زوجان . تغرد بلابل فنونها اطرب الالحان وتك خمائل نبري . قاطفها من داء
الجهل والحمول . وفصائل اودعت كنوز الاصول والفصول . يضمخ عبير نصها
الشائق البهيج . عقل فارئها باطيب الارجح نندفق ينابيعها اندفاق السيول وتتشعب
جداول تروي ظماء العقول . فلا تمثل تلك المائر والفضائل بزهور الحدائق والخمائيل
لان الزهور تذوي وتذول . واما هذه فلا يعرفها الذبول . ولا بالاثمار لان الناكهة
تقطف مرة في العام . واما هذه فجنائها غير منقطع مدى الايام . ولا بالكنوز لانه
قد يعرفها النفاذ . واما هذه بالاتفاق تزداد . بل تمثلها بينابيع لا تزال تسميل . لاحياء
ميت الجهل وارواء الغليل وابراء العليل . فاي علم لم يودعه بطون الاوراق . ولم
ينمقه بوشي معانيه الدقاق واي فن لم يصنف فيه خير تصنيف . يعود على درسه
بافضل المعرفة والتثقيف

فعلى اي مؤلفاتك نثني ايها الشهم الهام . وبذكر اي كتبك بدأ الكلام
 ابكياتك ام بطبك النفيس . الذي فقت به ابن سينا الرئيس . ابروضك يا خليل
 المنتظم انتظام اللائيء في السموط . ام بهندستك المقومة عوج الدوائر والزوايا
 واخطوط . امبرأتك الوضية منظر عجائب الاقطار وساكنيها . الجانبية بمطالها بحار
 البسيطة وغياضها وبواديهها . ام بكتابتك الهيثة الفائق فضله شأ والسماك . والمزيح
 النقاب عن اسرار النجوم والافلاك . ام ينطقك الموسس كل مقدمة وتبيحة وقياس
 على امنن الاسس الخالية من كل التباس ام بكتاب النقش في الحجر . الناقش
 في الالباب اجمل الصور . الدائمة الاثر المنغية بالخبر عن الخبر . خزانة العلوم
 الحاوية الجواهر الصحاح . واستاذ المدارس والعيال المتكفل بالنجاح والفلاح . فلا
 تعلم ايها اجدر باسمى النعوت والادوصاف لانها كالحلقة المفرغة المتحمة الاطراف
 بان مجموعها اجل . متحف انشاء اليراع الواحد . واثن عقد حلج جيد الوطن بالدرر
 الفرائد . ذلك متحف كاف لان يشغل العمر الطويل . ولكن ما كان مهديه الفاضل
 ليكتفي بهذا القدر الجزيل . بل تعلمون سادقي ان من اعمال الشيخ الجليل . ترجمة
 اكثر اثار التورية والانجيل . وانشاء المرقب الاول بسورية . الراصد حركات الاجرام
 السموية . المتصل مع اشهر المرصد . والمراسلها والمراسلته بما فيه المنافع والفوائد .
 ولم يكتف علنا بهذه الاعمال . بل وقف حياته على نفع الوطن من سائر الوجوه
 والاحوال . فانفق القسم الاوفر من زمانه . في تدريس احداث الحمي وشبانه .
 دروساً حقها الرقم بما . الذهب . من علوم الدين والطب والطبيعة والفلك والادب .
 وهاكم تلامذته المنتشرين انتشار الدراريء في الافاق يشهدون لنعمائه البالغة السبع الطباق
 يتاجرون بكنوز علومه فيكسبون ويكسبون . ويتنافسون في مضار السبق وينالون
 بل اذا غضضنا النظر عن كل هذه المآثر والمحامد . تكفيننا اعماله الطيبة القائم لها في
 المستشفيات اقطع الشواهد . فله في كل شارع وحي . جود فاق جود حاتم طي .
 فلقد صدق عليه ما قاله عن نفسه ايوب الصديق في سالف الايام . بازه عيون للعمي
 وارجل للعرج واب للفقراء والايتم . بل يصح عليه ما قاله احد الشعراء عن معن
 بن زائده . يصف مكارمه ومحامده

اذا حال حول لم يجد في دياره من المال الا ذكره وجمائله
 تراه اذا ما جثته متهللاً كأنك تعطيه الذي انت آمله

هو البحر من ابي النواحي اتيته فليجته المعروف والبر ساحله
 تعود بسط الكف حتى لو انه اراد انقباضاً لم تطعه انامله
 فلو ان ما في كفه غير نفسه لجاد بها فليتيق الله سائله
 وزد على كل ما قيل . خالق الفتان الجميل . واحاديثه المبكرة الساحرة الخالبة لب
 كل من سامره وعاشره . وكلامه السكرى الجامع كل منشور ومنظوم . درياق كل
 من لسعته ارقام الموموم . ونصائح السديده وخطبه المفيدة العديده . فيمثلته تميد
 المنابر سكر . وتصفق الايادي طرباً وشكراً . ويشمل النهى سروراً وبشراً . والى
 سماعه يتهافت كل خطيب مفلق . وتتكاثر الاقدام تكاثف السحاب المطبق . وزد
 على هذه الفضائل والصفات . معرفته الكاملة بانفع اللغات ولا سيما بلغتنا العربية
 الحسنة . حتى كانه من علماء العرب العرباء . ومحبه المخلصة لهذا الوطن واله
 وحسبانه نفسه في سلك ابائه ورجاله فكذا تكون الحياة مثلاً ينسج عليه . وعرضاً
 يتسابق كل عاقل في البلوغ اليه . فالشكر كل الشكر للعالم الجديد . لاحتفائه
 اوطاننا بهذا الكنز الفريد . المثري حمانا من كل طارف وتليد . فكم الفرجل
 عدوا بواحد عند من عقل . وواحد عد بالف وقد يبالهج فضرب به المثل . فقد
 جمعت قلوب كل من نطق بالاضاد . على محبتك وشكرك ايها الشيخ الجليل من صميم
 الفؤاد . فكنت اسبق من فاز بسورية بهذه المواهب . وعرف قدره الخلق على
 اختلاف الضرب والمذاهب وهذا المحفل الجديد . لاوضح شاهد واقطع دليل وتلبية
 كرام القوم مطالب لجنة هذا الاحتفال . اجلي بينة سامية المثال . واقبالهم على
 الاشتراك بتقدمة الشكر . خبر برهان يحق له الذكر واجماع الراء على السرور
 بهذا المشروع خير صلة في خير موضوع . وان قلت بالنسبة للاستحقاق . وبالنظر
 لعقود المنه المطوقة الاعناق . فباي افضالك وفضائلك نغترف ومن اي بحر من بحورها
 نغترف . وعلى ايها نشي ولايها نشكر . ام باي عوارفك نترنم ولايها نذكر



« نعمة افندي يافت في تهنة لكتور فانديك »

خلق الانسان سعيداً لا يعرف الشقاء تحنه الجنات الخصيبة والرياض الباهرة

يقطف شهى الاثمار ويشرب بارد الماء يتنفس قمي الهواء ويفترش وثير الرياض
يمشي في الجنة الهوينا يتامل في محاسنها وسمو معاني تركيبها الى ان سولت له النفس
اقتداء غارب الشره فتناول الى سعادة ارفع . وتطال الى معنى اوسع . فشم عن
ساعده وضرب في الارض فانتعت لديه فاجها فعمته مصاعبها وشملتة متاعها فجلس
في الياس كليلاً ولا مناص له منه فجد في طلب الرزق بغالب الطبيعة العمياء وينازل
الفيافي والبقاع الصماء فتسنى له بما اعطي من الحكمة ان يكشف الطبيعة خباياها
فتبوح له باسرارها فامتلك ناصيتها عظام الرجال وقادوها بازمته وذلها لتكون لهم
لهم خادمة امينة يستعينون بها على رفع اثقالها ودفع اضرارها ولا يقل الحديد
الا الحديد

ولما كانت عقباتها صعباً كان لا يرفاها الا ذرو الهمة القعاء ولا يتسمنها الا
ذوو الحكمة النجداء ولما كان هؤلاء العظام رجال الانسانية حركتهم الشفقة ودفعم
الحنو وحشتم عوامل الالفة لدفع اعباء الحياة عن كواهل اخوانهم في الانسانية
واشقايمهم في المدنية ليصلوا بهم الى اوج السعادة . ولذلك نرى عند نظرنا في اخبار
الامم رجال العلم وابطال الصناعة يعطون الالقاب الشريفة ويوصفون بفضلاء الامة
والمحسنين الى الهيئة الاجتماعية وتقام لهم الانصاب ويحتفل بهم في مراكز فضلهم
اكراماً واجلالاً وايفاء لجزء من حقوقهم وتكثيراً لذوي الفضل وارباب التبل
ونحن قد اقام علينا الدهر بكلكله واخنانا بثقله فاقعدنا في مكان قصي نستشرف
دواعي الفلاح واسباب السعادة ولكن الهمة قاصرة والطباع فاترة والاذهان خادمة
والشوق الى السعادة عظيم والتوق اليها جسيم لان الامة قديمة والعيش كان فيها رغيداً
والسعادة فيها سائدة . ولكن الانسانية لا تعدم من نصير والفضيلة لا تجرم من ظهير
فما عمت ان ادعت لغوثها رجل العلم ومثال الفضل الفيلسوف الفاضل شيخ اطبائنا
وعلمائنا وتاج ادبائنا ورحمائنا وسلك انتظامنا الدكتور كرنيليبوس فان ديك الشهير
من اضاء نور علمه امام الناس ورأوا اعماله الصالحة ومجدوا الآب السماري الذي اظهر
حكيمته فينا واحسانه للانسانية باقتومه الجليل . ان الانسانية شاكرة فلك لانك مجلي
بادتها العظيم ان الاحسان يفتقر بك لانك ملجأه المتين وركنه الجسيم فاي عمل
يوؤول خير الانسانية لم تعضده . واي فضل لم يكن لك فيه الشأن الارفع . واي
حكمة عرفت في شخصك الكلال . واي عمل لم يرفع له نشاطك وثقوب ذهنك

وحدة بصيرتك الاعلام الخافقة . واي عين لا ترى الان نشاط الشباب في شخصك
 الجليل كان القوة رحمة بهذه الامة جليبتك بنشاطها وارسلتك بشبابها تسمى بك العلم
 وتعزز البر وتثمر الفضل . اليست مؤلفاتك مثالا لصدق المقال الم تضرب الامثال
 بشهرتها وكثرتها وغزارة مادتها وتباين مباحثها . الا نراك تارة تجوب الفلوات وتقطع
 الفيافي وتحرق الجبال وتمخر البحار وتستبطن الارض وتتكد السماء فترى السدام
 والشمس والسيارات والاقمار وتمجد اباك السماوي مظهر الحكمة في هذا النظام البديع
 وطورا تلج بنا الى دقائق المادة فتكشف لنا عن جواهرها المتباينة المرتبطة
 بالالفة العجيبة التي تشرك بينها على تباين الطباع واختلاف الانداز وتفرق المبادئ
 ذلك كله مقرون بسمو مبادئك وشرف غاياتك ان ارتباط الجواهر العمياء على تباين
 طباعها دليل على وجوب الارتباط المتين بين افراد الهيئة الانسانية ولو اختلفت الجنسية
 وضعفت العصبية واوتة تكشف لنا الجسم الانساني وتظهر فيه بدائع الصنعة وغرائب
 البنية ومعجائب الارتباط بين كراته المستقلة بالحياة بنفسها الخاضعة لقانون الجسم
 العام لكي يحيا بهذا الارتباط العظيم المقرون بالخضوع . كل ذلك مقرون بتعاليمك
 السامية بوجود الائتلاف ليحيا جسم الامة بالخضوع الى قانون الالفة العام
 واحيانا تميل بنا الى مؤاساة الفقراء وتعزية المحزونين وغوث المظلومين وازالة
 الام المصابين بالعلل الويلة والنسج الضئيلة عملا بتعاليمك السامية وتيسرا للقول
 الكريم كل من علم وعلم يدعى عظيما في ملكوت السماوات واي شاهد ادل على الفضل
 وايبين للنبيل واظهر للغاية من اقامتك بين ظهرانينا خمسين عاما تبعد الغرائب وتكشف
 العجائب وترسل المعارف بيننا ارسال الرياح الفيث على الاراضي الصادية . فالعلم فينا
 يعترف لك بالابوة والخير والاحسان واللطف والشفقة والرحمة وحب الفقراء وازاحة
 اعباء الحياة بكلامك الجزل كلها تفر لك بالامومة فانت اب وام لكل عاطفة شريفة
 وانت مصدر لكل مثال سام وغاية حميدة . فاذا رمنا ان نجد نموذجا للعلم رجلا
 قضى الاعوام الطوال بين الحماير والدفاتر الا نراك خير مثال لهؤلاء سوريه واذا طلبنا
 مثالا للعمل رجلا قرن كل علم بعمل يليق به وغاية تشرفه الا نرى ذلك المثال
 الوحيد في اقنومك الشريف . فلساني جدير بان يلقبك بفيلسوف العصر وعلامة الدهر
 وفريد النبيل ووحيد الفضل . وهذا البناء وهاته المرضي شاهدة على متابعتك الفضل
 ومثابرتك على الخير لا تبغي اجر الناس ولا اطراءهم بل تمد كل ذلك من واجباتك

نحو الانسانية . فالانسانية عموماً والطائفة الارثوذكسية خصوصاً التي غمرتها بعوارفك
واغرفتها في بحار فضائلك وفواضلك تعترف بفضلك وتعتبر عظيم قدرك وتجل مقامك
وتحفظ اجلالك

وانتم يارجال الانسانية اوجه اليكم هذه الكلمات الاخيرة فاعبروها اذا نأ صاغية
وقلوباً واعية . نظرت في خلال الخمسين الماضية في شيخنا الفيلسوف الجليل رجل العلم
والعمل وشخص الانسانية والفضيلة وكلمت تعلمون ان التعليم بالمثل الحسية من ابين
طرق التفهيم والسيد المسيح كان يودي مقاصده وتعاليمه الى تلاميذه بالامثال لتنجلي
لم وتروخ في ضمائرهم فتشبه في قلوبهم حمية العمل بموجبها . فاي تعليم ادبي لم يقرنه
هذا الفيلسوف بعمل يشرفه . اراد ان يعلمنا عمل الخير فاقام من ماله الخاص اول
قاعة في هذا البناء الخيري فتلاه في هذا العمل المبرور اصحاب الحمية مقتدين
به . اراد ان يعلمنا مؤاسة المرضى وتعزية المصابين فعين من اوثانته قسماً مهياً يشغله
في تسليتهم وازالة ثقل امراضهم بكلام اشهى من السلسيل والطف من النسيم .
وكسلكم افصح منا في تبيان فضله وغزارة نبلة وشرف غايته ونزاهة قصده . اراد ان
يعلمنا نشر المعارف بين الكبار فاشغل القسم الاوفر من العمر في تاليف الكتب
الضخام ولا حاجة لي في تعدادها لانها اشهر من ان تذكر . ثم انبرى لبث محبة العلم
في الصغار فالف لم النقش في الحجر فنقش في افئدتهم اسمى المبادئ العلمية التي
لا تتوى على محوها كروور السنين ومرور الايام

فاتخذوا سادتي اقامة هذا الشيخ الجليل والفيلسوف النبيل خير مثال واقبوا له
الانصاب في قلوبكم لكي تهيج فينا العواطف السامية عند خمودها وتحرك عوامل العمل
عند سكونها ووطنوا النفس على الجد وثابروا على العمل واعلموا ان السعادة الانسانية
بنت الحق والفضيلة بنت العمل فاطلبوا الحق في مباحثكم واعملوا بموجبه تناولوا السعادة
والفضيلة اسمى غايات الانسانية واشرفها
قدم يا فر يد العصر دعامة الحلم . وركن العلم ونصير الفضيلة . وظهير الانسانية

رسائل

« للشيخ ابراهيم اليازجي كتب الى بعض اصداقائه »

مازلت ادافع النفس فيما تنقاضي من شكوى اشواقها وفي شكوى شفاء
واستنزال اثر من لدنك تنعل به مسافة البين الى ان يمن الله باللقاء ومن دون اجابتها
مشاده قد شغلت الذرع وشواغل قد فرغ من دونها الوسع الى ان غلب جيش الوجد
على معادل الصبر وزاحم مناكب العدواء حتى ضرب اطنايه بين الحجاب والصدر
فالتحذت هذه الرقعة ازجيتها اليك وفيها من وقر الشوق ما ينوء برسولها ومن رقة
الصبابة ما يكاد يطير بها او يخلفها فيصانح الاعتبار قبل وصولها راجياً لها ان تلتقي
بما عهد في سيدي من الطلاقة والبشر وان لا يرض عليها بما عودني من تمهيد
العدر ويصليني من بعدها بانباؤه الطيبة عائدة عنه بما يكون للناظر قرة وللخاطر
مسرة ان شاء الله

« وله ايضاً »

واقاني كتابك العزيز والنفس نازعة الى ما يزيل نفاها والقريحة نائمة الى ما
يشحد غرارها فكان روضة باسمه الكائم فائحة النسائم قد ردت على النفس انبساطها
واحيت البادرة فاستانفت نشاطها فانا منه ما بين وشي بنجمل طراز العبقرية وزخرف
دونه نضرة السابرية تناجيني منه رشاقة الفاظ تفضح قدود الحسان وغضاضة اتقاس
يفار منها ورد الجنان ورقة خطاب يشف عن ود صفي ولطف خفي وكرم وسفي
وعتب اعذب من الماء القراح وارق من نسائم الصبا في الصباح حتى لقد حجب الي
تقصيري وشفع عند نفسي في قبول معاذيري على ان ما عندي من الولا لا يعتربه
معاذ الله وهن ولا يخلفه تمادي زمن او توامي وطن ولكن صروف الاحداث
قد قصرت الجهد وصرفت جواد العزيمة عن القصد والله يعلم اني لو نزلت على حكم
نوازل الدهر ولم ادافع طلائها بما بقي من ساقية الصبر لما كان في همتي الا كسر
اليراع وهجر المحابر والرقاع وحسي من العذر ما اعرفه من حلك المألوف وما الفتته من

كرمك المعروف والله أسأل ان يقيقك لي من الدهر نصيباً ويمتعي بلفائك قريباً
بمنه وكرمه

« وله أيضاً »

بم يعتذر اليك من لا يرى لنفسه عذراً وكيف يستتر من عتبك من لا
يستطيع لذنبه سترًا بل كفاً من العتب تعنيف نفسي على ما القيت عليها من تبة
تقصيري وما حلت به مني التفريط بينها وبين معاذريه والله يعلم ما كان تقصيري
شيئاً اردته ولا كان تقريبي امرأً قصدته ولكنها الايام ان صاحبها لم تصحب وان
عاتبها لم تعتب فلقد عبرت بي هذه البرهة كلها وانا بين شواغل لا يشغلها عني شغل
وبلايل قد اختلط حابلها بالنابل فنازعتهما هذه النهضة اليسيرة اجدد فيها صلة التذكرة
الى ان يمن الله بصلة الحبل واجتماع الشمل واستنزل احرفاً من خطك بكتحل بها
الناظر ويانس اليها الخاطر متوقفاً بعد ذلك ان ابقى بين يدي مودتك مذكوراً
وان لا يكون عجزني لديك شيئاً منظوراً وان تجري بي على عادة حلك الى ان يجمع
الله الشيعتين ويغني العين عن الاثر بالعين ان شاء الله تعالى

« وله يعزي احد اصدقائه بذيب له توفي ايام الوباء »

اشباح تروح وتجي وآجال تسمي وتنتدى واقاس تنقطع من دونها حزناً واسقاً
وعبرات تنتظر وجداً ولهاً وما عمدت الاقدار الى استنزاف مدمع ولا ارادت
الايام ايلام موجع انما هي سنة الخلق كون بليه زوال وعقد يسبقه انحلال وان
لكل شيء اجلاً موقوتاً وان لكل اجل سبباً مقدوراً وان الانسان لفي كل ذلك
شاهد يسمع لاهياً ويبصر صاهياً وليس في يده ان يسترد ماضياً ولا ان يورد اتباً
ولتند وددت ان اعزيك لولا ما يغالبني على العزاء من كبد حري ومقلة شكرى وزفرة
تترى ثم وددت ان استبكيك لولا اني بكيت حتى لم ادع في البكاء من واد واحييت
ليالي بالنوح حتى ما بالنجم سهاد ثم لم يزدني البكاء على سقم جسدي ولم يزدني
النوح على صفر يدي الا من كبدي فان الاقدار سهام اذا انطلقت لم ترد وان المتطلع
الى القاتل لطويل شقة الكمد وان الخطوب لحي هي وانما تتفاوت عند الجلد
وان الحصى عند الجزوع ثقيلة وضخم الصفا عند الصبور خفيف

واني لارجو في عقلك وحلمك انك قد صرت من جانب العزاء ثم احمد الله على نجاتك
ان لنا في بقائك العوض والتأساء فلقد قلبت القلوب على جمرات لا تدري ايها اذكي
ضراماً ثم اوردتها من سلامتك ما رأت الشكوى بعده ظلاماً والتظلم حراماً والحمد لله لا
معقب لحكمه وهو المسؤول في اظالة بقائك قرة للعيون وجبراً لمخاطر المحزون بمنه وكرمه
وكتب الى صديق له جواباً عن كتاب يعنى اليه فيه

احد انسابه ويعزيه بنسيب له

ورد كتابك يتجاذبه طرفان من نعي وتعزية ويضرب عليه لوفان من شجوة وتسلية
فمن لي بعبرتين تجري احدهما وترقاً الاخرى ومن لي بقلبين يذوب احدهما حزناً ويمجد
الاخر صبراً بل كيف يصبر جريح ضربه الدهر بسيفين وجرعه البلوى بكأسين
فخرج عبوة عبوة وتابع حسرة اثر حسرة وبات لا يجيد الى الصبر دليلاً ولا يهتدي
الى العزاء سبيلاً ولكن الامر فوق ما تجري الجنون وما تثير الشجون وامر الله واقع
لا يدفعه دافع والدمع لا يسبخ غصة والوجد لا يزيل كربه

واذا حصلت من السلاح على البكا خشاك رعت به وخذك نقرع
فما لنا الا السعي وراء ما ند من الصبر نكره عليه النفس وان كان احد المرئين والاتجاه
الى الرضى بالمكتوب نداوي به القلب وان كان احد الداءين وحسبنا الله وكيلاً

وكتب الى صديق معزياً

من علم ان القضاء واقع وان الاعمار رهائن المصارح فلم يصحب دهره على غرة
ولم يعتر من الاقدار بفترة لم تكبر عليه الرزية اذا اغتالت ولم يطمئن الى السلامة
وان طالت فان للدهر رقدة وهبة وان لليالي كمنة وثوبة ومثلك من ادرك مبادئ
الامور ومصايرها وعرف موارد الحياة ومصادرها وانما الموت طور من اطوار الوجود
واخر اعمال الحياة في الوجود ولا ازينك عملاً بالكون وشرائعه والكائن وطبائمه انما
هي ذكرى لمن فجمته الرزة فشغله وحل بساحته القضاء فاذله وحسي من التعزية علي
بما عندك من موارد العلم المباح ومن التاسية ما تعلمه من حال من يخاطبك وهو سائل
الجراح وما اخلقني بان اقول ان رزك هذا قد زادني شجناً على اشجاني ونكأ ما
يتائل من قرحة احزاني ولكنني قد صيرني الدهر الى حال لا تعمل فيها حال ولا ابالي
مها بسلام ولا قتال فكأنما اباي عني ابو الطيب حيث قال

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
 فصرت اذا اصابتني سهام تكسرت النصال على النصال
 على ان المرء اذا لم يكن له من نفسه معزة لم يزد كلام المعزين على ان اذكار مصابه
 وتجديد لوعته واكثره . وهنا امتحان الرجال وموطن الصبر والاحتمال والمرء باعز ما
 لديه يمتحن والصبر على مقدار العزم والفظن وان الاحزان معقودة اطرافها بالعزاء
 موصولة واورها بالنساء فاجعل الاخرة الاولى ولا تبلغ الدهر من نفسك مامولاً
 والله اسأل ان يقيض لنا بسلامتك عوضاً كريماً ويصون بيتكم وآله من كل كارثة
 سليماً ويفرغ على قلوبكم صبراً جميلاً وعلى من فقدتم عفواً عمياً برحمته ولطفه

لاذيب بك اسحق

« كتب الى الامير عبد القادر الجزائري »

كتابنا ايد الله الامير الاعز ونحن عصبه تذكر لبس منا من لم يرحم صغيرنا
 ويامر بالمعروف وينه عن المنكر
 راينا ما الم بهذه الاقطار من الاضرار ناشئة عن تجاليف القلوب وتنافر الافكار
 حتى صار الود مداجاة والحب عدواناً فقلنا يا قوم لا تنافسوا ولا تجاسدوا ولا تباغضوا
 ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخواناً وراينا بوادر البلاء وطلأع الشقاء نخفنا المصاب
 الاعظم ينقلب به الخير الى الضير والمغتم الى المغموم ويزول بهاء الامة ثم تفضب
 الارض التي سقاها السلف الكرام بالدم فنهضنا نروم حفظ الباقيات الصالحات بوسائل
 السلم والسلم اسلم وذكرنا خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأتهم
 وراينا فقيرنا يتعثر باذيال ناقته وعظيمنا لا يامن على راحته او على ما في راحته
 ومثل ذلك سائر اخوان الوطن الذي ولدنا فيه او نزلنا بساحته فزعت اقسنا الى
 اعانتهم ومن كان في حاجة اخيه كان الله في حاجته
 وراينا انوار فضل الامير على ظور تجلي الحكمة توقظ الراقد وتنبه الغافل من
 هائه الامة فتكشف عنها كل ملة فعلمنا ان لا بد من التماس مساعدته في هذه المهمة
 فرفعنا اليه الصحيفة التي هي لسان حالنا لثنوب لديه عن لسان مقالنا امل الحصول على
 القبول شأن الامير في معاملة من امه ورجاء ورود الجواب بما يراه في امر هذه الخدمة

وله في تشریفنا بذلك رايه العالي مسدداً وامره الکریم مؤيداً ان شاء الله

وكتب الى سلطان باشا

سيدي وعمادي وسندي وعمادي

كتابي اطال الله بقاء سيدي الاوحد وانا اذرف دمع الامتنان والشكر على ما اظهر لرسولي من الانعطاف اليّ والشفقة عليّ والرغبة في كشف ظلامتي والميل الى اعادة كرامتي حتى لو بذلت بقية الشباب في سبيل خدمته ووقفت سائر العمر على شكر نعمته واوتيت مع ذلك عزيمة الاقوياء ومنحت بلاغة الفصحاء لما سميت في الواجب من التقصير ولا ادرکت منه غير النزر اليسير علي اني القيت يباب مولاي القلب رهن اخلاص وولاء وقليل تحت سائنا قلوب الاصفياء

ولقد بشرني الرسول بكتاب من السيد السند يجبر الخاطر ويقر الناظر ويشرح الصدر فيصنع عن هفوات الدهر فاعتقلت باسباب الاماني والامال ورجوت لسوء الحال حسن المال ثم رددت النفس عن هاوية الياس فالحمد لله ما خلت الارض من الفضل والحمد لله ما عفت في مصر آثار العدل ويمين الله ان غاية الامل رضي السيد عن عبده ونهاية الرجاء حسن ظنه يحافظ عهده فان رضي فليغضب الانام وان احسن الظن فما على الدنيا ملام

وعلمت من كتاب رسولي اسباب الابعاد وما تجمل الامر من دسيسة وفساد فما عجبت لتصديق التهمة كما في لم اندم على صدق الخدمة او ليس ان السيد اعزه الله يذكر ذلك مني ولا ينسأه وكفى بهذا جزاء وشكورا وكفى به قبلاً موفورا ولا از يدوان كان الحال فسيماً والحق ظاهراً صريحاً فالنتائج معقودة بمقدماتها والامور مرهونة باوقاتها ولسوف ينكشف الغطاء ويبرح الخفاء ويعلم الشك من يقين وينبأ امر الحق ولو بعد حين والله ولي الصادق الامين

هذا وقد بعثت الى مصر من يبيع اثاث المنزل بما يتيسر واتاني ان السيد حفظ الله معاليه قد رسم بتاخير ذلك الى اجل غير معلوم ولكن الحاجة ملازمة والضرورة مبرمة وللخادم على ذلك البيع باعثن الاول سد الحاجة بما يحصل منه وان قل والثاني رفع اجرة المنزل عن كاهله المثقل ومع ذلك فالامر للسيد في كل حال وما على الخادم سوى الامتثال

ثم اني اشتغل في هذه العطلة بتأريخ المسألة المصرية على ما رآته العين
ووعاه الذهن وسمعته الاذن وحققه الخبر وايداه الاثر مبيناً احوالها مفصلاً اجمالها كاشفاً
اسرارها واصفاً اثارها ذاكرةً كل امرء بما استحق منصرفاً في كل ذلك عما يخالف
الحق ليعلم منه فضل ذوي الشهامة واهل الكرامة كما يعلم نقص ارباب السفالة واهل
النذالة ممن غرهم الجهل فطفخوا ودعاهم الجبن فاطاعوا ثم اضاعوا البلاد واي نفيس
اضاعوا وساقدم لمولاي ما ابيض من هذا الكتاب ليرى فيه رأيه الموفق للصواب ان
شاه الله حفظ الله السيد السند ورعاه وادام مجده وعلاه وابقى للخادم عنايته ورضاه

وكتب الى صديقه عبد السلام بك المويلحي

وقد اقطعت عنه رسائله

لولا دلالة القلب على صفاء الوفاء وهداية النفس الى بقاء الاخاء لغالبت الشوق
في استطلاع اخبارك منك ووقفت القلم عن شكوى هجرتك اليك مخافة املاكك بما
انت غني عنه وكرهه اعنائك بما انت زاهد فيه ولكنني عهدت بين جنبيك قلباً لا
يحول تغير الاحوال ولا يبده كرور الايام والاحوال فانا مخاطبه بما يمليه الشوق
عليّ رضيت ام غضبت وسكت ام اجبت

اي قلب من نحب ونكرم ونجمل ونعظم لقد اتصلنا منك باسباب مودة واعتلقتنا
فيك باهداب صداقة فهل انت ذاكر معاهدنا بذات الوفاء ليالي هجرتنا الرقاد اليك
وقصرنا الوداد عليك ورضيناك من الدنيا نصيباً واخترتناك من العالمين حبيباً كيف لا
وقد لازمك الصفاء وصافاك الوفاء فصفوت على كدورة الايام ووفيت على خيانة
الانام فان عدلت وما عدلت فعلى الدنيا السلام

وكتب الى علي باشا مبارك يتقاضاه وعد الحكومة له بانشاء

جر يدين باسم العصر الجديد والمحروسة

اتجراً على فضل الوزير غير جاهل ان وقته اثن من ان يضاع في مثل موضوعي
الحقير ولكن جرت عادة امثالي بقصد اولي الفضل وما اولو الفضل في الدنيا بكثير
فساه ان يكون لضعفي نصيراً فاقول نعم المولى ونعم النصير

ولقد صار العصر الجديد قديماً بما مر عليه من مؤثرات الانتظار واصبحت
المحروسة على قدم الياس تسخير بالاولياء والانصار وتتلو وهي في عالم القوة بين

الخوف والاختار اذا ما الفكر حار واذا ما الزمان جار اتنسى مصر مزية البر
بالجار ام لا يسمع بين براياها صدى نداء المستجير

بل اعيد مصران تحني بها الايام على البررة الصادقين وان لا يلي موعودها تاليا
اتنا بما تعدنا انك من الصادقين اقول هذا وما كنت معرضا بسوء وما كنت من
المعارضين ولكني اسأل النجدة احسانا ولا سبيل على المحسنين والله له ملك
السموات والارض وهو على كل شيء قدير

فلا ينس مولاي امر الجريدة موعودا فقد اجتاز الخادم في هذه العطلة عقبة
كؤودا وعالج الصبر جهده ثم عاد عنه مجهودا افيلوز بالياس وقد ام قوما جوودا
ام ترد اليه اشارة الفوز ورودا عتميدا قفسر وليا حقيقا وتسو عدوا للدودا. اجل ترد
فيشكر الخادم صدرا كما شكر ورودا ثم يحمد الله الى المولى الوزير

وكتب توطئة رسالة في مدح احد الصادقين من عمال الدولة

اذا انا لم امدح على الخير اهله ولم اذم الوغد اللثيم المذمما
فقيم عرفت الخير والشر باسمه وشق لي الله المسامع وانما
اجل فما تحرك بنان ولا جرى قلم ولا نطق لسان باحسن من الثناء الحق على
نصراء الحق فهو سبيل الوفاء ومنهج الاقتداء تجزي به الانفس الطاهرة بما كسبت
من الخير فيحسن اجتهادها ويدوم في الفضل اريادها ثم تكون قدوة في الحسنات
يسلك الناس بما تنهج سراطا مستقيما فيحصل النفع كاملا عميا
ولقد تأثرت المحسنين كشفقا واستعلاما وما آليت المجتهدين عناية بشأنهم
واهتماما فلم ارفين رايت احق بالشكر واول بالثناء واخلق بالحمد واجدر بالاطراء
من مصلح في زمان فساد ومسدد في مقام اختلال ومقوم في حالة اعوجا ومن تدوم
عفته اليوسفية بين اسباب المفساد وثبت نزاهة نفسه الاية بين انواع المكائد
تراوده الدنيا عن نفسه فيدرا شيطانها ويقطع بسيف العفاف اشطانها ومن تعرض
له الدنيا فيعرض عن بهارجها وينكب عن مناهجها فانه لا فضل في العفة لمن يعف
اضطرابا وانما الفاضل من استطاع الرغبة ثم عافها اختيارا
فكيف لا ينطق اللسان وكيف لا ينطلق البنان بمدح من استكمل تلك الصفات
واستجمع هاتيك الحسنات فاستحوذ على البابنا حبا وامتلكنا قلبا وقلبا الا وهو الخير

بشؤون السياسة البصير بامور الرئاسة النبیه الذي عرف صاحب الامر قدره فاعزه واعلاه وتبين فضله فقر به وادناه فلان ايدى الله فقد ولي هذا الامر فاصح وقام بالحكم فعدل وسار في مسلك الحكمة فهدى حتى صار البلد به كمدينة الحكيم، تنال السكان على العلم والعدل والاخاء ثم صان فيه النعمة ودرأ عنه النقمة واجتلب اليه النافعات واجتنب فيه الشبهات وكان حكماً عدلاً لا يلين حتى يطمع المسيء ولا يخشن حتى يجزع البري فتالت القلوب على ولائه واجتمعت الالسنه على ثنائه والسنة الخلق اقلام الحق

وكتب الى احد امراء مصر

جعلت وسيلتي الى اعتاب ولي النعمة وباب السيد السند كتاباً رفعت اثر الحادثة الى حضرة المولى فلان ثم جاءني ان المولى المشار اليه منحرف المزاج فجرؤت بنفسي على باب السيد الامير احمد الله اليه مؤدياً واجب الثناء عليه ثم استمخه نعمة الجواب عما اذا كنت اصلح لشيء من خدمة ولي النعمة في اوقات هذه النعمة فقد رايت السنة الكاذبين طائلة بما يقصر هم الصادقين ولم اجد من مضاء في سيوف من رايت من المدافعين فهزني واجب الخدمة لمز صمصامة الذود عن الحق فطرقت باب المولى مستاذناً فيما دعاني الواجب اليه فان راى له محلاً وراى له اهلاً فله في الامر بذلك رأيه العالي والافحسي منه انعطافة رضى والتفاته اهتمام وكلمة تنبيء بوصول عريضي اليه وان تفضل سيدي اعزه الله بذكر الخادم في الحضرة العلية داعياً بتأييد الاريكة السنية كان ذلك تمام الفضل وله الامر وعلي الشكر في كل حال

وكتب الى صديقه يوسف افندي جباره بالاسكندرية

جاءني كتابك مذكراً منها لحفظ ودك فما اذكر ناسياً ولا نبه غافلاً ولا زادني شوقاً لامتناع المزيد ولكنه اتاني من انقاسك بما نفس الكربة ومن اثارك ما تمتثل به العين فله انت من صديق في القرب والبعد والصفو والكدر والسراء والضراء وبعد فاني مرسل اليك رسمي تذكرة وداد وتقدمة فواد يتمنى لو كان حقيقة في ذلك الرسم على انه لديك من قبله ومن بعده

ثم اسالك يا خليل الوفاء ووفي الاخلاء تقديم شعائر سلامي وواجبات اكرامي لا لك جميعاً صفوة الكرام وان نتقبل مني مثل ذلك جعلني الله فداك ولا زلت

وكتب لصديقه اديب افندي نظمي بدمشق

اشكو اليك سعة فضلك عن ان يحيط به بياني وعظم منتك عن ان يلم بشكرها
قلبي او لساني فاجعل رقتك شفيعي لديك وعفوك وكيلي في الثناء عليك
وبعد فقد وصلنا بيروت لاهجين بذكر محامدك هازجين بحديث محاسنك فلم
تلتنا مشقة ولم نشعر بطول الشقة ثم لقينا الاهل والاخوان فكانت حفلتنا مجلس
انس ندير فيه من احاديث فضلك مداماً وتتخذ من معالي كالك ندامى ثم لا نلهو
بشكرها عن شكرها ولا نذهل بدمتها عن حمدها

فاجعل ايدك الله ضعف الشكر في جنب قوة العذر وتفضل بعرض هاته
السطور في مجلس سادتي فلان وفلان وفلان تحسب صادرة اليهم بما تقصد به جنابك
الكريم من الشكر والثناء فقد اتجدمت حباً وتالفتم قالباً وقلباً حتى امتنع الاختصاص
فيما به يتحاطبون لا زلمت عصابة فضل تعقد على مدحكم الخناصر وتجتتم على حبكم السرائر

وارسل اليه جواباً على كتاب

ياسيدي بل يا اخي فالاخاء واجب عرفناه والسيادة حكم ما اعترفناه والادب
رحم نقطعها الكلفة والكلفة لبسة تمنعها الالفة والالفة بيننا معقودة اسبابها بالصفاء
عالقة اهداها بالوفاء

فيا الف اخي خطاباً لا امل لفظه ولا اهل حفظه لقد سمعتي بكتابتك ما لا
اطيق واستعبدتني ببحر كلامك الرقيق فمن لي بالركة التي حويت والمزبة التي ملكت
والفضل الذي اصبت والكمال الذي ادركت لا خاطبك بلسانك واكتبك بمثل ييانك
ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ولكل درجات مما عملوا

فما تجود يد الا بما وجدت ولا تكلف نفس غير ما وسعت
ولست اعتذر اليك فيما كان ظهوره منك ولكن الوز بجلدك من حكم عمك
واعوذ بفضلك من سهم عدلك

اما الصديق فلان فقد جعلت صحيفته البيضاء ميثاقاً عليه انه يتخذ محبته صديقاً
ورضي به خليلاً لا يله ولا يروم عنه عدولاً ثم سجلته في محكمة الوفاء تسجيلاً واشهدت

عليه من اهل المهد شهوداً عدولاً^(١)
 واما الصديق فلان فقد عدت سكوته خطاباً يكون لكتابي السابق جواباً لا
 يواخذني فيه على ان وحدة ثلوثكم وما افردت لاقنومه كتاباً بل يعد ما صدر عن
 واحد منبثقاً عن الكل بالاتفاق وان لم يكن من القائلين بكلية الايثاق^(٢)
 فتنفصلوا جميعاً بقبول سلام يمزج به القلب وتجدد به النفس شوقاً اليكم يا احب
 الناس الينا ويا اكرم الخلق على الله

وكتب من باريس الى يوسف افندي فارس بالاسكندرية
 الى الله اشكو لظي في الفؤاد يسمى اصطلاحاً عذاب البعاد
 وما للبلاد اشتياق الفؤاد فعهد الوداد لاهل البلاد
 اجل ولكن كيف انسى مراتع انسي ومراتع نفسي في مجالس صفو وهناء بين
 معاشر فضل ووفاء ام كيف لا اذكر اياماً مرت بنا كالاحلام فان لم تعد فلا
 كانت الايام وعلى الدنيا السلام
 فيا رسالة الود ان وقتت بباب الصديق مسلمة عليه مبينة بعض شوقي اليه فانشدني
 عني بين يديه

قالوا التباعد يوجب الهجرا كذبوا ومن ذاق النوى ادرى
 فالحب ذكر والمحبة اذا عز اللقا لم يعدم الذكر

وكتب الى عزتلو خليل افندي الحوري بدمشق

ان الذي سوّده الفضل وميزه الادب قبل ان تعلمه الرتبة ويرفعه اللقب لغني
 عن التلقب في الخطاب وصدور الكتاب فان الرفعة قائمة بذاته والعزة صفة من
 صفاته والسيادة لفظ وفضله ومعناه والسعادة مال سعيه ان شاء الله
 وبعد فقد وصل من حضرة سيدي كتابه الذي اثبت له الزينة واوجب عليّ

(١) المكثي عنه بفلان في هذه الفقرة نعتان افندي الشرايبي وسر الصحيفة البيضاء
 المشار اليه في الكلام عنه انه بعث الى دمشق بكتاب لا يتضمن سوى اسمه في
 مكان التوقيع

(٢) المقصود بهذه الفقرة جبران افندي لويس والتكئة فيها ان الفقيد ارسل له
 ولنعسان افندي واديب افندي كتاباً مشتركاً فاجابه الاخيران وامسك هو عن الجواب

الشكر وكنت في امر الجواب عنه على انتظار رقيم الولاية يرد فانهي بوصوله وانهض
بواجب الثناء ولكنه تاخر حتى اوجست ان يكون تاخير جوابي مظنة اهمال ومحل
مواخذة فكسبت هذا على نية الاعتذار وقصد الازكار ملتصاً من عناية سيدي اتمام
ما بدأ من المساعدة بتعجيل ذلك الرقيم وله في تحقيق الرجاء كرم الخلق موقفاً به
للأثرة تذكر في كل مكان والمحمدة تشكر بكل لسان

للشيخ سعيد افندي الشرتوني

صورة كتاب تهنئة لوالد بعيد راس السنة

اطال الله بقاء سيدي الوالد المحترم

وبعد فلا يخفى على احد ان اعلى سعادة الاولاد في دار الدنيا ان يعمر اباؤهم
تحت رواق العز والسعد والعافية كما يعلم سيدي ان اسنى المطالب . واعلى الرغائب .
عند الاولاد ان تظلمهم السنون والاعبياد . وكبير البيت في ذروة عزه وثوب عافيته
قريب العين بسلامة عياله . مسرور القلب بان بنيه من اصحاب الجد . والمضاء في
الاعمال . كلهم اعضاء صحيحة . تدبرها عقول ذكية . فلذلك فرحت في هذا اليوم
فرحاً لا يعادله فرح . حتى لقد رايت الدنيا كأنما تعاطيني كأس الصفاء . وخت ما
انهل من ماء الغمام يومئذ شراب الهناء . حتى حسبت قصف الرعود تهديداً لآخذاث
الدهر . ان لا تقفج الحاظها على عمود سعدنا وظننت ان وجه السماء ما اكفر الا
انذاراً للحنة . ان لا تداني من هو اساس راحتنا ورغدنا . جعل الله ظني قسماً .
وفألي صحيحاً . وان كنت ممن لا يتفأل ولا يتشأم . وابقى سيدي في كنف امه .
وظل حمايته . ممتكاً بروية اولاده كحلقة نجوم بينها البدر بمنه ان شاء الله

وله تهنئة في وزير انتصر في معركة

دولتو افندم حضر تلي

ما وجد السرور سبيلاً الى قلوب الرعايا اوسغ من الظفر بالخارجين على السلطان
المناصبين الدولة الحرب العوان . وذلك لما في الغلبة من قطع عرق الخوف والاضطراب
وقشع غائم الكروب عن الالباب . بل لما في الانتصار من كسر عادية المعتدين .
وقمع الظالمين . وكبح العادين . على قوم مطمئين . ولو كان الامر بحيث يلوغ عليه

خيال الشك لاقت ما اجرت المملكة من آثار الفرح بل من آثار الافتخار بالانتصار
يوم هزم العدو مولانا الوزير الهام . بل ليث الصدام . ومزقهم في الصحراء . وبددهم
في الفضاء . شهوداً لوقا . وبراہین صوفاً وحيث ذلك من أكبر الواجبات على
الكتاب والشعراء . ان يركضوا قرائنهم في مضمار النهضة لمن كفاهم شر العدو ومكثهم
من ناصية العلاء فهذا اشرف موضوع تخدمه الاقلام . بل ارفع موضوع يعاوبه مقام
الكلام . بل احب موضوع الى جميع الانام . حتى الجبناء الطغام . لا زال النصر
معقوداً براية مولانا . ولا يرح الانكسار ملازماً عدانا . ولا تفتت هيبتة واقعة في
قلوب الاعداء . وسيوف جنوده قاطعة دابر الثائرين واهل الشخناء . في ظل الملك
الاعظم والامام الاكرم . مبيد الظلم ومستاصل شأفة اهل . ومحيي العدل ومكرم آل
بن الله الذي لا نصر الا من عنده

بندہ

وله في لوم صديق على طعنه في مخدمه بعد ترك خدمته

انهي الى جناب الاخ العزيز وفقه الله الى ما به الخير

بعد الاستعلام عن صحته . واهداء السلام مع الشوق الى رؤيته . انه جرى في
بعض منازل الافاضل ذكر خروج الصديق من خدمة التاجر فلان الى خدمة تاجر
اخر يراتب اكثر من راتبه عند التاجر الاول فحصل لي بهذا الخبر سرور عظيم
لكن قد ذكر انك تطعن عليه وتذمه في مجالس الناس ومحاضرم فساءني ذلك من
وجوه . احدها ان الطعن لا يليق بمثلك من ذوي الاخلاق المهذبة والطباع الكريمة
والثاني انه لا يجمل بالرجل ان يقع فيمن رأى الخبر على يده وثقلب في نعمته لثلاث
تكون عليه عهدة الآية (اكل خبزي ورفع علي عقبه) والثالث ان هذا يفض من
قدرك عند مخدمك الجديد لما هو قائم في النفوس من ان المقتاب لا يرعى حرمة
والكنود لا يشكر نعمة . فمن اغتاب زبدهاً وكند نعمته فلا يكون عمرو بامن من
غيبته وكنوده . وبالنتيجة ان ذلك يقبض نفسه عنك حتى لا يرتاح ان يهد لك
سبيل النجاح وهكذا تكون بهذا السهم صرعت اثنين وحملت وزرين فالراي اذا ان
تعديل عن هذه الطريقة انها سيئة المصير قبيحة العاقبة وما هي بالخطة التي يرضاها
اللييب لنفسه وانما هي خطة تفسد عليك تدبيرك فما يفوت عنك ان من لم يسلم
الناس من لسانه لا يسلم من سنتهم . ومن وقع فيهم وقعوا فيه . ومن ظن انه بري

من الذاام فقد كذبه ظنه فلكل انسان عيوب يسعى في سترها كما ان كل فرد من
الناس يعني حسن الاحدوثة لكن من ابتغاهما مع تجر بدلسانه على تمزيق الاعراض
فقد طلب عنقاء مغرب ومثل الصديق تكفيه الاشارة والسلام الداعي

خاتمة

هذا ما رايت اثباته الآن من فئات افلام الادباء . وبنات افكار الكتابة
الفضلاء . وقد عقدت النية على اصداره اجزاء متعددة من ثر وشعر . كما
العت الى ذلك في المقدمة . ذلك اذا راق في اعين اصحاب النهضة العلمية وروساء
المعاهد الاديبة

على اني ارجو المعذرة من بعض كتبتنا الافاضل الذين اتحفوني بنفيس اقوالهم
بعد ان كنت قد مثلت الكتاب للطبع فلم اتمكن من نظم دررهم في سلك هذا
الجزء ولكنني اعدم اني سادرج ما اتحف به في الاجزاء التالية معترفاً بطول
باعهم وشدة غيبتهم على تعزيز المبادئ الوطنية

ولي الامل بدوي الفضل الذين لم يتكروا علي حتى الآن بمقالاتهم السائقة
ان لا يضمنوا علي بها فيما بعد لادرجها في محلاتها راجياً غض الطرف عما فرط من
الخطا وطالباً من الله ان يجعل خدمتي هذه مدرجة لاكتساب الرضى ووفاء للخدمة
الوطنية وذلك خير ختام

فهرست

	صفحة
مقدمة	٣
لجامع الكتاب	٥
لاديب بك اسحق	١٠
للشيخ خليل اليازجي	١٤
لابراهيم بك الاسود	١٨
للشيخ ناصيف اليازجي	٢٠
للمعلم بطرس البستاني	٤٥
للمعلم عبدالله البستاني	٥١
لفرنسيس فتح الله مرآش الحلبي	٥٧
له	٦٠
لاديب بك اسحق	٧٢
لسليم بك نقلا	٧٦
له	٨٢
له ايضا!	من استقلت ارادته استقامت
	ادارته
له ايضا	٨٨
لاديب بك اسحق	٩٢
له	٩٥
لسليم افندي البستاني	٩٨
له	١١٠
لاديب بك اسحق	١٠٢
له	١٠٤
له ايضا	١٠٤
لسليم افندي البستاني	١١١

لا ديب بك اسحق	الحرب	١١٤
	من جرى في عنان امله عثرت	} ١١٦
سليم بك نقلا	رجله باجله	
لسعيد افندي الشرتوني	سعادة الحياة	١١٩
للشيخ ابراهيم اليازجي	ادب المدارس بعد المدارس	١٢٢
لا ديب بك اسحق	عيشة اخلاء	١٣١
له	التشبه	١٣٢
له	اليونان والرومان	١٣٤
لفرنسيس مراءش الحلبي	الحرب	١٤٢
له	السلم	١٤٣
	خطبه في ان الدين مقتضى	} ١٤٣
لسعيد افندي الشرتوني	الحكمة والكفر مقتضى الجهل	
لعيسى افندي اسكندر معلوف	الاقتصاد	١٤٨
	حياة البلاد في الكد والاجتهاد له ايضاً	١٥٥
لفرنسيس مراءش الحلبي	العلم والجهل	١٥٨
	الحياة واركانها الاربعة وهي :	} ١٦٠
له ايضاً	العمل والملل	
	والصحة والامل	
لسعيد افندي الشرتوني	خطبة في ممثلي الام والمالك	١٦٤
لا ديب بك اسحق	بعض البلاء ينتهي الى بعض	١٦٦
له	تأمل	١٦٧
للشيخ ابراهيم اليازجي	القمر	١٦٨
لاحمد افندي فارس صاحب الجوائب	جمل ادبية	
	من الناس من يتعلم العلم لينفع به نفسه وغيره . . .	١٧٥
	من الناس من يتعلم العلم وهو مجبول على صفات حميدة . . .	١٧٧
	من الناس من يكدح لمعاشه كانه لا يموت ابداً	١٧٩

من الناس من يتكل على حسب ابائه فيفتخر به	١٨١
من الناس من يتصدر في المجالس ويحدث كل مجالس	١٨٣
من الناس من يقسم اسنى المراتب واسمى المناصب	١٨٥
من الناس من يتعب في شبابه لراحته في مشيبه	١٨٧
من الناس من يبالغ في مدح وطنه ويحن اليه	١٨٩
من الناس من يولد في النعمة	١٩١
من الناس من يكلف بعلم واحد او فن واحد	١٩٣
افي كثيراً ما فكرت في امر البديع	١٩٥
من عاشر الناس وقام فيهم مقاماً مشهوراً	١٩٧
من تبصر الامور وتدبر المقدور	٢٠٠
من عرف الدنيا ثم ركن اليها كان من احمق الحمقى	٢٠٣
اذا اعتبرنا اتقان الصنائع دليلاً على جودة العقل	٢٠٥
من اعجب العجب ان الانسان لا يدرك حقيقة حاله	٢٠٨

تأيين

١ لاديب بك اسحق في تاين المعلم بطرس البستاني	٢١١
٢ لاسكندر افندي العازار في تاين اديب بك اسحق	٢١٢
٣ لسليم افندي نقاش في تاين اديب بك اسحق	٢١٤
٤ للدكتور سليم افندي جلع في تاين نقولا افندي نقاش	٢١٨
٥ لمعز افندي صعب في تاين الشيخ خليل اليازجي	٢١٩
٦ ليوسف بك آصاف في تاين احمد افندي فارس صاحب الجواب	٢٢١
وله فيه تيممة رثاء	٢٢٥

تهاني

- ١ ٢٢٦ } لسعيد افندي الشرتوني في تهنئة غبطة السيد يوحنا بطرس الحاج بارنقائه
المقام البطريركي على الامة المارونية سنة ١٨٩٠
- ٢ ٢٢٨ } وله في يوبيل سيادة المطران يوسف الدبس رئيس اساقفة بيروت على
الطائفة المارونية في ١٩ اذار سنة ١٨٩٢
- ٣ ٢٣٢ } لسليم افندي كساب في تهنئة الدكتور فاندريك يوبيله سنة ٩٠
- ٤ ٢٣٥ } لتعمه افندي شديد يافث في تهنئة الدكتور فاندريك

رسائل

للشيخ ابراهيم اليازجي

- ٢٣٩ } كتب الى بعض اصدقائه
- ٢٣٩ } وله ايضاً
- ٢٤٠ } وله ايضاً
- ٢٤٠ } وله يعزى احد اصدقائه بنسب له توفي ايام الوباه
- ٢٤١ } وكتب الى صديق له جواباً عن كتاب ينمى اليه فيه احد انسابه ويعزى به
بنسب له
- ٢٤١ } وكتب الى صديق معزياً

لاديب بك اسحق

- ٢٤٢ } كتب الى الامير عبد القادر الجزائري
- ٢٤٣ } وكتب الى سلطان باشا
- ٢٤٤ } وكتب الى صديقه عبد السلام بك الموبلي
- ٢٤٤ } وكتب الى علي باشا مبارك
- ٢٤٥ } وكتب توطئة رسالة في مدح احد الصادقين من عمال الدولة
- ٢٤٦ } وكتب الى احد امراء مصر

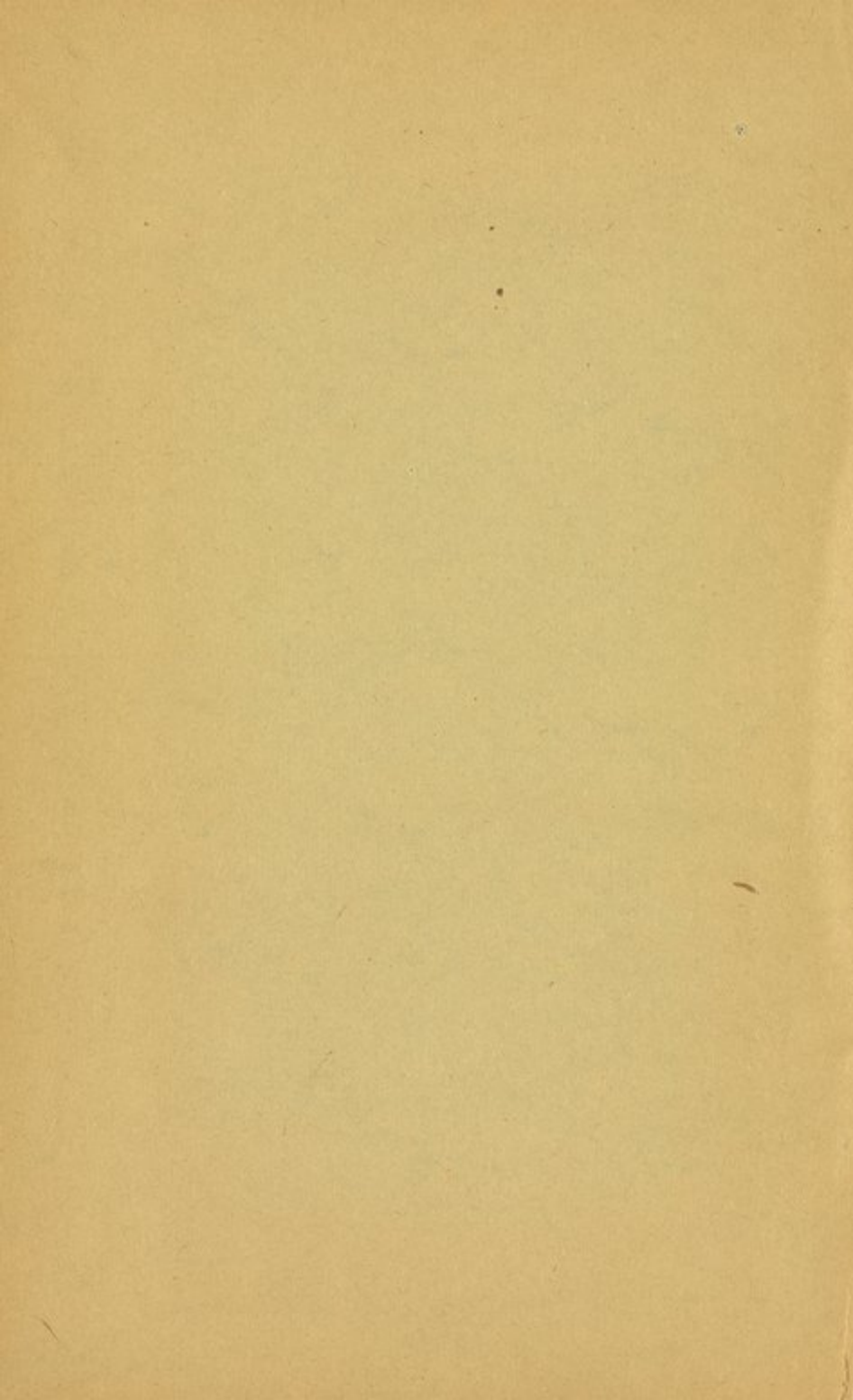
	صفحة
وكتب الى صديقه يوسف افندى جباره بالاسكندرية	٢٤٦
وكتب الى صديقه اديب افندى نظمي بدمشق	٢٤٧
وارسل اليه جواباً على كتاب	٢٤٧
وكتب من باريس الى يوسف افندى فارس بالاسكندرية	٢٤٨
وكتب الى عزتو خليل افندى الخورى بدمشق	٢٤٨

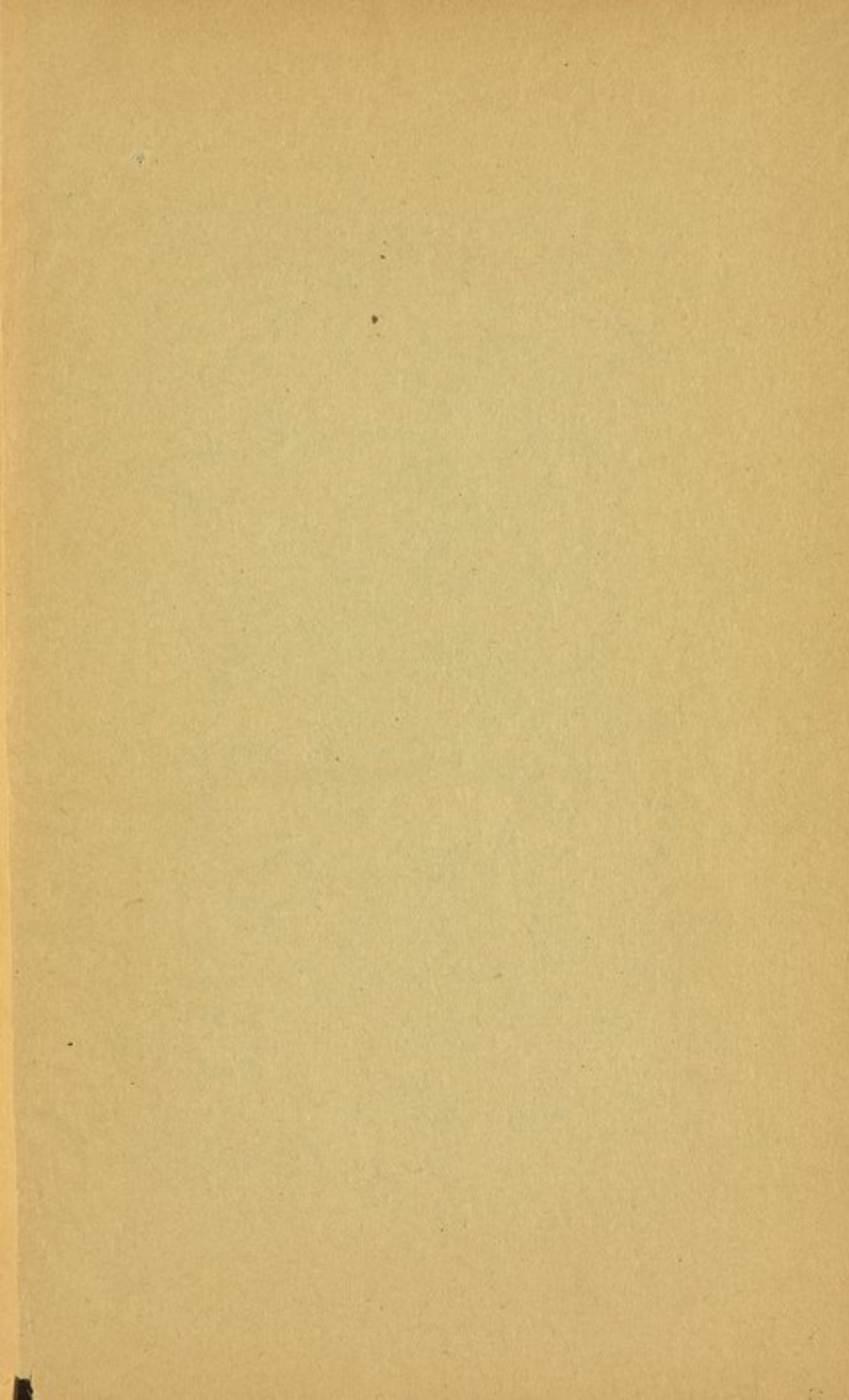


للشيخ سعيد افندي الشرتوني

صورة كتاب تهنئة لوالد بعيد راس السنة	٢٤٩
وله تهنئة في وزير انتصر في معركة	٢٤٩
وله في لوم صديق على ظعنه في مخدومه بعد تركه	٢٥٠
خاتمة لجامع الكتاب	٢٥١







COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036760943

PJ
7677
.S9

MAY 27 1969

